السيرة النبوية

محمد رسول الله

والذين معه

قريش

مولد الرسول

عبد الحميد جودة السحار

السيرة النبوية

محمد رسول الله ﷺ والذين معه

قريش

عبد الحميد جوده السحار

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ لإيلاف قريش * إيلافهم رحلة الشتاء والصيف * فليعبدوا رب هذا البيت * الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف ﴾

(قرآن كريم)

١

وقف تبان أسعد ملك اليمن فى قصره ينظر إلى السماء ، فإذا بالبرق يبرق بين السحاب كضوء لمع فى الظلمات على صفحة الماء ما لبث أن خبا ، وزمجر الرعد وسرعان ما هطلت الأمطار وتدفق السيل على سفوح الجبال ، فبدا كالأنهار تنحدر إلى سد مأرب .

راح تبان يقلب وجهه فى الجبال التى ازدانت بالأشجار . وفى الوديان التى أينعت وأثمرت ثمارا كاليواقيت والمرجان ، وفى المروج الخضر التى وشيت بالنوار الأصفر والورود الحمر والزنابق البيض ، فبدا الكون كلوحة رائعة ابتدعها الفنان الأعظم ، وما لبثت الألوان أن تعاقبت على رقعة السماء فى تناسق عجيب يلذ الأعين ويملأ الأفئدة روحانية وانشراحا . فاستشعر تبان أنه يندمج فى الوجود ، وأن روحه تسجد لخالق تلك الروعة وذلك الجمال .

وظل تبان أسعد ينظر وهو مشدوه تسبح كل جوارحه لرب السماء ، وتمتص نفسه رحيق النعيم ، ويتألق وجدانه بالنور ، فقد زين الله قلبه للإيمان وفضله على كثير من العالمين .

ودار تبان أسعد على عقبيه وراح يغدو ويروح فى قاعة العرش وقد أطرق يفكر ، فألفى أن الله قد أنعم عليه بملك سعيد : إنه ملك حمير وريدان وسبأ وسليح ، وقد هزم الحبشة ودانت له فصار ملك الملوك . ولم يشعر تبان بالكبر ولم تنتفخ أوداجه عظمة بل تقاصرت نفسه ورق قلبه واغرورقت عيناه بالدموع .

وانقطع المطر وراح أصحاب الحاجات يتوافدون على القصر العظيم . وقد

جلس تبان أسعد أبو كرب بن ملكى كرب تبع اليمن يقضى بين الناس بالحق ، حتى إذا ما انتهى من النظر فى المظالم فتحت أبواب العرش لاستقبال رسل الملك ، فقد هابته الملوك وعظمته وأوفدت إليه الرسل بالرسائل والهدايا .

ودخل عليه رسول ملك الهند وحياه فى إجلال ثم راح يقدم إليه الهدايا والتحف من الحرير والمسك والعود ، وأخذ تبان يقلب الهدايا فى ذهول ، كانت آية فى الروعة ، إنه رأى ما لم ير مثله فقال :

ـــ ويحك أكل ما أرى فى بلادكم ؟

فقال رسول ملك الهند :

ـــ أبيت اللعن ! أقل ما ترى فى بلادنا وأكثره فى بلاد الصين .

وراح الرجل يصف بلاد الصين وسعتها وخصبها وكثرة طرفها فقال تبان :

ـــ ورب السماء لأغزونها .

وجمع حمير وسار بها قاصدا غزو تلك البلاد التى تفيض بالخيرات ، فمر بمكة ثم انطلق إلى يثرب فرحب به العرب واليهود من بنى قريظة وبنى النضير . وراح تبع يقلب عينيه فى يثرب فرأى الآطام تدل على عز أهلها ومنعتهم . إنهم يتحصنون فيها من عدوهم ، فخشى أن يتفق العرب واليهود على أن يغدروا به ويقطعوا عليه طريق عودته ويتحصنوا فى تلك الحصون المنيعة ، فترك بيثرب حامية على رأسها ابن له ومضى إلى الشام فى طريقه إلى الصين .

وسار تبان أسعد تبع اليمن بحمير مساجلا حتى أتى الركائب وأصحاب القلانس السود : ووجه رجلا من أصحابه يقال له ثابت نحو الصين فى جمع عظيم ، فأصيب ثابت فلم ير تبّع مفرا من أن ينطلق إليها بنفسه فصار حتى دخل الصين ، فقتل مقاتليها واكتسح ما وجد فيها وخلف بالتبت اثنى عشر ألف فارس من حمير ، فهم أهل التبت قد جرت فى عروقهم دماء عربية .

وقفل تبع راجعا إلى العراق فبلغها بعد سبع سنين مذ خرج أول مرة من

بلاده ، وما كان يستقر بها حتى جاءه النذير بخبر مقتل ابنه بيثرب غيلة ، فأقبل راجعا يريد تخريب يثرب انتقاما لابنه الحبيب .

ونزل تبع بحمير بسفح جبل أحد ، ثم احتفر بئرا تأهبا لقتال من غدروا بابنه . ولم يشأ أن يسفر عن نيته حتى لا يحتمى القوم فى آطامهم المنيعة ، فأرسل إلى أشرافهم فلما جاءهم الرسول تحركت طبيعة اليهود، قال قائل منهم :

ــ إنما أراد أن يملكنا على قومنا .

وقال بعضهم :

ــ والله ما دعاكم لخير .

وأقبل أشراف يثرب فدخلوا على تبع وراحوا يتحدثون معه وأصغى الرجل الذى أوجس خيفة من تبع إلى حديثه ففطن إلى الشر ، فاستأذن من تبع قائلا :

ــ إن أصحابى يصِلُونك إلى الظهر وعندى حاجة أقضيها .

فأذن له فانطلق ليتحصن فى حصنه ويأمر أهل يثرب أن يدخلوا آطامهم ، فقد جاءهم تبان بن أسعد تبع اليمن يبغى بهم شرا .

وتحصن الرجال والنساء فى الحصون ، ورأى تبع أن حيلته افتضحت فأعلنها حربا سافرة على يثرب وأهلها من عرب ويهود ، وحاصر الحصون ثلاثة أيام دون جدوى . ودخل رجل من رجال تبع حديقة من حدائق يثرب وراح يقطع سباطة نخل ، فجاء صاحب النخل وقتله وجره إلى بئر وألقاه فيها ، فزاد ذلك تبعا حنقا فراح يرمى الحصون بالنبل دون جدوى ، فارتد إليه غيظه فصاح فى رجاله :

ــ أحرقوا النخيل .

وبدأ رجال حمير فى تنفيذ أوامر مولاهم ، وفطن أحبار اليهود إلى ما يريد تبان

ابن أسعد بعدما أعماه غضبه فأمروا بفتح الحصن وخرجوا قاصدين الملك .

وظن تبع أنهم قدموا ليفاوضوه فى شروط التسليم فراح يفكر فيما يقبله ليضع عنهم أوزار هذه الحرب ، إنه لن يقبل إلا قتل مقاتليهم واستباحة نسائهم وأسر ذراريهم . وأقبل الأحبار مطمئنين وتقدم رجل منهم وقال :

— أيها الملك مثلك لا يقتل على الغضب ، وأمرك أعظم من أن يطير بك برق أو يسرع بك لجاج ، فإنك لا تستطيع أن تخرب هذه القرية .

فقال تبع فى استخفاف :

— ولم ؟

فقالوا :

— أيها الملك إن هذه البلدة محظوظة ، فإنا نجد اسمها فى الكتاب طيبة ، وإنها مهاجر نبى من بنى إسماعيل .

والتفتوا ناحية مكة وقالوا فى صوت امتزج فيه الإيمان باليقين :

— يخرج من عند هذه البنية .

وفى مثل لمح البصر احتلت صورة الحرم صفحة رأسه ، وأحس كأن الكعبة استوت على عرش قلبه ، فقد كان تبع يؤمن بالله فى قرارة نفسه وكان على ثقة من أن البيت الحرام هو أول بيت وضع للناس وأنه بيت الله ، من لاذ به رشد ، فراض للنفس على إن يلين جانبه عسى أن يكون من المفلحين .

ورن بين جوانحه أصوات تردد :

— إنها مُهَاجَر نبى من بنى إسماعيل من الحرم .. إنها مهاجر نبى من بنى إسماعيل من الحرم .. وهى تكون قراره فلن تسلط عليها .. وهى تكون قراره .. وهى تكون قراره .. فلن تُسلط عليها .. فلن تسلط عليها .. فأحس أنه أهون على الله من أن ينكل بأهل يثرب وأن يحرق مهاجر رسول من رسله ، فخفض لأهل يثرب جناح الذل من الرحمة ، وعفا عن قوم غدروا به وقتلوا

ابنه غيلة .

وراح تبع وأحبار اليهود يتسامرون فراحوا يحدثونه عن التوراة وعن ذلك النبي العربي الذى يجدونه مكتوبا عندهم . وآنس بعض رجال تبع بالحديث فألقوا إليه سمعهم وقد انشرحت صدورهم وامتلأت أفئدتهم بالنور .

وحان أوان الرحيل فتأهب الرجال للسفر ، وبينما كان تبع فى مجلسه جاءه بعض رجاله والتمسوا منه أن يأذن لهم بالبقاء فى يثرب ، فقال لهم فى عجب :

ــ أتبغون أن تستقروا هنا ؟ هنا فى يثرب ؟

ــ نعم . تعاقدنا على ألا نخرج منها .

ــ وما سر ذلك ؟

ــ إنا سمعنا أن نبيا هذه دار مُهَاجره فنحن نقيم لعلنا نلقاه .

وبارك تبع هذه الرغبة ، وبنى لكل واحد من أولئك الرجال دارا واشترى له جارية وزوجه إياها وأعطاه مالا ، وبنى دارا فاخرة ، وقال :

ــ هذه الدار من تبان أسعد إلى النبى المنتظر لينزلها إذا قدم يثرب .

وخرج العرب واليهود والأحبار ، ومن بقى من حمير فى يثرب انتظارا لهجرة الرسول الكريم لوداع تبع ورجاله ، حتى إذا ما بلغوا أرباض يثرب تعانق الرجال مودعين ، ثم انطلق الجيش إلى مكة وقد وضعت السيوف ونكست الرءوس إجلالا للحرم .

وبلغ تبع والذين معه أرض مكة فنزلوا عن رواحلهم وتقدم تبع من الكعبة وهو يمشى على الأرض هونا ، لم يصعر خده للناس ولم يشمخ بأنفه ، بل كان متواضعا لله انشرح صدره ورحبت ذاته حتى كادت تحتوى الكون كله ، ورقت نفسه حتى بللت الدموع قلبه وإن لم تطفر من مآقيه .

راح تبع ورجال حمير يطوفون بالبيت العتيق وارتفعت أصواتهم بالتهليل لرب البيت ، فاستشعروا كأن أحمالا رفعت عن صدورهم ، وأن نورا غسل

أدران قلوبهم ، وأن راحة تدسست بين ضلوعهم ، وأن أرواحهم سمت فوق مطالب أبدانهم وأنها ارتفعت لتندمج فى روح الوجود .

وأتم تبع طوافه وراح يتقدم خافق القلب نحو الكعبة ، ونزع عنها كسوتها وهو غائب عن كل ما حوله وراح يسدل عليها كسوة جديدة فاخرة وقد ذهبت نفسه شعاعا ، فكل شيء هادئ لا همسة ولا نأمة ، وغمر المكان بنور لطيف لكأنما تجلى على الحرم نور النور ، فلم يقو تبع على أن يأخذ بزمام عواطفه فإذا بعبراته تتساقط على خديه ، وإذا بصوت خافت ينبع منه كأن نشيجا يحاول أن يطويه .

وبدا كأن جبال مكة ووديانها كانت ترجع فى تلك اللحظة صدى دعاء إبراهيم الخليل وإسماعيل صادق الوعد الأمين لما كانا يقيمان القواعد من البيت :

ـــ ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم . ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم . ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم .

٢

كان العدنانيون يعيشون فى سلام آمنين حول الحرم بينما يتخطف الناس من حولهم ، وكانوا يعبدون الله وحده لا شريك له فكانوا سعداء بالله ، أينما يولون وجوههم فثم وجه الله ، فعرفوا راحة الضمير وأمن النفس والتوافق مع الحياة .

وكانوا يجدون الملاذ فى رحاب بيت الله من عاصفة الفراغ السياسى التى كانت تهب على الممالك من حولهم ، فكانوا يتفيئون ظلال السلام الإسلامى الذى غرسه خليل الرحمن وإسماعيل الصادق الوعد الأمين مذ أقاما القواعد من البيت فى الأرض المباركة .

وكانوا يجوبون الآفاق ، يخرجون من مكة فى قوافلهم إلى البتراء وبصرى ودمشق وبابل ومنف وسبأ وصرواح وصنعاء ، وكانوا يرون الناس يتعبدون لذى الشرى واللات والعزى ومناة وهبل ومناف وبعل وهدد ومردوخ وسين وشماس وآمون ورع والموقاة وذات حميم ، فكانوا يعرضون عن ذلك الشرك مترفعين بدينهم عن الدنس .

كان من بقى من العدنانيين فى كنف البيت على ملة إبراهيم ليس لهم من إلـٰه إلا الله وحده ؛ وظلت شريعتهم نقية . وكانوا يعلمون أن بنى إسرائيل على دين الخليل فلما عبد اليهود آلهة الأمم وجسموا الله خشى الصالحون من العدنانيين أن يقولوا إنهم على دين إبراهيم حتى لا يظن بهم أنهم آمنوا بما آمن به اليهود لما طال عليهم الأمد وقست قلوبهم . فراحوا يتلفتون يبحثون عن الإسلام النقى الذى بشر به إبراهيم فوجدوه فى دين شعيب ، لم يبدله الناس ولم تطمسه

أساطير الشعوب فقالوا : نحن على دين شعيب .

وكانت الصلات قوية بين العدنانيين والنبط وإن كان النبط قد غيروا دين إسماعيل وجلبوا الآلهة من مصر وسورية والعراق . ولم ينس العدنانيون يوما أنهم من النبط وأن قلمهم الذى يكتبون به نشأ عند البيت ، وأنه هبة هاجر إليهم وقد تطور وتهذب فى أرض النبط . فكانت الأسباب بين العدنانيين والنبط متصلة ، وكانوا جميعا ينظرون إلى هاجر نظرة إجلال ، فانتشر بين بناتهم اسم الجدة المصرية المباركة .

وقامت الحروب بين دولة النبط ودولة إسرائيل حليفة إمبراطورية روما الفتية ، ولم يكتف الأنباط بذلك بل راحوا يزاحمون الرومان فى تجارة المنطقة ، فساق تراجان الجيوش الرومانية ليقضى على المملكة العربية التى امتد نفوذها يوما من بابل إلى دلتا النيل ، واستولت على دمشق قلب سورية .

وتفرق الأنباط الذين أبوا الخضوع للرومان فانتشروا فى الأرض وذهب بعضهم إلى العراق واستقر آخرون فى دومة الجندل وانطلق كثير منهم إلى نفس الطريق الذى جاء منه آباؤهم . لقد عادوا إلى مكة ينشدون الأمن والسلام فى رحاب بيت الله .

خرج أبناء نابت بن إسماعيل من مكة أول ما خرجوا لما ضاقت بهم لينشروا دين الله الواحد القهار ، فلما طال عليهم العهد جلبوا أصنام الشعوب وأقاموا المعابد فى أرضهم لشركاء الله . وحينما انتصر عليهم الرومان عادوا إلى مكة بآلهتهم : اللات والعزى ومناة وهبل وذى الشرى وشيع القوم والآلهة الأخرى ، وبرروا عبادتهم لها بأنهم يتقربون بها إلى الله زلفى . وضاق الصالحون من العدنانيين بعبادة هؤلاء الوافدين من المشركين فراحوا يجادلونهم بالتى هى أحسن ، ليقضوا على الشرك الذى بدأ ينداح فى واحة الإيمان وحصن الوحدانية الحصين .

وولى أمر الكعبة عمرو بن لحى بن قمعة بن إلياس ، وكان قد فتن بالأصنام فجعل لمناة بيتا وللعزى بيتا وللات بيتا بالطائف ووضع أصنام الآلهة فى جوف الكعبة ، وراح يجلب التماثيل من الأمصار .

وشاعت عبادة الأوثان فى مكة وإن بقيت قلة على دين الآباء حنفاء لله لا يشركون به أحدا . وولى كنانة أمر العدنانيين وراح يتقرب بالأصنام إلى الله ، فضايق ذلك أخاه أسد بن خزيمة وصديقه الحرث أبا كعب المذحجى وصهره تميم بن مر إذ كانت برة زوجة كنانة أخته . كانوا على دين شعيب يعبدون الله وحده .

كان أسد بن خزيمة فى منعة من أهله الإياديين ، وكان كنانة قويا بأبناء ربيعة ومضر . وقد ضايق أسد بن خزيمة ذلك الشرك الذى راح ينشر ظله على المكيين ، وخشى أن يأفل نجم التوحيد الذى ظل يتألق فى الكعبة أكثر من ألفى سنة ، فراح يؤلب الإياديين على ربيعة ومضر لعله ينتشل مكة من التردى فى حمأة الشرك والأساطير .

كانت المناوشات مستمرة بين قبائل إياد وقبائل ربيعة ومضر ، وضاق الناس بتلك المناوشات ورأوا أن لا بد من حرب تضع حدا للاضطرابات المستمرة ، فاجتمعت ربيعة ومضر واتفقتا على قتال إياد على بغيها .

ونادت ربيعة ومضر بأنهما تحاربان فى سبيل حرية العقيدة ، وفتن الشباب بالدعوة الباطلة فانضموا دون تعقل إلى الباطل وقد بهرهم زيف المبدأ البراق ، فراحوا يحاربون الدين القيم وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا .

وسارت جحافل إياد وزحفت قوات ربيعة ومضر ، وتحاربوا فى موضع يسمى « خانقا » كان لكنانة . ودارت رحى معركة رهيبة بين العدنانيين الموحدين والعدنانيين المشركين بالله ، فغلبت إياد وظعنت من منازلها وتفرقت ثلاث فرق : فرقة مع أسد بن خزيمة بذى صوى ، وفرقة لحقت بعين

أباغ ، وأقبل الجمهور حتى نزلوا بسنداد ثم انتشروا بين سنداد وكاظمة .

ووقعت مكة فى شراك الشرك بالله بعد أن كانت منارة التوحيد فقد كان المكيون يؤمنون دواما بوجود إلٰه قادر واحد لا شريك له ، فلما وفدت الأصنام إليها ظلوا على اعتقادهم بوجود الله وإن جعلوا له شركاء يخضعون لسلطانه ، وغيروا تلبية الحج لتلائم ذلك الاعتقاد الجديد فأصبحوا يلبون تلبية لم يعرفها إبراهيم الخليل ولا أبناؤه الموحدون :

ــ لبيك اللهم لبيك ! لبيك لا شريك لك لبيك ! إلا شريك هو لك ، تملكه وما ملك .

وعرف الزيغ قلب كنانة فسمى أحد أبنائه عبد مناة ، فصار له من الأبناء قيس ومالك وملكان وعامر والحارث وعمرو بن سعد وعوف وغنم ومخرمة وجرول وغزوان وعبد مناة !

وكان قيس أكبر أبناء كنانة وكان فطنا رحب الصدر واسع الأفق وما كانت العين لتدرك مثل هذه المعنويات . ولما كان حسن الصورة بهى الطلعة يملأ جماله العين فقد أطلق العرب عليه النضر ، وعرف بالنضر كما عرف أبوه من قبل بكنانة لأنه كان ساترا لقومه يعيشون فى كنانته .

ومرت السنون وصار التقرب إلى الله بالأصنام من شعائر الدين ، وحضرت الحرث بن كعب المزحجي الوفاة فرأى وهو عند آخر عهده بالدنيا وأول عهده بالآخرة أن يوصى بنيه الوصية الأخيرة ، لعل نور التوحيد يضىء صدر مؤمن منهم وينتقل منه إلى قلب آخر إلى أن يقضى الله أمرا كان مفعولا ، فجمع بنيه وقال :

ــ يا بنى قد عمرت ستين ومائة سنة وما صافحت يمينى يمين غادر ، ولا قنعت نفسى بخلة فاجر ، ولا صبوت بابنة عم ولا كنَّة . ولا طرحت عندى مومسة قناعها ، ولا أبحت سرا لصديق وإنى لعلى دين شعيب النبى وما عليه

أحد من العرب غيرى وغير أسد بن خزيمة وتميم بن مر ، فاحفظوا وصيتى وموتوا على شريعتى .

إلـٰهكم فاتقوه ليكفيكم المهم من أموركم ويصلح لكم أعمالكم ، وإياكم ومعصيته فيحل بكم الدمار ، وتوحش منكم الديار .

يا بنى كونوا جميعا ولا تفرقوا شيعا ، وبزوا قبل أن تُبَزوا ، وإن موتا فى عز خير من حياة فى ذل وعجز ، وكل ما هو كائن كائن ، وكل جمع إلى تباين ، والدهر ضربان : فضرب رخاء وضرب بلاء ، واليوم يومان : فيوم حبرة (سرور) ويوم عبرة ، والناس رجلان : فرجل معك ورجل عليك .

وتزوجوا الأكفاء وليستعملن فى طيبهن الماء ، وإياكم والورهاء (الحمقاء) فإنها أدوأ الداء ، وتجنبوا الحمقاء فإن ولدها إلى إفن (حمق) يكون ، إلا أنه لا راحة لقاطع القرابة . وإذا اختلف القوم أمكنوا عدوهم منهم ، وآفة العدد اختلاف الكلمة ، والتفضل بالحسنة يقى السيئة ، والمكافأة بالسيئة دخول فيها ، وعمل السوء يزيل النعماء ، وقطيعة الرحم تورث الهم ، وانتهاك الحرمة يزيل النعمة ، وعقوق الوالدين يعقب النكد ويمحق العدد ويخرب البلد ، والضغائن تدعو إلى التباين .

يا بنى إنى قد أكلت مع أقوام وشربت ، فذهبوا وغبرت ، وكأنى بهم قد لحقت .

وصار الحرث فى الغابرين ولحق بالسابقين ، وقبره بنوه ثم راحوا يزاحمون الحياة وقد ذهبت وصيته أدراج الرياح .

وصارت زعامة الكنانيين إلى النضر وكان يستشعر فى أعماقه أنه إذا اختلف القوم أمكنوا عدوهم منهم ، فراح يلم الشمل ويعمل على أن يعيد الإياديين والعدنانيين الذين تفرقوا فى البلاد إلى حرم الله لتقوى بهم الأمة . وتصبح مكة قوية يسود قبائلها من إياديين ومضريين ونزاريين المحبة والسلام .

وخرجت قوافل التجارة من مكة تحمل الطيب والمر إلى البتراء وبصرى ودومة الجندل والبلقاء والشام ثم عادت تحمل الحرير والذهب والفضة ، وعاد معها الرجال الذين كانوا قد رحلوا عن مكة .

واجتمع فى الحرم الإياديون والنزاريون والمضريون وبنو ربيعة وجميع قبائل العدنانيين فتهلل الناس بالفرح . وجاء النضر بن كنانة الذى قرشهم (جمعهم) وبذل غاية جهده فى جمعهم وتقريشهم فى بيت الله ، فلما رآه الناس هتفوا فى فرح :

— قريش .

وعرف قيس بن كنان بالنضر لجماله وحسنه ، ثم عرف بقريش ، وولد النضر بن كنانة مالك بن النضر ويخْلد بن النضر والصلت بن النضر ، وشب مالك ليخلف أباه على زعامة قريش .

٣

انتشرت عبادة إيزيس الإلـٰهة المصرية والأم الحزينة والمواسية المحبة وحاملة هبة الحياة الخالدة بين شعوب البحر الأبيض المتوسط كلها ، فكان يحتفل ببعث أزريس وقيامه من الأموات فى كل مدينة كبيرة على شواطئ هذا البحر العتيد .

وكان عباد إيزيس يرمزون إليها بصور وتماثيل تحمل بين ذراعيها حورس ابنها الإلـٰهى ، وكانوا يبتهلون إليها فى صلواتهم ويدعونها : « أم الإلـٰه » و« ملكة السماء » . وقد انتشر دين إيزيس التى تقبل كل الناس على اختلاف أممهم وطبقاتهم من مصر إلى بلاد اليونان ، ثم إلى صقلية ومنها إلى إيطاليا ، ثم انتشر بعدئذ فى جميع أجزاء الإمبراطورية حتى نهرى الدانوب والسين ، وأقيم معبد لها فى لندن .

وفى ذلك الوقت قبل ميلاد السيد المسيح بعدة قرون كانت عبادة « مثرا » الإلـٰه الذكر تنتقل من فارس إلى أقصى تخوم الإمبراطورية الرومانية ، وكان مثرا بعد أن فسد دين زرادشت ، دين التوحيد ، ابن أهورا مزدا إلـٰه النور ، وصار هو أيضا إلـٰها للنور والحق والطهر والشرف ، وكان يقال أحيانا إنه هو الشمس وإنه يقود الحرب العالمية ضد قوى الظلمة ، وأنه يشفع على الدوام لأتباعه عند أبيه ويشجعهم فى كفاحهم الدائم للشر والكذب والدنس وغيرها من أعمال أهريما أمير الظلام . ولما أن نقل بمبى هذا الدين إلى أوروبا صور فنان يونانى « مثرا » راكعا على ظهر ثور يطعنه بخنجر فى عنقه ، وأضحت هذه الصورة هى الرمز الرسمى لذلك الدين .

وكانت عبادة سيبل منتشرة فى إيطاليا وقد خصى حبيبها أتيس نفسه قبل أن يموت ويبعث حيا ، فكان كهنتها يخصون أنفسهم كما فعل حبيبها ، فإذا أقبل عيدها الربيعى صام عبادها وصلوا وحزنوا لموت أتيس ، وجرح كهنتها سواعدهم وشربوا دماءهم ، وحمل الإلـٰه الشاب إلى قبره باحتفال مهيب ، فإذا كان اليوم الثانى ضجت الشوارع بأصوات الفرح الصادرة من الأهلين المحتفلين ببعث أتيس وعودة الحياة إلى الأرض من جديد ، وعلا صوت الكهنة ينادى أولـٰئك العباد :

— قووا قلوبكم أيها العباد المتصوفون ، لقد نجا الإلـٰه وستكون النجاة حظكم جميعا .

وفى آخر يوم من أيام الاحتفال تحمل صورة الأم العظمى فى موكب النصر ، ويخترق حاملوها صفوف الجماهير التى تهتف فى انفعال والدموع تترقرق فى مآقيهم :

— أمنا .. أمنا .

كانت الابتهالات ترتفع فى معابد إيطاليا إلى الأم الحزينة إيزيس ، أو الأم العظمى سيبيل ، وكانت الصلوات تنبعث حارة لأم الآلهة ، وكانت القلوب تتهلل بالفرح لبعث الإلـٰه وقيامه من الأموات سواء أكان أزريس أو أتيس .

وكانت مواكب أخرى تخلد آلام ديونيسيس وموته وبعثه بطقوس يونانية ، وكانت هناك طقوس خفية فى كل الديانات تتخذ عادة صورة احتفالات تطهير وتثبيت ووحى ، تدور كلها حول موت الإلـٰه وبعثه ، وكان الأعضاء الجدد يدخلون فى دين سيبيل بوضعهم عراة فى حفرة يذبح فوقها ثور ، فيسقط دم الحيوان الذبيح على الطالب ويطهره من خطاياه ويهبه حياة روحية جديدة خالدة إلى الأبد . وكانت أعضاء التذكير فى الثور وهى التى تمثل الخصوبة المقدسة ، توضع فى إناء خاص وتهدى إلى الإلـٰهة .

وكان عباد إيزيس يمرون بمراحل فى العبادة حتى يرتقوا إلى المرحلة السامية مرحلة الرؤى الصوفية ، فكان المؤمن بإيزيس يصوم فترة الصوم المبدئية الطويلة ، ويلتزم التقى والورع والتقشف والتطهر بالانغماس فى الماء المقدس ، ثم تظهر له فى آخر الأمر الرؤى الصوفية للإلهة لتهبه النعيم الأبدى .

ودخل الرومان وأهالى الإمبراطورية فى هذه الديانات لأنها لم تكن تفرق بين الأجناس والطبقات ، فقد كانت تفتح ذراعيها لكل الخلائق من جميع الأمم لا فرق بين حر وعبد ولا غنى وفقير ولا سيد من ذوى الحسب والنسب والشرف ولا وضيع من عامة الناس وغوغائهم .

وكانت عبادة إيزيس وسيبيل أكثر العبادات انتشارا بين الرومان فقد كانتا أمين ثاكلتين ذاقتا مرارة الحزن كما ذاقته ملايين الأمهات الثاكلات ، وكان فى مقدورهما أن تدركا ما لا تستطيع أن تدركه الآلهة الرومانية الأخرى .

إن الرغبة فى العودة إلى أحضان الأم أقوى من غريزة الاعتماد على الأب ، واسم الأم هو الذى يتحرك به اللسان إذا ما صادف الإنسان سرور عظيم أو حلت به كارثة أليمة .

ودأب الناس على خلق آلهة جدد فألهوا قيصر والأباطرة وأنطونيوس وكثيرا من العظماء المحليين فى حياتهم وبعد مماتهم ، وراحت الصلوات تقام بألف لغة لألف إلـٰه ، أملا فى النعيم والنجاة ، فما ضرهم لو أضافوا إليهم إلـٰها جديدا !

وكان الناس فى سورية يعبدون هدد وبعل واترجاتس ، وكانت الاحتفالات الدينية تقام فى المدن السورية ابتهاجا ببعث بعل بعد محاكمته وموته ، وكانت القرابين تقدم للإلـٰه الذى قام من الأموات ، وكانت الابتهالات ترتفع فى سماء سورية والعراق فى يوم عيد الإلـٰه الشهيد .

وكان اليهود قد جسَّدوا الله وعبدوا أنفسهم غرورا وزعموا أنهم وحدهم

الناس وما عداهم أمم ، ونشأت البغضاء بين اليهود وغير اليهود وبين اليهود واليهود . تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى ، كان يهود يهوذا يحتقرون أهل الجليل ويصفونهم بالمروق عن الدين ، بينا كان أهل الجليل يحتقرون أهل يهوذا ويصفونهم بأنهم أرقاء وقعوا فى شراك الشريعة .

وكان هناك نزاع لا ينقطع بين أهل يهوذا والسامريين ، فقد كان السامريون يدعون أن يهوه لم يختر صهيون موطنا له بل اختار موطنه تل جرزيم الواقع فى بلادهم ، وكانوا لا يعترفون إلا بأسفار موسى الخمسة ويرفضون ما عداها من أسفار الكتاب المقدس .

جعلوا لله موطنا وتنازعوا على ذلك الموطن أهو صهيون أم تل جرزيم ، سبحان الله عما يصفون .

وكان السنهدرين المجلس الأعظم لليهود صاحب السلطة الدينية على جميع اليهود ، وكان يتكون من حزبين يتنازعان السيطرة عليه ، أحدهما حزب المحافظين الذين يتزعمهم كبار الكهنة والصديقيون وكانوا من المتشككين الذين لا يعتقدون بالبعث ولا بالدار الآخرة ويقنعون بطيبات هذا العالم ، والآخر الفريسيون وكانوا شيعة من اليهود يجهرون بأنهم أكثر استمساكا بالدين من سائر أبناء ملتهم وبأنهم أدق من غيرهم فى تفسير شرائعهم .

ولكى يصلوا إلى ما يبغونه من هذا التفسير الدقيق أضافوا إلى أسفار موسى الخمسة المكتوبة الأحاديث والروايات الشفوية المشتملة على التفسيرات والأحكام التى وردت على ألسنة معلمى الشريعة المعترف بهم . ويرى الفريسيون أن هذه التفاسير ضرورية لإزالة ما فى قوانين موسى من غموض ولبيان طريقة تطبيقها على الحالات الفردية ولتعديل حرفيتها فى بعض الأحيان حسب ضروريات الحياة وظروفها الدائمة التغيير .

وكانت أكثر شيع اليهود تطرفا شيعة الأسينيين (المغتسلين) ، وقد نظموا

أنفسهم فى هيئة مستقلة عن غيرها ، وكانوا يستمسكون أشد الاستمساك بالشريعة المكتوبة والشريعة غير المكتوبة ، ويعيشون معا عيشة العزاب الزاهدين ، يزرعون الأرض فى واحة إنجادى وسط الصحراء الواقعة غرب البحر الميت . وكانوا يسكنون منازل تمتلكها الجماعة التى ينتسبون إليها ، ويطعمون مجتمعين وهم صامتون ، وينتخبون زعماءهم بالاقتراح العام ويخلطون متاعهم ومكاسبهم فى بيت مال مشترك ، ويعملون بالشعار : « مالى ومالك ملك لك » .

وكان الرجل من الأسينيين يلبس ثيابا من نسيج من التيل الأبيض ، ويحمل معه فأسا صغيرة ليغطى بها فضلاته ويغتسل بعدها كما يغتسل البراهمة ، ويرى أن التبرز فى يوم السبت من أعظم الكبائر !

وكان أعضاء هذه الشيعة يبتعدون عن جميع الملذات الجسمية ، وكانت قلة منهم تتزوج ولكنهم كانوا لا يضاجعون أزواجهم إلا بقصد إنجاب الأطفال ، وكانوا يسعون إلى الاتصال الصوفى بالله عن طريق التأمل والصلاة ، وكانوا يأملون أن ينالوا علم الغيب وقوة السحر بتقوى الله فأكثروا من الصيام واستغرقوا فى التأمل والتفكير فى الكون من حولهم .

كان العالم قبل بعث السيد المسيح غارقا فى الوثنية ، وكان اليهود قد ابتعدوا أشواطا طويلة عن سماحة الشريعة البيضاء . كان فريق ينكر البعث والحساب وفريق أحل الربا وفريق يرى أن التبرز يوم السبت من أعظم الكبائر . ولاح أن العالم كله يمهد السبيل لظهور رسول كريم يعيد إلى الإسلام بساطته ونصاعته وإشراقه .

وولد يسوع « معين يهوه » وكان مولده آية ، ولد فى الجليل وسافر إلى أورشليم واستمع إلى الرهبان والأحبار فى الهيكل ، فلما بعثه الله رسولا إلى بنى إسرائيل ضاق بذلك الهيكل الذى ركز اليهود كل آمالهم فيه وراحوا يدعون

أنه إلـٰه من دون الله ، فأخذ يعنف المرائين الذين استبدلوا بطهارة النفس مظاهره فى الهيكل وأخذ يتنبأ بزوال الهيكل ، ويدعو إلى إلـٰه له المشرق والمغرب رب العالمين ، ويبشر كما كان يبشر يحيى بن زكريا « يوحنا المعمدان » باقتراب ملكوت السماء .

كان رسولا إلى بنى إسرائيل ، « لم أرسل إلا إلى خراف بيت إسرائيل الضالة » . وكان مبشرا برسول يأتى من بعده اسمه أحمد : « إن لم أذهب فلن يأتى الفراقليط » . وكان يبشر باقتراب ملكوت الله وقد قال لحوارييه موضحا سر الملكوت : إنه كلام الله على الأرض .

وتوفى الله عيسى بن مريم ورفعه إليه : « إذ قال الله يا عيسى إنى متوفيك ورافعك إلى ومطهرك من الذين كفروا وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة ثم إلىَّ مرجعكم فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون » .

وقام الحواريون من بعده يدعون الناس إلى الإسلام وإلى عبادة الله وحده ، وراح أناس من اليهود يقاومون الدين الجديد ، وكان شاول اليهودى الذى جاء من طرسوس أشد الناس عداوة للمسيحيين فكان ينتقل من بيت إلى بيت فى أورشليم ويقبض على أتباع المسيح ويزجهم فى السجون .

كان الحواريون لا يقلون عن الأسينيين تقشفا وزهدا ، وكان بعضهم لا يأكل اللحم ولا يشرب الخمر ولا يملك من الثياب غير ثوب واحد ، وعاش اليهود والمسيحيون فى أورشليم تقوم بينهم المناوشات والمناظرات ، ولما كان المسيحيون الأوائل يؤمنون بالله وحده لم يجد اليهود فى أقوالهم ما يوجب إقامة الحد عليهم أو اتهامهم بالشرك بالله .

وجاء تيطس من روما ودمر هيكل سليمان ، فامتلأت قلوب المسيحيين بالفرح فقد تحققت نبوءة المسيح وصارت الأرض كلها مسجدا لله .

وراح بطرس يجوب فى آسية الصغرى وينطلق إلى إيطاليا يدعو الناس إلى

عبادة الله وحده وينذرهم بيوم لا ينفع فيه بيع ولا شراء ، ولما كان بطرس يذكر أن السيد المسيح قد نهاه هو والحواريين جميعا عن أن يذهبوا إلى الأمم ، فقد قال بطرس إنه رأى رؤيا اقتنع على أثرها أن عليه أن يدعو بنى إسرائيل والأمم إلى دين الله .

وكان شاول أو بولس من طرسوس يهوديا فريسيا ، بيد أنه تأثر بالثقافة اليونانية والثقافة الآرامية ، فأتباع الأرفية من اليونان يعتقدون أن الله الذى يعبدونه قد مات من أجلهم ثم قام من قبره ، وإنه إذا دعى بإيمان حق وصحب الدعاء الطقوس الصحيحة استجاب لهم وأنجاهم من الجحيم وأشركهم معه فى موهبة الحياة الخالدة المباركة . وكان عباد بعل يؤمنون بأن إلـهم حوكم وصلب وعن يمينه وشماله مجرمان ، وأنه قام من الأموات وارتفع إلى السماء ليدين الناس .

وتزعم بولس الاضطهاد الأول للمسيحيين فى أورشليم ، ولما سمع أن الدين الجديد أصبح له فى دمشق أتباع كثيرون تقدم إلى رئيس الكهنة وطلب منه رسائل إلى دمشق إلى جماعات المتزمتين اليهود ليقبض على المؤمنين المسيحيين والمؤمنات ويسوقهم موثقين إلى أورشليم .

وانطلق إلى دمشق وإلى البتراء ثم عاد إى أورشليم ليقول للحواريين إن السيد المسيح ظهر له فى البرية ، وأنه تاب واعتنق المسيحية وأنه يدعو إليها فى بلاد العرب .

وارتاب الحواريون فيه ولكن برنابا رحب به وقدم له كثيرا من المعونة ، وراح يبشر اليهود فحاولوا أن يقتلوه ، وخاف الحواريون من خطر حماسته الشديدة فأرسلوه إلى طرسوس .

وظل فى مسقط رأسه ثمانى سنين يهتم بشئون الدين ، فاستولى على كل تفكيره التصوف الدينى المنتشر بين اليونان وما فيه من تبشير بمجىء المنقذ ،

وسيطرت على نفسه فلسفة الوثنيين المؤمنين ببعل الذى حوكم وصلب وقام من الأموات وقد دبت فيه الحياة من جديد .

وأقبل عليه برنابا والتمس منه أن يعاونه على نشر الدين فى أنطاكية ، فراح الرجلان يعملان معا واهتدى بهما خلق كثير ، وأطلق الوثنيون على المؤمنين أتباع المسيح ، ودخل فى الدين الجديد أناس من « الأمم » من غير بنى إسرائيل ممن فتنتهم الدعوة إلى الوحدانية .

وأبحر برنابا وبولس إلى قبرص وقد أقبل عليهما اليهود المقيمون فى تلك الجزيرة ، فقد كانت دعوة الرجلين لا تختلف فى كثير عما يؤمن به اليهود المتقون ، كانا يدعوان إلى عبادة الله وحده ويقولان إن عيسى عبد الله ورسوله ، وكان اليهود يؤمنون بالوحدانية والرسالة فما أكثر الرسل والأنبياء فى بنى إسرائيل .

وبلغ الرجلان أنطاكية واستمع إليهما الكنيس ورحب بهما ، ولما بدآ يعظان الأمم كما يعظان اليهود غضب عليهما اليهود المتمسكون بدينهم وحملوا موظفى البلدية على إخراج المبشرين من المدينة ، فقد كان اليهود يعتقدون أن الرسل ما بعثوا إلا لهداية بنى إسرائيل ، وأن الأمم أهون على الله من أن يبعث إليهم هداته .

واختلف بولس مع برنابا واتهم بطرس بالرياء ، ثم سافر إلى مقدونيا فقابله اليهود بالترحاب ، ولما أصغوا إليه وجدوا جديدا فى آرائه يختلف عما كانوا يعتنقونه ، فقد استخدم تعبيرات تخدش إيمانهم بوحدانية الله فثاروا عليه مما اضطر أصدقاءه أن يخرجوه خلسة إلى بيريه فى أثناء الليل .

وتقبل يهود بيريه بولس بقبول حسن ، ولكن أهل تسالونيك جاءوا يتهمونه بأنه عدو لليهودية ، فأقلع منها إلى أثينة ، على ظهر سفينة وحيدا فارغ القلب كاسف البال .

وفى أثينا قلب الدولة الوثنية وعلومها وفلسفتها ألفى نفسه بلا صديق ، ولم يكن فيها إلا عدد قليل من اليهود فقام يخطب فى الناس فى السوق العامة فأعرضوا عنه ، فرأى أن يمزج بين الدين الجديد وفلسفة اليونان ، فراح يتحدث عن بنوة البشر لله ، ويقتبس بعض أقواله من بلغاء شعرائهم ، ومع ذلك لم يجد آذانا مصغية لدعوته .

وشبت العداوة بين اليهود فى أثينا وبين بولس فاتهموه أمام غاليو الحاكم الرومانى بأنه يستميل الناس على أن يعبدوا الله بخلاف الناموس ، فلم يهتم غاليو بالقضية ولم يشأ أن يكون قاضيا فى أمور لا تهمه وطرد الجميع من المحكمة .

وراح بولس يعرض الإنجيل على أهل كورنثة بعد أن خلع عن المسيحية ثوبها الشرقى وعرضها فى ثوب غربى جديد يستهوى المفتونين بالأديان الخفية التى طالما حدثتهم عن المنقذين الذين يبعثون بعد موتهم . وبدأ الوثنيون المؤمنون يمزجون المسيحية بعقائدهم القديمة ، وأثروا فى بولس فجعلوه يفسر المسيحية تفسيرا يألفه العقل اليونانى والرومانى معا .

وعاد إلى الشرق مرة أخرى ونشبت العداوة بينه وبين اليهود المؤمنين بالمسيحية ، ورأى أن ينفصل نهائيا عن المسيحيين المتهودين الذين يحتمون الختان للدخول فى ملكوت الله ، فأعلن فى رسالة بعث بها إلى أهل غلاطية أن الناس لا ينجون لاستمساكهم بشريعة موسى بل بإيمانهم القوى الفعال بالمسيح المنقذ ابن الله ..

وفى أورشليم ثار المسيحيون المؤمنون بوحدانية الله عليه كما ثار عليه اليهود ، وأرادوا أن يحاكموه أمام السنهدرين ولكنه طلب أن يحاكم أمام قيصر ، فضل محاكمة نيرون على محاكمة أبناء الشريعة الموحدين .

وصل إلى إيطاليا بعد رحلة الأهوال فى البحر ، وانطلق إلى روما وسمح له أن يعيش فى بيت يختاره لنفسه ، وأن يوكل جندى بحراسته حتى يجد نيرون

الوقت الذى يسمح له بالإصغاء إلى قضيته ، وحتى يأتى الشاكـون من فلسطين .

وراح يبعث برسائله إلى أتباعه وقد فاضت بلاهوت جديد ليس له إلا أسانيد غامضة أشد الغموض فى أقوال السيد المسيح ، وكانت العوامل التى أوحت إليه بالأسس التى قام عليها ذلك اللاهوت هى انقباض نفسه وندمه والصورة التى استحال إليها المسيح فى خياله .

وقد تأثر بنبذ الأفلاطونية والرواقية للمادة والجسم واعتبارهما شرا وخبثا ، وراح يفلسف فكرة التضحية والقرابين . إنه ليذكر أن كاهن اليهود الأعظم يضع كلتا يديه على جدى حى فى يوم الكفارة ويعترف فوق رأسه بجميع ما ارتكبه بنو إسرائيل من مظالم ، حتى إذا ما حمل الجدى خطايا الشعب أطلقه فى البرية ، وإنه ليذكر أن التضحية بحمل فى عيد الفصح ليست إلا قربانا عوضا عن القرابين البشرية التى كانت تقدم على مذبح الإلـٰه ، وقد افترق عن اليهود المسيحيين فكان لا بد من أن يجد فكرة جديدة عن التضحية ترضى الوثنيين من يونان ورومان فقال : إن كل إنسان يرث خطيئة آدم ، وأن لا شىء ينجيه من العذاب الأبدى إلا موت ابن الله ليكفر بموته عن خطيئته .

وراح بولس يضيف إلى دينه الجديد بعض آراء صوفية غامضة كانت ذائعة بين الناس ، فقال إن المسيح هو « حكمة الله » و« ابن الله الأول » بكر كل خليقة ، فإنه فيه خلق الكل .. الكل به وله قد خلق ، الذى هو قبل كل شىء وفيه يقوم الكل .

وانتشرت تعاليم بولس بين الوثنيين فأحسوا أنه يحدثهم عن أزريس وبعل وأتيس وإلاهاتهم وآلهتهم الذين فدوا البشرية وقاموا من الأموات ، وأطلقوا عليهم المنقذ والمنجى والرب .

وراح الذين لم يؤمنوا باللاهوت الجديد يسألونه :

— إذا كان المسيح إلـٰها حقا فلم يرضى أن يقتل ؟

— إن المسيح قد قتل ليفتدى بموته العالم الذى استحوذ عليه الشيطان بسبب خطيئة آدم ، فكان لا بد أن يموت ليحطم أغلال الموت ويفتح أبواب السماء لكل من نالوا رضوان الله .

وكان الرق هو سمة العصر ، هو عماد الحياة فى اليونان التى دخلت فى دين بولس أفواجا ، وهو قطب الرحى الذى يدور عليه المجتمع الرومانى الذى يطمع فى الإيمان بلاهوته . فلم يتعرض للرق بكلمة سوء حتى لا يغضب المؤمنين بتعاليمه بل قال :

— الدعوة التى دعى فيها كل واحد فليلبث فيها ، دعيت وأنت عبد فلا يهمك ، بل وإن استطعت أن تصير حرا فأحرى بك أن تستعملها ؛ لأن من دعى فى الرب وهو عبد فهو عتيق الرب ، كذلك أيضا الحر المدعو هو عبد المسيح .

ولم يهاجم السلطة حتى وإن كانت فاسدة ، بل راح يمكن لها فى الأرض لعلها ترضى عنه وعن لاهوته ، فقال :

— لتخضع كل نفس للسلاطين الفائقة لأنه ليس سلطان إلا من الله ، والسلاطين الكائنة هى مرتبة من الله .

أعطى السلاطين والحكام الحق الإلـٰهى فى الحكم وكان يحسب أن مجاملته ستحقق له كل الأهداف ، ولكن سوء طالعه أو حسن حظه أوقعه فى يد قيصر مجنون ، فجعل منه نيرون المأفون شهيدا . ولم يغضب نيرون لأن بولس يبشر بدين جديد ولاهوت جديد ، بل أغضبه أن جعل بولس مع نيرون إلـٰها آخر هو المسيح . « ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام انظر كيف نبين لهم الآيات ثم انظر أنى يؤفكون » .

٤

راح المسيحيون يجتمعون فى عيد الحب فى مساء يوم أحد السبوات ، وجاءوا بطعام العشاء وجلسوا جميعا رجالا ونساء يأكلون معا ، وبدءوا العشاء بالصلاة وقام القس يبارك الخبز والخمر ويؤكد للمؤمنين أنهما قد استحالا إلى لحم المسيح ودمه .

كان بولس على علم بدين المجوس وكان يعرف أن المجوسى يؤمن أن شراب الهوما المسكر يتحول إلى دم الإلـٰه مثرا بعد مراسيم الصلاة ، وأنه بشربه للهوما يجعـل دم الإلـٰـه يجرى فى عروقه . وكان عباد أتيس يؤمنون بتحول الخبز المقدس والخمر المقدسة إلى لحم الإلـٰه ودمه ، فاستعار الفكرة ونسبها إلى المسيح الذى خلقه خياله ، وقال للمؤمنين بدينه الجديد إن الخبز والخمر يتحولان إلى لحم المسيح ودمه ، ولم يجد الوثنيون المؤمنون بالدين الجديد غضاضة فى قوله فإنها بضاعتهم ردت إليهم ، ولكنها حملت اسم إلـٰه شرقى وقد كان الشرق يستهويهم بما فيه من غموض .

وانتهى العشاء وصلى الناس وراحوا يقرءون فقرات من الكتاب المقدس ، وأشرف الاحتفال الدينى على الانتهاء فامتلأت القلوب بانفعالات لذيذة فقد كانت آخر مراسيم عيد الحب « قبلة الحب » وهى قبلة تهوى إليها النفوس .

كانت قبلة الحب فى أول عهدها يتبادلها الرجال والرجال فيما بينهم والنساء والنساء فيما بينهن ، لكن أعرض المؤمنون عن هذا القيدالثقيل فراح الرجال والنساء يتبادلون القبلات ، وقد يسر هذا الاحتفال انتشار الفسق بين المصلين .

وقامت الكنيسة تقاوم الطبيعة فلم تحرم ما شرعته مؤسسة ذلك الدين ، بل أوصت بألا تفتح الشفاه فى أثناء التقبيل وألا تتكرر القبلة إذا أعقبتها لذة ، وكانت شهوات المؤمنين أقوى من نواهى الكنيسة فاضطر الغيورون من رجال الدين على أخلاق المؤمنين بدين بولس أن يلغوا عيد الحب .

ولم يكن بولس فحلا من فحول الرجال فقد عاش عمره دون أن يعرف الزواج ، فراح يوصى بالعزوبة وبقاء البنات أبكارا ، ولم يكن يسمح بالزواج إلا لأنه وجاء من الفسق والإباحة الجنسية ولأنه وسيلة سخيفة لحفظ النسل . وكان يشجع الزوج والزوجة على الامتناع عن العلاقات الجنسية إلا لحفظ النوع ، ولم يسمح بالطلاق إلا إذا كان أحد الزوجين وثنيا وأراد أن يفسخ زواجه ممن اعتنق الدين الجديد .

كانت تعاليم بولس تسرى فى اليونان وإيطاليا والدول الوثنية التى كانت تؤمن بالمنقذ والمنجى والرب وبالآلهة التى ضحت بنفسها فداء للبشرية ثم قامت من الأموات لتحكم الدنيا من السماء ، وكان المسيحيون المؤمنون برسالة السيد المسيح ووحدانية الله يقاومون تيار الشرك الجارف القادم من الغرب . وراحت العقائد تتصارع صراعا رهيبا لا هوادة فيه ، وقد اعتنق الكثيرون مبادئ المسيحية الحقة وراحوا يعملون على نشرها ، وقد لقحت المسيحية فلسفة إيكتتس الأعرج الذى قام فى كل مكان بعد صلب بولس يقول :

ــ أية لغة ترقى إلى الثناء على جميع أعمال العناية الإلـٰهية ؟.. أفما كان خليقا بنا لو كانت لنا عقول أن نصرف وقتنا كله فى التغنى بمجد الإلـٰه والتسبيح بحمده والتحدث بنعمته ؟

أليس من واجبنا ونحن نحفر الأرض ونفلحها ونأكل من ثمارها أن تلهج ألسنتنا بالثناء عليه !

وماذا بعد هذا ؟ ، أما وقد أصبحت كثرتكم الغالبة عمياء ، أفلا ينبغى أن يكون هناك إنسان يؤدى هذا الواجب عوضا عنكم وينوب عنكم جميعا فى التغنى بمدح الله .

ولم يحبذ إيكتتس الرق كما فعل بولس تملقا للأقوياء ، بل راح ينديد به وراح ينادى بوجوب تحريم عقوبة الإعدام ولم يرض ذلك أصحاب السلطان فزج به فى السجن ، فلما خرج من سجنه راح يقول :

ـــ لا تقل عن شىء ما إننى فقدته ، بل قل إننى رددته ، هل مات لك طفل ؟ لقد رد .. هل ماتت لك زوجة ؟ لقد أعيدت . « فقد اغتصبت منى مزرعتى » حسن جدا هذه أيضا قد ردت . وما دام الله وهبك إياها فاعتن بها على أنها ليست لك . أسفى على أننى أعرج ! أيها العبد ! أتؤنب الكون لأنك فقدت ساقا حقيرة ؟! ألا يليق بك أن تنزل عنها هبة خالصة للكون كله ؟ وإذا أرغمت على الخروج من بلدى منفيا ، فهل فى مقدور أحد من الناس أن يمنعنى أن أخرج مبتسما هادئا ؟

« سألقيك فى السجن » . إنك لن تسجن إلا جسمى ؛ وسأموت حتما فهل يجب إذن أن أموت شاكيا ؟!

فى مقدور العبد أن يكون حر الروح كديجين ، وفى وسع السجين أن يكون حرا كسقراط . وقد يكون الإمبراطور عبدا كنيرون ، وليس الموت نفسه إلا حادثا عارضا فى حياة الرجل الصالح فى وسعه أن يستعجله إذا تبين أن الشرير يرجح كثيرا على الخير ؛ وحقيق به على أية حال أن يستقبله فى هدوء وأن يرى جزءا من حكم الطبيعة المكنونة .

لو أن سنابل الحب كان لها إحساس فهل كانت ترجو ألا تحصد ؟ إنى أحب أن أتعلم أنك لو عشت أبد الدهر لكان عيشك هذا نقمة ، إن السفينة تغرق فماذا أفعل إذن ؟ مهما استطعت أن أفعل . فسأغرق دون أن أخشى شيئا أو أن

أحجم أو أجدف فى حق الله ، بل أعتقد أن من يولد لا بد أن يموت ، ذلك أنى جزء من الكل كما أن الساعة جزء من اليوم . علىَّ أن أجىء كما تجىء الساعة وأن أنقضى كما تنقضى .

يجب ألا تعد نفسك أكثر من خيط واحد بين جميع الخيوط التى يتكون منها الثوب . لا تسع لأن يكون ما يحدث لك يحدث كما تحب ، بل أحب أن يحدث ما حدث كما حدث ، فإن فعلت وجدت الهدوء والطمأنينة .

لا تكن سببا فى أن يتعذب الناس بما لا تحب أن تتعذب به أنت . إذا قيل لك إن إنسانا يتحدث عنك حديث سوء فلا تدافع عن نفسك ، بل قل : إنه لو عرف سائر عيوبى لما ذكر هذه وحدها .

ماذا يهمنى من أن الأشياء الموجودة على ظهر الأرض مكونة كلها من ذرات أو من النار والتراب ؟ أليس يكفينى أن أعرف حق المعرفة ما هو الطيب وما هو الخبيث ؟ إذا كان الله خالقنا وأبانا وولينا أفلا يكفى هذا لأن يرد عنا الحزن والخوف ؟ ويتساءل بعض الناس من أين أطعم إذا لم يكن عندى ما أطعمه ؟ ولكن ماذا تقول عن الحيوانات التى يكتفى كل منها بنفسه ولا يعدم ما يصلح له من الطعام .

ونشب الصراع بين المؤمنين برسالة المسيح ووحدانية الله وبين القائلين ببنوة المسيح لله وخطيئة آدم الموروثة والفداء فى الشرق ، وبين المؤمنين بلاهوت بولس والوثنيين فى الغرب . وقاسى المسيحيون من الاضطهاد فكانوا يفرون إلى الكهوف ويتسلون برسم بعض الرسوم التى ترمز إلى معتقداتهم الدينية فرسم بعضهم اليمامة ممثلة للروح بعد أن تحررت من سجن الجسد والفنش Phoenix الذى عادت الحياة إلى رماده بعد احتراقه ، وغصن النخلة شعار النصر ، وغصن الزيتون رمز السلام ، وصار لتلك الرموز شأن أيما شأن فى المسيحية .

واكتشف بعضهم أن اسم السمكة باليونانية يتكون من الحروف الأولى من العبارة : « يسوع المسيح ابن الله المنقذ » فضمت السمكة إلى الشعائر المسيحية وفى تلك السراديب نبتت فكرة « الراعى الصالح » .

وكان المسيحيون الأوائل يسيرون على سنة كراهية التماثيل خشية الخلط بين الصور وعبادة الأوثان ، ويذمون النحت والتصوير لأنهما فى أغلب الأحيان يمجدان العرى ، ويهملون تزيين الدار الفانية لأنهم كانوا يعتقدون أن ملكوت الله قريب وإن هى إلا سنوات وينتهى العالم ، ولكن الزمن طال بهم فعادوا يقولون : إن مملكة المسيح ليست فى الأرض بل هى مملكة فى السماء ، وأقبل المؤمنون من اليونان والرومان على صنع التماثيل والصور يمزجون فيها بين معتقداتهم الوثنية واللاهوت الجديد .

وراح الدين الجديد ينتشر بين الناس ، فقد وهب البائسين والمحطمين والمحرومين واليائسين والأذلاء فضيلة الرحمة التى لم يكن لهم بها عهد من قبل ، كما وهبهم العزة والكرامة التى ترفع من شأنهم ، ووهبهم فوق ذلك كله وحيا وإلهاما ينبعث من صورة المسيح وقصته ومبادئه الأخلاقية ، وأضاء حياتهم بما يبعث فيهم من أمل فى ملكوت الله المقبلة وفى السعادة الدائمة بعد الموت . ووعد أشد الناس ذنوبا بالعفو وبقبولهم فى الناجين من العقاب فى الدار الآخرة ، فأما العقول التى أقلقها طول البحث فى المشكلات المعقدة كمشكلات أصل الحياة ومصير الإنسان والشر والآلام فقد جاء إليها بمجموعة من العقائد الموحى بها من عند الله ، تستطيع كل النفوس أن تجد فيها غذاء الفكر ، وتسلية الروح ، وراحة الوجدان .

وملأ الدين الجديد الفراغ الخلقى الذى خلفته الوثنية المحتضرة وكان البلسم الشافى للعالم الذى أنهكته علل الوحشية والقسوة والظلم والفوضى الجنسية ، فقد جاء بقانون أخلاقى جديد قائم على الأخوة والرحمة والسلام .

كانت إمبراطورية الرومان تحتضر على أيدى أباطرة فاسدين كنيرون وأترابه من المخنثين ، وكانت كل الظواهر توحى بأفول تلك الحضارة ، ولكن المسيحية جاءت لتنتشل تلك الإمبراطورية المتداعية من وهدة الدمار .

وراح كل من اعتنق الدين الجديد ينصب نفسه داعيا له بحماسة لا تقل فى قوتها عن حماسة الثوار ، وكانت طرق الإمبراطورية الرومانية وأنهارها وشواطئ بحارها ومسالكها التجارية أهم العوامل التى عينت الخطوط الرئيسية لنماء الكنيسة المسيحية ، فاتجه هذا النماء شرقا من أورشليم إلى دمشق والرها ودورا وسلوقية وطشقونة ، واتجه منها جنوبا عن طريق بصرى والبتراء إلى جزيرة العرب ، وغربا عن طريق سورية إلى مصر ، وشمالا عن طريق أنطاكية إلى آسية الصغرى وأرمينية ، ومن إفسوس وترواس وراء بحر إيجة إلى كورنثة وتسالونيك ، وإلى درهكيوم وراء الطريق الأجناسى ، ثم اخترق البحر الأدرياتى إلى برنديز ، أو عن طريق سلاوكربيدس إلى بتبولى وروما ، وعن طريق صقلية ومصر إلى شمالى إفريقية ، واخترق البحر الأبيض المتوسط أو جبال الألب إلى إسبانيا وغالة ومنها إلى إيطاليا ، ثم سار الدين الجديد على مهل فى أعقاب الحكم الرومانى ، وشق النسر الرومانى الطريق للمسيح الذى خلقه خيال بولس المتحمس للثقافة اليونانية ، فمزج بين فلسفتها وفلسفة بعل والآلهة المنقذين جميعا وبين ما بقى فى ذهنه من تعاليم السيد المسيح .

وأشرف القرن الثانى المسيحى على الانتهاء فإذا بالدولة الرومانية قد اكتظت بالمسيحيين ، فقد هرع الناس على اختلاف مراتبهم وأحوالهم وأجناسهم ينضوون تحت لواء الدين الجديد ، وبدا أن أبناء الأمس القريب على وشك أن يملئوا العالم .

كان المسيحيون جميعا يؤمنون بعودة المسيح ليقيم مملكته على الأرض ، ولكنهم اختلفوا فى موعد عودته ، فلما مات نيرون وخرب تيطس الهيكل ،

ولما دمر هدريان أورشليم رحب المسيحيون بهذه الكوارث وعدوها بشائر بعودة المسيح .

وهددت الفوضى الإمبراطورية الرومانية فى أواخر القرن الثانى فظن المسيحيون أن آخرة العالم قد دنت ، فسار أحد الأساقفة السوريين على رأس أتباعه إلى الصحراء ليلتقى بالمسيح فى منتصف الطريق ، وأعلن أسقف آخر فى بنطس أن المسيح سيعود فى خلال عام واحد .

وانتظر المؤمنون تحقيق هذه التنبؤات ولما لم تصدق ولم يعد المسيح رأى عقلاء المسيحيين أن يخففوا من وقع هذه الخيبة بتفسير موعد عودته تفسيرا جديدا ، فقال قائل منهم :

ــ إن برنابا قرر فى رسالة من رسائله أن المسيح سيعود فى خلال ألف عام .

وقال قائل أشد منه حذرا :

ــ سيعود المسيح حين ينقرض شعب اليهود عن آخره .

وقال قائل آخر :

ــ إنه سيرسل بدلا منه الفارقليط .

وربط ذلك القائل بين سر الملكوت كلام الله على الأرض ، وبين الفارقليط الذى سيمكث مع الناس إلى الأبد .

﴿ الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وإن فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون ﴾ .

وراح أتباع الدين الجديد يكونون أنظمة عجيبة من « الفيض الربانى » ، فجاء مرسيون إلى رومة وكان شابا ثريا من أهل سينوب حوالى عام ١٤٠ معتزما أن يتم ما بدأه بولس ، وهو تخليص المسيحية من اليهودية فقال :

ــ إن المسيح حسب روايات الإنجيل قد قال : إن أباه إلـٰه رحيم غفور محب ، على حين أن يهوه كما يصفه العهد القديم إلـٰه غليظ القلب صارم فى عدله

مستبد ، إلـٰه حرب ولا يمكن أن يكون يهوه هذا أبا للمسيح الوادع .

أى إلـٰه خير تطاوعه نفسه بأن يقضى على البشر جميعا بالشقاء لأن أباهم الأول أكل تفاحة أو رغب فى المعرفة أو أحب امرأة ! إن يهوه موجود وهو خالق العالم ، ولكنه خلق لحم الإنسان وعظامه من المادة ، ولهذا ترك روح الإنسان مسجونة فى قالب من الشر ، وأراد إلـٰه أكبر من يهوه أن يطلق هذه الروح من ذلك السجن فأرسل ابنه إلى الأرض ؛ وظهر المسيح وكان عند ظهوره فى سن الثلاثين فى جسم طيفى غير حقيقى ، وكسب بموته لخيار الناس حق البعث الروحى الخالص .

إن الأخيار هم الذين يفعلون ما فعله بولس ، فينبذون يهوه والشريعة اليهودية ويرفضون الكتب العبرانية المقدسة ، ويتجنبون الزواج واللذات الجنسية جميعا ويتغلبون على الجسم بالزهد الشديد .

وراح مرسيون يعمل على نشر هذه الآراء بإصدار عهد جديد يتكون من إنجيل لوقا ورسائل بولس ، فأصدرت الكنيسة قرارا بحرمانه وردت إليه المال الكثير الذى وهبه لها حين جاء إلى روما .

وفى عام ١٥٦ م قام متناسس يندد بتعلق المسيحيين المتزايد بشئون هذا العالم وبازدياد سلطان الأساقفة المطلق على الكنيسة ، وأخذ يطالب بالعودة إلى بساطة المسيحية الأولى وصرامتها ، ويرد التنبؤ أو القول الملهم إلى أعضاء الجماعات المسيحية .

آمنت امرأتان تدعيان بريسلا ومكسميليا بأقواله وراحتا تنطقان فى أثناء غيبوبتهما الدينية بأقوال أصبحت النبوءات الباقية لهذه الشيعة .

وراح متناسس نفسه يتنبأ فى أثناء نشوته الدينية بنبوءات بلغ من فصاحتها أن أتباعه راحوا يلقبونه بالجدى الذى وعد به المسيح . وتنبأ أن ملكوت السموات قد دنت ساعتها ، وأن أورشليم الجديدة التى يقول بها سفر الرؤيا

ستنزل من السماء على سهل قريب بعد زمن قليل .

وسار متنانس بنفسه إلى تلك الأرض الموعودة على رأس حشد من الناس حتى إن المدن خلت من سكانها .

وامتنع الناس عن الزواج وعن التناسل وجعلوا متاعهم ملكا مشاعا بينهم ، وعمدوا إلى التقشف والزهد استعدادا لمجىء المسيح .

واضطهد أنطونينس الحاكم الرومانى المسيحيين فى آسيا الصغرى وأقام المحاكم لمحاكمتهم ، فهرع أتباع متنانس إلى المحاكم سعيا منهم إلى الاستشهاد ورغبة فى الجنة ، ولم يستطع أنطونينس أن يحاكمهم كلهم فاكتفى بإعدام بعضهم وطرد معظمهم وقال لهم :

ــ أيها التعساء ! إن كنتم تريدون الموت حقا فهل عرفتم الجبال وأجراف الصخر العالية ؟ .

وظهرت الشيع فى كل مكان ! شيعة الزهاد التى عمدت إلى قمع شهواتها وقالت إن الزواج من الخطايا ، وشيعة المتخيلة القائلة بأن جسم المسيح لم يكن لحما ودما بل كان شبحا أو خيالا ، وشيعة الثيودوتية التى لم تكن ترى فى المسيح أكثر من إنسان مرسل ، والمتبنية التى تقول إن المسيح ابن الله بالتبنى لا بالطبيعة وأنه كان بمولده رجلا عاديا وأنه وصل إلى درجة الألوهية بكماله الخلقى ، والظاهرية القائلة بأن الأب والابن والروح القدس ليست أقانيم منفصلة بل هى صور مختلفة يظهر فيها الله للإنسان .

واعتقد اليعاقبة أن للمسيح طبيعة واحدة ، وما أشرف القرن الثالث الميلادى حتى كان أتباع المسيح قد انقسموا إلى مائة عقيدة وعقيدة تؤمن أغلبها بما خلقه خيال بولس من بنوة المسيح لله وإن اختلفت فى طبيعة هذه

البنوة وفى طبيعة المسيح ، فى ناسوته ولاهوته ، « وقالوا اتخذ الرحمن ولدا . لقد جئتم شيئا إدّا . تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا . أن دعوا للرحمن ولدا . ولا ينبغى للرحمن أن يتخذ له ولدا . إن كل من فى السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبدا . لقد أحصاهم وعدهم عدا . وكلهم آتيه يوم القيامة فردا » .

٥

انتصر الإسكندر الأكبر على دارا الثالث فاستشار معلمه أرسطو فى أمر الفرس ، فأشار عليه أن يفرق رياستهم فى أهل البيوت منهم فتفترق كلمتهم ويخلص له أمرهم ، فولى الإسكندر عظماء النواحى من الفرس وعرب الحيرة كلا على عمله .

ومات الإسكندر فقسم ملكه بين أربعة من قواده ، فكانت الإسكندرية ومصر لبطليموس ، ومقدونية وأنطاكية وما إليها من ممالك الروم لفيلبس ، وكان الشام وبيت المقدس وما إلى ذلك لديمتريوس ، وكان السواد إلى الجبال والأهواز وفارس لأنطيخوس .

وظلت فارس تحت حكم الإشكانيين ملوك الطوائف لم يكن لها ملك واحد يجمع كلمتها ، واستمرت الحروب بين فارس والروم فكان ملوك الطوائف يغيرون على بنى إسرائيل وينهبون أموالهم ، فقد كانت إسرائيل حليفة روما .

وفى أيام ملوك الطوائف ولد السيد المسيح عليه السلام وقام يدعو إلى الإسلام وعادت النفحة الروحية تسرى فى الشرق والغرب ، فراح المؤمنون بدين زرادشت فى إيران ينفضون الأساطير والخرافات عن الدين القيم ويحاولون أن يعيدوا إلى دين التوحيد جوهره الأصيل ، فخفقت فى جنبات إيران نهضة دينية كانت بشيرا بنهضة دنيوية تلم شمل الدولة التى تمزقت شيعا

بعد غزو الإسكندر الأكبر وتقطيع أوصالها .

وعكف ساسان على الأبستاق كتاب زرادشت المقدس يستمد منه قوة روحية تعينه على استعادة ملك آبائه وأجداده ، فوجد فيه أن زرادشت قد أوصى بالاستمساك بما جاء به إلى أن يجيء صاحب الجمل الأحمر ، فراح يحض أبناءه على الاستمساك بالدين ويؤكد لهم أنه حينما يفعل الإيرانيون الفحشاء سيظهر رجل من العرب ويأخذ سرير الملك ويقع المذهب فى قبضته ويصير الرؤساء مرءوسين له ، وسيمحق العرب الصور والأصنام وسيطفئون بيوت النيران ويجعلون مكانها بيوتا معمورة ، ليس للأصنام ولا للأوثان فيها مكان ، وستقع فى أيديهم معابد المجوس وما حولها من مدن مثل توس وبلخ وبقية البقاع العظيمة .

كان ساسان يتحدث عن مستقبل الفرس والعرب كأنما قد فتح أمام عينيه كتاب القدر ، وقد حفرت نبوءته فى سويداء قلوب الأبناء فنقلوها إلى الأحفاد ، وقد كانت تلك النبوءة حجر الزاوية فى سياسة الملوك الساسانيين قبل أبناء الصحراء .

وقام أردشير حفيد ساسان فى أهل فارس يريد الملك الذى كان لآبائه قبل الطوائف وأن يجمعه لملك واحد ، فراح يقاتل ويخوض غمار المعارك حتى دانت له ملوك فارس وقهرهم وصار له الملك دون منازع .

ولم يعرف أردشير الطمأنينة فنبوءة ساسان تقلقه وتغير قلبه على العرب فراح يرقب بيوتهم . إنها على ريف العراق وأنهم ينزلون الحيرة وإن قضاعة يسكنون بيوت الشعر والوبر غربى الفرات بين الأنبار والحيرة ، فإن تركهم آمنين فقد يثبون على ملكه وينتزعون منه سلطانه وتتحقق تلك النبوءة التى

صار يرتجف من إلحاحها على ذهنه ، فجمع جيوشه ووطئ الحيرة والأنبار وأعمل سيوفه فى رقاب العرب لعل الدماء التى سالت تروى الفرات تسكن مخاوفه .

وأسرف فى قتل العرب والإسكانيين ، ووجد فى قصر ملك الإسكانيين جارية رائعة الحسن فاتنة الجمال سلبته لبه ، ولما سألها عن أصلها أنكرت نسبها فلم تقل له إنها أسكانية دفعا للقتل وإبقاء على حياتها بل قالت فى خفر :

ـــ أنا مولاة .

فقال لها وهو يأكلها بعينيه :

ـــ بكر ؟

فأسبلت عينيها وأومأت برأسها فى حياء أن نعم ، فطار بها إلى قصره يقضى معها أسعد أوقاته ، حتى إذا ما حملت وظنت الأمن على نفسها ساءها أن تحيا فى كذبة كبيرة ، فقالت له فى ساعة من ساعات الصفو :

ـــ أنا أسكانية يا مولاى .

فغضب أردشير وثار وتنكر لها ودفع بها إلى بعض مرازبة فارس وقال له :

ـــ اقتلها .

وخرج بها المرزبان ولم يطاوعه قلبه فى قتلها فاستبقاها فى داره ، حتى إذا ما وضعت ما فى بطنها راح يرعاها ويرعى سابور ابنها .

ومرت الأيام ولم يعقب أردشير وغشيه هم ثقيل ، وفى ذات ليلة بينما كان جالسا مع ذلك المرزبان قال فى أسى :

ـــ ليس لى من ولد يرثنى ويرث ملكى من بعدى .

ثم رفع أردشير رأسه ونظر إلى المرزبان بعينين زائغتين وقال :

— ليتنى ما قتلت الجارية ولا أتلفت ما فى بطنها .

فقال المرزبان :

— إنها عندى يا مولاى .

— عندك .

— أشفقت عليها فلم أقتلها ، وقد ولدت ولدا ذكرا وسميته سابور وقد أدبته وأحسنت تأديبه .

وبعث أردشير فى طلب سابور وراح يختبره فأظهر نباهة ونجابة ، فتهلل أردشير بالفرح وأوصى له بالملك من بعده .

ومات أردشير وملك سابور فأفاض العطاء فى أهل الدولة وتخير العمال ، شخص إلى خراسان فمهد أمورها ، ثم رجع إلى نصيبين فملكها عنوة فقتل وسبى ، وافتتح من الشام مدنا وحاصر أنطاكية وأخذ ملكها أسيرا ثم جدع أنفه وأطلقه .

وورث سابور فيما ورث كراهية العرب الذين سينتزعون يوما ما سلطان فارس كما تؤكد نبوءة ساسان ، فراح يتلفت فوجد الضيَّزن بن معاوية بن العبيد فى أرض الجزيرة ومعه من قبائل قضاعة ما لا يحصى ، وأنه مد ملكه حتى بلغ الشام ، فشخص إليه سابور حتى أناخ على حصنه فى مدينة الحضْر وضرب على الحصن حصارا شديدا بعد أن عجز عن اقتحامه .

ومرت أربع سنين وسابور أمام أسوار الحصن لا يستطيع له فتحا ، فقد راح العرب يدافعون عن حصنهم مستبسلين ، وسرى بين النسوة همس بعد أن بلغ مسامعهم لما لهجت به الألسنة من حسن سابور .

كانت النضيرة ابنة الضيزن رائعة الجمال استهواها حديث النسوة عن

سابور ، فانتهزت ذات ليلة غفلة من الرجال وخرجت إلى رَبَض المدينة وأشرفت على سابور فإذا بحسنه يفوق كل ما سمعته عنه ، فشغفت به وتقدمت إليه وهى مأخوذة قد سلبت منها إرادتها ، وراحت تسير كالطيف فقد كانت تحس ما يحسه النائم المستغرق فى حلم جميل .

ورآها سابور فإذا به يقف وهو مشدوه ، فقد كانت نضيرة من أجمل نساء العالمين ، وشغف بها حبا فمشى إليها وأخذها من يدها وأجلسها إلى جواره وراحا يتناجيان وقد غابا عن الوجود . .

وحدثته عن حصن أبيها ودلته على عورته فقام إلى فرسانه واقتحم الحصن عنوة ، وقتل الضيزن وأباد قضاعة الذين كانوا معه ، ثم أعرس بالنضيرة بعين التمر وباتت ليلتها تتضور فى فراشها وكان من الحرير محشوا بالقز والتسِي ، فإذا ورقة آس بينها وبين الفراش تؤذيها .

والتفت إليها سابور فى ضيق ففراشه الوثير دون ذلك الفراش الناعم الذى اعتادت أن تنام فيه ، فقال لها :

ـــ ويحك ما كان أبوك يغذيك ؟

قالت فى دلال :

ـــ الزبد والمخ والشهد وصفو الخمر .

ولم ينس سابور أنها خانت قومها وقادت إلى قتل أبيها فقال لها :

ـــ وأبيك لأنا أحدث عهدا وأبعد ودا من أبيك الذى غذاك بمثل هذا .

واستدعى رجلا ركب فرسا جموحا وعصب غدائر النضيرة بذنبه وأمره أن يركض ، فانطلق الرجل بفرسه والنضيرة بذنبه ولم يزل الرجل يركض حتى تقطعت أوصالها .

وكان مانى الطشقونى قد أعلن عند تتويج سابور أنه المسيح المنتظر ، وكان مانى شابا صوفيا درس الزردشتية والمثرائية واليهودية وسمع بالمسيح أيام أن التحمت قوات فارس بقوات سورية ، فراح يقول إن الإلـٰه الحق أرسل سابور إلى الأرض ليقوم حياة البشر الدينية والأخلاقية .

واستمر سابور فى تنظيم ملك الساسانيين وراح مانى يقسم العالم مملكتين متنافستين هما مملكة الظلمة ومملكة النور ، ويقول إن الأرض تتبع مملكة الظلمة وأن الشيطان هو الذى خلق الإنسان ولكن ملائكة إلـٰه النور استطاعت بطريقة خفية أن تدخل إلى البشرية بعض عناصر النور ، وهى العقل والذكاء والتفكير .

وقال مانى إن فى النساء أنفسهن بصيصا قليلا من النور ، ولكن المرأة هى خير ما صنع الشيطان وهى عامله الأكبر فى إغراء الرجل وإيقاعه فى الذنوب ، فإذا امتنع الرجل عن العلاقات الجنسية والكلف بالنساء وامتنع عن السحر وعاش عيشة الزهد ولم يطعم إلا الأغذية النباتية وصام عن الطعام بعض الوقت ، فإن ما فيه من عناصر النور يتغلب على الدوافع الشيطانية ويهديه إلى النجاة كما يهديه النور الرحيم .

وملك سابور الحيرة وسط بلاد السواد وحاضرة العرب ، بعد أن انتصر على تميم ولخم والأزد من اتخذوا لهم شعارا أثناء القتال : « يا آل عباد الله » فسموا العباد والعباديين وولى عليهم عمرو بن عدى جد آل المنذر ، فجنى له الخراج وفرض عليهم سلطانه وقبض أيديهم عن الفساد بأقطار ملكه . .

كان مانى قد زعم أن سابور هو المسيح المنتظر ، وما لبث أن ادعى أنه (مانى نفسه) هو « الفارقليط » الذى بشر به عيسى عليه السلام الذى قال عنه :

« إن لم أذهب فلن يأتى الفارقليط » « إنه خير لكم أن أنطلق لأنه إن لم أنطلق لا يأتيكم الفارقليط ، ولكن إن ذهبت أرسله إليكم فإذا جاء ذلك فهو يوبخ العالم على خطيئته » .

فراح يقول : « إن الحكمة والأعمال هى التى لم تزل رسل الله تأتى بها فى زمن دون زمن ، فكان مجيئهم فى بعض القرون على أيدى الرسول الذى هو « البدء » إلى بلاد الهند ، وفى بعضها على يدى « زاردشت » إلى أرض فارس ، وفى بعضها على يدى « عيسى » إلى أرض المغرب ، ثم نزل هذا الوحى وجاءت النبوءة فى هذا القرن الأخير على يدىَّ أنا « مانى » رسول إلٰه الحق إلى أرض بابل » .

وراح مانى ينظم الأغانى ويقول فيها : « إنى جئت من بلاد بابل لأبلغ دعوتى للناس كافة » . وأصاخ أهالى العراق وفارس سمعهم لمانى بينا كان عرب الحيرة والأنبار يعبدون الله ويشركون معه اللات والعزى والأصنام الأخرى .

وظل المجوس يهاجمون مانى وأتباعه ويؤلبون الناس عليه حتى تمكنوا من صلبه وحشو جلده بالقش وعلقوه على أبواب مدينة السوس .

وتوفى عمرو بن عدى وتولى ملك الحيرة بعده ابنه امرؤ القيس الأول ، وكان رجلا محاربا وقائدا كبيرا فأخضع قبيلتى أسد ونزار وهزم مذحجا وأخضع معدا ووزع بنيه فى القبائل ، وامتدت فتوحاته حتى بلغت أسوار نجران .

واعتنق امرؤ القيس النصرانية فانتشرت المسيحية بين عرب الحيرة وامتدت أيام امرئ القيس فعاصر جملة من ملوك الفرس هم هرمز بن سابور وبهرام بن هرمز وبهرام بن بهرام ، وقد كانوا جميعا يرتجفون فرقا من نبوءة

ساسان الأول التي تنبأ فيها بأن رجلا من العرب سينزع ملك فارس وتدين له الفرس بالولاء .

وتولى ملك فارس سابور بن هرمز بن نرسى وكانت نبوءة ساسان تقلقه ، فراح يقتل قتلا مبرحا من أنتج بلاد فارس من العرب ، ولم يشف ذلك غليله فقطع البحر وراح يفتك بالعرب فى بلاد البحرين وأفشى القتل فى « هجر » وكان بها ناس من أعراب تميم وبكر بن وائل وعبد القيس ، ثم عطف على بلاد عبد القيس فأبادها إلا من هرب منهم فلحق الرمال ، ثم أتى اليمامة وأثخن فيها الجراح وراح يطم المياه ويردم الآبار ليحرم الناس الانتفاع بها لعله يستطيع أن يقضى على العرب الذين سينتزعون من الساسانيين ملكهم .

وانطلق حتى أشرف على يثرب فقتل من وجد هناك من العرب ، ثم راح يخلع أكتاف من يقع بين يديه منهم . وقفل سابور ذو الأكتاف عائدا إلى بلاده بيد أن تخاوفه من ذلك العربى الذى سينتزع الملك من الساسانيين لم تنطفئ بل عاونت الدماء المسفوكة على أن تزيدها اندلاعا وضراما .

٦

كانت مكة غارقة فى وثنيتها انحرف أهلها عن طريق الرب الواحد الحق الذى آمن به أجدادهم وملئوا الفراغ الروحى بالتشدد فى الدين الوثنى والاجتهاد فى عبادة الأوثان التى جلبوها من كل مكان وكدسوها فى جوف الكعبة ، بل أسرفوا على أنفسهم وبنوا لها كعبات فى الوادى المقدس .

اتفقوا على أن خالق العالم ورازقهم ومدبر أمرهم ونافعهم وضارهم ومجيرهم واحد لا رب ولا خالق ولا رازق ولا مدبر ولا نافع ولا ضار ولا مجير غيره ، اعتقدوا أنهم يعبدون الله بعبادتهم الأصنام ويتقربون بها إليه، وقال قائل منهم .

ـــ ليس لنا أهلية لعبادة الله تعالى بلا واسطة لعظمته ، فعبدناها لتقربنا إليه زلفى .

وقالت طائفة تعبدت للملائكة :

ـــ الملائكة ذوو جاه ومنزلة عند الله ، فاتخذناها أصناما على هيئة الملائكة ليقربونا إلى الله .

وقالت طائفة أخرى :

ـــ جعلنا الأصنام قبلة لنا فى عبادة الله تعالى كما أن الكعبة قبلة فى عبادته .

واعتقدت طائفة أن على كل صنم شيطانا موكلا بأمر الله ، فمن عبد الصنم حق عبادته قضى الشيطان حوائجه بأمر الله ، وإلا أصابه الشيطان

بنكبة بأمر الله . وبقى نذر يسير على ملة إبراهيم وإسماعيل يعترفون بوجود الله وتوحيده ملتزمين ما كانوا عليه من تعظيم البيت والطواف به والحج والعمرة والوقوف على عرفة والصلاة والصيام والزكاة والتقرب إلى الله بالمناسك والمشاعر .

وارتدت طائفة إلى أديان العرب قبل إبراهيم وإسماعيل إلى عبادة الكواكب والنجوم ، ففرقة عبدت الشمس واتخذت لها صنما بيده جوهر على لون النار وله بيت خاص ، وزعمت أن الشمس ملك من الملائكة لها نفس وعقل وهى أصل نور القمر والكواكب وهى عند ملك الفلك فتستحق التعظيم والسجود والدعاء . وفرقة عبدت القمر وزعمت أنه مدبر العالم السفلى واتخذت له صنما يعبدونه ويسجدون له ويصومون له أياما معلومة من كل شهر ثم يأتون إليه بالطعام والشراب والفرح والسرور ، وفرقة عبدت الكواكب فصنعت لها أصناما على صورة الكواكب وروحانيتها وبنت لكل كوكب هيكلا خاصا وصارت الأصنام رموزا لآلهة غائبة لتكون نوابا عنها وقائمة مقامها .

وآمن أناس بالدهر وقالوا ما هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر ، وافترق الدهريون إلى فرقتين فرقة تقول :

ــ إن الخالق خلق الأفلاك متحركة أعظم حركة ، دارت عليه فأحرقته ولم يقدر على ضبطها وإمساك حركتها .

وفرقة تقول :

ــ إن الأشياء ليس لها أول ألبتة وإنما تخرج من القوة إلى الفعل ، فإذا خرج ما كان بالقوة إلى الفعل تكونت الأشياء مركباتها وبسائطها من ذاتها لا من شيء آخر .

إن العالم لم يزل ولا يزال ولا يتغير ولا يضمحل ولا يجوز أن يكون المبدع يفعل فعلا يبطل ويضمحل إلا وهو يبطل ويضمحل مع فعله ، وهذا العالم هو الممسك لهذه الأجزاء التى فيه .

أنكروا الخالق والبعث والإعادة وقالوا : الطبع المحيى والدهر المفنى ، فالجامع هو الطبع والمهلك هو الدهر .

وكان فى العرب صابئون على دين إدريس وإبراهيم ويحيى بن زكريا وقد انقسموا كما انقسم الذين من قبلهم إلى حنفاء ومشركين ، وراح الحنفاء يصومون ويصلون ويستقبلون الكعبة فى صلواتهم ويعظمون مكة ويرون الحج إليها ويحرمون الميتة والدم ولحم الخنزير ، وقال الصابئون المشركون :

ـــ لا سبيل لنا إلى الوصول إلى جلال الله إلا بالوسائط ، فعلينا أن نتقرب إليه بتوسطات الروحانيات القريبة منه .

فعظموا الكواكب السبعة والبروج الاثنى عشر ، وبنوا هيكلا كبيرا للشمس وهيكلا للقمر وهيكلا للزهرة وهيكلا للمشترى وهيكلا للمريخ وهيكلا لعطارد وهيكلا لزحل وهيكلا للملة الأولى ، واتخذوا لكل كوكب صنما ومذبحا وراحوا يقربون لها القرابين ويصلون لها خمس صلوات فى اليوم والليلة .

ونشأ أبناء قريش فى ظل هذه الوثنية التى تفرق فيها المكيون شيعا وأحزابا دينية ، فقاسوا من التحلل الاجتماعى الذى كان الناس غارقين فيه ، ومروا بذلك الطور الذى مرت به كل الدول المتحللة قبلهم ، طور الموت فى الحياة ، فاندثرت تلك الحضارة التى تكونت حول الحرم أو كادت ، ولولا القوافل التجارية الخارجة من مكة أو العائدة إليها لأسنت الحياة فى الوادى المقدس

الذى دنسته الأصنام التى تكدست فى جوف الكعبة .

غطيت سفوح الجبال التى تحيط بوادى مكة إحاطة السوار بالمعصم بدور من حجارة ، وخباء من صوف ، وبجاد من وبر ، وفسطاط من شعر ، وسرادق من قطن ، وقشع من جلود ، وحظائر للإبل من شذب الأشجار ، وخيام من عيدان الشجر . وما كاد الصبح يتنفس حتى خرج الرجال والنساء والصبيان والعبيد من الدور وانحدروا إلى بطن الوادى ليطوفوا بالبيت العتيق يلتمسون من آلهتهم الخير والبركة ، فقد كان ذلك اليوم يوم انطلاق قافلتهم التجارية إلى بلاد فارس التى امتد سلطانها حتى كاد يغطى وجه الأرض .

وخف التجار إلى الملتزم يعدون البضائع ويحررون العقود ، فجلسوا بين باب الكعبة والحجر الأسود يتحاسبون ، فمن كان لا يحسن الكتابة يعد بالحصى ، حتى إذا انتهى من عده رفع رأسه وقال للكاتب :

— أحصيت .

ثم يملى على الكاتب عدد ما أحصاه فيدونه فى العقد ويشهد عليه الشهود ، وكان الكاتب يستخدم لتدوين الأرقام حساب عقود الأصابع ، فعند العشرة تجعل السبابة حلقة والعشرين تجعل الإبهام بين السبابة والوسطى ، والثلاثين تجعل رأس السبابة على رأس الإبهام ، والأربعين تجعل رأس الإبهام جالسا ، والستين تجعل ظهر رأس الإبهام على العضل الأعلى من باطن السبابة ، والسبعين تجعل رأس الإبهام على العضل الأسفل من باطن السبابة ، والثمانين تجعل رأس السبابة على ظهر الإبهام ، والتسعين تجعل السبابة حلقة غير مجوفة ، والمائة تجعل رأس السبابة اليسرى كما جعلت اليمنى فى العشرة ، والمائتين تجعل الإبهام اليسرى كما جعلت اليمنى فى العشرين .

وهبط إلى الوادى مالك بن النضر وحوله نفر قليل من قريش ، إخوته من النضر وأبناؤه وأبناء إخوته ، فما كان العهد قد طال على قريش فما ووري النضر التراب إلا من سنين ولا تزال سيرته تتردد فى جنبات مكة ورجع صوته لا يزال يرن فى الوادى الذى ران عليه الجهل بعد أن كان منارة التوحيد .

وطاف مالك ومن معه من قريش بالبيت العتيق ، ولما أتموا الطواف انطلق كل منهم إلى معبد إلٰهه أو إلاهته يطوف به ويقدم إليه القرابين ، فذهب فريق إلى معبد اللات وفريق إلى معبد العزى ، وانتظر فريق حتى تنطلق القافلة إلى المشلل بين يثرب ومكة ليطوف بصنم مناة وكان منصوبا على ساحل البحر الأحمر ، ليسأل الربة أن تهبه الحظ والتوفيق .

كان مالك زعيم القافلة المنطلقة إلى فارس وكان التجار يتفاءلون به ، فما من مرة خرج فيها على رأس تجارتهم إلا وعاد إليهم بالربح الوفير . وكان مالك مولعا بالتجارة يتمادح بكسب المال وقد كسب منه الشيء الكثير حتى إن إبله كانت تغطى سفوح مكة ، ولكن فكره كان فى هذه الرحلة مشغولا بشيء أعظم من البيع والتجارة ، كان يفكر فى عداوة سابور ذى الأكتاف للعرب وتنكيله بهم .

إن سابور ذا الأكتاف سوط عذاب يبعث الرعب فى قلوب العرب جميعا ، وما كان أحد من العرب يدرى لذلك الاضطهاد من سبب ، فلماذا لا يذهب مالك إلى قصر سابور ويلتمس المثول بين يديه ثم يسأله عن مبعث كراهيته لأقوام لم تبد البغضاء من أفواههم ولا من أفئدتهم .

واستراح مالك لذلك الخاطر واستولى على لبه ، واستحوذت عليه فكرة أن يحرر العرب من بطش سابور ومن ذلك الهلع الذى استبد بهم ، فقد كان

الرعب يزلزل كيان الرجال إذا ما طاف بأذهانهم احتمال وقوعهم فى يد ذلك الطاغية وثقب أكتافهم .

وخرجت القافلة من مكة تضم العدنانيين والإياديين والنزاريين والمضريين والخزاعيين والبطون التى تفرعت عن عدنان بن أدد وآثرت أن تلوذ بالحرم تمضى الحياة فى كنفه وفى حمايته . وكان فى القافلة حفنة من قريش ، فما كانت قريش قد كثر عددها ، وإن كان على رأسها ابن قريش البكر مالك ابن النضر .

وانطلقت القافلة فى معبد الله يتجاوب فى أرجاء الصحراء صوت الحادى يشق السكون الذى ران على الكون ، ويحث الإبل على الإسراع ويذهب عنها الملل والكلال .

وراح ذهن مالك يسبق الزمن فكان يرى نفسه بعين خياله فى قصر سابور ذى الأكتاف يطلب مقابلة الشاهنشاه ويتلمس الأمان ، وكانت الصور تتتابع فى رأسه وينعكس أثرها على محياه ، فكان يعبس إذا احتلت صفحة ذهنه خيالات سابور وهو يأمر بالقبض عليه وخلع أكتافه والتنكيل به ، وما تلبث أساريره أن تنبسط إذا ابتدع خياله صور الترحيب به ونجاح سفارته .

وراحت القافلة تطوى الأرض فى الليل والنهار تنزل فى منازل العرب على طول طريق القوافل الذى يربط بين مكة والعراق ، حتى لاحت لهم أرباض الحيرة فأغذوا السير ليدخلوا جنة العرب ، لينعموا بطيب هوائها ومروجها الخضر بعد لفح الشمس وجدب الصحراء .

وحطت القافلة رحالها فى الحيرة وخف الرجال إلى أسواقها يبيعون الطيب والذهب والفضة ويشترون القمح والحبوب وخيرات الأرض الطيبة ،

وانطلق مالك بن النضر إلى قصر الحاكم العربى الذى خضع الفرس له لعله يجد عنده الشفاعة لدى سابور الذى صب جام غضبه على العرب جميعا .

وسار مالك بن قريش يتلفت ، كانت الحيرة غاصة بالبيع والكنائس فقد اعتنق عرب الحيرة المسيحية على مذهب اليعاقبة ، وكانوا يعتقدون أن للمسيح طبيعة واحدة ، ولم يكونوا على مذهب المسيحيين الغربيين أعداء سابور ، فقد كان مسيحيو الغرب على مذهب النسطوريين القائل : إن القتل وقع على المسيح من جهة ناسوته لا من جهة لاهوته ، « وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءتهم البينة . وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة » .

وبلغ مالك بن النضر القصر فدخل على عمرو بن امرىء القيس البدء حاكم الحيرة ، فرحب به وأجلسه إلى جواره ودار الحديث حول الدين بين عمرو ومن عنده من أتباع مانى فلاحت الدهشة فى وجه مالك ، فقد كان عمرو رجلا محاربا حتى أطلق عليه « مسعر الحرب » ، وكان مالك يتوقع أن يكون الحديث حول الطعن والنزال ومجالدة الأبطال وما دار بخلده أن يسود المجلس حديث الروح .

كانت الصلة طيبة بين مانى وأتباعه وبين ملوك الحيرة ، فقد زعم مانى أنه « الفارقليط » الذى بشر به المسيح ، وكان عمرو مسيحيا يؤمن بالمسيح فدار الحديث حول البشارات فى الإنجيل ، كان أتباع مانى يرددون الآيات المتعلقة بالفارقليط : « ولكن الذى يأتى بعدى هو أقوى منى ، الذى لست أهلا أن أحمل حذاءه ، هو سيعمد بالروح القدس » . « إن كنتم تحبوننى فاحفظوا وصاياى وأنا أطلب من الرب فيعطيكم الفارقليط آخر ليمكث معكم إلى

الأبد » . « وأما الفارقليط الروح القدس الذى سيرسله الرب باسمى فهو يعلمكم كل شىء ويذكركم بكل ما قلته لكم » . « متى جاء الفارقليط الذى سيرسله إليكم الرب هو روح الحق الذى من عند الرب ينبثق فهو يشهد لى وتشهدون أنتم أيضا لأنكم معى من الابتداء » . « لكنى أقول لكم الحق إنه خير لكم أن أنطلق لأنه إن لم أنطلق لا يأتيكم الفارقليط » ، وكان المسيحيون يلقون إليهم السمع فى طمأنينة وهدوء .

وظل مالك بن النضر فى مجلسه يتململ ، كان يتلهف على انتهاء ذلك الحديث ليحدث عمرو عن سفارته إلى سابور ليضع عن العرب اضطهادهم الأليم . ولو أن مالك استطاع أن يخترق ببصره حجب الغيب لرأى أن « الفارقليط » الذى كان القوم يتحدثون عنه سيأتى من صلبه ليملأ الدنيا نورا ورحمة .

وانفض الجمع ولم يبق فى المجلس إلا عمرو بن امرىء القيس البدء ملك الحيرة ومالك بن النضر زعيم قافلة المكيين وشيخ قريش ، فراح مالك يبث عمرا نجواه ويستثيره فيما عقد عليه العزم ، فشجعه عمرو على إنفاذ سفارته وراح يمده بنصائحه ويبصره فيما ينبغى أن يقول ويفعل وهو بين يدى سابور شاهنشاه فارس وما حولها من البلدان .

واستأنفت قافلة المكيين رحلتها ، غادرت الحيرة وانطلقت إلى مدينة طيسفون محلة سابور ، فلم يعد إقليم فارس وعاصمته إصطخر صالحين لإقامة الشاهنشاه بعد أن صارت بلاد ما بين النهرين المركز الرئيسى للإمبراطورية ، ولم تكن طيسفون بعيدة عن الحيرة ، فما لبثت القافلة أن وقفت أمام أسوار المدينة العظيمة تنتظر الإذن بالدخول .

كانت المدينة على شاطئ دجلة الشرقى تحوطها أسوار حصينة عليها أبواب محكمة وأبراج عالية ، وقد وقفت الحراس بأسلحتهم الماضية يحرسون الأبراج والأبواب ، ووقف الموظفون يجبون المكوس من القوافل ثم يفتحون لها الأبواب ويسمحون لها بالانطلاق إلى الأسواق العامرة بكل ما فى الأرض من تحف وخيرات .

وانسابت القافلة على الجسر الجديد الذى شيده سابور واتخذت طريقها إلى السوق ، وكل من فيها من المكيين يحلم بالربح الوفير إلا مالك بن النضر فقد راح قلبه يخفق وأرهفت حواسه وانثالت الأفكار على رأسه تسابق الزمن وتتخيل ما قد تتمخض عنه مقابلته للشاهنشاه من أمور .

وبلغت القافلة مكان تجمع القوافل فحطت رحالها ، وسرعان ما ألهت التجارة الرجال عن كل ما حولهم وانغمسوا فى البيع وقد تهللت الوجوه بالفرح بعد أن عرفت عملة سابور الذهبية والفضية طريقها إلى رحالهم .

وظل مالك فى قلقه يتلفت بعيون زائغة ، وأراد أن يقضى على ذلك الخوف الموار بين ضلوعه فانسل من السوق واتخذ طريقه إلى قصر سابور ليمضى رسالته ويواجه مصيره .

كانت الجدران مزينة بنقوش سعف النخل وزهور وبراعم وتيجان من الورد ونقوش التوريق ، وأشكال حيوانات وصور دببة وخنازير وحشية ، وكانت أنقاض الكاتدرائية التى ضربت إبان ولاية سابور تشوه جمال المكان ، ولكن شيخ قريش ذهل عن كل ذلك بصورة بشعة ملأت رأسه ، صورة سابور وهو ينقب أكتافه ويذيقه العذاب الأليم .

واشتعل كيان مالك بالخوف وراحت وسوسات منبعثة من وجله تحرضه

على أن ينكص على عقبيه وأن يعود أدراجه قبل أن يضع رأسه بين براثن وحش متعطش إلى دماء العرب أجمعين ، إلا أنه راح يقاوم مخاوفه ويطمئن نفسه بأن سابور لا يخلع إلا أكتاف العرب الذين يقعون أسرى بين يديه فى إبان الحروب .

ولاح لعينى مالك قصر سابور كجوهرة تتألق فى الشمس ، فراح يوسع من خطوه فبدت حدائق القصر الملكى وأشجاره كلوحة رائعة رسمتها يد فنان عظيم ، فتقدم مالك وهو مأخوذ حتى إذا بلغ باب القصر التمس المثول بين يدى الشاهنشاه ملك الملوك رفيق النجوم .

وأذن لشيخ قريش بالدخول فانطلق فى حديقة تمرح فيها الغزلان ، ثم دلف من الباب الداخلى إلى قاعة زينت بتهاويل ونقوش وتماثيل ، وانساب إلى جناح وزير القصر ليتلقى ما ينبغى عليه أن يفعله وأن يقوله لعابد مزدا الإلـٰه سابور .

وسار مالك إلى قاعة العرش بين صفين من الجنود وهو مسحور ، وفتح الباب وتقدم العربى خطوات وما لبث أن خر ساجدا وهو يقول :

ـــ مولاى عابد أهورا مزدا ، الإلـٰه سابور ، شاهنشاه إيران وغير إيران ، سليل الآلهة ، رفيق النجوم أخو الشمس والقمر ، ألتمس منك يا مولاى الأمان .

وانتفخت أوداج سابور وأعطى مالك سؤله وأجلسه إلى جواره ، ودار الحديث بين الشاهنشاه وشيخ قريش ، حتى إذا اطمأن مالك إلى سابور قال له :

ـــ جئت يا مولاى وفى صدرى سؤال يتردد ، أيأذن لى رفيق النجوم أن أفصح عما بى ؟

فقال له سابور وهو يفحص عنه بعينين نفاذتين :

ـــ قل : إنى ألقى إليك سمعى .

فجمع مالك شتات نفسه وقال فى هدوء :

ـــ لماذا يا سليل الآلهة وأخا الشمس والقمر تضطهد العرب ؟

فقطب سابور جبينه ولاح فى وجهه الجد ، ثم قال وهو شارد :

ـــ قال المنجمون إنه سيظهر فى العرب رجل تزول على يديه دولة فارس ويمحق دينها .

فقال مالك :

ـــ ربما كذب المنجمون يا مولاى .

فاعتدل سابور وقال فى رنة ملؤها الخوف :

ـــ ونبوءة ساسان !؟

ـــ وبماذا تنبأ ؟

فقال سابور كأنما يقرأ من كتاب مفتوح :

ـــ حينما يفعل الفرس أفاعيل شريرة يظهر رجل من العرب ، فيأخذ سرير الملك ويقع المذهب فى قبضته ، ويصبح الرؤساء مرءوسين له ، ويجعل مكان تماثيل الآلهة ومواقد النيران المقدسة بيتا معمورا بلا صور ولا تماثيل .

سيأخذ العرب معابد المجوس وستقع فى أيديهم توس وبلخ وبقية بقاعنا العظيمة . لا لم يكذب المنجمون .

ـــ إذا كانوا صادقين فليقولوا من أية قبيلة ذلك الرجل .

ـــ لو عرفوا من أية قبيلة ذلك الرجل لأفنيت تلك القبيلة وما سفكت دماء العرب أجمعين .

ـــ إذا صدق المنجمون وكان ذلك واقعا ، أيمنع سفك مولاى لدماء العرب وقوعه ؟

وبهت سابور لكأنما كان قول شيخ قريش جديدا عليه ، والحق أنه لم يخطر له على بال . أعماه غضبه عن تلك الحقيقة البسيطة ، إن كانت نبوءة ساسان ونبوءة المنجمين واقعة فلا جدوى من القتل والتنكيل ، فلا يمنع حذر من قدر ، لقد كان مأفونا يوم أن قرر أن يكتم أنفاس أناس يطوى الغيب لهم فى جوفه سلطانا مبينا ، فالتفت سابور إلى مالك بن النضر وقال فى تسليم :

ـــ صدقت ، لا سلطان لى على ما سيكون .

وقرأ مالك فى وجه سابور القهر فاطمأنت نفسه وعادت إليه شجاعته ، واستشعر أنه أصبح سيد الموقف فقال :

ـــ يا أخا الشمس والقمر وسليل الآلهة ! ترفق بالعرب حتى يترفق بكم ذلك الذى سيظهر فى العرب ويظهره الله عليكم .

ونظر سابور إلى مالك فى إكبار فإن كان قوله بسيطا إلا أنه كان حكيما ، أشار عليه بما لم يشر به حكماء مملكته ، وضايق سابور ، من قال عنه مانى إنه المسيح الجديد ، أنه عاند القدر فقال لمالك :

ـــ لقد وضعت القتل والتعذيب عن العرب .

وتهللت أسارير مالك بن النضر وقام وهو يشكر عابد أهورا مزدا الإلـٰه سابور سليل الآلهة رفيق النجوم أخا الشمس والقمر ، وغادر محرر العرب قصر الشاهنشاه وهو مفعم بالفرح لنجاح سفارته . ولو اطلع سابور على

الغيب لرأى أن الذى بشر به المسيح سيأتى من صلب ذلك الرجل ، وأن خليفته الثانى هو الذى سيأخذ سرير ملك الساسانيين ويقضى على دين المجوس وسيطفئ النار المقدسة ويحطم تماثيل الآلهة ويوجه وجوه الإيرانيين إلى البيت المعمور ، وستقع توس وبلخ وبقية البقاع العظيمة فى يده ، وسيصبح الرؤساء مرءوسين له يدينون بدينه ويشهدون برسوله .

٧

رانت الفوضى على إمبراطورية روما الوثنية ودب فيها الضعف الإدارى وترنحت من الوهن المالى ، وانتقل شطر عظيم من السطان فيها إلى أيدى ذوى الطموح من الجند ، ولاح الخطر على حدودها فإمبراطورية فارس الفتية تقرع أبوابها بين الفينة والفينة .

وكانت الثروة موزعة توزيعا غير عادل ، فبينا كان هناك كثيرون من أصحاب الملايين فقد كانت ولايات بأكملها غارقة فى الفقر حتى آذانها . وظلت الإمبراطورية تعانى من اضطراب ميزانها التجارى فالواردات من الهند والصين والدول الشرقية تتجاوز صادراتها . وكانت الأديان القديمة لا تزال هى أديان الكثرة الغالبة من سكان الإمبراطورية ، فأما اليهودية فقد ضمت فى مجامعها المتفرقة المطرودين من أتباعها بعد أن عضهم الفقر بنابه وراحت تنفس عن تقواها بترتيل التلمود . وظل السوريون يعبدون بعلا وإن أسموه بأسماء يونانية ، كما ظل الكهنة المصريون قائمين على خدمة آلهتهم الحيوانية الكثيرة بإخلاص وولاء ، واحتفظت سيبيل وإيزيس ومشراس بأتباعها ، واستمرت النذور والقرابين ترسل إلى آلهة الرومان القديمة فى هياكلها ، وظل المواطنون الذين يتطلعون إلى المراكز العليا فى الدولة يؤدون مناسك دين الأباطرة فى مختلف أنحائها ، لكن هذه الأديان القديمة فقدت حيويتها ولم تعد تثير فى الناس ذلك الإخلاص القلبى الذى يبعث الحياة فى الدين اللهم إلا فى

أماكن قليلة متفرقة .

ولم يكن ذلك الضعف أن اليونان والرومان قد تركوا أديانهم التى كانت ذات يوم جميلة محببة أو قوية صارمة ، بل كان سببه أنهم فقدوا إرادة الحياة وعمدوا إلى الإسراف فى تحديد النسل أو إنهاك الجسم أو الحروب المدمرة ، فقل عددهم إلى الحد الذى أفقد الهياكل عبادها فى الوقت الذى فقدت فيه الأرض فلاحيها .

ولم يجد الفقراء ولا الأرقاء ولا العتقاء قلوبا رحيمة تستشعر إنسانيتهم ، فكانوا يعيشون على عطايا الدولة ، بينا كان الأغنياء يحظون بمباهج الحياة ووسائل الترف المادية التى تفوق كل ما شهده العالم فى ذلك الحين . ولكن تلك الرفاهية كانت معرضة لأحداث فجائية تقطع تدفقها ، فكثيرا ما تعرض مواطنون مسالمون لإهانات أليمة فى أثناء الحروب الأهلية ، وكثيرا ما جرد بعضهم من أموالهم ، وما أكثر الذين استلت أرواحهم من بين أجسادهم ظلما وعدوانا ، فيئس الناس من الدنيا وزالت كل غشاوة كانت تغرهم فيها .

صارت الدنيا مترعة بالرعب والخوف ، فراح الناس يتلفتون باحثين عن الأمان فوجدوا فى الشرق الراحة والسلوان ، فتسربت من الشرق إلى الغرب العقائد ذات الشعائر السرية الخاصة بإيزيس والأم العظيمة ، فراح أتباع تلك العقائد والمتشيعون لها يزدادون على مر الأيام ، وفى غمار الطقوس السرية والرياضيات التى تفرضها هاتان الربتان كان المتبرمون بذلك العالم يمارسون شعائرها ليصلوا إلى الحقيقة العليا .

كانت هذه النحل حبيبة إلى قلوب الحصفاء البصيرين بأمور الدنيا والمكدودين المرهقين ، ولكن الجند وكل ذى همة من الرجال كانوا يفضلون

العقيدة المثرائية التى تسربت إليهم من إيران فكانوا يعبدون أبو للون الشمس التى تقهر ، وما وافى القرن الثالث الميلادى حتى كانت المثرائية منتشرة فى طول البلاد وعرضها .

وتسربت المسيحية من الشرق إلى الغرب بتصوفها ورموزها وراحت تدعو إلى المساواة بين العبد والإمبراطورية ، وتقول إن الناس سواسية عند الله لا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى ، فوجدت آذانا واعية بين الفقراء والطبقات الدنيا .

وراحت المسيحية تنشر المحبة والأخوة البشرية بين الناس فدخل محبو الإنسانية فى دين الله أفواجا ، ووجدوا فى فلسفة الآخرة الرجاء والمأوى ، ومزج بولس منذ أيام المسيحية الأولى بين دين المسيح والفلسفة الإغريقية فوجد الرومان فى الدين الجديد ما يشبع تلهفاتهم من تصوف وحب للرمز والرمزية ، فاعتنقوه وألقوا سمعهم إلى أساطير القديسين ومعجزاتهم فامتلأت أفئدتهم بالنشوة .

ونفت سوق العرافة والسحر وربت وانداحت خرافة « مس الشياطين » حتى أصبحت علما . وتسللت الخرافات الوثنية إلى دين السيد المسيح فصارت أعمدة ضخمة من دعائم الكنيسة المسيحية ، وحتى الفلسفة نفسها سارت فى الطريق الشعبى لترضى الدهماء ، فتدهورت الفلسفة الرواقية فى الغرب ومس السقم الأفلاطونية الحديثة لما سرت فى أحشائها الشعوذة والسحر وران عليها الشرك .

وحاولت الوثنية أن تحمى نفسها من المسيحية فقام سلسس Celisus وهو رجل من رجال الدنيا الذي يمتعون أنفسهم بنعيمها ، ولم يكن كالفلاسفة

يهاجم المسيحية فى ضراوة وينقد ما فى الكتاب المقدس من أمور ، ويبين ما بين موت المسيح وقدرته الإلـٰهية من تناقض .

وروع سلسس انتشار المسيحية وعداؤها للوثنية ، وكان يحس أن الحضارة التى يستمتع بها مرتبطة أشد الارتباط بالدين الرومانى ، وأفزعه أن المسيحية تزدرى الخدمة العسكرية والدولة فقال :

ـــ كيف تستطيع الإمبراطورية أن تحمى نفسها من البرابرة الذين يحومون حول أطرافها فى جميع جهاتها إذا خضع أهلها لهذه الفلسفة المسالمة ؟

كان يرى أن من واجب المواطن الصالح أن يدين بدين بلاده والعصر الذى يعيش فيه دون أن ينتقد علنا ما فيه من سخافات لأن هذه السخافات لا أهمية لها ، أما الشيء المهم حقا فهو أن يكون للدولة دين يوحدها ويعين على الخلق الكريم ويثبت قواعد الولاء لها .

ونسى سلسس ما صبه على المسيحية من إهانات فدعاهم إلى أن يعود إلىّ الآلهة القديمة وأن يعبدوا عبقرية الإمبراطور الحارسة ، وأن ينضموا إلى سائر مواطنيهم فى الدفاع عن الإمبراطورية التى يتهددها الخطر ، غير أن أحدا لم يلق بالا إلى هذه الدعوة ، وغاب عن فطنه سلسس أن الدين الميت لا يستطيع أن ينجى روما من الدمار الذى يتهددها .

أنشأ الفيثاغوريون الجدد والأفلاطونيون الجدد من نظرية فيثاغورس فى تناسق الأرواح وآراء أفلاطون فى الأفكار الإلـٰهية نظاما فى الزهد أرادوا به أن يقووا الإدراك الروحى بإماتة الحواس الجسدية ، وأن يعودوا بتطهير أنفسهم إلى صعود المراقى التى انحطت بها الروح من عالم السموات وسكنت فى جسم الإنسان . وفى ذلك الوقت كسبت الكنيسة طائفة من المؤبدين كانوا أحصف

عقول الإمبراطورية ، وقد وهب هؤلاء المؤمنون المسيحية فلسفة انتصرت على أعدائها بحججهم القوية .

وكان جستين من هؤلاء المؤمنين الذين انبروا للدفاع عن دينه الجديد فحكم عليه بأن يلقى للوحوش لأنه أبى أن يرتد عن دينه ، فكتب وهو فى طريقه إلى روما :

« فليعلم جميع الناس أنى أموت طائعا فى حب الله إذا لم يحل أحد بينى وبين الموت . وأتوسل إليكم ألا تأخذكم بى رأفة أرى أنها فى غير أوانها بل اتركونى تنهشنى السباع حتى أصل عن طريقها إلى الله .. ألا ما أشد شوقى إلى الوحوش التى أعدت لى » .

وأعدم جستين السامرى وقام من بعده إيرينيوس أسقف ليون يحارب الإلحاد ، وكان إيرينيوس يشفق من تفرق المسيحية إلى شيع كثيرة فقال :

ـــ لا سبيل إلى منع المسيحية من أن تتفرق فتصبح ألف شيعة وشيعة إلا أن يرضى المسيحيون بالخضوع لسلطة واحدة تحدد لهم مبادئ دينهم ، وتلك السلطة هى قرارات مجالس الكنيسة الأسقفية .

وقام قرطاجنى يدافع عن المسيحية بعد إعدام جستين السامرى ذلك هو ترتليانس ، وقد درس البلاغة ثم اشتغل بالمحاماة عاما واحدا فى رومة واعتنق المسيحية فى كهولته وتزوج بمسيحية ونبذ كل اللذائذ الوثنية واستخدم جميع الفنون والأساليب التى عادت عليه من تعلم البلاغة للدفاع عن الدين المسيحى . كانت المسيحية اليونانية فلسفة لاهوتية صوفية ، فلما اعتنق ترتليان دينه الجديد جعل المسيحية اللاتينية دينا أخلاقيا قانونيا عمليا ، وقد أصبحت الآداب المسيحية فى الغرب على يديه لاتينية وأصبح الأدب اللاتينى

مسيحيا .

كان الحكام الرومان فى قرطاجنة يتهمون المسيحيين بعدم الولاء للدولة ويحاكمونهم على هذه التهمة ، فكتب ترتليان رسالة باسم الدفاع جاء فيها :
« إن المسيحيين لا ينقطعون عن الدعاء لجميع الأباطرة وسلامة الأسرة الحاكمة ، ويطلبون إلى الله أن يهب البلاد جيوشا باسلة ومجلس شيوخ وفياً أمينا وأن يمن على العالم بالهدوء » .

وراح ترتليان يدافع عن عظمة التوحيد ويقول :

ـــ انظروا إلى ما تشهد به النفس ذاتها وهى بفطرتها مسيحية .

وأصدر كتابه المسمى « فى المسرح » وصف فيه المسارح الرومانية وصفا ساخرا فقد قال عنها : إنها حصون البذاءة . ووصف المدرجات التى كان يتصارع فيها العبيد حتى الموت على مرأى من النظارة المتهللين بالفرح فقال عنها إنها أكبر دليل على قسوة الإنسان على أخيه الإنسان .

وختم مشاهد مسرحه بذلك الوعيد المرير .

ـــ وستشهدون مناظر أخرى ـــ مناظر اليوم الخالد الأخير يوم الحساب .. يوم يحترق هذا العالم الذى بلغ سن الشيخوخة ولا يزال يحترق أهله جميعا فى لهيب نار واحدة . ألا ما أروع هذا المنظر فى ذلك اليوم ! وما أشد عجبى وأعلى ضحكى وأكثر ابتهاجى وطربى حين أرى هذا العدد الجم من الملوك ـــ وكان يظن أنهم ينعمون فى ملكوت السموات ـــ يئنون ويتوجعون فى أعماق الظلام ! ، والحكام الذين اضطهدوا اسم يسوع تذوب أجسامهم فى لهب أشد حرارة من جميع النيران التى أوقدوها .. ضد المسيحيين !

وأرى حكماء وفلاسفة تعلوهم حمرة الخجل أمام تلاميذهم وهم يحترقون

معا ! وممثلى المآسى وهم الآن أعلى صوتا فى مأساتهم مما كانوا فى أى يوم من أيام حياتهم ، واللاعبين ذوى الأجسام اللدنة فى أعماق النار ، وسائقى المركبات تشوى لحومهم على عجلة اللهب !

وراح ترتليان فى شيخوخته يندد بجميع أسباب السلوى عدا سلوى الدين والأمل فى نعيم الآخرة ، فأخذ يخاطب المرأة بأوقح الألفاظ ويصفها بأنها الباب الذى يدخل منه الشيطان .

ورأى ترتليان الأساطير تطمر تعاليم السيد المسيح فلم يقبل فكرة موت ابن الله ولا قيامه من بين الأموات ، وندد بجميع الآباء الذين لا يحجبون بناتهم ، وبجميع الأساقفة الذين يغفرون خطايا المذنبين التائبين وانتهى به الأمر أن أطلق على البابا لقب « راعى الزناة » .

وازدهرت الكنيسة فى قرطاجنة ، وكان نماؤها فى مصر أبطأ منه فى قرطاجنة ، حتى إذا ما جاء أواخر القرن الثانى الميلادى قامت فى مدينة الإسكندرية مدرسة لتعليم أصول الدين بالسؤال والجواب ، فاقترنت المسيحية بالفلسفة اليونانية ، ولم يعد المسيح رسول بنى إسرائيل الداعى إلى عبادة الله وحده ، بل صار ابن الله الخالد معه ، ولم يكن المحكم بين الناس فى المستقبل بل أصبح هو الخالق الأول للكون . وقد هضمت تقاليد العقل الهلنستى الدينية والفلسفية فكرة المسيح الإلٰه وامتصتها .

ولم تقض المسيحية على الوثنية بل تبنتها ، ذلك أن العقل اليونانى المحتضر عاد إلى الحياة فى صورة جديدة فى لاهوت الكنيسة وطقوسها ، وأصبحت اللغة اليونانية التى ظلت قرونا عدة صاحبة السلطان على السياسة أداة الآداب والطقوس المسيحية ، وانتقلت الطقوس اليونانية الخفية إلى طقوس القداس

الخفية ، وجاءت من مصر آراء الثالوث المقدس . تطورت فكرة أزريس وحوريس وإيزيس وعبادة أم الطفل والاتصال الصوفى بالله ، ذلك الاتصال الذى أوجد الأفلاطونية الحديثة واللاأدرية وطمس معالم العقيدة المسيحية عقيدة الإسلام التى جاء بها كل الرسل منذ أن عرف العالم تاريخ الرسالات .

وجاء من فريجيا عبادة الأم العظمى وأخذت من سوريا تمثيلية بعث أونيس وأسطورة بعل الذى حوكم وصلب وعن يمينه وشماله مجرمان وإطلاق مجرم ثالث يوم المحاكمة ، وقد أطلق على اسم المجرم الذى أطلق سراحه فى تمثيلية محاكمة المسيح براباس . وفى بلاد الفرس جاءت عقيدة رجوع المسيح وحكمه الأرض ألف عام . ولم يكد يمضى على موت المسيح عشرات السنين حتى ابتدع بولص والعالم الوثنى القديم دينا وثنيا أطلقوا عليه المسيحية ، وقد قام الموحدون المؤمنون برسالة السيد المسيح الحقة يناهضون تلك التيارات الوثنية ويحاولون أن يعيدوا إلى الدين القيم نصاعته ووحدانيته .

وفى عام ٢٨٤ انتقلت السلطة فى الإمبراطورية الرومانية إلى دقلديانوس . وكان مدركا تمام الإدراك لحالة الإمبراطورية ، فقد كانت الفوضى ضاربة أطنابها فى أرجائها وكان الكساد التجارى قد ران عليها ، فكرس حكمه كله لتنفيذ برامج إصلاحات بعيدة الغاية والمدى ، فأحل محل قانون العرض والطلب نظاما اقتصاديا تسيطر عليه الدولة ليتغلب بذلك على الكساد ويمنع نشوب الثورات ، ووضع نظاما نقديا سليما بأن عين للعملة الذهبية وزنا وعيارا محددين ، ووزع الطعام على الفقراء بنصف ثمنه فى السوق أو بغير ثمن ، وراح يقيم كثيرا من المنشآت العامة ليوجد بذلك عملا للمتبطلين ، ووضع عددا كبيرا من فروع الصناعة والتجارة تحت سيطرة الدولة ليضمن بذلك

حاجات المدن والجيش ، وقد بدأت هذه السيطرة الكاملة باستيراد الحبوب فأقنع أصحاب السفن والتجارة والبحارة المشتغلين بهذه التجارة أن يقبلوا إشراف الدولة عليها نظير ضمان الحكومة لأرباحهم وعدم تعطلهم .

كانت الدولة من زمن بعيد تمتلك معظم مقالع الحجارة ورواسب الملح والمناجم ، ولكنها خطت فى ذلك الوقت خطوة أخرى فحرمت تصدير الملح والحديد والذهب والخمر والحبوب والزيت من إيطاليا وفرضت نظاما دقيقا صارما على استيراد هذه المواد ، ثم انتقلت بعد ذلك إلى السيطرة على المؤسسات الصناعية التى تنتج حاجات الجيش وبلاط الأباطرة وموظفى الدولة ، وحتمت على مصانع الذخيرة والنسيج والمخابز ألا يقل إنتاجها عن قدر معين واشترت هذا القدر بما حددت له من أثمان ، وألقت على جمعيات الصناع تبعات تنفيذ أوامرها ومواصفات منتجاتها ، فإذا تبينت أن هذه الخطة لم تؤد إلى الغرض المقصود منها أممت تلك المصانع .

وكان دقلديانوس يرى الإمبراطورية أضخم من أن يستطيع إمبراطور واحد أن يحكمها ، فأمر أن يكون للإمبراطورية إمبراطوران يقوم أحدهما فى شطرها اليونانى ويقيم الآخر فى شطرها اللاتينى ، وجعل لكل إمبراطور قيصرا يساعده ويكون وريثه من بعده .

كانت فكرة ألوهية الملك من الأمور المعروفة فى الشرق وكانت بدعة رائجة فى عهد الملكيات الهلينستية : ملكيات اليونان ، إلا أن روما كانت تكره الملكية فاكتفى أباطرتها الأوائل بلقب المواطن الأول ، وسرعان ما رؤى أن من الخير للشعوب المحكومة أن تؤله الإمبراطور فصار دقلديانوس نصف إلـٰه .

ونقل دقلديانوس عن أعدائه الساسانيين كثيرا من مراسمهم وثيابهم

الرسمية ، فلم يعد الإمبراطور يكثر من التنقل بين رعاياه بل أخذ يعيش منعزلا فى بلاط تحكمه المراسيم . وأصبح فى رعاية الخصيان ، وصار على من يطلبون مقابلته أن يسجدوا له وألا يرفعوا رءوسهم قبل أن يأذن لهم .

ولبس دقلديانوس التاج وانتعل بحذاء قرمزى وارتدى أثوابا ذات ألوان أرجوانية ورأى أن من الخير له أن يجد بينه وبين الآلهة نسبا فانتسب إلى جوبتر (المشترى) رب الأرباب ، كما انتسب ملوك بابل إلى مردوخ من قبله .

واحتذى مكسميان قيصر الشرق وقنسطنطيوس قيصر الغرب حذو الإمبراطور ، فادعى مكسميان أنه من نسل هرقل وادعى قنسطنطيوس أنه سليل أبوللون إلٰه الشمس .

وكان الرعايا الرومان على استعداد لعبادة الإمبراطور ولكن المسيحيين رفضوا أن يعبدوا الدولة ، فغضب دقلديانوس وراح يصب جام غضبه على المسيحيين فى كل مكان .

وراحت الاتهامات تلقى جزافا من كلا الجانبين ، من الجانب الرومانى الذى كان ينظر إلى دينه الوثنى على أنه جزء من كيان الحكومة وشعائرها ومن الجانب المسيحى الذى كان ينظر إلى دينه على أنه منفصل عن المجتمع السياسى وأنه أسمى من هذا المجتمع مقاما .

سمى الرومانيون المسيحيين حثالة الناس والبرابرة الوقحين واتهموهم بأنهم أعداء الجنس البشرى ، ورد المسيحيون على ذلك بأن سخروا من الوثنية ومن آلهة الوثنيين ، وراح الوثنيون يقولون إن المسيحيين سحرة متصلون بالشياطين وإنهم يقترفون الخطايا سرا ويشربون دماء الآدميين فى عيد الفصح ويعبدون الحمار ، واتسعت شقة الخلاف بين الفريقين .

وأمر دقلديانوس حكامه أن يهدموا الكنائس المسيحية وأن يحرقوا الكتب المسيحية ، وأن يحلوا المجتمعات المسيحية وأن تصادر أملاكها وأن يحرم المسيحيون من جميع المناصب العامة ، وأن يعاقب بالإعدام كل من يضبط فى أى اجتماع دينى .

وكان المسيحيون فى ذلك الوقت من الكثرة بحيث يستطيعون رد العدوان بعدوان مثله ، فلما قام الجند بإحراق كنيسة نقوميديا ودمروها عن آخرها قامت حركة ثورية فى سورية وأضرم بعضهم النار مرتين فى قصر دقلديانوس بنقوميديا . وألقى القبض على كثير من المسيحيين وسجنوا وعذبوا ، ثم أصدر دقلديانوس أمرا بأن يطلق سراح المسجونين من المسيحيين الذين يعبدون الآلهة الرومانية ، أما من يرفض ذلك منهم فليذق جميع ألوان العذاب التى تعرفها روما .

وقاوم المسيحيون تلك الأوامر فاستشاط غضبا من تلك المقاومة وأمر جميع كبار الحكام فى الولايات بأن يبحثوا عن كل مسيحى وأن يستخدموا معه كل وسيلة مستطاعة لإرغامه على استرضاء الآلهة ، فراح مكسميان ينفذ ذلك الأمر فى إيطاليا تنفيذا عسكريا صارما ، ووقع الاضطهاد فى الشرق على المسيحيين فزاد عدد الشهداء فى كل جزء من أجزاء الإمبراطورية عدا غالة وبريطانيا حيث اكتفى قنسطنطيوس بإحراق عدد قليل من الكنائس .

وراحوا يجلدون المسيحيين بعنف وقسوة حتى كانت لحومهم تنفصل عن عظامهم ، وكان الملح أحيانا والخل أحيانا يصب فى جروحهم ، وكان لحمهم يقطع قطعة قطعة ويرمى للحيوانات الواقفة متلهفة عليها ، وسملت أعينهم ، وعلق بعضهم من يده أو من قدمه ، وصب الرصاص المصهور فى حلوق

بعضهم ، وصلب بعضهم وتركوا للوحوش الضارية لتنهشهم نهشا . ودام الاضطهاد ثمانية أعوام ، وهلك بسببه نحو ألف وخمسمائة من المسيحيين بعضهم من أتباع الدين القيم وبعضهم من الملاحدة ، وكان دم هؤلاء الشهداء البذور التى نبتت منها المسيحية .

واعتزل دقلديانوس العرش فى عام ٣٠٥ وما مرت بضع سنين حتى كان فى البلاد أباطرة أربعة هم ليكينيوس ومكسمين فى الشرق ومكسنتيوس وقسطنطين بن قسطنطيوس فى الغرب ، ولاح فى الأفق شبح الحرب الأهلية .

كان قسطنطين ابنا غير شرعى لقنسطنطيوس من حظيته هلينا خادمة إحدى الحانات ، وانخرط قسطنطين فى سلك الجندية فى سن مبكرة وأظهر بسالة فى الحروب التى خاضها فى مصر وفارس . ولما خلف جليريوس دقلديانوس أبقى الضابط الشاب بالقرب منه ليكون رهينة لديه يضمن به حسن مسلك قنسطنطيوس ، ولما طلب إليه قنسطنطيوس أن يرسل إليه الشاب تلكأ جليريوس فى إجابته إلى طلبه وأظهر فى ذلك كثيرا من الدهاء ولكن قسطنطين فر من حراسه واخترق أوروبا راكبا ليلا ونهارا لينضم إلى أبيه فى بولوُنى ويشترك معه فى حربه لبريطانيا .

وكان جيش غالة شديد الولاء لقنسطنطيوس لما كان يتصف به من الرحمة ، فلما أبصر ابنه الوسيم الشجاع أحبه حبا جما ، ولما مات فى يورك لم يكتف الجند بأن ينادوا بقسطنطين « قيصرا » فحسب بل نادوا به إمبراطورا .

ودارت الحروب بين الطامعين فى الإمبراطورية ، وذهب قسطنطين يريد دخول روما دخول الظافرين . فلما رأى مكسنتيوس غريمه يرفع لواء الشمس التى لا تقهر عقد العزم على أن يستعين بالمسيحيين ، فزعم أنه رأى فيما يرى

النائم أن صوتا يأمره بأن يرسم جنوده حرف × على دروعهم وفى وسطه خط يقطعه وينثنى حول أعلاه ، علامة الصليب ، فأثار ذلك حماسة جنوده المسيحيين ودارت معركة رهيبة انتصر فيها قسطنطين وهلك مكسنتيوس هو وآلاف من جنوده فى نهر التيبر ، ودخل القائد الظافر روما وحيته المدينة ، وأصبح سيد الغرب بلا منازع .

وكان اعتناق قسطنطين للمسيحية حركة بارعة أملتها عليه حكمته السياسية ، وكانت المسيحية عنده وسيلة لا غاية فكان يعامل أساقفته على أنهم أعوانه السياسيون . ولم يكن يعنى بالفروق اللاهوتية التى كانت تضطرب بها المسيحية ولكنه لم يكن يتردد فى القضاء على الانشقاق محافظة على وحدة الإمبراطورية .

وكان أمل قسطنطين أن تظل المسيحية داخل إمبراطوريته وحدة متماسكة إلا أن ذلك الأمل تزعزع قبل مضى عام واحد على اعتناقه المسيحية ، فقد حدث انشقاق شديد الخطورة بين أساقفة قرطاجنة ، وحزن قسطنطين أشد الحزن لما أعقب ذلك الانشقاق من فوضى وعنف ، واستخدم دهاءه فى لم الصدع والتوفيق بين الجماعة المسيحية المتنافرة فى إفريقية ، وما كاد يستريح من ذلك الشقاق حتى قامت فى الإسكندرية أخطر حركة إلحادية فى تاريخ الكنيسة .

انطلق آريوس القس المصرى فى شوارع الإسكندرية بقامته الطويلة . وكان نحيل الجسم مكتئب الهيئة ذا مظهر تبدو فيه آثار خشونة العيش ، وكان يرتدى جلبابا قصيرا من غير كمين تحت ملحفة يستخدمها عباءة ، وكانت تدور فى رأسه أفكار غريبة عن طبيعة المسيح ، وكانت اللهفة تبدو فى وجهه

فقد كان يريد أن يفضى بتلك الآراء إلى أسقفه ألكسندر .

ودخل الكنيسة فأظهرت له العذارى اللاتى نذرن أنفسهن للدين الاحترام والتبجيل ، فقد كان حديثه ظريفا وكانت خطبه مقنعة وكان له من بين رجال الدين عدد كبير من المؤيدين ، وانطلق إلى حيث كان الأسقف وسرعان ما دار النقاش بين الرجلين ، قال أريوس :

ـــ إن المسيح لم يكن هو والخالق شيئا واحدا ، بل كان هو الكلمة أول الكائنات التى خلقها الله وأسماها .

واحتج الأسقف ألكسندر على هذا القول وقال :

ـــ هذا كفر وإلحاد .

وقال أريوس فى إصرار :

إذا كان الابن من نسل الأب فلا بد أن تكون ولادته حدثت فى زمن ، وعلى هذا لا يمكن أن يكون الابن متفقا مع وجود الأب فى الزمن ، وإذا كان المسيح قد خلق فلا بد أن يكون خلقه من لا شىء ، أى من غير مادة الأب ، لأن المسيح والأب ليسا من مادة واحدة . وقد ولد الروح القدس من الكلمة وهو أقل ألوهية من الكلمة نفسها .

وكانت هذه الأفكار منحدرة من أفلاطون عن طريق الرواقيين وفيلون وبذلك أصبحت الأفلاطونية التى كان لها أعظم الأثر فى اللاهوت المسيحى فى نزاع مع الكنيسة .

وأراد قسطنطين أن يخمد هذه الفتنة برسالة بعث بها إلى ألكسندر وأريوس ولكن لم يكن لهذه الرسالة أثر ما ، لأن مسألة اتفاق الأب والابن فى المادة لا مجرد تشابههما كانت فى نظر الكنيسة مسألة حيوية من الوجهتين الدينية

والسياسية ، وكانت ترى أنه إذا لم يكن المسيح إلـٰها فإن كيان العقيدة المسيحية كلها يبدأ فى التصدع .

ودعا قسطنطين أول مجلس عام للكنيسة ليجتمع فى نيقية وفتح بذلك باب بدعة المجامع التى تقرر ما تشاء من أمر الدين ، واجتمع فى مؤتمر نيقية ألفان وثلثمائة وأربعون أسقفا وبطركا وقسا ، ورأس الاجتماع قسطنطين . وراح أريوس يعلن رأيه القائل بأن المسيح مخلوق لا يرقى إلى منزلة الأب ، وراح أثناسيوس رئيس شمامسة الإسكندرية البليغ المشاكس الذى جاء به الإسكندر معه ليقطع به ألسنة معارضيه يحيى أسطورة أزريس وحورس وإيزيس ، فقال :

ــ إذا لم يكن المسيح والروح القدس كلاهما من مادة الأب ، فإن الشرك لا بد أن ينتصر .

ودارت مناقشات حول كيفية تصوير أشخاص ثلاثة فى صورة إلـٰه واحد ، فسلم بما فى ذلك من صعوبة ولكنه قال :

ــ إن العقل يجب أن يخضع لما فيه الثالوث من غموض .

وانتهت المناقشات بإقرار كفر أريوس ونفيه من الإسكندرية ، وكتبوا العقيدة التى اتفق عليها أهل ذلك المجتمع :

« نؤمن بالله الواحد الأحد الأب مالك كل شىء وصانع ما يرى وما لا يرى ، وبالابن الوحيد يسوع المسيح ابن الله ذكر الخلائق كلها وليس بمصنوع ، إلـٰه حق من جوهر أبيه الذى بيده أتقنت العوالم وكل شىء ، الذى من أجلنا ومن أجل خلاصنا بعث العوالم وكل شىء ، الذى نزل من السماء وتجسد من روح القدس وولد من مريم البتول وصلب أيام بيلاطس ودفن ثم

قام فى اليوم الثالث وصعد إلى السماء وجلس على يمين أبيه ، وهو مستعد للمجيء تارة أخرى للقضاء بين الأحياء والأموات ، وتؤمن بروح الواحد روح الحق الذى يخرج من أبيه وبعمودية واحدة لغفران الخطايا وبجماعة قدسية مسيحية جاثليقية وبقيام أبداننا بالحياة الدائمة أبد الآبدين » .

وأثرت الوثنية فى المسيحية كما أثرت من قبل فى اليهودية ، فقد قال اليهود العزير ابن الله متأثرين بالديانة البابلية أيام المنفى ، وقال المسيحيون المسيح ابن الله متأثرين بما قاله أثناسيوس رئيس شمامسة الإسكندرية ، وكانت أسطورة أزريس وحورس وإيزيس متغلغلة فيه حتى النخاع .

وحرقت أناجيل وأقرت الأناجيل الأربعة وأنشأ قسطنطين بعد سنة واحدة من اجتماع المجلس مدينة جديدة وسط خرائب بيزنطة سماها روما الجديدة وسمتها الأجيال التى أعقبته القسطنطينية واتخذها عاصمة له ، ومرت الأيام ولم يهدأ الجدل الدينى بين طوائف المسيحيين : قالت شيعة إن الزواج من الخطايا ، وقالت شيعة إن جسم المسيح لم يكن لحما ودما بل كان شبحا أو خيالا ، ولم تكن شيعة الثيودوتية ترى فى المسيح أنه أكثر من إنسان ، وكانت طائفتان تعتقدان أن المسيح كان بمولده رجلا عاديا ولكنه وصل إلى درجة الألوهية بكماله الخلقى ، واعتقدت الظاهرية والسابلية بأن الأب والابن والروح القدس ليست أقانيم منفصلة بل هى صورة مختلفة يظهر فيها الله للإنسان ، واعتقد اليعاقبة أن للمسيح طبيعة واحدة ، وانقسمت المسيحية إلى ألف شيعة وشيعة .

وفى عام ٣٣٤ م عقد الإمبراطور قسطنطين مجمعا آخر فى صور ألغى قرارات مجمع نيقية ، وصدر قرار بالعفو عن أريوس وأتباعه وقبول تعاليمه ،

ورفع المسيح من عبد الله ورسوله إلى ابن الله كما رفع اليهود العزيز من قبل ، « وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أنى يؤفكون . اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلـٰها واحدا لا إلـٰه إلا هو سبحانه عما يشركون » .

٨

ارتفعت الشمس وراء جبال مكة وراحت تسكب ضياءها فى الدور والخيام ، وغمرت الوادى المقدس بالنور فقام الناس يستقبلون النهار بعبادة آلهتهم ، فسجد عباد الشمس لأصل نور القمر والكواكب ، وراحوا يبتهلون ويدعون فى إيمان عميق ، وراح عباد الأصنام يتمسحون بها لتقربهم إلى الله زلفى ، واغتسل الصابئون الحنفاء منهم والمشركون وراحوا يصلون لفاطر السموات والأرض الحكيم العزيز .

كان الصابئون الحنفاء يؤمنون بالله وملائكته ورسله ، وكان المشركون منهم يعتقدون أن لا سبيل لهم إلى الوصول إلى جلال الله إلا بالوسائط ، فعليهم أن يتقربوا إليه بتوسطات الروحانيات القرية منه فهم أربابهم وآلهتهم وشفعاؤهم عند رب الأرباب وإله الآلهة . فما يعبدونهم إلا ليقربوهم إلى الله زلفى ، وعليهم أن يطهروا نفوسهم عن الشهوات الطبيعية ، ويهذبوا أخلاقهم عن علائق القوى الغضبية ، حتى تحصل المناسبة بينهم وبين الروحانيات وتتصل أرواحهم بهم ، فحينئذ يسألون حاجتهم منهم ويعرضون أحوالهم عليهم ويصبون فى جميع أمورهم إليهم ، فيشفعون لهم إلى إلههم وإله شفعائهم .

ويعتقد الصابئون المشركون بأن التطهير والتهذيب يمكن أن يتحقق بالتضرع والابتهالات بالدعوات فى الصلوات والزكوات وذبح القرابين وإحراق البخور ، فحينئذ يحصل لنفوسهم استعداد واستمداد من غير واسطة الرسل بأن يأخذوا من المعدن الذى أخذت منه الرسل ، فيكون حكمهم

وحكم الرسل واحدا وهم وإياهم بمنزلة واحدة ، وقد قالوا : « والأنبياء أمثالنا فى النوع وشركاؤنا فى المادة وأشكالنا فى الصورة يأكلون مما نأكل ويشربون مما نشرب وما هم إلا بشر مثلنا يريدون أن يتفضلوا علينا » .

وفتحت الدور وانحدر الرجال والنساء من عبدة الملائكة وعبدة الجن وعبدة الأصنام والصابئين الحنفاء والمشركين إلى الوادى المقدس ليطوفوا بالكعبة ، فقد كانوا جميعا يؤمنون بأن لهذا الكون ربا ، وأن هذا البيت بيته قد جعله لهم حرما آمنا بينا يتخطف الناس من حولهم . « ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله » . « ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله » .
« قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون ؟ سيقولون لله » .

« قل من يرزقكم من السماء والأرض أمن يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ومن يدبر الأمر فسيقولون الله » .

وخرج مالك بن النضر زعيم قريش من داره ومن حوله ابنه فهر وبعض الغلمان ، ونظر فتى إلى أعلى وقال فى صوت أقرب إلى الهمس فيه رنة خوف :
— الأعور .

والتفت الرجال إلى حيث نظر الفتى فرأوا غرابا ، وفطنوا إلى أنه كناه مخافة الطيرة فقد كانوا يتشاءمون من الغراب واشتقوا منه الغريب والغربة ، واستشعر فهر فى أعماقه رهبة وإن رفت على شفتيه بسمة باهتة أراد بها أن يطمئن نفسه القلقة ، فقد كان خارجا على رأس عير قريش إلى سوق دومة الجندل .

وطاف مالك وابنه فهر وفتيانه مع الطائفين وهم يبتهلون إلى رب البيت أن يشرح صدورهم وأن يبارك تجارتهم وأن يغنيهم من فضله . وأحس فهر رغبة

فى العطاس ولكنه حبس نفسه من العطاس لأن القوم يتشاءمون منه وراح يبعد وجهه عن عينى أبيه حتى لا يرى فيه أثر القلق الذى استبد به ، فقد استفتح النهار بغراب وألح عليه العطاس وهو يطوف بالبيت الحرام ملتمسا البركة . ترى ماذا يخبئ له القدر فى هذه الرحلة ؟

وانطلق فهر ورجال قريش إلى صنم هبل وكان فى جوف الكعبة ليستشيروه فى أمر السفر ، وقد كان هبل مبجلا عند قريش فإن خزيمة بن مدركة أول من نصبه وكان يقال له هبل خزيمة .

كان هبل من عقيق أحمر على صورة الإنسان مكسور اليد اليمنى ، فلما ازدهرت تجارة قريش جعلوا له يدا من الذهب ، وكان سدنته ذوى نفوذ وسلطان . وقد وضع أمام التمثال سبعة أقداح مكتوب فى أولها صريح والآخر ملصق ، فإذا شكوا فى مولود أهدوا للإلٰه هدية ثم ضربوا بالقداح فإن خرج « صريح » ألحقوا المولود واعترفوا به ، وإن خرج « ملصق » رفضوا المولود ولم يعترفوا به .

وكان من الأقداح قدحان مكتوب فى أحدهما « سافر » وفى الآخر « لا تسافر » ، فتقدم فهر من الكاهن وقدم للإلٰه هدية ، فأخذ الكاهن القدحين وكانا على هيئة سهم ووضعهما فى كيس من القماش ، ثم مد يده وأخرج أحدهما فإذا مكتوب فيه « سافر » فتهللت وجوه سادات قريش فقد أمر الإلٰه بالسفر .

والتقى مالك بأخويه يخلد والصلت ، وقد كان مع يخلد ابنه الحارث ولم يكن مع الصلت أحد من عقبه فإنه لم ينجب ، فخف الحارث إلى ابن عمه فهر وراحا يتناجيان ، وسار القرشيون إلى حيث أناخت عير قريش خارج مكة .

ومر الرجال بشجرة قد حط عليها الطير فزجرها أحدهم فطار ناحية اليمين ، فصاح الرجال فى فرح :

ــ تيامنت .

إنه فأل حسن أن تيامن الطير ، وراح عقل فهر يعمل فقد وقعت عيناه على الغراب أول ما خرج من الدار ، وفاجأه العطاس وهو يطوف بالبيت ، وسرعان ما رضى الإلـٰه عنه فأمره بالسفر وجعل الطير يتيامن ليؤكد له رضاه عنه وعن رحلته ، فاطمأنت نفس فهر لعلامات الرضى والقبول ، وراحت تسدل ستارا على شؤم مطلع النهار .

وبلغ شيوخ قريش وشبابها مكان العير . كان العبيد يقفون إلى جوارها حفاة الأقدام وإن تمنطقوا بالسيوف وجعاب السهام وعلقوا بأكتافهم الأقواس . وراح الفرسان يطوفون حولها على صهوة جيادهم فلما وقعت أعين الناس على سادات قريش خفوا إليهم للترحيب بهم وإلقاء آذانهم إلى أوامرهم وإرشاداتهم .

وتحدث مالك إلى ابنه فهر يوصيه بمن معه ، ثم حان أوان الرحيل فتعانق الرجال . وركب فهر راحلته وأصدر أوامره بالسير فانطلقت العير فى قطار طويل تحمل عز قريش .

وغابت القافلة فى الأفق البعيد فعاد مالك وأخواه ومن معهم من الفتيان إلى الكعبة ، وجلس مالك فى حجر إسماعيل يفكر فى القافلة المنطلقة إلى سوق دومة الجندل ، ويفكر فى تلك الحرب التى اشتدت أوارها بين الفرس والروم ، بين سابور ذى الأكتاف وقسطنطين ، تلك الحرب التى حالت دون انطلاق قوافل قريش إلى أسواق الحيرة وسورية والمناطق الآمنة التى تحولت إلى ميادين

قتال .

إن مالكا يذكر تلك الأيام التى انطلق فيها إلى سابور يلتمس منه رفع مقته عن العرب ، وإنه ليذكر جيدا استجابته له ووعده إياه بأن يكف عن خلع أكتاف من يقع من العرب فى قبضته ، وقد وفى سابور بما وعد ، ولكن مالكا لم يكن يعرف ما انتهت إليه تلك الحرب المشبوبة بين فارس والإمبراطورية الشرقية الرومانية التى أسسها قسطنطين وجعل عاصمتها القسطنطينية . ترى ما الذى يجرى الآن على مسرح الدنيا بين الشرق والغرب ؟

تذرع سابور بالمنازعات الداخلية فى أرمينية ليبدأ الحرب التى أراد بها استرجاع البلاد التى فقدت بهزائم ترسى . واجتاح أرمينية بغير صعوبة ، ثم اصطدم بعد ذلك بالرومان فى الجزيرة وكان قسطنطين قد مات فأشرف خلفة كونستانس الثانى على سير الحرب الرومانية ، وقد ثبتت قلعة نصيبين لهجمات الفرس المتوالية . وظفر الرومان بمعركة سنجار ، ولكن هذا النصر تلته هزائم عديدة ، وبعد ذلك توقفت الحروب على حدود الرومان عدة سنين .

وفى سنة ٣٥٦ وجه موسونياس قائد الحرس الملكى الرومانى إلى المرزبان الفارسى اقتراحا للصلح ، فرفعه هذه إلى الملك سابور وكان قد أمن الحدود الشرقية ، فأرسل سابور سفيرا إلى الإمبراطور كونستانس مع الهدايا ورسالة ملفوفة فى الحرير الأبيض . ودخل السفير على الإمبراطور فى قصره بالقسطنطينية وحياه ، ثم قدم له الرسالة ففضها الإمبراطور وراح يقرأ :

— يحيّى سابور ملك الملوك رفيق النجوم أخو الشمس والقمر أخاه القيصر كونستانس ، وقد أدرك مغتبطا أن الإمبراطور قد أصلح بالتجربة خطأه وعاد إلى الطريق السوى . وقد مد آباؤه (آباء سابور) سلطانهم حتى

نهر ستريمون وإلى حدود مقدونيا ، وأنه هو — كذلك بغير غرور — قد جاوز فى الجلال وكثرة الفضائل الملوك الأولين ، وأن عليه أن يستعيد أرمينية وبلاد الجزيرة اللتين أخذتا غصبا من جده ، وأنا لن نجيز الرأى الذى أجزته فى عتوك ، الرأى الذى يرى كل فوز فى الحرب جديرا بالثناء من غير أن يفرق بين نصر يرجع إلى الشجاعة ونصر أساسه الحيلة الخادعة .

وكما أن الأطباء يكوون أو يبترون أعضاء الجسد أحيانا حتى يستطيع استخدام أعضائه الأخرى ، فعلى الإمبراطور أن يتنازل عن جزء صغير من أرضه على هذه الطريقة ، من الجزء الذى كان مصدر القلق وإراقة الدماء حتى يحكم هادئا باقى مملكته . وإذا عاد السفراء الفرس من غير أن يظفروا بشىء ، فإن الملك العظيم سيسير بكل قواه لحرب الإمبراطور بعد استراحة الشتاء .

وطلب كونستانس كاتبه وراح يملى عليه :

— من كونستانس المظفر فى الأرض والبحر والعظيم دائما إلى أخيه الملك سابور . إن جلالتنا يرفض رفضا خالصا مع لوم شديد للملك الجشع الذى يتزايد جشعه على الدوام ما عرضتموه علينا . وإن كان الرومان قد آثروا أحيانا الحرب الدفاعية على الحرب الهجومية فإن هذا الإيثار لم يكن عن خوف ولكنه عن اعتدال ، وإذا كان الرومان قد اضطربوا فى الحرب فى بعض المعارك فإن النتيجة النهائية للحرب لم تكن تدور عليهم .

وبدأ سابور الحرب بالهجوم على قلعة آمد — ديار بكر — واستولى عليها . وبعد سنتين توفى كونستانس فصار جوليان إمبراطورا واحدا على الرومان فقاد بنفسه الجيوش الرومانية ، وتقدمت جيوش الرومان وحلفاؤهم نحو المدائن ، وقد أثار دهشة المسيحيين الرومان أن العشاء الربانى لا يختلف فى

كثير أو قليل عما يعتقده الفرس ، فعباد هوما النور المقدس الذى مات ثم بعث حيا يعتقدون أن شراب هوما المسكر يتحول إلى دم الإلـٰه ، وأن لحم التقدمة يتحول إلى لحم الإلـٰه ، وأن المؤمن يشرب حقيقة لا مجازا دم الإلـٰه ويأكل لحمه ، فيسرى الإلـٰه فى عروقه مسرى الدم . وأن الحال هو نفس الحال مع عباد المسيح ، فخشى الرهبان المسيحيون أن يفتن ذلك المؤمنين فقالوا إن الشيطان قد أغوى الفرس على فعل ذلك ليزيغ المؤمنين عن إيمانهم ، ولم يقولوا إن بولص استعار فكرة العشاء الربانى من الفرس عباد مثرا .

وصد جيش فارس هجوم الرومان ، وقتل جوليان سنة ٣٦٣ فى المعارك التى تلاحقت ، وسحب خلفه جوفيان الجيوش الرومانية إلى ما وراء الحدود .

وكان مالك بن النضر فى مجلسه فى حجر إسماعيل يتطلع إلى الكعبة وهو يفكر فى الإمبراطوريتين العظيمتين اللتين تتصارعان لبسط سلطانهما على المنطقة ، فطافت بذهنه فكرة : إن فليب العربى قد صار إمبراطورا على الرومان منذ أكثر من مائة سنة ، ترى هل يأتى يوم تكون فيه الإمبراطورية الفارسية والإمبراطورية الرومانية فى قبضة حاكم عربى ؟

ورفت على شفتى مالك بسمة هادئة فقد أنكرت نفسه ذلك الخاطر ، فأين الجزيرة العربية برمالها القاحلة ورجالها الضاربين فى بيداء الحياة من الدولة الفارسية التى عرفت عراقة الحكم ، ومن الإمبراطورية الرومانية التى أقامت أول دولة عالمية فى الأرض ؟ ولم يدر بخلد مالك أن الدول تشيخ كما يشيخ الرجال ، وأن دينا ساميا قادر على أن يبعث فى أرواح المؤمنين به قوة تزلزل الجبال وأعتى الإمبراطوريات .

ومالت الشمس نحو المغيب خلف جبال مكة فنهض مالك ونهض إخوته

وشيوخ قريش وشبابها وراحوا يطوفون بالبيت قبل أن يعودوا إلى دورهم ، وقد شغل فكر مالك بابنه فهر والقافلة المنطلقة إلى دومة الجندل .

وسقط الليل والقافلة منطلقة فى معبد الله ، حتى إذا بلغ الجهد والكلال من الرجال حطوا الرحال ، وأخرج كاهن القافلة تمثال الإلـٰه ليطوف به القوم قبل أن يستسلموا للرقاد وليتمسحوا به ، ولكن الرعب ارتسم فى وجهه ومزق صوته المرتجف سكون المكان ، نادى قائلا :

ــ يا أهل الرحال ! إن ربكم قد هلك فالتمسوا ربا .

فخف فهر إليه ونظر فألفى تمثال الإلـٰه قد انفلق فسرى الخوف فى أوصاله ، وسرعان ما تذكر الغراب الذى وقعت عيناه عليه فى الصباح والعطاس الذى فاجأه وهو يطوف بالكعبة ، وخشى إن استسلم لتطيره أن يفسد مزاج نفسه وأن ينتقل منه التشاؤم إلى كل من خرجوا معه ، فالتفت إلى شباب القافلة وقال :

ــ اركبوا كل صعب وذلول وأتونا بربنا .

وخرج الشباب على رواحلهم ينقبون فى ضوء القمر على حجر يشبه إلـٰههم الذى هلك وذهب كل منهم فى اتجاه ، ووجد أحدهم نفسه فى مفازة وحده فخاف على نفسه من الجن وطوارق الليل ، فعمد إلى وادى ذى شجر فأناخ راحلته فى قاع الوادى وعقلها وخط عليها خطا وهو يقول فى خوف كأنما يخاطب عظيم الوادى ، الجن الذى يبسط عليه سلطانه ! .

ــ أعوذ بصاحب هذا الوادى .

ثم راح يتلفت وهو مرعوب يبحث عن إلـٰهه أو شبيهه .

وأحس شاب آخر الخوف فراح يتحسس صدره ، فلما وجد أنه قد علق

كعب الأرنب فى عنقه اطمأن قليلا فالجان لاتقرب كعب الأرنب وتتحاشاه بينا تمتطى كعب الثعلب ، وهبط عن راحلته وراح ينقب عن إلٰهه وهو يترقب .

وتصرمت ساعات وأقبل الشباب على القافلة فرحين ، ونادى مناد منهم وهو يكاد يطير من السرور :

— إنا وجدنا ربكم أو شبهه .

فخف إليه الرجال ينظرون وما أسرع أن تهللت الأسارير . كان الحجر الذى عادوا به يشبه تمثال إلٰههم ، فأخذه الكاهن وقد تهلل بالفرح ، ثم غسله ووضعه فراحوا يطوفون به وينحرون عليه الجزور .

وبلغت القافلة سوق دومة الجندل أول يوم من ربيع الأول ، فما إن رآها الأهلون ، حتى قالوا :

— عير قريش .. عير قريش .

ونزلت القافلة فى مكانها بين سائر قوافل العرب ، وجاء صاحب دومة الجندل وافتتح السوق وراح يراعى الناس ويقوم بأمرهم . وبدأ البيع والشراء والأخذ والعطاء ، وقد عرفت المبايعة فى هذا السوق ببيع الحصاة ، وارتفع الصخب قال بائع :

— ارم هذه الحصاة فعلى أى ثوب وقع فهو لك بدرهم .

وقال آخر لمن جاءه يشترى منه أرضا :

— أبيعك من أرضى ما انتهت إليه رمية الحصاة بكذا دينار .

وباع آخر سلعة وقال للمشترى وهو يقبض من الحصاة قبضة :

— لى بكل حصاة درهم .

واعترض رجل قطيعا من الغنم وقال لصاحبه بعد أن أخذ حصاة :

ـــ أى شاة أصابتها الحصاة فهى لى بكذا .

واستمر أكل الأموال بالباطل وانتعش البيع والشراء ، ففى الناس ميل للحظ والقمار . ومرت الأيام حتى إذا ما أتم السوق أجله عادت قافلة قريش بالخيرات وبعملة سابور ذى الأكتاف وقسطنطين على السواء ، فقد ورد السوق العباديون عرب الفرس والغساسنة عرب الروم ، وقد شهدت الليالى أعنف المناظرات بين مسيحيى الشرق ومسيحيى الغرب .

قال بعضهم برسالة المسيح ، وزعم بعضهم الآخر أن المسيح ابن الله ، وهو من أب قديم كان اتصاله بمريم تجسد كلمة منه مازجت جسد المسيح وتدرعت به ، فكان مجموع الكلمة والجسد ابنا ، وهو ناسوت كلى قديم أزلى ، وولدت مريم إلـٰها أزليا . « وقال اتخذ الله ولدا سبحانه بل له ما فى السموات والأرض كل له قانتون » .

﴿ وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلـٰهين من دون الله قال سبحانك ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق . إن كنت قلته فقد علمته تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك إنك أنت علام الغيوب . ما قلت لهم إلا ما أمرتنى به أن اعبدوا الله ربى وربكم وكنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شىء شهيد ، إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم ﴾ .

٩

كانت الصداقة متينة بين قسطنطين وعيزان نجاشى الحبشة ، وكان النجاشى يلقب فى ذلك الوقت بملك أكسوم وحمير وذو ريدان والحبشة وسبأ وسلح وتهامة والبجاء ملك الملوك . وقد جاء المبشرون المسيحيون من الدولة الرومانية الشرقية ليدعوا الناس فى الحبشة لاعتناق دين المسيح ، ومنها دخلوا أرض اليمن فقد احتلت الحبشة اليمن ردا على الغزو الذى قام به « ملوك سبأ وذى ريدان » من قبل على السواحل الإفريقية وعلى الأرضين التابعة لمملكة أكسوم .

كان ريدان قصر ملوك حمير فى ظفار ، وقد انطلق منه السبئيون قبل الميلاد واحتلوا القسم الأكبر من أرض الحبشة والسواحل الإفريقية المقابلة لبلاد العرب . وقد هب الأحباش لطرد العرب وقد ظفروا بذلك وأسسوا مملكتين هما مملكة أدولس ومملكة أكسوم ، وسرعان ما انتزعت أكسوم السلطة من منافستها فصار لها الحكومة والملك .

ولم تكتف حكومة أكسوم بانتزاع الحكم من السبئيين بل راحت تقتفى أثرهم حتى استولت الحبشة على اليمن ، وتربع على عرش بلقيس عيزان نجاشى الحبشة . ولكنه لم يعرف الاستقرار طويلا فقد ثار أهل « بجة » و« كسو » والشعوب الإفريقية التى خضعت لحكم « أكسوم » والساكنة فى جنوب الحبشة فانتهز اليمانيون هذه الفرصة المواتية فطردوا الأحباش عن ديارهم .

وملك اليمن كرب يهامن وقام هو وابناه أبو كرب أسعد ورا أمر أيمن ببناء معبد لرب السماء ، فقد أثرت المسيحية فى دين القوم فأعرض الملوك عن

آلهتهم القديمة فلم يعودوا يعبدون المقة وذات حميم ، القمر والشمس ، بل صاروا يعبدون رب السماء « ذو سموى » فراحت اليمن تسير نحو التوحيد فقد خطت خطوة نحو تصفية الحساب مع العقيدة الوثنية القديمة التى تعترف بآلهة عديدة مع الآلهة المحلية ، وآمنت بإله واحد أعلى قاهر هو رب السموات .

وتعاقب التبابعة على ملك اليمن كما تعاقب القياصرة على ملك الروم ، وصار ربيعة بن نصر ملك اليمن وكان حاكما غنيا تأتيه الخيرات من أطراف مملكته ، « لقد كان لسبأ فى مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور » .

وذات ليلة رأى ربيعة بن نصر رؤيا هالته وفظع بها ، فبعث إلى كهان مملكته والسحرة والمنجمين وقال لهم :

— إنى رأيت رؤيا هالتنى وفزعت لها ، فأخبرونى بها وبتأويلها .

فالتفت الكهان والسحرة والمنجمون بعضهم إلى بعض فى دهش فما يطلبه الملك فوق إدراكهم ، فكيف يخبرونه بتأويل رؤيا لم يقصصها عليهم ؟

وقال قائل منهم :

— اقصصها علينا نخبرك بتأويلها .

فراح الملك يقلب وجهه فيهم ثم قال :

— إنى لو أخبرتكم بها لم أطمئن إلى خبركم عن تأويلها ، فإنه لا يعرف تأويلها إلا من عرفها من قبل أن أخبره بها .

فقال له رجل منهم :

— فإن كان الملك يريد هذا فليبعث إلى سطيح وشق ، فإنه ليس أحد أعلم منهما فهما يخبرانه بما سأل عنه .

فبعث إليهما ، فقدم عليه سطيح قبل شق فقال له :

ـــ إنى رأيت رؤيا هالتنى وأفزعتنى فأخبرنى بها ، فإنك إن أصبتها أصبت تأويلها .

قال :

ـــ أفعل . رأيت حمُمَة (فحمة فيها نار) ، خرجت من ظلمة ، فوقعت بأرض تَهمة ، فأكلت منها ذات جمجمة[1] .

فقال له الملك :

ـــ ما أخطأت منها شيئا يا سطيح ، فما عندك فى تأويلها ؟

فقال :

ـــ أحلف ما بين الحرتين من حنش ، لتهبطن أرضكم الحبش ، فليملكن ما بين أبين (موضع فى جبل عدن) إلى جرش .

فقال له الملك :

ـــ وأبيك يا سطيح إن هذا لنا لغائظ موجع ، فمتى هو كائن ؟ أفى زمانى هذا أو بعده ؟

قال :

ـــ لا بل بعده بحين ، أكثر من ستين أو سبعين ، يمضين من السنين .

قال :

ـــ أفيدوم ذلك من ملكهم أم ينقطع ؟

---

(١) هذه من أساطير العرب ، والتأليف فيها واضح ، وقد ذكرتها لإعطاء صورة عن تفكير مؤرخى الجاهلية وصدر الإسلام .

قال :

— لا بل ينقطع لبضع وسبعين من السنين ، ثم يقتلون ويخرجون منها هاربين .

قال :

— ومن يلى ذلك من قتلهم وإخراجهم ؟

— يليه سيف بن ذى يزن ، يخرج عليهم من عدن ، فلا يترك أحدا منهم باليمن .

— أفيدوم ذلك من سلطانهم أو ينقطع ؟

— لا بل ينقطع .

— ومن يقطعه ؟

— نبى ذكى ، يأتيه الوحى من قبل العلى .

— ومن هذا النبى ؟

— رجل من ولد غالب بن فهر بن مالك بن النضر ، يكون الملك فى قومه إلى آخر الدهر .

— وهل للدهر من آخر ؟

— نعم . يوم يجمع فيه الأولون والآخرون ، يسعد فيه المحسنون ويشقى فيه المسيئون .

— أحق ما تخبرنى ؟

— نعم ، والشفق والغسق ، والفلق إذا اتسق ، إن ما أنبأتك به لحق .

وقام سطيح وقدم على الملك شق ، فقال له الملك :

— إنى رأيت رؤيا هالتنى وفظعت بها فأخبرنى بها ، فإنك إن أصبتها

أصبت تأويلها .

وكتمه ما قال سطيح لينظر أيتفقان أم يختلفان ، فقال :

ـــ رأيت حممه ، خرجت من ظلمة ، فوقعت بين روضة وأكمه ، فأكلت منها كل ذات قسمة .

وعرف الملك أنهما قد اتفقا وأن قولهما واحد ، فقال له الملك :

ـــ ما أخطأت يا شق منها شيئا ، فما عندك فى تأويلها ؟.

قال :

ـــ أحلف ما بين الحرتين من إنسان ، لينزلن أرضكم السودان ، فليغلبن على كل طَفْلَةِ (الناعمة الرخصة) البنان ، وليملكن ما بين أبين إلى نجران .

فقال له الملك :

ـــ وأبيك يا شق إن هذا لنا لغائظ موجع ، فمتى هو كائن ؟ أفى زمانى أم بعده ؟

قال :

ـــ لا بل بعده بزمان ، ثم يستنقذكم منهم عظيم ذو شأن ، ويذيقهم أشد الهوان .

ـــ ومن هذا العظيم الشأن ؟

غلام ليس بِدنىٍّ ولا مُدن (المقصر فى الأمور) ، يخرج عليهم فى بيت ذى يزن ، فلا يترك أحدا منهم باليمن .

ـــ أيدوم سلطانه أم ينقطع ؟

ـــ بل ينقطع برسول مرسل ، يأتى بالحق والعدل ، بين أهل الدين والفضل ، يكون الملك فى قومه إلى يوم الفصل .

ـــ وما يوم الفصل ؟

ـــ يوم تجزى فيه الولاة ، ويدعى فيه من السماء بدغوات ، يسمع منها الأحياء والأموات ، ويجمع بين الناس للميقات ، يكون فيه لمن اتقى الفوز والخيرات .

ـــ أحق ما تقول ؟

ـــ إى ورب السموات والأرض وما بينهما من رفع وخفض ما أنبأتك به لحق ما فيه أمض (باطل) .

فأهم ربيعة بن نصر ما قالا وفكر فى أمره ، وظل حلمه يؤرقه فلم يجد خيرا من الخروج فجهز بنيه وأهل بيته وانطلق إلى الحيرة ، ليستولى أبناؤه على مقاليدها ويؤسسوا بها ملك آل نصر .

١٠

أشرك ورثة النفحة الروحية والبيت العتيق بالله فصار لكل قبيلة من قبائل المكيين إلٰه تطوف به وتتقرب إلى رب الناس والكون ، فاتخذت قريش العزى واتخذت خزيمة هبل واتخذت هزيل بن مدركة بن إلياس سواعا . وتكدست الأصنام فى جوف الكعبة وحولها فتدنست منارة التوحيد التى أقام قواعدها إبراهيم الخليل وإسماعيل ، لتكون أول بيت وضع للناس مباركا يشهد أن لا إلٰه إلا الله .

فسد الدين فى مكة ولكن الناس ظلوا يتعلقون بالسماء ، فإن الإنسان يعجز أن يعيش بالخبز وحده ولا بد من مطمع روحى وملاذ يلوذ به فى الملمات ، فنصب المكيون الأصنام والأوثان وتمسحوا بها لتقربهم إلى الله زلفى ، وتعصبوا لها وراحوا ينسجون حولها الأساطير ويملأون الفراغ الروحى بالأوهام .

كان المكيون يغتسلون ويتطهرون ويتقربون إلى آلهتهم بالقرابين ويحجون إلى بيت الله ويسوقون إليه الهدى ، فسرت فيهم قوى روحية ولكنها كانت على نظم وثنية متزمتة ، فلم يومض الفيض الروحى فى نفوس المؤمنين ذلك الوميض الذى يدفعهم إلى غايات عليا ، غايات تقودهم إلى تحقيق انتصار الحياة على المادة والانطلاق فى طريق تقدم البشرية .

وعقمت مكة على أن تلد الشخصيات المبدعة . القادرة على حمل رفاقها فى طريق تقدمها ، وكثر فيها العرافون والمنجمون ورجال الدين الذين يتاجرون ببركات الآلهة ، وبدا أن الضعف صار كامنا أصيلا فيها وأن حضارتها المنهارة لم

تواجه الموت على يد قاتل وأنها ليست ضحية العنف ، بل إنها تنتحر بيد أبنائها الذين استكانوا للخرافات والأوهام ، وأن ذلك الانتحار هو علة انهيارها .

وكانت ولاية البيت لخزاعة أبناء عمرو بن لحى الذى جلب الأصنام إلى مكة من أرض النبط وثمود وممالك سورية وبابل ومصر ، وشجع الذين فى قلوبهم مرض على جلب الأصنام من البلاد التى كانوا يشدون الرحال إليها . وكان فهر بن مالك زعيم الناس يفزعون إليه ليحكم بينهم ويشير عليهم ويدلهم على ما يعود عليهم بأوفر الأرباح ، فقد جاب منذ نعومة أظفاره أسواق العرب والفرس والروم .

كانت قافلة مكة تنتظر أن يأذن لها شيوخ قريش بالرحيل إلى يثرب ، وكان فى قلوب شباب القافلة وشيوخها الماجنين شوق إلى صاحبات الرايات الحمر بغايا يثرب اللاتى يهرع إليهن طلاب اللذة المحرمة من كل فج عميق من أرض العرب .

وأقبل فهر بن مالك وأخواه يخلد والصلت ، وقد صار فهر شيخا مسنا يحوط به أبناؤه غالب ومحارب والحارث وأسد ، وكان حول يخلد أبناؤه وحفدته ، أما مالك فقد كان يمشى فردا فإنه لم يعقب وإن كان يرى بطاح مكة وأوديتها قد غطيت بأبناء قريش وحفدة قريش .

كان على رأس القافلة بدر بن يخلد بن الحارث بن يخلد بن النضر ، وكان فيها لؤى بن غالب بن فهر ، وتيم بن غالب وقيس بن غالب وزهرة قريش ، فذهب فهر إلى بدر يزجى إليه نصائحه ، والتفت لؤى وتيم وقيس بأبيهم غالب يودعونه قبل الرحيل .

وانطلقت عير قريش فى قطار طويل ، وخرجت مكة كلها تودع أبناءها ،

ووقف الخزاعيون ينظرون فامتلأت أفئدتهم بالخوف ، فولاية البيت لهم وهم أصحاب السلطة فى الوادى المقدس ولكن قريشا تزداد عددا وغنى وشرفا ومنعة . وإن قبيلة هذا حالها لا بد أن تشرئب بعنقها وتطمع فى ولاية البيت لتجمع بين شرف الدنيا والدين .

كانت خزاعة توجس خيفة من قريش ، وزادت الريب لما هجر بعض القرشيين التجارة وعكفوا بالحرم يتفقهون فى أمر الدين ويشتركون فى المناقشات التى كانت تدور حول الآلهة ومفهوم الذات والشفاعة والتقرب إلى الله . ولكن قريشا لم يكشفوا عن رغبتهم فى المنافسة على الزعامة الدينية وولاية البيت ، فلم تشأ خزاعة أن تثير زوابع لم يأت الأوان لإثارتها ، وإن بدا لكل ذى عينين أن خزاعة هى الشمس الغاربة وأن شمس قريش أوشكت على البزوغ .

وانطلقت عير قريش فى محاذاة شاطئ البحر الأحمر ، كان الجو حارا فكانت القافلة تسير بالليل وتحط رحالها بالنهار هربا من لفح الشمس وظمأ الرجال والإبل ، ولكن الحر كان شديدا فكثر الطلب على الماء ، وكان بدر سيد القافلة يشرف على توزيع الماء بنفسه .

وتقضت أيام وليال ونزلت القافلة منزلا قريبا من يثرب وقد أشرف الماء على النفاد ، فراح بدر يفكر فلم يجد مفرا من أن يحفر بئرا تسقى القوافل الرائحة الغادية بين مكة والمدينة ، فبينه وبين المدينة مسيرة أيام .

وراح بدر ورجال القافلة يحفرون وقد تصبب منهم العرق وبلغ منهم الجهد . وتدلى الرجال فى الحفرة وظلوا يعملون يداعبهم أمل ويستبد بهم يأس وإذا الماء ينبثق من تحت أرجلهم ، فارتفعت أصوات الفرح تتجاوب فى أرجاء

الصحراء :

ـــ ماء بدر .. ماء بدر .

وراح الرجال يغرفون الماء بأيديهم ويشربون فرحين ، وابترد لؤى بن غالب وتهلل بالفرح لما رأى ماء بدر يسيل . ولو اخترق ببصره حجب الغيب وتلفت فى المكان لوقعت عيناه على أول معركة حاسمة بين حفيده رسول الله وأنصاره وبين الذين طمس الله على قلوبهم من أشراف مكة ، ولو أصاخ سمعه لسرى فى وجدانه قرآن كريم يصف حال المؤمنين : ﴿ وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين . ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون . إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم إنى مُمِدكم بألف من الملائكة مردفين .. وما جعله الله إلا بشرى ولتطمئن به قلوبكم وما النصر إلا من عند الله إن الله عزيز حكيم . إذ يُغَشِّيكم النعاس أمنة منه وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ويذهب عنكم رجز الشيطان وليربط على قلوبكم ويثبت به الأقدام . إذ يوحى ربك إلى الملائكة أنى معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كان بنان . ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ومن يشاقق الله ورسوله فإن الله شديد العقاب ﴾ .

واستأنفت القافلة رحلتها ودخلت يثرب ، فصاح الناس :

ـــ عير قريش .. عير قريش .

ونزلت القافلة فى مكانها من السوق فهرع الشباب إلى صاحبات الرايات الحمر ، وانتشر الرجال فى سوق بنى قينقاع وكانوا من اليهود الذين اشتهروا

بالصياغة وإقراض الأموال بربا فاحش ، وراحوا يشترون لنسائهم بعض الحلى أو يدفعون بعض ما اقترضوه وما استحق من الربا .

وذهب بعض رجال القافلة إلى حوانيت الحدادة واشتروا من اليهود بعض الدروع والسيوف ، وأصغوا إلى أحاديثهم الخلابة التى تروى قصص دروع داود وسيوفه البتارة .

ونشط البيع والشراء وباع القرشيون ما يحملون من طيب وفضة واشتروا ما يحتاجون إليه من حبوب . وراحوا ينظرون إلى اليهود الذين يشتغلون فى الزراعة بازدراء فقد كانت الزراعة من الصناعات المبتذلة فى نظر الأعراب .

وتقضت أيام السوق فعادت قافلة قريش إلى مكة ، وما إن بلغتها حتى ألفت الرجال والشيوخ فى عدة القتال ، قريش وقبائل كنانة وخزيمة وأسد وجذام ومضر ، ورئيس الناس فهر بن مالك الشيخ الجليل الذى كان يغدو ويروح فى نشاط الشباب .

وهرع بدر ولؤى بن غالب وتيم وقيس إلى جدهما فهر يسألون عن الخبر ، فقيل لهم إن حسان بن عبد كلال بن مثوب ذى حُرَث الحميرى قد أقبل من اليمن مع حمير وقبائل من اليمن عظيمة يريد أن ينقل أحجار الكعبة من مكة إلى اليمن ليجعل حج الناس عنده ببلاده .

ودخل لؤى وتيم وقيس على أمهم عاتكة بنت يخلد بن النضر بن كنانة حفيدة قريش ، فضمتهم إلى صدرها ونفضت عنهم غبار السفر ، ثم قلدتهم سيوفهم ليخرجوا مع الرجال ليدافعوا عن بيت الله أو يهلكوا دونه .

وطاف الرجال بالحرم وابتهلوا إلى رب البيت أن ينصرهم على من جاء يريد أن ينقل أحجار بيته إلى اليمن ، انتشرت فى المكيين روح قوية قضت على

عدوى النوم التى سرت إليهم من الخمول الذى ران على مكة وامتلأوا بعزيمة قوية استجابة لذلك التحدى الذى يهدد عزهم ومعقد آمالهم بالخطر .

كان حسان بن عبد كلال قد نزل بنخلة فأغار على سرح الناس ومنع الطريق، ولكنه هاب أن يدخل مكة فقد أوقع الله فى قلبه الرعب وجعل نفسه تذهب شعاعا كلما هم بأن يتقدم ليقوض الكعبة .

ورأى فهر إحجام حسان عن شن الهجوم على الوادى المقدس فأمر رجاله أن يسيروا إليه ليقاتلوه خارج مكة ، فخرج غالب وأبناؤه ويخلد وأبناؤه وسادات قريش وأبناؤهم وقبائل كنانة وخزيمة ومضر وكل قبائل العدنانيين النازلين فى رحاب الحرم وهم يتصايحون صيحات الحرب ، فزلزلت جبال مكة .

والتقى الجمعان ودار القتال ، وراح لؤى وتيم وأسد أبناء غالب يقاتلون قتال الليوث الكواسر ، وخاض الشيخ فهر غمار القتال ، ومشى غالب ومحارب وبدر بن يخلد إلى الأعداء مشى الوعول ، وسالت الدماء وارتفعت صيحات الفزع وهوت الأجساد إلى الأرض تتلوى ثم تسكن إلى الأبد ، وانبهرت الأنفاس وبلغت القلوب الحناجر وراح فهر يحرض رجاله على الثبات ويقول لهم :

ـــ هذا يوم له ما بعده . هذا يوم ينفع الصابرين صبرهم .

وكثر القتال فى الحميرين ولاح أن نصر المكيين قريب ، فسرت الحماسة فى صدر قيس بن غالب فاندفع فى صفوف أعدائه دون حذر ، فانقض عليه رجل من اليمن فقتله .

وسقط قيس حفيد فهر زعيم الناس قتيلا فلم يفت ذلك فى عضد المكيين

بل أجج نار الغضب فى صدورهم فراحوا يضربون فوق الأعناق ، وألقى الله فى قلوب الحميريين الرعب فأطلقوا سيقانهم للريح وتركوا حسان بن عبد كلال ملكهم فى الميدان ليقع أسيرا فى أيدى أهل مكة .

ودخل حسان مكة مكبلا بالأغلال مجللا بالخزى والعار ، وطاف فهر وأبناؤه وحفدته وسادات قريش وكنانة وخزيمة وأسد وجذام ومضر بالبيت العتيق وقد انهمرت الدموع من العيون شكرا لرب البيت الذى نصرهم على عدوه وعدوهم .

ومرت ثلاث سنين وحسان أسير فى مكة ينظر إلى بيت الله الذى جعله الله مثابة للناس وأمنا ، ويرقب ذلك الطواف الذى لا ينقطع آناء الليل وأطراف النهار فيستشعر تقاصرا ورغبة فى الفرار من العذاب الذى يتجرع غصصه فى كل آن .

وفاوض المكيين على أن يفتدى منهم نفسه ويشترى حريته بالمال فقبلوا ، وجاءت الأموال من اليمن وأطلق سراح حسان وخرج من مكة وصار طليقا فى الفضاء ، ولكنه لم يحس بالحرية فقد كان أسير نفسه التى كانت تلهبه بسوط عذاب .

وراح يغذ السير ليفر من الأشباح التى خيل إليه أنها تطارده ولكنه لم يفلح ، فقد كانت الأشباح تنطلق من أعماق أعماقه . وأحس رهقا وتفصد العرق منه وضاق نفسه فهبط عن راحلته وتمدد ليستريح ففاضت روحه وهو بين مكة واليمن ، ومات حسان بن عبد كلال من جاء فى جيوشه يريد أن ينقل

أحجار الكعبة وبقى البيت الحرام آمنا وإن تكدست الأصنام فى جوفه ، ينتظر ذلك اليوم المبارك الذى يجيء فيه الحق ويزهق فيه الباطل ويطهر من الأوثان تطهيرا . « من اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا » .

١١

مات سابور ذو الأكتاف فكان موته فاتحة عهد تنازع فيه السلطة الملك وأشراف الدولة ، وعادت الأرستقراطية العليا وقد وجدت فى رجال الدين حلفاء لها ، ودارت معركة حامية بين ملوك فارس ورجال الدين ، فملوك فارس كانوا يطلقون على أنفسهم عباد مزدا ولكنهم فى الوقت نفسه يلقبون أنفسهم بالإلـٰه أو ابن الآلهة ، فكان رجال الدين يجدون فى ذلك منفذا لطعن الملوك الساسانيين وتوطيد سلطانهم .

وكان رجال الدين الزردشتيون شديدى التعصب ولكن مثار تعصبهم كان لأسباب سياسية خاصة ، ولم يكن الدين الزردشتى الذى تطور على أيدى المجوس دين دعاية ، فلم يكن رؤساؤه مملوئين بالحماسة لبث سعادة الأرواح فى العالمين ولكنهم ادعوا السيادة المطلقة فى داخل حدود الدولة ، وكانوا لا يطمئنون كثيرا إلى من يدينون بدين آخر وخاصة إذا انتموا إلى دين دولة أجنبية قوية .

لم تكن الجماعات اليهودية فى بابل تهدد سلطة رجال الدين الزردشتيين أو كيان الدولة الفارسية ، ولكن حال النصارى كان مختلفا فقد كان للجالية النصرانية مركز كبير فى الرها وكانوا يدينون بدين روما عدوة فارس اللدود .

وفى أوائل القرن الرابع حاول بابابر العكاوى أسقف سلوقية المدائن أن يجمع كل الجماعات النصرانية الفارسية تحت إدارة مركز روحانى واحد فى المدائن فأثار ذلك نزاعا انتهى بخلع بابابر ، خلعه مجمع مسيحى فقد سن قسطنطين مبدأ المجامع المسيحية للبت فى شئون الدين ، ففى مؤتمر نيقية تقرر

أن المسيح إلٰه ، وما انقضت عليه سنوات حتى عاد قسطنطين وعقد مؤتمرا آخر فى صور صدرت فيه قرارات تلغى قرارات مجمع نيقية التى لم ينقض عليها أكثر من عشر سنوات ، فقد صدر فى ذلك المجمع قرار بالعفو عن آريوس ، وأتباعه وبقبول تعليمه « لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم وقال المسيح يا بنى إسرائيل اعبدوا الله ربى وربكم إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار » .

وراح بين أبطال الديانة المسيحية الشرقية الغرور والحسد والخسة وبيع الأشياء المقدسة وشراؤها ، ودأبوا على هذا حتى فى أثناء اضطهاد سابور ذى الأكتاف لهم ، وخليفته أردشير الثانى ، الذى يمقت النصارى كسلفه الذى أقام لهم المذابح وأسال دماءهم أنهارا .

وتغير الحال فى أيام سابور الثالث وبهرام الرابع فقد سار على سياسة التقارب فى علاقاتهم بالإمبراطورية الرومانية . ولما تولى يزدجرد الملك تم السلام بين الإمبراطوريتين الكبيرتين ، ورأى الملك ضرورة وضع حد للنزاع بين الدولة ورعاياها النصارى ليعيشوا هادئين .

وبعثت الإمبراطورية الرومانية الشرقية وفدا برئاسة الأسقف ماروثا إلى الملك يزدجرد ، فترك ماروثا أثرا حسنا فى نفس الملك فأولاه ثقته وأصدر أمرا بإعادة بناء الكنائس المخربة وإطلاق سراح المسجونين بسبب عقيدتهم من النصارى ، وسمح لرجال الدين المسيحى بالتجول فى كل مكان بالدولة ، فحنق عليه رجال الدين المجوسى وأطلقوا عليه يزدجرد الآثم والأثيم والخادع .

وحث ماروثا الملك على عقد مجمع للأساقفة فى سلوقية للنظر فى أمور فارس وتوحيد الكنيسة المسيحية . وفى عام ٤١٠ م عقد ذلك المجمع تحت

رئاسة إسحاق أسقف سلوقية — المدائن وماروثا الموفد من قبل قيصر . وقد كان ثمرة ذلك المجمع اتفاق الكنيسة الشرقية ومذهبها مع القواعد المعمول بها فى الغرب ، واعتمدت فيه عقيدة نيسكة الملاك الذى صار إلـه الحرب !

وأمر يزدجرد إسحاق وماروثا أن يجمعا الأساقفة فى بلاطه وأن يتحدثا إليهم باسمه مؤكدين من جديد حرية الديانة للمسيحيين وحق تشييد الكنائس ، ومعلنين أن من يعارض أوامر الجاثليق (المطران الكبير) إسحاق وماروثا يعاقب أشد عقاب .

ومرت سنوات وبعث يزدجرد إلى القسطنطينية « يهب الله » الخليفة الثانى لإسحاق لإتمام الصلح بين الإمبراطوريتين ، وقد عاد بكثير من الهدايا التى استعان بها على ترميم كنيسة سلوقية — المدائن وبناء كنيسة جديدة .

كان التسامح فى أمر الدين ظاهرة طبيعية فى خلق يزدجرد ، فإنه أطلق للمسيحيين حرية العبادة وتسامح مع اليهود الذين لم يكن لهم شأن سياسى وتزوج من شوسين اليهودية ابنة رأس الجالوت .

وفى أواخر حكم يزدجرد اشتد ساعد النصارى وزادوا عتوا وتحدوا الرأى العام ، فقد اجترأ هاشو أحد القساوسة أن يهدم بإذن من الأسقف عَبْدا بيت نار قريب من الكنيسة النصرانية بمدينة هرمزد أردشير بخورستان ، فأمر يزدجرد بالقبض على القسيس والأسقف ، وسأل الملك عَبْدا فنفى كل اتفاق بينه وبين هاشوا ولكن هاشوا اعترف أنه هو الذى خرب بيت النار ، ثم فاه بألفاظ عدائية فيها إساءة إلى الدين الزردشتى دين الدولة الرسمى .

وأمر الملك عَبْدا بإعادة بناء المعبد ولكن عبدا رفض ذلك الأمر بإصرار وظل على عناده حتى حكم عليه وقتل ، وتعكر صفو الصفاء الذى كان بين

يزدجرد والمسيحيين وعاد الاضطهاد ، ونزل بالنصارى صنوف ألوان العذاب .

وكان يزدجرد لا يبقى له ولد فسأل عن منزل برىء صحى خال من الأدواء والأسقام فدل على ظهر الحيرة ، فدفع ابنه بهرام جور إلى النعمان بن امرىء القيس وأمره ببناء الخورنق مسكنا له ، وأمره بإخراجه إلى بوادى العرب .

وجاء النعمان بسنمار وهو بنّاء رومى وكلفه ببناء القصر ، فلما انتهى منه وكمل تعجب من حسنه وإتقان عمله ، وبدلا من أن يوفيه النعمان وفاء حسنا أمر به فطرح من رأس الخورنق .

وسكن بهرام جدر الخورنق وراح يرشف من معين العرب ويرقب النعمان ويتأثر به ، وقد كان النعمان رجلا حازما قويا محاربا من أشد الناس نكاية فى عدوه ، غزا عرب الشام مرارا كثيرة فسبى منهم وغنم وكان يغزو بكتيبتين كانتا عنده : دوسر وأهلها تنوخ والشهباء وأهلها الفرس ، يغزو بهما من لا يدين له من العرب .

وكان وجوه العرب يفدون عند رأس كل سنة فى أيام الربيع إلى النعمان ويمكثون شهرا ، وقد صير لهم أكلا عنده فعرفوا بذوى الآكال ، وكانوا يأخذون المرباع وهو ربع الغنيمة فى الحرب والغزو .

وعلا ذكر النعمان بن امرىء القيس ، وفى ذات يوم من أيام الربيع جلس فى قصره الخورنق فأشرف منه على النجف وما يليه من البساتين والنخل والجنان والأنهار فتهلل بالبشر ، فقد كان المشهد يلذ الأعين ، ويشرح الصدور ويملأ النفوس بهجة . فالتفت النعمان إلى وزيره وقد أعجبه ما رأى من الخضرة

والنور والماء وقال :

ــ هل رأيت مثل هذا المنظر ؟

فقال الوزير :

ــ لا ، لو كان يدوم .

فالتفت النعمان فى دهش وقال :

ــ فما الذى يدوم ؟

قال الوزير فى إيمان :

ــ ما عند الله فى الآخرة .

وأحس النعمان كلام الوزير ينفذ إلى شغاف قلبه فقال فى اهتمام :

ــ فبم ينال ذلك ؟

ــ بترك الدنيا وعبادة الله والتماس ما عنده .

وشغل النعمان بالحديث الذى دار بينه وبين وزيره فأصبح يزدرى كل ما فى قصره من جوارى وتحف ورياش ، ودخل لينام فأصابه الأرق ولم يعرف النوم طريقا إلى جفنيه وراحت تلح عليه فكرة ترك الدنيا وزخرفها ، ولم يستطع الفكاك من أسر ما ألقى وزيره فى روعة فترك ملكه من ليلته ولبس المسوح مستخفيا هاربا لا يعلم به . وأصبح الناس فحضروا بابه فلم يؤذن لهم عليه ، فلما أبطأ الإذن سألوا عنه فلم يجدوه !

لقد ساح الملك فى الأرض وعرف بالسائح !!

وولى ملك الحيرة المنذر بن النعمان فعكف على تربية بهرام ، فلم يتأدب بأدب العجم وإنما تخلق بآداب العرب . فقد أحضر له المنذر مؤدبين فعلموه الكتابة والرمى ، ثم أحضر له معلمى الفروسية فتعلم الرماية والصيد وركوب

الخيل حتى صار من أحسن الناس أدبا وأمهرهم فروسية .

ومات يزدجرد وقد ترك ثلاثة أبناء من بعده : سابور وبهرام ونرسى . وكان يزدجرد قد أقام سابور ملكا على قسم أرمينية الخاضع لفارس ، وكان بهرام يقيم عند ملك الحيرة العربى المنذر بن النعمان ، وكان نرسى ابنه الثالث من السيدة اليهودية قاصرا .

كان بهرام لم يتجاوز العشرين من عمره ، وأراد الأشراف ورجال الدين وقد تخلصوا من ملك غير موفق انتهاز هذه الفرصة لكى يوطدوا جاههم فتألفت جماعة من الأشراف لكى يبعدوا أبناء يزدجرد جميعا عن وراثة العرش . وأحس سابور بن يزدجرد بالخطر فسارع إلى المدائن ليضمن العرش ، ولكن عظماء الدولة قتلوه ونصبوا أميرا اسمه كسرى ملكا عليهم وكان من فرع بعيد من الأسرة الساسانية .

ولم يشأ بهرام أن يستسلم للأمر الواقع أو أن يقبل الهزيمة بغير نزاع ، ففزع إلى ربيبه المنذر بن النعمان من حباه أبوه يزدجرد بمرتبتين سنيتين « رام أفزود يزدجرد (الذى زاد سرور يزدجرد) ومهيشت (أعظم الخول) » فكان المنذر عند حسن ظنه فبعث إليه قوة بقيادة ابنه النعمان وسار هو على رأس قوة قوامها ثلاثون ألفا من فرسان العرب .

وسار بهرام فى جيش المنذر ، وتقدمت جيوش العرب فارتاع العظماء وأهل البيوتات فبدءوا يفاوضون المنذر وبهرام ، وانتهى الأمر بأن عزل كسرى وولى بهرام عرش فارس .

كانت وصمة فى جبين فارس أن جيشا عربيا صغيرا زحف إلى المدائن وفرض إرادته ، فأراد الناس أن يخففوا من تلك الصدمة فابتدعوا أسطورة

تقول إن اختيار الملك يتوقف على نوع من حكم الله : فإن من يتناول التاج والزينة من الطامعين فى الملك من بين أسدين ضاريين فهو الملك . وقد رفض كسرى أن يدخل حيث الأسدان فتقدم بهرام وقتل الأسدين ثم تناول التاج والزينة ، فهتف به جميع الحاضرين وكان كسرى أول من هتف .

حفظت الأسطورة ماء وجه أشراف فارس الذين خروا ساجدين تحت أقدام جيش عربى صغير وأجبروا على قبول ملك كانوا عنه معرضين .

وكان بهرام مطبوعا على الجلد والنشاط فدعا الناس إلى التمتع بالحياة ، وكان يقول الشعر بالعربية ويتكلم بسائر اللغات ، وكان محبا للموسيقى فسوى بين الطبقتين من الندماء والمغنين ورفع من أطربه وإن كان من أوضع الدرجات إلى الدرجة الأولى .

وأحضر من الهند جماعة من اللور أجداد الغجر حتى لا يحرم سواد الشعب من الاستمتاع بالموسيقى . ولما كان فارسا وملكا وسيما فقد راحت تنسج حوله الأساطير ، قيل إنه ركب فرسا مردفا وراءه قينة له ، وقد أرادت القينة فى خبث أن تعرف أيستطيع الملك بسهمه أن يشبه ذكران الوحش بالإناث وإناثها بالذكران ؟

فرمى تيسا من الظباء بنشابة ذات شعبتين فاقتلع قرنيه ، ورمى عنزا منها بنشابتين فأثبتهما فى موضع القرنين . وسجل الفنانون الإيرانيون تلك الحادثة على الكئوس والسجاجيد ، وأوحت بتصاوير على تتابع القرون للسجاجيد والمنسوجات .

ورويت عنه قصة أنه انتظم بضربة سهم واحدة حمارا وأسدا كان يعلو ظهره فلقب بَكَور (حمار وحشى) ، وصار بهرام الخامس بهرام جور .

ولم يكد يعتلى بهرام عرش أجداده حتى عاد اضطهاد نصارى فارس ، فراح النصارى المقيمون فى البلاد المجاورة للعرب يفرون زرافات إلى الأراضى البيزنطية ، فقد حرض الفرس العرب على التنكيل بالمسيحيين واضطهادهم .

وفر بعض كبار موظفى فارس إلى بيزنطة ، فطالب بهرام بيزنطة بتسليم اللاجئين فرفضت ، فاندلعت الحرب بين فارس وبيزنطة ، واشترك المنذر بن النعمان فى هذه الحرب واختار بلاد الشام ساحة لهجومه ليخفف ضغط الروم على ربيبه ، فمنى بخسائر جسيمة فى محاولة عبور جيشه نهر الفرات .

عقد الصلح بين الإمبراطوريتين فى السنة التالية لشبوب نار الحرب بينهما ، كانت السنة عام ٤٢٢ م ، وقد نص فى الصلح على حرية العقيدة للنصارى الذين يعيشون فى بلاد الفرس وحرية العقيدة للزردشتين المقيمين فى الإمبراطورية الرومانية وجدد الاتفاق على الأموال التى تدفعها بيزنطة لحفظ معابر القوقاز ضد الهون .

وفى ذلك الوقت كان نصارى فارس يتنازعون بشدة فيما بينهم ، فإن داد يشوع الذى انتخب جاثليقا فى سنة ٤٢١ م أو فى أوائل السنة التالية قد أدى لملك فارس خدمات جليلة فى دفاع خرسان ضد برابرة الشمال ، وقد اتهمه فريق من النصارى المنشقين عليه ببيع الأشياء المقدسة والتعامل بالربا وإثارة المظان لاتهام أهل ملته . وقد أحكم تدبير تلك الحملة حتى إن بهرام أمر بسجن داد يشوع .

وسعى إمبراطور الروم تيودوس الثانى لدى بهرام إمبراطور الفرس حتى أطلق سراح داد يشوع ، ولكنه كان يحس ضيقا بمنصبه حتى رغب فى الاستقالة منه ، ولكن أتباعه توسطوا فى الأمر وأشاروا عليه أن يعقد مجمعا

يعرض عليه الخلاف الذى بينه وبين المنشقين عليه فى أمر الدين . ولما كان قسطنطين قد ابتدع للمسيحيين بدعة عقد المجامع المقدسة لتقرير أركان الدين المسيحى ، فقد عقد داد يشوع مجمعا من ستة وثلاثين أسقفا فى الحيرة ، ونادى ذلك المجمع باستقلال كنيسة النصارى فى فارس وبانفصالها عن الكنيسة الغربية . ولا شك أن داد يشوع حين حمل المجمع على التصويت لهذا الرأى قصد أن يكون مركز نصارى فارس أكثر ثباتا فلا يتهمنهم أحد بعد ذلك بالتآمر مع بيزنطة .

كان الدين المسيحى ككل الأديان السماوية يدعو إلى وحدانية الله إلى أن قام بولص وزاوج بين الدين والفلسفة الرومانية وأساطير الوثنيين . وبدأ بين الموحدين وبين وثنيى المسيحية الانقسام ، وظل الخلاف مشتجرا بين الفريقين حتى قام نزاع جديد بين آريوس القسيس السكندرى ورئيسه الأسقف حول طبيعة إلـٰهية المسيح ، فأخذ قسطنطين على نفسه دعوة أساقفة الكنيسة إلى الاجتماع فى نيقية ، وكان ذلك الاجتماع أول مجلس مسكونى (عالمى) للكنيسة .

شرع قسطنطين فى الدين المسيحى شرعة صارت فى أركانه ، فما إن يشجر خلاف بين المؤمنين بالدين الجديد حتى يعقد الخصم الأقوى مجلسا يقرر فيه ما يشاء من أمر الدين . وقد حصل قسطنطين برئاسته لأول مجلس مسكونى على قداسة جديدة تمحو عنه كل خطاياه ، وكان دم منافسيه وابنه بل حتى دم زوجته يلطخ يديه ولكنه صار فى نظر العالم « نظير الرسل » والرسول الثالث .

وزادت كرامته الروحية قوة بما أظهرته أمه هيلينا من همة فى أعمال الحفر

والتنقيب وهى الأمة السابقة لقسطنطيوس . فقد زعمت أنها استطاعت بفضل المعجزات أن تجد الموقع الذى صلب فيه المسيح ، وادعت أنها استخرجت من بطن الأرض الصليب وصليبى اللصين اللذين صلبا مع المسيح ، والحربة والإسفنجة وتاج الشوك وجميع ما صحب آلام الصلب من آثار .

واهتز العالم المسيحى هزة هائلة لذلك الاكتشاف ودوت أرجاؤه للمجد الخالد الذى أسبغ على أم الإمبراطور ، وأصبح اسما قسطنطين وهيلينا أعظم الأسماء توقيرا فى تاريخ الإمبراطورية المسيحية .

وتتابعت المجالس والمجامع المسكونية التى تنظر فى أمر الدين المسيحى وطبيعة المسيح ، ولما كانت نظرة الشرق تختلف عن نظرة الغرب فقد تفرقت المسيحية وراحت كل فرقة تسلك طريقا . وكثيرا ما كانت المناقشات تحتدم بين تلك الفرق وغالبا ما كانت تقود إلى امتشاق الحسام لتقرير مبدأ من مبادئ الدين الذى جاء يدعو للسلام .

كانت المسيحية عقيدة شرقية وكانت الفلسفة الإغريقية قد صاغتها فى قالب تسيغه أوروبا ، ولكنها ظلت من حيث الجوهر شرقية الأفكار . وكان المواطن من سكان القسطنطينية ، تلك الدولة التى بنيت لتكون عاصمة الدين الجديد ، شديد الوعى لتراثه اليونانى والرومانى ، فتأثر بالأفكار الواردة من الشرق وأثر فيها ، وقد ظلت التقاليد الإغريقية الرومانية حية حتى النهاية .

لقد نشأ فى القسطنطينية ، روما الجديدة ، دين جديد يتعبد للثالوث المقدس ولمريم البتول ، دين نشأ من امتزاج حضارات شرقية بحضارات غربية ، ومن مناقشات أناس فى مجامع مسكونية ما أنزل الله بها من سلطان .

وراحت المجالس تفتى فى أمر الدين بما يرضى الأباطرة ورجال الدين وذوى النفوذ .

﴿ يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه فآمنوا بالله ورسله ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيرا لكم إنما الله إلٰه واحد سبحانه أن يكون له ولد له ما فى السموات وما فى الأرض وكفى بالله وكيلا ﴾ .

١٢

وليت خزاعة البيت مذ جلب جدهم الأعلى عمرو بن لحى الأصنام إلى الكعبة وأمر الناس أن يعبدوها لتقربهم إلى الله زلفى ، فبدأ نجم الشرك يبزغ فى الأرض المباركة التى كانت منارة التوحيد فى الدنيا ، وسادت مكة نكسة روحية شلت فيها الحياة الدينية الحقة التى كانت تدفع المؤمنين إلى الإبداع والسير فى الطريق السوى لتطور الحضارة ورقى البشرية .

وصارت ولاية البيت شرفا يحقق مجدا أرضيا ومغانم مادية ، فشغل رجال الدين والكهان بالحصول على النذور والهدايا التى تهدى للآلهة ، والأموال التى تقدم لها عند ضرب القداح لاستشارتها فى أمر الزواج أو السفر أو إلحاق نسب مشكوك فيه ، وكانت الأموال تزاد حتى ترضى الآلهة وتخرج السهم الذى يهواه من جاء خاشعا راجيا أن تمنحه الأصنام مفاتيح الغيب وما فى جوفها من حكمة !

وانتشرت الخرافات فى مكة وكثرت الكهانة والعرافة ونسجت الأساطير حول كل ظاهرة طبيعية ، فكانت البهائم عندهم فى أول خلقتها ناطقة عاقلة فنظموا على ألسنتها قريضا وفصلوا على ألسنتها الأسجاع ، وزعموا أن القطا قال للحجل « حجل حجل ، تفر فى الجبل ، من خشية الوجل » . فقالت لها الحجل كلاما مسجوعا كسجع الكهان الذى ذاع فى تلك الأيام .

وما أكثر ما نسجوا من خرافات حول الكواكب والنجوم ، فقد كانت

الكواكب رفيق أسفارهم ومرشد طريقهم والنور الذى به يهتدون فى ظلمات ليلهم ، فقالوا :

ــ الشعرى كوكبان : إحداهما الشعرى العبور والأخرى الشعرى الغميصاء ، أما العبور فإنها من نجوم الجوازاء تسمى كلب الجبار ، وسميت بالعبور لأنها كانت والغميصاء وسهيل مجتمعة فانحدر سهيل فصار يمانيا ، وتبعته العبور فعبرت المجرة ، وأقامت الغميصاء فبكت لفقد سهيل حتى غمصت وكل بصرها .

وقالوا فى سبب تسمية كوكبى الدبران والعيوق :

ــ إن العيوق عاق الدبران لما ساق إلى الثريا مهرا ، فهو يتبعها أبدا خاطبا لها .

كانوا ينسجون الأساطير حول النجوم ، فقد كانت تهديهم عندما يرحلون فى الصحراء « وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر » ، فمن أراد منهم أن يسافر إلى مكة نظر إلى القطب الشمالى ، وهو أثبت النجوم دلالة وأقواها . فإن كان قادما من العراق وما وراء النهر جعل القطب الشمالى خلف أذنه اليمنى ، وإن كان قادما من مصر جعله خلف أذنه اليسرى ، وإن كان قادما من اليمن جعله قبالته مما يلى جانبه الأيسر ، وإن كان قادما من الشام جعله وراءه .

كانت خزاعة تتجر بالمقدسات وقد أحلت القوة المادية مكان الوازع المعنوى ، وكان القرشيون ينتجعون جبال مكة وأوديتها ولا يخرجون من حرمها ، فقد كانوا يحسون فى أعماقهم أن سيكون لهم شأن وأن رفعتهم مرتبطة بذلك الحرم الآمن الذى يأتى إليه العرب رجالا ونساء من كل فج عميق .

وكثرت فى قريش الرياسة ، كان فهر بن مالك هو زعيم الناس يوم خرج إلى سابور ذى الأكتاف يكلمه فى أمر اضطهاده للعرب ، وقد رفع عن العرب اضطهاد الطاغية وصار محرر العرب من العذاب ، وإن كعب بن لؤى بن فهر ابن مالك بن النضر هو قبلة الناس اليوم وكانت تراوده فى يقظته ومنامه فكرة سيادة قريش على مكة وكان يرى أن السبيل لتحقيق حلمه هو الدين .

كان كعب بن لؤى من الحنفاء وكان على دين إبراهيم الخليل ، وكان ضيق الصدر بالأصنام التى تكدست فى جوف أول بيت وضع للناس وكان يتمنى لو يستطيع أن يطهر بيت الله من الأصنام ولكنه لم يجد القلة المؤمنة التى تشد أزره فى تحقيق غايته ، فقد كانت خزاعة وقريش والناس جميعا مفتونين بآلهتهم وكعباتهم التى بنتها القبائل لآلهتها .

شغل قلب كعب بن لؤى بآمال عريضة ، أن يحول ذئاب الدين إلى كلاب حراسة ترعى الغنم ولا تفتك بها وتذب عنها الخطر ، وأن يعيد للكعبة قدسيتها وطهارتها وجلالها وأن يمحق ما عداها من كعبات ، وأن يعيد الناس إلى الجادة وإلى عبادة الله وحده ، ولكنه كان أهون من أن ينهض بمثل هذا العمل الخطير فما كان من أولى العزم . وكان يخشى الانقسام وأن يقود الصدام إلى دمار ذلك المجتمع العاجز عن الاستجابة له استجابة فعالة .

تعددت الآلهة فزاد عدد المنتفعين والمتجرين بمقدساتها ، فراح الكهان يشرعون فى أمر الدين ما يجلب لهم المنافع . حتى القرشيين ولجوا ذلك الميدان ولم يستطع كعب بن لؤى أن يضرب على أيديهم . كل ما كان يستطيع أن يفعله أن يخطب فيهم وأن يلقى عليهم نصائحه وكانوا ينفعلون بها لحظات ثم يجرفهم تيار الحياة إلى طريق الشرك والضلال .

وراح الكهان يزينون للناس ذبح الرجبية وهى العنيرة التى تذبح فى رجب

للآلهة ، وذبح الفرع وهو ذبح أول نتاج الإبل والغنم للأصنام.وأشاروا على الناس إذا أرادوا ذبح الفرع أن يزينوه ويلبسوه ليكون ذلك أوكد فى نفوس الآلهة والناس . وما كانت الأصنام تنام لحوم الأضاحى بل كانت غنيمة باردة للكهان .

وتكونت طائفة دينية متزمتة فى مكة عرفت بالحمس ، وكانوا لا يأكلون السمن ولا يمخضون اللبن ولا يأكلون الزبد ولا يلبسون الوبر ولا الشعر ولا يستظلون به ماداموا حرما .

وقال الحمس :

— لا نطوف فى الثياب التى قارفنا فيها الذنوب ، ولا نعبد الله فى ثياب أذنبنا فيها ، ولا نطوف فى ثياب عصينا الله فيها .

ووقر فى ذهن الشعب أن ثياب الحمس هى الثياب الوحيدة الصالحة للطواف ، وجاء أوان الحج ووقف الحمس يكرون الثياب الطاهرة للحجيج ، فكان الأغنياء يشترون منهم الثياب أما الفقراء فكانوا يخلعون ثيابهم ويطوفون بالبيت عرايا وهم يعتقدون أنهم قد تعروا من الذنوب كما تعروا من الثياب .

وراح بعض الناس يطوفون بثيابهم ولما انتهوا من طوافهم خلعوا ثيابهم وتركوها لقى لتبلى من وطأة الأقدام ولفح الشمس والرياح ، فما كان يجوز لهم أن يستخدموا تلك الثياب تارة أخرى بعد أن طافوا بها !

وجن الليل وجاء النسوة الفقيرات للطواف حول البيت ، فارتفعت الأصوات :

— من يعير مصونا ؟ من يعير ثوبا ؟ من يعيرنى تطوافا .

وراح اللاتى يئسن من أن يجدن ثوبا طاهرا يخلعن ثيابهن ويطفن حول البيت لا يستر عوراتهن لباس أو قماش ، بل كن يضعن إحدى أيديهن على

قبلهن والأخرى على دبرهن ، وارتفع صوت إحداهن :

اليــوم يبــدو بعضه أو كلــه ومــا بدا منــه فلا أحلــه

واتخذ بعض النسوة سيورا علقنها فى أعناقهن ليستترن بها .

وضجت جبال مكة ووديانها بالتلبية :

— لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، إلا شريك هو لك ، تملكه وما ملك .

وراح كعب بن لؤى يقول فى انفعال :

— لا إلٰه إلا أنت سبحانك . لبيك اللهم لبيك . لبيك لا شريك لك لبيك . إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك .

وانتهت مراسم الحج بأن طاف العرايا وقد بدءوا بإساف ثم الركن الأسود ثم أخذوا عن يمينه ، وطافوا وقد جعلوا الكعبة عن يمينهم ، فلما ختموا طوافهم سبعا استلموا الركن ثم استلموا نائلة فختموا بها طوافهم ، ثم خرجوا فوجدوا ثيابهم كما تركوها لم تمس فأخذوها فلبسوها .

وانطلق الحجيج إلى بيوتهم وقد حرص كل منهم أن يدخل بيته من ظهره فقد لقنوا أن دخول الحاج من باب بيته يفسد الحج . ﴿ وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها ولكن البر من اتقى وأتوا البيوت من أبوابها ﴾ .

كان كعب بن لؤى يرى فساد دين القوم وكان يتمنى من أعماقه أن يهدى أهله إلى الصراط المستقيم ، ولكنه كان يرى أن ليس هناك وسيلة للقضاء على ذلك التحجر الروحى الذى ساد مكة إلا إبادة تامة شاملة لهؤلاء الكافرين فتمنى أن يذهبهم الله ويأتى بخلق جديد ، فقد وجد نفسه بلا عون وبلا مؤمنين وإن كان سيد قريش وزعيمها .

كانت أيام الأسبوع عندهم أول وأهون وجبارا ودبارا ومونسا وعَروبة

وشبار . وكان ذلك اليوم هو يوم عروبة ، الذى تجتمع فيه قريش إلى كعب بن لؤى بن غالب ، وقد خطب فيهم مرة فقال :

ـــ أما بعد فاسمعوا وافهموا وتعلموا واعلموا . ليل داج ، ونهار صاح ، والأرض مهاد ، والسماء بناء ، والجبال أوتاد ، والنجوم أعلام ، والأولون كالآخرين ، فصلوا أرحامكم ، واحفظوا أصهاركم ، وثمروا أموالكم ، فهل رأيتم من هالك رجع ، أو ميت انتشر ، والدار أمامكم ، والظن غير ما تقولون .

زينوا حرمكم وعظموه ، فسيأتى له نبأ عظيم ، وسيخرج منه نبى كريم .

كانت عير قريش تنطلق إلى يثرب ، وكان كعب بن لؤى يلقى سمعه إلى أحبار اليهود ويصغى إلى أحاديث من أوتوا منهم العلم وهم يتحدثون عن النبى الأمى المنتظر ، وكانت قوافل قريش تسيح فى الأرض وتتصل بأهل فارس ، وكان كعب حنيفا من الموحدين فكان يهتم بأحاديث الدين ، وقد سمع بلا شك بنبوءة زرادشت وبوصيته لقومه بأن يستمسكوا بما جاءهم به إلى أن يأتى صاحب الجمل الأحمر من بلاد العرب ، وذهب إلى الحيرة واتصل بنصارى العرب وعلم منهم أن المسيح ابن مريم قد بشر بنبى يأتى من بعده اسمه الفراقليط الذى بشر به المسيح ولم يصدق أن مانى هو ذلك النبى المرتقب .

كان كعب يحس فى أعماقه أن النبى الذى بشر به موسى وزرادشت وعيسى ، هو من العرب بل من قريش بل من ولده على التحديد ، وكان يقول :

ـــ أما والله لئن كنت فيها ذا سمع وبصر ويد ورجل ، لتنصبت فيها تنصب الجمل ، لأرقلت فيها إرقال (ضرب سريع من السير) الفحل .

وسمى يوم العروبة يوم الجمعة لاجتماع الناس إليه فى ذلك اليوم ، وظل يدعو الناس إلى الله فى هوادة ولين فلم يكن صاحب رسالة يخوض فى سبيلها المخاطر أو يهلك دونها وقد أحبه الناس وتعلقوا به حتى إذا مات أرخوا بموته فصار علامة من علامات التاريخ فى مكة .

١٣

كان الناس فى الإمبراطورية الرومانية الشرقية والغربية لا يخوضون كثيرا فى المناقشات السياسية إما لعدل الدولة أو خشية من بطشها . وقد وجدوا فى المناقشات الدينية ميدانا فسيحا يمارسون فيه لذة المناقشات وبهجة الخصومات التى تبعث الدفء فى الأرواح المتشوقة للصراع الدائم ، الذى يجعل للحياة قيمة وهدفا ساميا .

وكان المسيحيون على اختلاف مذاهبهم يحاولون أن يعرضوا عن الدنيا فهى لعب ولهو وزينة ، ويقبلوا على الآخرة ابتغاء جنات عرضها السموات والأرض ، فقر فى أذهانهم أن السعادة السرمدية لا يمكن الحصول عليها إلا بإنتهاج سبيل الأرثوذكسية الكاملة ، وقد أرادت السلطة الدنيوية والسلطة الدينية أن تمارس كل منهما سلطانها فى حرية ، فقيل للناس : إن الله أمر بوجود قوتين هما الإمبراطور للدولة والبطريرك للكنيسة .

وغدت النقاط الصغيرة المتعلقة بالسنن اللاهوتية شغل الناس الشاغل وصارت أعظم أهمية من المسائل العظمى المتعلقة بالسياسة العالمية ، فالسياسة العالمية تهتم بمتاع الغرور ، بالدنيا القانية ، بينا سنن اللاهوت قد تفتح لهم أبواب الجنة أو تغلقها دونهم .

أوصى المسيح حوارييه بألا يذهبوا إلى الأمم بل حذرهم من دخول السامرة ، وأكد لهم أنه إنما بعث إلى خراف بنى إسرائيل الضالة . فلما توفاه الله ورفعه إليه أعرض الحواريون عن وصية نبيهم وذهب بطرس يدعو الأمم إلى

المسيحية . وقد أثار ذلك حفيظة اليهود فحدث أول انشقاق فى المسيحية .

وأعلن بولس عدو المسيحية اللدود أنه آمن بالمسيح بعد أن ظهر له المسيح فى البرية وهو فى طريقه إلى دمشق ، وصدقه برنابا الحوارى الجليل ووفق بينه وبين الحواريين الذين كانوا يخشون غدره . وسرعان ما اختلف برنابا وبولس لما رأى برنابا أن بولس يدعو إلى ما لم يدع إليه المسيح ، فكان ذلك شقاقا آخر فى المسيحية ولم يمض على رفع المسيح عشرات السنين .

وانتصرت فى الغرب تعاليم بولس التى امتزجت بالفلسفات اليونانية والأساطير الآرامية ، وفتحت أبواب الصراع على مصاريعها بين المسيحيين الموحدين وبين المسيحيين الذين أثرت فيهم تعاليم بولس الوثنية .

واستقرت الكراسى الرئيسية فى المسيحية فى العواصم الثلاث لعالم البحر الأبيض : روما والإسكندرية وأنطاكية . وكانت بيزنطة أسقفية صغرى تقع فى دائرة اختصاص مطران هرقلية ، فلما اعتنق قسطنطين المسيحية ورفع الإمبراطور فجعله حارس مفاتيح السموات وراعى القطيع وأشبه الناس ببطرس أمير الرسل ، وجعل من بيزنطة القسطنطينية روما الجديدة ، فأصبح وضع أسقف بيزنطة غير مناسب لعظمة عاصمة المسيحية فرفعت منزلته فأصبح بطريرك القسطنطينية . ودبت الغيرة فى الناس أن يجعلوا الدنيا دبر آذانهم وراحوا ينتهجون خطط المشاكسة وإقامة العراقيل فى طريق الكنيسة المنافسة الجديدة .

أسس بولس مذهب الثالوث فى المسيحية وهو مذهب عسير ، وإن مذهب التجسد لا ييسره ، فكان الطريق فى علم البحث عن طبيعة المسيح وشخصه وعرا ، فكان علماء اللاهوت مهما بلغ من حسن قصدهم عرضة

للانزلاق فى اتجاه أو آخر ، فيجد منافسوه الفرصة للطعن والتشهير واتهامهم بالزندقة والمروق من الدين . فكثر الشقاق والخلاف فى المسيحية التى ابتدعتها مخيلة بولس وزادتها فرقة المناقشات التى كانت تدور فى المجالس المسكونية التى ابتدعها قسطنطين بدعوته إلى عقد مؤتمر نيقية .

حاول آريوس وأتباعه فى مؤتمر نيقية إنكار الألوهية التامة للمسيح ودافعوا عن فكرة تنطوى على قدر كبير من التوحيد ، ولكن أول مجمع مسكونى وهو مجمع نيقية الذى عقد برئاسة الإمبراطور قسطنطين أصدر قرارا باستنزال اللعنة عليهم . ولكن الذى حدث هو أن مذهب آريوس ظل طوال القرن الرابع بأكمله يستمتع بمحبة الدوائر الراقية بالقسطنطينية وظل مسيطرا فى الشرق ، ولم يقض عليه إلا بعد انعقاد المجمع المسكونى الثانى .

ومنح المجلس المسكونى بطريق القسطنطينية المركز الثانى بين البطارقة لأن القسطنطينية هى روما الجديدة ، وأسندت الأسبقية لأسقف روما القديمة ولكن بطريقى الإسكندرية وأنطاكية لم يستريحا لذلك القرار .

ولم تعترف روما أبدا بادعاء القسطنطينية بحقها فى ذكر المركز إذ داخلتها الشكوك فيما يحتمل أن يترتب على مقدمات القضية من نتائج محتملة ، كما أن الإسكندرية قبلت الوضع محتجة وراحت تتحين على الدوام الفرص لإبراز استقلالها وأرثوذكسيتها المتشددة . وراحت غيرة البطارقة تطل برأسها وتعمل على تطوير العقيدة حسب هواها ، فكانت روما تحاول توكيد سلطانها على القسطنطينية بينما تحاول الإسكندرية أن تثبت على الدوام أنها وعاء الأرثوذكسية الأوحد .

وشرع نسطوريوس بطريق القسطنطينية شرعا جديدا فى المسيحية فذهب إلى تقسيم طبيعة المسيح إلى شقين هما اللاهوتى والناسوتى . وكانت

تلك حركة بغضت إلى قلوب الناس لأنها كانت تؤدى بصورة منطقية إلى مهاجمة مريم العذراء نصيرة القسطنطينية وراعيتها المحبوبة ، فالمذهب النسطورى سيحرمها من لقبها : أم الرب .

ووقفت الإسكندرية وروما وشعب القسطنطينية فى وجه الدعوة الجديدة ، وأصدر المجمع المسكونى الثلث المنعقد فى أفيسوس قراره متأثرا بقوة شخصية كيرلس بطريق الإسكندرية برفض نظرية نيسطوريوس . ولكن المذهب النسطورى ذاع فى العالم المسيحى الشرقى والغربى على السواء على الرغم من قرار المجلس المقدس .

ومات كيرلس بطريق الإسكندرية وخلفه ديوسقوروس فراح يدعو إلى وحدة طبيعة المسيح . فلم توافق روما على الفكرة وآثر البلاط الإمبراطورى أن يتمشى مع مزاج روما ، فانعقد مجلس مسكونى بخلقيدونية ونعى على ديوسقوروس آراءه ، وبذلك أصبح أصحاب مذهب وحدة طبيعة المسيح هراطقة مرقة وصاروا مضطهدين منبوذين .

وتفرقت المسيحية إلى طوائف وشيع ، إلى يعاقبة نسبة ليعقوب براديوس معتنق مذهب الطبيعة الواحدة ونسطوريين ، إلى قائلين بألوهية المسيح وإلى قائلين ببنوته ، إلى قائلين بطبيعة واحدة للمسيح وإلى قائلين بطبيعتين لا يمكن الفصل بينهما . وصارت كل طائفة تنظر إلى الطائفة الأخرى على أنها هراطقة مرقة ، وحاول بعض ذوى النيات الحسنة أن يوفقوا بين المذاهب المتنافرة فقالوا بوحدة إرادة المسيح ، ولكن هذه المحاولة رفضت وغمرت شخصية المسيح فى طوفان من الآراء الفلسفية والأساطير الوثنية ، وبدا أن العالم المسيحى أصبح فى حاجة إلى ظهور « الفراقليط » الذى بشر به المسيح لينصف المسيح ويوبخ العالم على خطيئته لما جعلوه إلـٰها كما قال السيد المسيح : لكن

أقول لكم الحق إنه خير لكم أن أنطلق لأنى إن لم أنطلق لم يأتكم الفارقليط (أحمد) . فأما إن انطلقت أرسلته إليكم ، فأما إذا جاء ذلك فهو يوبخ العالم على خطيئة وعلى بر وعلى حكم ، فأما على خطيئة فلأنهم لا يؤمنون بى ، وأما على البر لأنى منطلق إلى الأب ولستم تروننى بعد ، وأما على الحكم فلأن رئيس هذا العالم قد دين وإن لى كلاما كثيرا أقوله لكم ولكنكم لستم تطيقون حمله الآن . وإذا جاء روح الحق ذلك فهو يعلمكم جميع الحق لأنه ليس ينطق من عنده بل يتكلم بكل ما يسمع ويخبركم بما سيأتى وهو يمجدنى لأنه يأخذ ويخبركم » .

— « يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه فآمنوا بالله ورسله ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيرا لكم إنما الله إلـٰه واحد سبحانه أن يكون له ولد له ما فى السموات وما فى الأرض وكفى بالله وكيلا » .

كان الناس منذ بعثة موسى عليه السلام ينتظرون ظهور نبى من أبناء عمومة موسى كما قال الله لهم فى توراته ، وكانت شهرة ذلك النبى عالمية حتى إنه لما بعث عيسى ابن مريم سأله الناس : « أأنت إيليا أو المسيح أو النبى » .

وبشر زرادشت أتباعه ببعثة صاحب الجمل الأحمر من بلاد العرب ، وجاء المسيح ابن مريم وبشر بأحمد ، بالفارقليط روح الحق الذى لا ينطق من نفسه بل ينطق بما يوحى إليه من ربه . وقد ادعى منفليس المسيحى فى آسيا الصغرى أنه الفارقليط الذى بشر به المسيح وكان منفليس تقيا زاهدا وفتن به كثيرون . ولكن منفليس لم يوبخ العالم على ادعاء الناس أن المسيح هو الله وهو ابن الله ولم يعد للمسيح كرامته وكان ذلك فى القرن الثانى .

وقام مانى بعد ذلك فى بلاد الفرس وزعم أنه الفارقليط الذى بشر به

المسيح ، ولم يدحض مانى تهمة تأليه المسيح بل ترك الناس يختلفون فيه دون أن يقول كلمة الحق ، وشبت العداوة بين مانى والمجوس وانتهت بأن قضى المجوس على مانى وصلبوه وبات العالم يترقب روح الحق الذى يعلم الناس الحق ، الذى لا ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحى يوحى ، علمه شديد القوى .

ولم يكن حال نصارى فارس أحسن حالاً من نصارى روما والقسطنطينية والإسكندرية وأنطاكية وبيت المقدس ، فعاد يسوع الذى انتخب جاثليقا فى سنة ٤٢٢ م وعقد مجمعا نادى فيه باستقلال كنيسة النصارى فى فارس وبانفصالها عن الكنيسة الغربية ، إلا أن هذا الإجرام لم يمنع انقسام نصارى فارس إلى نسطوريين ويعاقبة ، بل لقد شجر الخلاف بين أنصار المذهبين فى الشرق كما اشتد فى الغرب وأصبح كل فريق يكن للفريق الآخر بغضا دفينا .

كان الجدال قائما فى مدرسة الرسا حيث كان نصارى فارس يتلقون الدين المسيحى ، وحينما توفى إباس سنة ٤٥٧ م وهو أستاذ هذه المدرسة المشهورة وكان نسطوريا متحمسا ، تفوق القائلون بوحدة طبيعة المسيح وطردوا رجال الدين النساطرة من الرها ، فراح اليعاقبة والنسطوريون يتبادلون التهم ويستخدمون أقذع أنواع السباب فى المعركة . ولم يقف الأمر عند حد المناقشات بل وصل إلى الضرب بالسياط والتعليق من أصابع البنصر والاغتيال ، وظهر بوضوح أن أتباع الدين الواحد تمزقوا شيعا متباغضة متنافرة متشاحنة ، وأن الإسلام الذى دعا إليه عيسى ابن مريم قد فسد ، وأن العالم قد صار فى حاجة إلى رسول كريم ليعيد الناس إلى الجادة ويهديهم إلى الصراط المستقيم ، بعد أن طال على الناس الأمد وقست قلوبهم وأشركوا بالله

ما لا يعلمون .

« ولو أن أهل الكتاب آمنوا واتقوا لكفرنا عنهم سيئاتهم ولأدخلناهم جنات النعيم . ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم منهم أمة مقتصدة وكثير منهم ساء ما يعملون » :

١٤

كان كعب بن لؤى يحس فى أعماقه أن النبى الذى بشر به موسى وزرادشت والمسيح من قريش بل من صلبه ، فكان لا يسمح لقريش أن يتفرقوا فى البلاد فقد كان يرى أن عزهم فى تجمعهم حول الحرم . كان على ثقة من أن النور سينبثق من أول بيت وضع للناس ليغمر العالمين .

ومات كعب وصار ابنه مرة فى سادات قريش ، ولم يرث أحد من أبناء كعب الفكرة الجليلة التى استقرت فى وجدانه ، فبدأ القرشيون يهاجرون إلى البلاد الكثيرة التى استقر بها أجدادهم العدنانيون والمعديون والنزاريون والمضريون والكنانيون ، وسارت الحياة الدينية على وتيرتها ، الكهان يستغلون الناس ويستولون على أموال الآلهة والقرابين والنذور ، والحمس من أهل مكة يبيعون الناس الثياب الطاهر وليحجوا فيها ، والفقراء من الرجال والنساء يطوفون حول البيت عرايا فقد شرع الحمس أن الطواف بالملابس التى اقترف الناس فيها الذنوب لا يجوز وأن الحج لا يقبل منهم إن طافوا بها ، وراح الحجاج يدخلون بيوتهم من ظهورها حتى لا يفسدوا حجهم .

واستمر أهل مكة يهرعون إلى هبل ويضربون بالقداح عنده ليستشيروه فى أمر السفر أو الزواج أو ما يحتاج إلى رأى فى أمر الدنيا والدين . وطويت أيام مرة وذهبت مع التاريخ وجاء كلاب بن مرة ، وكانت أسماء الشهور العربية : مؤتمر ، أى أنه يأتمر بكل شيء مما تأتى به السنة من أقضيتها ، وناجر من النجر وهو شدة الحر ، وخوان من الخيانة لأنه كان شهر الثأر والقتال قبل دخول

الأشهر الحرم ، وصوان من الصيانة ، والزبا وهو الداهية العظيمة المتكاتفة سمى بذلك لكثرة القتال فيه ، والأصم لأنهم كانوا يكفون فيه عن القتال فلا يسمع فيه صوت سلاح ، والوغل الداخل على شرب وذلك لأنهم مقبلون على شهر يكثر فيه شربهم الخمر لأن الذى يتلوه هى شهور الحج ، وناطل هو مكيال الخمر سمى به لإفراطهم فيه بالشراب وكثرة استعمالهم لذلك المكيال ، والعادل فهو من العدل لأنه من أشهر الحج ، وكانوا يشتغلون فيه عن الباطل ، وناتق وهو العاذل ، وهواع وبرك لبروك الإبل إذا حضرت المنحر وكانوا يسمونه الميمون أيضا ، فرأى كلاب أن يغير تلك الأسماء باتفاق حال وقعت فى كل شهر منها .

سمى المحرم محرما لأنه شهر حرم القتال فيه ، وسمى الشهر الذى يليه صفرا لصفر بيوتهم منهم عند خروجهم إلى الغارات بعد انقضاء شهر تحريم القتال ، وسمى الشهرين التالين لصفر بربيع لأنه حدث فى أيام قيامه بتسمية الشهور أن الأرض أخصبت فى هذين الشهرين والربيع هو الخصب ، وجمدت الماء بعد ذلك شهرين فسماهما جمادى الأولى وجمادى الآخرة ، وسمى الشهر الذى تلاهما رجب لتعظيمهم له فالترجيب التعظيم ، وبعد رجب تشعبوا فى القارات فسماه شعبان ، وجاء شهر حر بعد شعبان كأنه الرمضاء فسماه رمضان ، وفى الشهر الذى يليه حالت الإبل وشالت أذنابها فسماه شوال ، وجاءت الأشهر الحرم فقعدوا عن القتال فسمى ذلك الشهر ذا القعدة ، واتفق أن جاء الحج فى الشهر الذى يليه فسماه ذا الحجة .

وراح كلاب بن مرة يحفر الآبار لقريش خارج مكة ، فحفر لهم خُم والحفر فكان أولاده وأولاد إخوته تيم بن مرة ويقظة بن مرة وغلمانهم يشربون منها ويسقون الإبل والغنم . ومات كلاب وترك ولديه زيدا وزهرة

لأمهما فاطمة بنت سعد ، وكان زيد فطيما وزهرة كبيرا ، فلما تزوجت فاطمة ربيعة بن خزام رحلت معه وتركت زهرة مع أعمامه وأخذت معها زيدا لصغره ، فسمى قصيا لبعده عن دار قومه .

شب قصى لا يُعلم له أب إلا ربيعة ولا أخ إلا رزاحة الذى ولدته فاطمة لربيعة . وذات يوم وهو غلام تساب هو ورجل من قضاعة فقال له القضاعى معيرا :

ــ لست منا وإنما أنت فينا ملصق .

فوجم قصى ودخل على أمه وهو غاضب وقال لها :

ــ قال لى القضاعى إننى لست منهم وإنما أنا فيهم ملصق ، أريد أن أعرف الحقيقة .

فقالت فاطمة فى هدوء :

ــ يا بنى صدق ، إنك لست منهم ولكن رهطك خير من رهطه وآباءك أشرف من آبائه ، وإنما أنت قرشي وأخوك وبنو عمك بمكة وهم جيران بيت الله الحرام .

ــ ابن من أنا يا أماه .

ــ أنت ابن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر بن مالك ابن النضر بن كنانة .

ــ سألحق بقومى يا أماه .

كره قصى الغربة فى أرض قضاعة بعد أن عرف أن ربيعة بن خزام قد حمله من الوادى المقدس إلى بلاده من أرض عذرة إلى أشراف الشام ، وبعد أن عرف أنه من سادات قريش وأن أخاه زهرة من زعماء القوم ، فأجمع الخروج إلى قومه واللحاق بهم فقالت له أمه :

ـ يا بنى لا تعجل بالخروج حتى يدخل عليك الشهر الحرام فتخرج فى حاج العرب ، فإنى أخشى عليك .

فأقام قصى حتى دخل الشهر الحرام وخرج فى حاج قضاعة وهو يتلهف على لقاء أخيه زهرة ورجال قريش ، وما إن لاحت له أرباض مكة حتى استشعر شوقا يغمره وود لو أن له جناحين يطير بهما إلى أهله ليضم صدره الذى يخفق بالشوق إلى صدور تجرى فيها نفس الدماء التى تنبض بالحياة بين جنبيه .

والتقى قصى بزهرة وتعانق الأخوان وجرت عبرات الرحمة على الخدود ، وصار قصى فى شباب قريش فاستشعر عزة وكرامة وهدأت نفسه الثائرة وراح يتلفت وهو يقوم مع قومه بشعائر الحج . وكان أول ما أثار دهشته أن قريشا خير الناس وأكرمهم لم تكن ولاية البيت فيهم بل فى خزاعة ، وأن الإجارة للناس بالحج من عرفة ليست فى قريش بل فى أبناء الغوث بن مر بن أد ابن طابخة بن إلياس .

كانت أم الغوث من جرهم وكانت لا تلد ، فنذرت لله إن هى ولدت ذكرا أن تتصدق به على الكعبة عبدا لها يخدمها ويقوم عليها . فلما ولدت الغوث وهبته للكعبة وجعلته ربيطا لها وألبسته ثوبا من الصوف ، فقيل له ولولده من بعده صوفة .

وشب الغوث وصار رجلا فولى الإضافة بالناس من عرفة ، وكان إذا دفع بالناس يقول :

لا هم إنى تابـــع تباعـــه إن كان إثم فعلى قضاعــــة

وكان يخص قضاعة بذلك لأنها كانت تستحل القتال فى الأشهر الحرم .

كان قصى يؤدى فريضة الحج لأول مرة وكان بين أهله من قريش فى عرفة ،

وإذا بصوفة تدفع بالناس من عرفة .

وجاء يوم رمى الجمرات فإذا رجل من صوفة يرمى للناس لا يرمون حتى يرمى ، وراح ذوو الحاجات المتعجلون يأتونه فيقولون له :

ـــ قم فارم حتى نرمى معك .

فيقول :

ـــ لا والله حتى تميل الشمس .

فراح ذوو الحاجات الذين يحبون التعجل يرمونه بالحجارة ويستعجلونه بذلك ويقولون له :

ـــ ويلك ! قم فارم .

فأبى عليهم حتى إذا مالت الشمس قام فرمى ورمى الناس معه .

وفرغوا من رمى الجمار وأرادوا النفر من منى ، فأخذت صوفة بجانب العقبة فحبسوا الناس وقالوا :

ـــ أجيزى صوفة .

فلم يجز أحد من الناس حتى يمروا .

ونفرت صوفة ومضت فخلى سبيل الناس فانطلقوا بعدهم ولم يعجب ذلك قصيا فقد استنكر أن تكون الإجازة للناس بالحج فى صوفة ، ورأى أن قريشا أحق بذلك الشرف منهم .

وفرغ قصى من الحج وأقام بمكة ، وكان كلما طاف بالبيت استولت عليه فكرة أن تكون ولاية البيت فى قريش . وكان قصى حازما بارعا فارتفع ذكره واتسعت أطماعه ، فرأى أن يربط الأسباب بينه وبين حليل بن حبشية بن سلول الخزاعى سيد خزاعة ، من يلى الكعبة وبيده مفاتيحها .

وجاء قصى إلى حليل وهو فى نادى قومه عند الكعبة وألقى التحية وقال :

ـــ أنا قصى بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤى .

فقال حليل وهو ينظر إلى الفتى فى إعجاب ، فقد كان قصى جليلا وإن كان فى شرخ الشباب :

ـــ أهلا بابن الكرام ، مرحبا بك .

وفسح له مكانا إلى جواره فجلس قصى ، وما استقر فى مكانه حتى قال :

ـــ جئت أخطب ابنتك حبى .

ورغب حليل فى الشاب النابه فرحب به وزوجه ابنته حبى ، وتمت المصاهرة بين سليل قريش وأشرف فتيات خزاعة .

وولدت حبى لقصى عبد الدار وعبد مناف وعبد العزى وعبدا ، وانتشر ولد قصى وكثر ماله وعظم شرفه ، وكان حليل يفتح البيت وإذا اعتل أعطى ابنته حبى المفتاح ففتحته ، فإذا اعتلت أعطت المفتاح زوجها قصيا أو بعض ولدها فيفتحه .

وكانت أنباء الحيرة والشام ومصر تفد إلى مكة مع عير قريش ، وقد علم قصى أن المنذر بن النعمان غزا الفرس ووطد سلطان ربيبه بهرام جور وفرضه على عظماء الفرس وأهل البيوتات ، فكان من المعجبين بالمنذر وكان يحلم بأن يأتى ذلك اليوم الذى يفرض فيه سلطانه على مكة كما فرض المنذر سلطان ربيبة على الفرس .

وحضرت حليل الوفاة فنظر إلى قصى وإلى ما انتشر له من الولد من ابنته فرأى أن يجعل ولاية البيت فى ولد ابنته فدعا قصيا وأسلم إليه المفتاح ، فلما هلك حليل أبت خزاعة أن يتولى قصى البيت فأخذت المفتاح من حبى ، ولم يقبل قصى أن يستسلم لطغيان خزاعة فمشى إلى سادات قومه من قريش ومن بنى كنانة وقال لهم :

— نحن أولى بالكعبة وبأمر مكة من خزاعة وبنى بكر ، فقريش فرعة إسماعيل بن إبراهيم وصريح ولده .

ودعاهم إلى إخراج خزاعة وبنى بكر من مكة فأجابوه ، وكتب إلى أخيه من أمه رزاح بن ربيعة يدعوه إلى نصرته ويعلمه ما حالت خزاعة بينه من ولاية البيت ، فقام رزاح يدعو الناس من قضاعة لنصرة أخيه قصى بن كلاب بن مرة .

وخرج رزاح بن ربيعة ومعه إخوته من أبيه : حسن ومحمود وطهيبة بنو ربيعة بن خزام فيمن معهم من قضاعة وفيمن معهم من حاج العرب مجتمعين لنصر قصى والقيام معه ، فلما اجتمع الناس بعرفة خرجوا إلى الحج فوقفوا بعرفة ونزلوا منى وقصي مجمع على ما أجمع عليه من قتال خزاعة بمن معه من قريش وبنى كنانة ومن قدم عليه مع أخيه رزاح من قضاعة .

وكان بنو عدوان بن عمرو بن قيس قد انتزعوا إجازة الناس من عرفة إلى منى من خزاعة بعد أن انتزعتها خزاعة من صوفة ، فكان أبو سيارة وهو رجل منهم يتقدم على حماره ثم يخطب الناس فيقول :

— اللهم أصلح بين نسائنا وعاد بين رعايانا ، واجعل المال فى سماحنا وسمحائنا ، أوفوا بعهدكم وأكرموا جاركم واقروا ضيفكم .

وكان يرقب جبل ثبير ، ذلك الجبل الذى أخذ إبراهيم الخليل ابنه إسماعيل إليه لما رأى فى المنام أنه يذبحه ، وكان يطيل النظر إلى ثبير ويقول :

— أشرق ثبير كيما نغير .

ثم ينفر ويتبعه الناس . وأراد أبو سيارة أن يفعل ما كان يفعله على مر السنين فى ذلك اليوم فأتاه قصى فمنعه من الإجازة ، فثار بنو عدوان وبنو فزارة بنو عم أبى سيارة وقال قائل منهم :

خلوا السبيل عن أبى سياره وعن مواليه بنى فزاره
حتى يجيز سالما حماره مستقبل القبلة يدعو جاره

فنظر أبو سيارة إلى السماء وراح يدعو الله قائلا :

ـ اللهم كن لنا جارا مما نخافه .

وأراد أبو سيارة أن يشق طريقه بين الجموع ولكن قصيا منعه ، فدار القتال بين قريش وكنانة ومن جاءوا مع رزاح أخى قصى من قضاعة وبين بنى عدوان وبنى فزارة ، فانتصر قصى وانتزع الإجازة من أبى سيارة .

ورأت خزاعة ما حل ببنى عدوان وبنى فزارة فأوجست خيفة ، فقصى ما جمع الناس إلا لينتزع منهم ولاية البيت . فلما كانت آخر أيام منى أرسلت قضاعة إلى خزاعة يسألونهم أن يسلموا إلى قصى ما جعل له حليل ، فأبت خزاعة أن تسلم لقصى مفاتيح البيت وأن تقر له بولايته .

وبعثت قريش وكنانة وقضاعة إلى خزاعة يحذرونهم الظلم والبغى بمكة ويذكرونهم ما كانت فيه جرهم وما صارت إليه حين مالوا إلى الظلم ، فأبت خزاعة أن تنقاد للنصح أو أن تخضع للتهديد ، فبدا أن لا أمل فى السلام وأن لا بد من القتال فى الشهر الحرام وإن كان إثم فعلى قضاعة .

ودار القتال فى منى وكثر القتلى فى الفريقين جميعا وكثرت فيهم الجراحات ، وحاج العرب من مضر ويمن ينظرون إلى القتال . ثم دخلت قبائل العرب بين الفريقين المتنازعين وعظمت عليهما سفك الدماء والفجور فى الحرم ، فاصطلحوا على أن يحكموا بينهم رجلا من العرب ، فحكموا يعمر بن عوف بن كعب بن مالك بن الليث بن بكر بن عبد مناة بن كنانة ، وكان رجلا شريفا فقال لهم :

ـ موعدكم فناء الكعبة غدا .

وأمر بأن يعد القتلى فى الفريقين وأن يوافوه بها .

وجاء اليوم التالى واجتمع الناس فى الكعبة ، وأقبل يعمر ثم قام ليعلن حكمه ، فحبس الناس أنفاسهم ليسمعوا القرار الذى سيفصل فى أمر ولاية البيت وفى القتال الذى نشب بين قصى وأنصاره وخزاعة التى كانت لها ولاية البيت حتى تلك اللحظة .

قال يعمر بن عوف :

ــ ألا إنى قد شدخت ما كان بينكم من دم تحت قدمى هاتين ، ولا تباعد لأحد على أحد فى دم ، وإنى قد حكمت لقصى بحجابة البيت وولاية أمر مكة دون خزاعة لما جعل له حليل وأن يخلى بينه وبين ذلك ، وألا تخرج خزاعة من مساكنها .

فكان قصى أول رجل من كنانة أصاب ملكا وأطاع به قومه .

١٥

أنزل قصى قومه بطحاء مكة فى الشعاب ورءوس الجبال وقسمها رباعا بينهم ، وأنزل كل قوم من قريش منازلهم من مكة فجمع قبائل فهر بعد افتراقها فسموه مجمعا .

ولم يكن أمر إنزال قريش حول الحرم شيئا هينا ، فلم يكن فى مكة بيت فى الحرم إنما كانوا يأتون إليها حتى إذا أمسوا خرجوا لا يستحلون أن يصيبوا جنابة ، فلما جمع قصى قريشا وكان أدهى من رؤى فى العرب قال لهم :

ــ أرى أن تصبحوا بأجمعكم فى الحرم حول البيت ، فوالله لا يستحل العرب قتالكم ولا يستطيعون إخراجكم منه وتسكنونه فتسودون العرب أبدا .

فقالوا :

ــ أنت سيدنا رأينا لرأيك تبع .

فجمعهم ثم أصبح بهم فى الحرم حول البيت ، فمشت إليه أشراف كنانة وقالوا :

ــ إن هذا عند العرب عظيم ولو تركناك ما تركتك العرب .

فقال :

ــ والله لا أخرج منه .

وثبت حتى إذا ما حضر الحج خشى أن يعترض الحجيج على ما فعل فقال لقريش :

ــ قد حضر الحج وقد سمعت العرب بما صنعتم وهم لكم معظمون ، ولا أعلم مكرمة عند العرب أعظم من الطعام فليخرج كل إنسان منكم من ماله خرجا .

وراحت قريش تخرج المال ليشترى به الإبل والجزور والخبز واللبن والزبيب ، فلما جاء أوان الحج نحر على كل طريق من طرق مكة جزورا ، ونحر بمكة وجعل حظيرة فجعل فيها الطعام من الخبز والثريد واللحم ، فمن مر باللحم والثريد أكل ومن قصد الحظيرة فأكل وسقى الماء واللبن .

وانتهى الحج ولم يرفع أحد صوت الاعتراض ، وقرت قريش فى أماكنها حول البيت المحرم .

كان قصى قد أحدث وظيفة الحجابة وهى منصب شريف ، تكون مفاتيح الكعبة عند من تقلد ذلك المنصب وهو المسئول عن ما فى الكعبة من الأمانات والأموال المهداة . وقد أحدث بحث قريش على إخراج المال لشراء طعام للحجيج وظيفة أخرى هى الرفادة ، فصارت لقصى الحجابة والرفادة .

ورأى أن يكون للحكومة دار فبنى دار الندوة وجعل بابها إلى مسجد الكعبة ، فكانوا لا يتشاورون فى أمر نزل بهم إلا فيها ، وما كان يقطع أمرا قبل أن يستشير سادات قومه فكان أمرهم شورى بينهم ، وكان يجرى فيها التحاكم والتشاور . وأحدث قصى منصبا آخر هو اللواء ، وكان من فى حوزته اللواء إذا أخرجه اجتمعت عنده صناديد قريش لا يتخلف أحد منهم عنه ليشنوا الحرب على من عاداهم ، فصارت له الحجابة والسقاية والرفادة والندوة واللواء ، وجمع الشرف من أطرافه .

ورأى أن يجدد بناء الكعبة فهاب الناس ذلك ، ولكنه أقبل غير هياب ولا وجل وهدمها . وبينا هو يقيم القواعد من البيت حضر الحج وخشيت قريش

غضب الناس ؛ ولكنه ظل ثابت الجنان وأحاط على الكعبة دارا من خشب وربطها بالحبال . وراح الحجيج يدور من وراء الدار ولم ينبس أحد بكلمة استياء .

وعاد الحجيج إلى ديارهم واستأنف قصى بناء الكعبة ، حتى إذا ارتفع البنيان راح يسقف بيت الله بخشب من الدوم وجريد النخل وهو يدعو الله بدعاء بينا كان الكون كله يهمس فى إيمان بدعاء إبراهيم خليل الرحمن وإسماعيل صادق الوعد : ﴿ ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم . ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم . ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم ﴾ .

وراح قصى يسقى الحجيج فى حياض من أدم ، وكان ينقل الماء من آبار خارجة من مكة ، فقد كانت زمزم لا تزال مطمورة . ورأى أن يحفر بئرا قريبة من الحرم فحفر العجول وراح الناس يرتجزون قائلين :

نروى على العجول ثم ننطلق   إن قصيا قد وفى وقد صدق

وأقر لصفوان بالإجازة للناس بالحج من عرفة ، وأقر لعدوان بالإضافة للناس من المزدلفة ، وأقر النسأة وقد كان الناسئ يدعو الناس فى آخر موسم الحج إلى اجتماع حوله ، فإذا اجتمعوا ارتقى موضعا مرتفعا ظاهرا أو قام على ظهر جمله ليراه الناس ثم يقول بأعلى صوت :

— اللهم إنى لا أعاب ولا أحاب ولا مرد لما قضيت ، اللهم إنى أحللت شهر كذا من الأشهر الحرم وأنسأته إلى العام القابل ، وحرمت مكانه شهر كذا من الأشهر البواقى .

وكان الناسىء يؤخر تحريم ما يشاء من الأشهر الحرم باسم الله ﴿ إنما النسىء

زيادة فى الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاما ويحرمونه عاما ليواطئوا عدة ما حرم الله فيحلوا ما حرم الله زين لهم سوء أعمالهم والله لا يهدى القوم الكافرين ﴾ .

وشرف عبد مناف فى زمان أبيه وذهب شرفه كل مذهب . بينا كان عبد الدار بكر قصى خاملا لا يرتفع إلى مكانة أخيه ، فلما كبر قصى ورق عظمه قال قصى لعبد الدار :

ـــ أما والله يا بنى لألحقنك بالقوم وإن كانوا قد شرفوا عليك ، لا يدخل رجل منهم الكعبة حتى تكون أنت تفتحها لهم ، ولا يعقد لقريش لحربها إلا أنت بيدك ، ولا يشرب رجل بمكة إلا من سقايتك ، ولا يأكل أحد من أهالى الموسم طعاما إلا من طعامك ، ولا تقطع قريش أمرا فى أمورها إلا فى دارك .

وأعطاه دار الندوة التى لا تقضى قريش أمرا إلا فيها ، وأعطاه الحجابة واللواء والسقاية والرفادة ، وجعل إليه كل ما كان بيده من أمر قومه . وقبل عبد مناف ما قضى به أبوه فقد كان قصى لا يخالف ولا يرد عليه شىء صنعه .

وهلك قصى بن كلاب فأقامت قريش ليس بينهم اختلاف ولا تنازع ، وإن كان بنو عبد مناف بن قصى : عبد شمس وهاشم والمطلب ونوفل يرون أنهم أحق من بنى عبد الدار بالحجابة واللواء والسقاية والرفادة .

وازدادت مكانة بنى عبد مناف بين قومهم رفعة فأجمعوا على أن يأخذوا ما بأيدى بنى عبد الدار ، فتفرقت عند ذلك قريش فكانت طائفة مع بنى عبد مناف على رأيهم يرون أنهم أحق بشرف ولاية البيت من بنى عبد الدار ، وكانت طائفة مع بنى عبد الدار يرون ألا ينزع منهم ما كان قصى جعل إليهم .

كان عبد شمس بن عبد مناف أسن بنى عبد مناف فكان صاحب أمرهم ، وكان عامر بن عبد الدار صاحب أمر بنى عبد الدار ، وانضم بنو أسد بن

عبد العزى بن قصى وبنو زهرة بن كلاب وبنو تيم بن مرة بن كعب وبنو الحرث بن فهر بن مالك بن النضر إلى بنى عبد مناف ، بينا انضم إلى بنى عبد الدار بنو مخزوم بن يقظة بن مرة وبنو سهم بن عمرو بن هصيص بن كعب وبنو عدى بن كعب ، وخرجت عامر بن لؤى ومحارب بن فهر فلم يكونوا مع واحد من الفريقين .

وعقد كل قوم على أمرهم حلفا مؤكدا على ألا يتخاذلوا ولا يسلم بعضهم بعضا ما بل بحر صوفة ، فأخرجت بعض نساء بنى عبد مناف جفنة مملوءة طيبا فوضعوها لأحلافهم فى المسجد عند الكعبة ، ثم غمس القوم أيديهم فيها فتعاقدوا وتعاهدوا وحلفاءهم ، ثم مسحوا الكعبة بأيديهم توكيدا على أنفسهم فسموا المطيبين .

وتعاقد بنو عبد الدار وتعاهدوا وحلفاءهم عند الكعبة حلفا مؤكدا ، وأخرجوا جفنة دم وغمسوا فيها أيديهم ومسحوا بها الكعبة فسموا الأحلاف ولعقة الدم .

وتساندت القبائل وتأهبت للقتال ، فعُبِّيت بنو عبد مناف لبنى سهم وعبيت بنو أسد لبنى عبد الدار وعبيت زهرة لبنى جمح وعبيت بنو تيم لبنى مخزوم وعبيت بنو الحارث بن فهر لبنى عدى بن كعب ، ثم قالوا :

— لتُفن كل قبيلة من أسند إليها .

فبينا الناس على ذلك قد أجمعوا للحرب إذ تداعوا إلى الصلح على أن يعطوا بنى عبد مناف السقاية والرفادة ، وأن تكون الحجابة واللواء والندوة لبنى عبد الدار كما كانت ففعلوا ورضى كل واحد من الفريقين بذلك وساد السلام مكة ، ولكن إلى حين .

١٦

ادعى مانى أنه « الفارقليط » الذى بشر به المسيح ، ولكن علماء الفرس كذبوه وقالوا إن النبى المنتظر من بلاد العرب ، وإن زرادشت قد أوصاهم بأن يستمسكوا بما جاءهم به إلى أن يأتى صاحب الجمل الأحمر من بلاد العرب . وقالوا إن ساسان الأول تنبأ بظهور رجل من العرب يأخذ سرير ملك فارس عندما يضل الفرس ويلغون فى المعاصى .

وصلب مانى ولكن دينه الذى بشر به وجد أتباعا ، فقد ظهر فى روما مانوى اسمه بندس أتى بمذاهب جديدة تتعارض مع المانوية الرسمية : فقد كان إلٰه الخير يحارب إلٰه الشر ومنى هذا الأخير بالهزيمة ، فحق على البشر تمجيد المنتصر .

وذهب بندس إلى فارس ودعا إلى مذهبه الذى سماه الفرس : « مذهب إلٰه الخير » وسموا تابعيه « أتباع الدين الحق » . وقد تهلل أتباع ذلك المذهب بالفرح لانتصار إلٰه الخير ، وعرف بندس باسم زرادشت تيمنا بنبى الفرس القديم الذى دعا إلى عبادة أهورا مزدا إلٰه النور الواحد القهار ، والذى تطور دينه لما طال على الناس العهد إلى دين المجوس .

كان بندس يبغى إصلاح مذهب مانى فبدأ يناقش الصلة بين الأصلين القديمين : النور والظلمة ، فاختلف عن مذهب مانى بأن قال إن الظلمة لا تعمل كما يعمل النور بالقصد والاختيار ولكنها تفعل على الخبط والاتفاق ، وعلى هذا النحو يكون امتزاج النور بالظلمة ـــ وهو الامتزاج الذى نشأت

عنه الدنيا ـــ غير ناتج بالقصد والاختيار كما قال مانى ولكنه كان على الاتفاق والخبط .

وبعد بُندس بقرنين من الزمان ولد مزدك فى مادرايا على الشاطئ الشرقى لنهر دجلة ، وكانت مدينة عامرة غاصة بأشراف الفرس ورجال الدين . وقد شب مزدك وهو يهوى علم الفلك والنظر فى النجوم ، وقد انحدر ذلك العلم من أيام بابل أيام أن بلغ أوج مجده وازدهاره .

ورأى مزدك فى النجوم أن نبيا سيظهر وشيكا وأن دينه سيظهر على الدين كله ، فشغل بما رأى وولدت فى نفسه أمنية أن يكون هو صاحب ذلك الدين .

وأكب مزدك على دراسة الزردشتية والمانوية والمذاهب الأخرى ، فعثر على دعوة بندس وكانت دين الخاصة ، فعكف عليها حتى امتزجت بضميره واستولت على وجدانه .

وقام مزدك وادعى أنه النبى الذى بشر به زرادشت وأنه « الفراقليط » الذى بشر به المسيح ، ولما كان مانى يقول بوجود خمسة أركان للنور هى : الأثير والهواء والنور والماء والنار ، فقد قال مزدك بثلاثة أركان هى الماء والنار والتراب ، وقال بثلاثة أركان للظلمة ولما اختلطت حدث عنها مدبر الخير ومدبر الشر ، وكان مدبر الخير من صفوها وكان مدبر الشر من كدرها .

وصور مزدك معبودة قاعدا على كرسيه فى العالم الأعلى على هيئة قعود كسرى فى العالم الأسفل وبين يديه أربع قوى هى قوى التمييز والفهم والحفظ والسرور ، كما بين يدى كسرى أربعة أشخاص : الموبدان موبد (الكاهن الأعظم) والهربدان هربد (السدنة) والأصبهبد (القائد) والرامشكر (صاحب الموسيقى) .

وقال مزدك إن الخلاص إنما يقع بالاتفاق دون الاختيار كما حدث بين

الظلمة والنور . وأن على الإنسان أن يأمل بالخلاص بالقيام بأعمال والامتناع عن أخرى ، وأن على المرء أن يتفادى كل ما من شأنه توثيق صلة الأرواح بالمادة ، ومن أجل ذلك حرم على المزدكية أكل لحم الحيوان .

ودعا مزدك إلى الزهد وقال : كل سفك للدماء إنما هو عمل يعوق الجهد فى سبيل تخليص الأرواح ، وحض على قتل النزوات والشهوات ونهى عن المخالفة والمباغضة والقتال .

ولما كانت البغضاء ودفع الناس بعضهم لبعض إنما يقع بسبب عدم المساواة بين الرجال ، فقد أوجب مزدك إزالة ذلك السبب .

كان على الصديقين فى الجماعة المانوية أن يعيشوا بلا نساء ، وأن لا يملكوا من الغذاء غير قوت يوم واحد ومن الملابس غير ما يكفى سنة واحدة . وقد فرضت على الأتقياء الأصفياء من المزدكيين نفس القواعد ولكن مزدك أدرك أن الرجال العاديين لا يستطيعون التخلص من حب اللذات ، من الرغبة فى تملك الأموال والنساء إلا فى اللحظة التى يستطيعون فيها إشباع تلك الحاجات بالاختيار ، فقال مزدك :

ـــ إن الله إنما جعل الأرزاق فى الأرض ليقسمها العباد بينهم بالتساوى بحيث لا يكون لأحدهم أكثر مما لغيره ، وقد نشأ عدم المساواة بالقوة ، فكل يريد إشباع رغباته على حساب أخيه .

وراح مزدك يقول : إن من كان عنده فضلة من الأموال والنساء والأمتعة ليس أولى به من غيره ، وأنه ينبغى أن يؤخذ من الأغنياء للفقراء وأن يرد المكثرين على المقلين لإقامة المساواة بين الناس ، وقال :

ـــ ينبغى أن تكون النساء والأموال شركة بين الناس كاشتراكهم فى الماء والنار والكلأ .

وعارض الناس تلك المساواة البدائية ، تلك الشيوعية التى تردهم إلى عهد الغابة ، وقالوا إنها ليست من الدين فى شىء ، فقال مزدك :

ــ إن ذلك من البر الذى يرضاه الله ويثيب عليه أحسن الثواب ، وأنه لو لم يكن الذى أمرهم به وحثهم عليه من الدين كان مكرمة فى الفعال ورضاء فى التفاوض .

وحدث قحط فى فارس فذهب مزدك إلى قباذ شاهنشاه فارس وراح يحاوره ، وقال له فيما قال :

ــ ما حكم من منع رجلا من الطعام والشراب ؟

فقال قباذ :

ــ ينبغى أن يقتل به .

وخرج مزدك من قصر الملك فخف إليه الناس المتجمعين حول القصر زمرا ، فأشار لهم بيده أن اصمتوا فساد السكون المكان وأرهفوا سمعهم ، فقال لهم مزدك :

ــ إن الملك قد أباحكم ما فى الأهراء من غلات فابسطوا أيديكم ، وأينما وجدتم شيئا فاستبيحوه .

وانطلق الشعب الجائع ينهب كل ما يقع تحت يده ، وامتلأ الأشراف بالغضب فقد كانت الثروة الفارسية كلها فى أيديهم ، وأوجسوا خيفة من الملك قباذ بن فيروز خشية أن يتحالف الشاهنشاه مع الشيوعية المزدكية لتحطيم قوة الأشراف .

وقد وقع ما كان يخشاه الأشراف فقد دخل قباذ فى مذهب مزدك وراح يشرع فى أمر المال ، ففرض ضرائب باهظة على الأغنياء لتحسين أحوال الفقراء ، ويسَّر للرجال أن يتنازلوا عن زوجة أو أكثر إلى رجال قد مسهم

الإملاق ، وراحت القوانين تتجه إلى شيوعية المال وشيوعية النساء .

وقامت العداوة للدين الجديد فى صفوف رجال الدين المجوسى والأشراف ، وشن عليه نصارى فارس هجوما شديدا لا رحمة فيه ، وأظهر سكان مدينة آمد عداوة سافرة لقباذ ، فجهز جيشا وانطلق إلى المدينة التى هاجمته فى ضراوة . وسرعان ما خرت مدينة آمد ساجدة تحت أقدام الفرس فأباح قباذ المدينة لجنوده ، وجرت فيها مذبحة يشيب من هولها الوليد . ووقف قباذ الذى يخشى سفك الدماء ينظر إلى ضحاياه بلا مبالاة ، فتقدم منه قسيس شيخ وقال له :

ـــ إنه ليس جديرا بملك أن يقتل الأسرى .

فالتفت إليه قباذ وقال وهو غاضب :

ـــ لماذا أصررتم أنتم على قتالى !؟

فقال القسيس الشيخ فى هدوء :

ـــ لقد أراد الله أن يضع آمد بين يديك لا بتدبير منا ولكن بفضل شجاعتك .

فأمر الملك بوقف المذبحة ولكنه أباح نهب الأملاك واسترقاق جميع الأحياء من سكان المدينة ، وقد نهى عن هدم الكنائس أو تخريبها .

ولم يتبع قباذ بغاية الدقة قواعد الأخلاق المزدكية كما لم يتبع من قبل قسطنطين بدقة قواعد الأخلاق المسيحية .

وتحالف رجال الدين المجوس والأشراف وعامة الناس الذين ضاقوا بالدين الجديد وبقوانين قباذ ، وثاروا ثورة عارمة على مزدك وعلى الملك الذى اعتنق دينه ، وأصبح (الزند) كتابه المقدس بعد أن كانت (الأوستا) كتابه الكريم . وامتدت الثورة إلى القصر فألقى القبض على قباذ الزنديق ونصب الثوار

جاماسب أخا قباذ على العرش .

واجتمع الأشراف الذين كونوا مجلس شورى الملك تحت رئاسة جاماسب ليتداولوا فى مصير قباذ فقال قائل :

ــ أرى قتل الملك المعزول .

ورفض آخرون ذلك الاقتراح وقالوا :

ــ بل يحبس .

وسجن قباذ فى قلعة النسيان ، ومرت الأيام وإذا بامرأة جميلة آسرة تأتى فى سواد الليل إلى السجن وتغرى الحارس بجمالها ، ثم تنسل إلى السجن وتخفى قباذ زوجها فى ثيابها وينسل قباذ هاربا من سجنه .

وهام على وجهه حتى بلغ بلاط الخاقان فاستقبله استقبال صديق قديم وزوجه ابنته ، ثم أمده بجيش ليستعيد عرشه . وقد تعهده قباذ بأداء جزية إذا استتب له ملك فارس مرة أخرى .

ورأى جاماسب أن الناس انفضوا من حوله ، ولم يجد مدافعين عنه متحمسين له فآثر أن ينزل باختياره عن العرش لأخيه ، فدخل قباذ قصره دخول الظافرين وعفا عن جاماسب ولكنه لم يعف عن الذى أشار بقتله ، بل سفك دمه وألحقه بالغابرين .

وفترت حماسة قباذ لمزدك والمزدكيين إذ أحس أن تأييده للمذهب المزدكى أطاح بعرشه ولكنه رأى من الحكمة أن يقف على الحياد بين المجوس والمزدكيين ، وألا يثير مرة أخرى الزوابع التى اقتلعته .

وكان لقباذ ثلاثة أبناء يصلحون لولاية العرش من بعده ، وكان كاووس أكبرهم وقد عهد إليه قباذ بولاية طبرستان ، وكان كاووس بن قباذ من بنته سمبيكة ، وكان زام الأخ الثانى وقد فقد عينا من عينيه وهذا يحرم صاحبه من

ولاية الملك ، وكان الأخ الثالث كسرى وقد ولد فى أثناء فرار قباذ وقبل أن يصل إلى بلاط الخاقان .

وكان قباذ قد عهد بتربية ابنه كاووس إلى المزدكيين قبل ثورة الأشراف والمجوس عليه ، فشب كاووس مزدكيا مؤيدا بمزدك والمزدكيين ، فآثر قباذ لخلافته كسرى الصغير على ابنه الأكبر كاووس ، وما إن علم المزدكيون بهذه الرغبة حتى أحسوا أن الملك الذى كان سندهم يوما قد قلب لهم ظفر المجن ، فبدت العداوة سافرة بين قباذ شاهنشاه إيران والشيوعيين المزدكيين .

١٧

« لقد كان لسبأ فى مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور » .

وكان أهل سبأ يعبدون الله وحده مذ أسلمت ملكتهم مع سليمان لله رب تسقط مدرارا فى مناطق كثيرة فى شرق اليمن وتندفع سيولها فى الوديان حتى تصل إلى مأرب تجرف فى طريقها كل شىء ، فقد رأوا أن يقيموا سدا يسيطر على مياه
مأرب تجرف فى طريقها كل شىء ، فقد رأوا أن يقيموا سدا يسيطر على مياه
السيول المتدفقة فلا تخرب ما يعترضها إذا اندفعت فى غزارة ، ويخزن المياه خلفه يصرفونها بقدر ، ويزرعون أرضهم وكانت أخصب أرض العرب .

وتم تشييد السد فى منتصف القرن السابع قبل الميلاد ، وصار لسبأ جنتان عن يمين السد وشماله . وراح اليمنيون يفلحون الأرض ويعمرون البلاد ، فكان بينهم وبين الشام قرى ظاهرة فكانوا يسيرون من قرية إلى قرية فى الليل والنهار حتى يصلوا إلى الأرض المباركة آمنين : ﴿ وجعلنا بينهم وبين القرى التى باركنا فيها قرى ظاهرة وقدرنا فيها السير سيروا فيها ليالى وأياما آمنين » .

وطال على الناس الأمد فقست قلوبهم وراحوا يعبدون الأوثان والأصنام ، وعادوا إلى عبادة الشمس والقمر والنجوم وكفروا بأنعم الله وقالوا :

ـــ لا نعرف لله علينا من نعمة .

ولما كان الله قد كتب على نفسه الرحمة وشرع ألا يعذب الناس حتى يبعث إليهم رسولا ، فقد أرسل إليهم رسله يذكرونهم بنعمة الله عليهم وينذرونهم

عقابه ، فأعرضوا عنه ووضعوا أصابعهم فى آذانهم واستكبروا استكبارا ؛ وبطروا بأنعم الله وضاقوا بالراحة التى أسبغها الله عليهم وتمنوا أن يكون بينهم وبين الأرض المباركة مفاوز ومتاعب وأخطار فقالوا :

— ربنا باعد بين أسفارنا .

وظلموا أنفسهم واتخذوا من آيات الله هزوا ، أولٰئك لهم عذاب مهين .

وفى أوائل القرن السادس الميلادى كان عمرو بن عامر ملكا على مأرب ، وكان يلبس فى كل يوم حلة ثم يمزقها لئلا يلبسها أحد بعده فعرف بمزيقياء . وكان قومه أغنياء فتنتهم الدنيا فأعرضوا عن السماء ونسوا الله فأنساهم أنفسهم وكفروا بالله . « والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب . أو كظلمات فى بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور » .

وجلس مزيقياء مزهوا بملكه يمد بصره إلى سد مأرب وإلى الجنتين اللتين عن يمين السد وعن شماله فيتهلل بالفرح ، وينظر إلى أولاده الذين يغدون فى القصر ويروحون فيتملكه الغرور ، ويتذكر ما فى خزائنه من أموال فيفيض قلبه بالكبر ، « فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليعذبهم بها فى الحياة الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون » .

أنعم الله عليهم فقالوا : لا نعرف لله علينا نعمة ، فبعث إليهم رسله فكذبوهم ولجوا فى الكفر المبين ، فكان ذلك آية انتهاء سلطانهم وأن الله سيذهبهم ويأتى بخلق جديد .

دخلت طريفة الخير زوجة مزيقياء لتنام فى فراشها الوثير ، وما كاد الكرى

يمس جفنيها حتى رأت فى منامها أن سحابة غشيت أرضهم فأرعدت وأبرقت ثم صعقت فأحرقت كل ما وقعت عليه ، ففزعت طريفة لذلك فزعا شديدا ولم تستطع أن تتريث حتى يصبح الصباح ، فانطلقت إلى الملك وما إن رأته حتى قالت :

ـــ ما رأيت كاليوم أزال عنى النوم ، رأيت غيما أرعد وأبرق وزمجر وأصعق ، فما وقع على شيء إلا أحرق .

فلما رأى ما داخلها من الفزع سكنها ولكن القلق استبد به ، فما كاد النهار ينتصف حتى انطلق هو وطريفة إلى سد مأرب وراحا يفحصان عن السد بأعينهما .

كان مكان خروج الماء سليما على أوثق ما يكون ليس به عيب ، فانطلق عامر وطريفة إلى ناحية الجنة اليسرى إلى العرم حيث يدخل ماء السيل ، فإذا البنيان يريد أن ينقض ، إنه لا يحتمل سيلا شديدا فقالت طريفة فى أسى :

ـــ والنور والظلماء ، والأرض والسماء ، إن الشجر لهالك ، وليعودن الماء كما كان فى الزمن السالك .

وعلم عمرو بن عامر أن الخراب سيحل بالبلاد فكتم ذلك وأجمع على بيع كل شيء له بأرض مأرب وأن يخرج منها هو وولده ، ثم خشى أن تنكر الناس عليه ذلك فعزم على الانتقال من بلاده بمكيدة دبرها ، فطلب أصغر أولاده وقال له :

ـــ إذا تحدثت بحضرة الناس فجارينى الحديث ورد على حديثى ، فأظهر الغضب عليك وألطمك فافعل بى مثل ذلك .

وأولم عمرو وليمة عظيمة ، وبعث إلى أهل مأرب أن عمرا قد صنع طعاما يوم مجد وذكر فاحضروا طعامه .

ووفد الناس إلى القصر ودخلوا قاعة الطعام ، وجلس عمرو بن عامر وقد ارتدى حلة جديدة وأجلس مالكا أصغر أولاده إلى جواره . ودار الحديث رخاء كالنسيم ثم التفت عمرو إلى ابنه مالك وأمره أن يفعل شيئا فأبى مالك أن يفعله ، فأظهر عمرو الغضب . ثم عاد عمرو وتحدث فإذا بمالك يعارض حديثه فثار عمرو ولطم ابنه ، فقام مالك ولطم أباه .

واكفهر الجو وساد الوجوم برهة ، وسرعان ما هب عمرو يتظاهر بأنه يريد الفتك بابنه ولكن الناس منعوه عنه ، فقال عمرو فى غضب :

ــ لا أقيم ببلد يلطم فيه وجهى أصغر ولدى ولأبيعن أموالى حتى لا يرث بعدى منها شيئا .

وغادر عمرو قاعة الطعام وهو يتظاهر بأنه سيموت كمدا وسينفجر من الغيظ ، وما كان يختفى عن أعين الناس حتى التفت بعضهم إلى بعض وقالوا :

ــ اغتنموا غضبة عمرو واشتروا منه قبل أن يرضى .

وابتاع الناس منه كل أمواله وقالت الأزد :

ــ لا نتخلف عن عمرو بن عامر .

فباعوا أموالهم ، وخرج عمرو بن عامر وأولاده وخرج الأزد معه وانطلقوا حتى نزلوا بلاد عك بين اليمن والحجاز . ودارت الحرب بينهم وبين عك وبدا أن استقرارهم فى تلك الأرض بات مستحيلا فعزموا على أن يتفرقوا فى البلاد . وجاءوا طريفة وقالوا لها :

ــ ماذا تأمرين ؟

قالت :

ــ عليكم الإجابة وعلى التبيين .

ــ فماذا تقولين .

ــ من كان منكم ذا هم بعيد ، وجمل شديد ، ومزاد جديد ، فليلحق بقصر عمان المشيد .

فانطلق الأزد إلى عمان ليكونوا أزد عمان ، ثم قالت :

ــ من كان منكم يريد الراسيات فى الوحل ، المطعمات فى المحل ، فليلحق بيثرب ذات النخل .

فانطلق إلى هناك الأوس والخزرج ، ثم قالت :

ــ من كان منكم يريد الخمر والخمير ، والملك والتأمير ، ويلبس الديباج والحرير ، فليلحق ببصرى والغدير .

فانطلق إلى الشام آل جفنة ثم قالت :

ــ من كان يريد الثياب الرقاق ، والخيل والعناق ، وكنوز الأرزاق ، والدم المهراق ، فليلحق بأهل العراق .

وانطلقت قوافل اليمن إلى عمان وإلى يثرب وإلى الشام وطريفة تقول :

ــ سيروا فلن تجتمعوا أنتم ومن خلفتم أبدا ، فهم لكم أصل وأنتم لهم فرع .

وتلبدت الغيوم فى شرق اليمن وراحت تسير كالجبال ، ثم برق البرق ورعد الرعد وهطلت الأمطار فجرت كالأنهار ، وراحت تزمجر وهى ترغى وتزبد وتجرف كل شيء فى طريقها وهى تتدفق فى الوديان ، حتى إذا ما بلغت العرم مدخل سد مأرب راحت تلطمه لطما شديدا ، وترتفع كالجياد الشهب فى الجو ثم تنحسر لتعاود ضغطها على مدخل السد مع السيل المنحدر من السفوح والوديان يحمل الدمار .

ووهن السد وعجز عن أن يقاوم نطح السيول ، فمال وما لبث أن انسحق وسرعان ما انهار ، وفاضت المياه وغمرت الجنتين ورأى الناس الطوفان فصاحوا فى هلع :

ـ سيل العرم .. سيل العرم .

وفروا مرعوبين لا يلوون على شيء ، وقد ذهل كل امرىء بنفسه عن ماله وولده . وراحت المياه تغرق الأرض وتلاطم الدور والقصور وتغمر كل شيء ، كأنما أقبلت لتطهر سبأ من الرجس وتحق العذاب على المجرمين .

وفى ذلك للمؤتسى أسوة ومأرب عفىَّ عليها العرم
رُخام بنته لهم حِمير إذا جاء مواره لم يرم
فأروى الزروع وأعنابها على سعة ماؤهم إذ قُسم
فصاروا أيادىَ ما يقدرو ن منه على شُرب طفل فُطم

« لقد كان لسبأ فى مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور . فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتى أكل خمط وأثل وشيء من سدر قليل . ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازى إلا الكفور . وجعلنا بينهم وبين القرى التى باركنا فيها قرى ظاهرة وقدرنا فيها السير سيروا ليالى وأياما آمنين . فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا وظلموا أنفسهم فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق إن فى ذلك لآية لكل صبار شكور » .

١٨

كان اليهود يعيشون فى جماعات متفرقة فى تيمان وخيبر ويثرب قد خالطهم أحياء من العرب وعاشوا فى آطام وحصون ، فقد كانوا أغنياء يخشون غدر جيرانهم ويخافون أن ينقض بعضهم على بعض .. تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى .

وكان بنو قينقاع يسكنون فى حى خاص بهم فى إطامين يقعان فى القسم الجنوبى الغربى من يثرب ، وكانت لهم سوق عرفت بالصياغة ، فكان العرب من كل مكان يفدون إلى يثرب إلى البغايا صاحبات الرايات الحمر وكانت لهن سقيفة بطرف المدينة لتحصيل اللذة ، ومن ثم ينطلقون إلى سوق بنى قينقاع لشراء أساور الذهب والحلى لنسائهن .

وكان بنو قريظة يسكنون فى الأقسام الجنوبية من المدينة وكانوا يشتغلون بالزراعة والتجارة ، وكان يحلو لشيوخهم أن يقصوا على مر الأيام قصة فرارهم إلى يثرب ، كانوا يقولون :

ــ ظهر ملك الروم على بنى إسرائيل وملَك الشام ، فخطب إلى بنى هرون ، ولما كان ديننا لا يسمح إلا بزواج اليهودى من يهودية وينهى عن أن نزوج بناتنا إلى من ليس من ملتنا خاف آباؤنا أن يرفضوا طلبه ، فسألوه أن يشرفهم بإتيانه إليهم فأتاهم ففتكوا به وبمن معه ، ثم هربوا ليلحقوا من كان بالحجاز من بنى إسرائيل .

فإذا سألهم سائل :

— ومن أين جاء اليهود الذين كانوا بيثرب قبل أن يخطب ملك الروم إلى بني هرون ؟

كانوا يروون فى طلاقة قصة اضطهاد بختنصر لليهود وقتلهم وحملهم إلى بابل أسرى وفرار من استطاع الفرار إلى تيماء وخيبر ويثرب ، وكان ذكر بابل يعيد إلى أذهان الشباب قصة إستر القديسة التى زينها مردخاى وأدخلها على أخشويرش ملك فارس ليلهو بها وتلعب برأسه وتنقذ شعبها الذليل ، فإذا ما تجرأ شاب وسأل :

— وإذا كانت الشريعة تحرم زواج غير اليهودى من يهودية فلماذا زين مردخاى إستر وأدخلها فى حريم أخشويرش ؟ ولماذا قدسها اليهود إذا كان ما فعلته ليس من الدين ؟!

كان مثل ذلك الشاب ينهر أو يعرض عنه فى احتقار شديد ، أما إذا ألقى مثل ذلك السؤال على حبر من الأحبار الذين عركوا الحياة وعركتهم فكان يقول له فى هدوء :

— إن ما قامت به إستر تضحية عظمى فى سبيل شعبها ، وإن يهوه إلـٰه إسرائيل يقبل مثل هذه التضحيات ويثيب عليها .

ونزل بنو النضير على مذينيب ومهزوز ، وكان مذينيب واديا فى يثرب يسيل فيه ماء المطر فكان يهود هذه القبيلة يزرعون على المطر وكانوا أول من احتفر الآبار بالعالية وغرسوا الأموال وابتنوا الآطال والمنازل ، ونزل عليهم بعض قبائل العرب فكانوا معهم ، فاتخذوا الأموال وابتنوا الدور والحصون .

وكثر اليهود فى يثرب فصاروا نيفا وعشرين قبيلة ، ولما كانت الآطام هى عز أهل يثرب فهى الحصون التى يتحصنون بها إذا دهمهم عدو أو عدا بعضهم على بعض ، فقد أصبحت آطامهم تسعة وخمسين أطما وأصبحت آطام

النازلين عليهم من العرب ثلاثة عشر أطما .

وراحت كل قبيلة من قبائل اليهود تحاول أن تؤكد أنها من نسل رسول من الرسل أو نبى من الأنبياء أو سبط من الأسباط ، فقالت طائفة نحن من نسل هرون ، وقالت أخرى نحن من نسل يوسف ، وقالت طائفة ثالثة نحن من نسل داود ، وراحت كل طائفة تدلل على أن أصلها هو خير الأصول وأنها وجدها التى كتب لها أن تنام فى حضن إبراهيم . وأن الأرض التى لا رجعة منها أعدت لغيرها من اليهود ومن الأمم .

واتسعت الهوة بين اليهود واليهود فى يثرب فكانوا أعداء متنافرين ، وكادت الصلة بينهم وبين السماء تنقطع فقد تكدست فى أيديهم الثروات وشغلوا بإدارة أراضيهم وبتجارة الأسواق فانطفأ بريق الإيمان فى قلوبهم ، ولم يبق من الدين إلا تزمت المتزمتين وما تتحرك به الألسنة فى الأفواه .

وتحولت اليهودية إلى وثن أشد خطورة من الأوثان الأخرى التى تجسمها مخيلة الناس فقد كانوا يحسبون أنهم يعبدون الله بينما كانوا يعبدون أنفسهم غرورا ، وإن أية عقيدة دينية تتردى فى مثل ذلك الشرك إذا ما أصرت فى جمود على أنها المستودع الأوحد للحقيقة المطلقة التى أوحيت إليها .

« وقالوا كونوا هودا أو نصارى تهتدوا قل بل ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين . قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون . فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما هم فى شقاق فسيكفيكم الله وهو السميع العليم . صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون » .

وراح يهود يثرب يحتلفون بأعيادهم كما يحتفل بها كل يهود الأرض ، ففى

أول يوم من تشرين يحتفلون بعيد رأس هيشا ويقولون إن الله تعالى أمر إبراهيم بذبح ولده إسحاق فيه وفداه بذبح عظيم . وفى اليوم التاسع من تشرين قبل غروب الشمس يبدءون بالصوم العظيم ومدته خمس وعشرون ساعة ، ويحل لهم الإفطار بعد ساعة من غروب الشمس من اليوم العاشر ولهذا يسمى العاشور ، ويشترطون رؤية ثلاثة كواكب عند الإفطار وهو عندهم تمام الأربعين الثالثة التى صامها موسى عليه السلام ، ولا يجوز أن يقع عندهم فى يوم الأحد ولا فى يوم الثلاثاء ولا فى يوم الجمعة ، ويؤمنون بأن الله تعالى يغفر لهم فيه جميع ذنوبهم ما خلا الزنا بالمحصنة وظلم الرجل أخاه وجحده لربوبية الله .

وفى الخامس عشر من تشرين يبدأ عيد « المظال » وهو ثمانية أيام ، يجلسون فيها تحت ظلال من جريد النخل وأغصان الزيتون وسائر الشجر الذى لا ينتشر ورقه على الأرض تذكارا منهم لإظلال الله تعالى إياهم فى التيه بالغمام .

وفى الخامس عشر من نيسان يحتفلون بعيد الفصح وهو سبعة أيام يأكلون فيها الفطير وينظفون فيها دورهم من خبز الخمير ، فهى الأيام التى خلص الله تعالى بنى إسرائيل من فرعون فخرجوا إلى أرض التيه وجعلوا يأكلون اللحم والخبز والفطير وهم بذلك فرحون .

وبعد عيد الفطير بسبعة أسابيع يحتلفون بعيد الأسابيع وهى الأسابيع التى فرضت فيها الفرائض والتى خاطب الله فيها موسى وأنزل عليه الوصايا العشر وكمل فيها الدين .

وأحدثوا « عيد الفوريم » وهو اليوم الذى تمكنت فيه إستر من إقناع أخشويرش بقتل هامان عدو اليهود وأن يكتب لليهود بالأمان والبر والإحسان .

ولما كان ذلك العيد تكريما لإستر فقد جعلوه عيد سرور ولهو وخلاعة ،

يهدى بعضهم فيه إلى بعض ويصورون من الورق صور هامان ويملأون بطنها نخالة وملحا ويلقونها فى النار . « ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون » .

وجاء من اليمن من مزقهم الله كل ممزق الأوس وأخوه الخزرج وأهلوهم ، وراحوا يتلفتون فى يثرب فوجدوا اليهود وقد تمكنوا منها : الزراعة فى أيديهم ، والأسواق غاصة بتجارتهم ، وسادات العرب يأتون إليهم يقترضون منهم الربا الفاحش ، وآطامهم منتشرة هنا وهناك وقد وضعت فيها أموالهم وتكدست فيها الأسلحة والمؤن يتحصنون بها إذا ما أوقدت نار الحرب أو أراد بهم عدو شرا ، فنزل الأوس والخزرج ومن معهما فى ضنك وشدة ينتظرون ما تتمخض عنه الأيام .

عاش أوس بن حارثة دهرا وليس له ولد إلا مالك ، وكان لأخيه الخزرج خمسة أولاد : عمرو وعوف وجشم وكعب ، فلما حضره الموت قال له قومه :

ــ قد كنا نأمرك بالتزوج فى شبابك فلم تتزوج حتى حضرك الموت !

فقال الأوس :

ــ لم يهلك هالك ترك مثل مالك ، وإن كان الخزرج ذا عدد وليس لمالك ولد ، فلعل الذى استخرج العذق من الجريمة (النخلة من النواة) والنار من الوثيمة (من قدح حوافر الخيل) ، أن يجعل لمالك نسلا ورجالا بسلا .

ودخل عليه مالك فراح يوصيه :

ــ يا مالك ! المنية ولا الدنية ، والعتاب قبل العقاب ، والتجلد لا التبلد ، واعلم ان القبر خير من الفقر وشر شارب المُشْتَف (المستقصى) ، وأقبح طاعم المقتف (الآخذ بعجلة) ، وذهاب البصر خير من كثير النظر ، ومن كرم الكريم الدفاع عن الحريم ، ومن قل ذل ، ومن أمِر فل ، وخير الغنى القناعة ،

وشر الفقر الضراعة ، والدهر يومان يوم لك ويوم عليك ، فإذا كان لك فلا تبطر ، وإذا كان عليك فاصبر ، فكلاهما سينحسر ، فإنما تعز من ترى ، ويعزك من لا ترى .

ولو كان الموت يشترى لسلم منه أهل الدنيا ، ولكن الناس فيه مستوون : الشريف الأبلج واللئيم المُعَلْهَج (المتناهى فى الدناءة) ، والموت المقيت خير من أن يقال لك : هبيت (أحمق) ، وكيف بالسلامة لمن ليست له إقامة ، وشر من المصيبة سوء الخلف ، وكل مجموع إلى تلف ، وحياك إلٰهك .

ونشر الله من مالك بعدد بنى الخزرج ، وانقسم الأوس إلى بطون وأفخاذ ، وانتشر الخزرج فى يثرب وفى الشمال منها حتى خيبر وتيماء ، وقد تحالفت الخزرج مع بنى قينقاع وتحالفت الأوس مع بنى قريظة .

ومرت الأيام وبطون الأوس وأفخاذها تتكاثر ، وبطون الخزرج تزداد قوة وكان أشهرَها بنو النجار ، وقد آلت إليهم تلك الدار التى بناها تبان أسعد تبع اليمن ، يوم أن أراد أن يحرق نخيل يثرب انتقاما ممن غدروا بابنه فنهاه أحبار اليهود عما هم بأن يفعله قائلين :

— أيها الملك إن هذه البلدة محفوظة ، فإنا نجد اسمها فى الكتاب طيبة ، وإنها مهاجر نبى من بنى إسماعيل .

فبنى تبع تلك الدار وقال :

— هذه الدار من تبان أسعد إلى النبى المنتظر لينزلها إذا قدم يثرب .

١٩

كانت رغبة قباذ أن يتولى ابنه الثالث كسرى عرش فارس من بعده ، وكان يخشى معارضة مزدك والمزدكيين الشيوعيين لتلك الرغبة فقد كان ابنه الأكبر كاووس من أتباع مزدك ، وكان أمل المزدكيين أن يئول إليه عرش البلاد ليقضوا على الزردشتيين ويفرضوا على الناس شيوعية الأموال وشيوعية النساء .

وراح قباذ يتدبر الأمر فتذكر أن يزدجرد أخذ تحت حمايته تيودوس الثانى ابن قيصر الروم لما كان طفلا قاصرا ليضمن له عرش آبائه ، فلماذا لا يضع قباذ ابنه كسرى فى حماية الإمبراطور جستين فيلتزم الإمبراطور التزاما أدبيا بالدفاع عن قضية كسرى ؟

واستراح قباذ للفكرة فعقد مع الإمبراطور جستين صلحا نهائيا ثم طلب إليه أن يتبنى ابنه كسرى . فقبل الإمبراطور طلب قباذ ولكنه اشترط ألا يتم التبنى بوثيقة مسطورة بل بالسلاح على الطريقة البربرية التى كانت شائعة بين البرابرة الجرمان فى أوروبا ، ومثل هذه الطريقة لا ترتب حقوقا قادمة كإعلان الحرب على من يناوئ سلطة كسرى ، فلم يقبل قباذ هذا الشرط وانقطعت المفاوضات .

وكان الجانب الفارسى فى هذه المفاوضات مكونا من سياوش وكان حتى ذلك الوقت أقوى رجل بين سادات فارس ، ومن ماهبود وكان عظيما آخر من عظماء الدولة وكان ينفس على سياوش مكانته ، فراح يتهمه بأنه كان السبب فى إخفاق المفاوضات .

وانعقد المجلس الأعلى لمحاكمة سياوش على خيانته العظمى ، وكان أعضاء المجلس يحقدون عليه لأنه كان يؤمن بآلهة أخرى غير آلهة فارس ولأنه لما ماتت زوجه لم يترك جثتها على قبر الصمت حتى يلتهمها جوارح الطير بل دفنها فى التراب ، فنجس بذلك مادة من مواد الآلهة . وحكم المجلس بإدانة سياوش ولكنه فر من سجنه ، وخامرت قباذ الشكوك وراح يؤكد لنفسه أن ذلك كان بفعل المزدكيين وأنه أصبح أمام مزدك وأتباعه وجها لوجه .

لم يعد هناك مفر من أن يرفع كل من قباذ ومزدك القناع عن وجهه وبدت العداوة سافرة بينهما ، فانضم قباذ صراحة إلى الدين الزردشتى وراح يؤيد المجوس ويحارب معهم من كانوا إخوانه فى العقيدة إلى الأمس القريب .

وكانت المبادئ الشيوعية قد بدأت تتأصل فى السوقة وكانوا منذ أجيال فى ضيق من ظلم الطبقات الممتازة ، وقد انتشرت هذه المبادئ بطيئة أول الأمر ثم لم تلبث أن أسرعت فلما أحس السوقة القوة رفعوا حجاب الأدب فظهر قوم لا يتحلون بشرف الفن أو العمل ، لا ضياع لهم موروثة ولا حسب ولا نسب ولا حرفة ولا صناعة ، عاطلون ، مستعدون للغمز والشر وبث الكذب والافتراء ، وإن كانوا يحيون فى رغد من العيش وسعة فى المال .

واقتحم الثوار قصور الأشراف ناهبين الأموال مغتصبين الحرائر ، ووضعوا أيديهم على الضياع ولكن الأراضى الزراعية قد تلفت وحاق بها البوار لأن السادة الجدد لا يعرفون الزراعة .

وكان المزدكيون الشيوعيون يوطدون أقدامهم فى البلاد بينا كان قباذ مشغولا بحرب الروم وبتحريض المنذر بن النعمان ملك الحيرة على التوغل فى أرض الروم ، فسار بجيوشه واستولى على أرض الخابور ونصيبين وانطلق حتى بلغ حمص وأنطاقية ، ثم قفل عائدا إلى الحيرة يحمل الأسلاب والغنائم . وقد

زعم الرهبان أنه قتل عددا كبيرا من السكان وقال قائل منهم إنه اختار من بين الأسرى أربعمائة راهبة أخذهن لنفسه ، وقال آخر إنه ضحى بأربعمائة راهبة للعزى .

كان قيصر الروم يطمع فى أن يعقد هدنة أو معاهدة مع المنذر وكان يبعث إليه برسله بين الحين والحين ، فقد كتب إليه ذات يوم يطلب منه أن يخرج من فى أرضه من القائلين بطبيعة المسيح الواحدة ، وبعث إليه أكثر من مرة برسله لإبرام معاهدة بينه وبين الرومان ، ولكن ذلك الأمل لم يتحقق ، وأوجس قباذ من المنذر خيفة وبات يخشى توسع نفوذه .

وظهر فى أرض العراق الحارث الكندى طامعا فى ملك المنذر وفى ملك عرب العراق ، فراح قباذ يتصل بالحارث الكندى سرا لما بدأ ينازع المناذرة على ملكهم ولم يمد يده لعون المنذر ، فسقطت الحيرة وأصبح الحارث بن عمرو الكندى ملكاً عليها . وقد أحس ضعف قباذ فحرض بعض رجاله على التحرش برجال الحدود ، ففزع قباذ وأرسل إلى الحارث يقول له :

ـــ إن لصوصا من لصوص العرب قد أغاروا علينا .

وطلب أن يوافيه فذهب الحارث الكندى إليه ، فقال له قباذ :

ـــ لقد صنعت صنيعا ما صنعه أحد من قبلك .

فقال له الحارث :

ـــ ما فعلت ولا شعرت ولكنها لصوص من لصوص العرب ، ولا أستطيع ضبط العرب إلا بالمال والجنود .

ـــ فما الذى تريد ؟

ـــ أريد أن تطعمنى من السواد . أتخذ به سلاحا .

فأمر له بما يلى جانب العرب من أسفل العراق ، فلما رأى الثوار الشيوعيون

ضعف الدولة ازدادوا عتوا وعارضوا قباذ معارضة جريئة ، ورفضوا علانية رأيه فى وراثة العرش من بعده .

كان مزدك وأعوانه يريدون تولية حليفهم كاووس فرأوا أن يسلكوا السبيل الذى سلكه رجال الدين على مر العصور منذ أن شرع قسطنطين مبدأ المجامع الدينية والمجالس العلمانية ، فقرروا أن يعقدوا مؤتمرا دينيا تدور فيه المناظرات بين المزدكيين وأعوان الملك يتقرر فيه رأى الأغلبية فى موضوع الجدال .

ونشط المزدكيون وراحوا يدعون أعوانهم إلى حضور المناظرة الرسمية ، وراح قباذ يجتمع بالزردشتيين ورجال الدين يديرون قداح الرأى بينهم ، حتى إذا وافى ميعاد المناظرة دخل مزدك وحوله رجاله وأقبل قباذ يحف به الموبذان موبذ وأسقف النصارى ، وقد كان المسيحيون يعاونون الزردشتين على المزدكية ورجال الدين ، ووقف كسرى على رأس الجند الذين أحاطوا بمكان الاجتماع .

ورأس قباذ الاجتماع وجلس مزدك بين أعوانه وابتدأت المناظرات ، فقام مزدك وتحدث عن رسالته وقال إنه النبى المنتظر الذى بشر به زرادشت والمسيح ، وراح يبسط تعاليمه . وما إن انتهى من مقالته حتى انبرى له أقوى المناظرين الزردشتيين حجة : ابن ماهداذ ، ونيوسابور ، وآذر — مهر ، وقالوا له :

— إن زرادشت أوصى بأن نستمسك بما جاءنا به إلى أن يأتى صاحب الجمل الأحمر من بلاد العرب[1] وأنت من فارس ولست من بلاد العرب ، وقد جاء فى كتاب ساسان الأول إمبراطورنا العظيم أنه حينما يرتكب الفرس

(١) من كتاب « سياستنامة » لنظام الملك ، فصل ٤٤ .

المعاصى سيظهر رجل من العرب فيأخذ سرير الملك ويقع المذهب فى قبضته ويصير الرؤساء مرءوسين له ، وأنت منا لا تمت إلى العرب بسبب .

ويقدم علماء الفلك وراحوا يناظرون مزدك وأعوانه ويؤكدون أن النبى المنتظر لم يأت بعد زمانه ، وما انتهى الفلكيون من مناظرتهم حتى قام أسقف نصارى فارس يؤكد أن مزدك ليس الفارقليط الذى بشر به المسيح ، فالفارقليط مثل موسى ومن أبناء إخوته يضع الله كلامه فى فمه . واستمر الأسقف يتدفق فى حديثه فقد كان يعرف حقيقة النبى الذى سيرسله الله إلى الأمم كما يعرف نفسه .

وأرتج على أنصار مزدك وغلبوا فى المؤتمر الكبير الذى دعوا إليه ، ولاح الظفر فى وجه قباذ واكفهر وجه مزدك وبان فيه الخسران المبين ، وانتشر خبر هزيمة مزدك حتى بلغ كسرى والجند الذين كانوا يحرسون المكان فانقضوا على المزدكيين وانهالوا عليهم بأسلحتهم ، فقتل مزدك وهلك رؤساء المذهب المزدكى فصار الدهماء الشيوعيون بلا نبى وبلا زعيم .

وأباح قباذ دم المزدكيين الذين كان الزند كتابهم المقدس ، فنسبوا إليه فعرف المزدكى بالزندى ثم حرفت إلى زنديق ، فبدأت المذابح وسالت دماء الزنادقة وصودرت أملاكهم .

ورأى المنذر بن النعمان الفرصة سانحة لاستعادة ملكه ، فعبأ جيشا ثم انطلق إلى الحيرة لقتال الحارث الكندى الذى اغتصب منه ملك المناذرة . ولما كان المنذر محاربا خبيرا بفنون الحرب فقد انتصر على الحارث بن عمرو الكندى ، واسترد ملك آبائه ووضع نفسه مرة أخرى فى خدمة البيت الفارسى .

قضى قباذ على المزدكية فلم تعد هناك قوة تعارضه فى تنصيب ابنه كسرى ملكا على فارس من بعده ، فاستدعى ماهبود المستشار الأمين للملك وأمره أن يكتب وصيته بأن يكون كسرى خليفته من بعده ، فلما كتب ماهبود الوصية ختمها الملك ثم سلمها إليه وهو سعيد .

٢٠

عرفت اليمن اليهودية يوم أن أسلمت بلقيس ملكة سبأ مع سليمان لله رب العالمين ، وقد ظل الحميريون على دين التوحيد أمدا طويلا ، فلما طال عليهم العهد قست قلوبهم وعادوا إلى عبادة القمر والشمس والنجوم فأصبحت الوثنية دين السبئيين والحميريين وسائر قبائل اليمن .

واضطهد الرومان اليهود وراح القائد الرومانى طيطس يذيقهم العذاب ألوانا ، وقوض هيكلهم المقدس كما تنبأ بذلك السيد المسيح ، فهام اليهود على وجوههم وانطلقوا إلى الجنوب حتى استقروا فى أرض سبأ ونشروا اليهودية بين العرب .

وتسلل اليهود إلى حكومة حمير ، ولما كانت لليهودية جذور عميقة منذ أيام بلقيس فى أرض اليمن فقد كان الحميريون يلقون أسماعهم إلى أحبار اليهود ويستجيبون إلى دعوتهم بصدور منشرحة وقلوب عامرة باليقين . وقد ازدهرت اليهودية فى اليمن يوم أن دخل فيها ذو نواس ملك اليمن وحمير وسبأ وذو ريدان وتهامة .

واهتمت الحكومة البيزنطية بنشر المسيحية بعد أن اعتنق قسطنطين النصرانية ، فراح قسطنطين يعمل على نشر ذلك الدين لتحقيق مآرب سياسية واقتصادية ، ولكسب قلوب رعاياه المؤمنين تقوية لمكانته وبسط سلطاته على الكنيسة والرعية . فراح المبشرون يطوفون بلاد العرب للتبشير وقد تمكنوا من إنشاء ثلاث كنائس فى ظفار وعدن وهرمز .

وقد أرسل قسطنطين وفدا برئاسة « ثيلوفيلوس » إلى ملك حمير يدعوه إلى المسيحية ، ولم يكن هدفه دينيا فحسب بل كان يطمع فى أن يعقد مع الحميريين معاهدة تجارية ، ويحقق منافع اقتصادية وسياسية بأن تزدهر تجارته البحرية ويضم الحميريين إلى معسكره لمناوشة الفرس أعدائه وأعداء المسيحية .

وكانت الرسائل تتبادل بين القسطنطينية عاصمة الدولة الرومانية الشرقية ومقر قياصرة الروم وبين ملوك حمير ونجاشى الحبشة ، وكانت السفارات تمشى بينهم وكانت تتدثر برداء الدين بينا كان هدفها الرئيسى ضم حمير والأحباش إلى معسكر البيزنطيين .

وفى أيام يزدجرد الأول قام حيَّان وكان تاجرا من كبار تجار نجران بالسفر إلى القسطنطينية ثم ذهب منها إلى الحيرة وهناك تلقى المسيحية . وكان نصارى الحيرة من النساطرة الذين يؤمنون بطبيعة المسيح الواحدة فاعتنق حيان المسيحية ولما عاد إلى نجران راح يعمل على نشر دينه .

وفى عهد البطريق « سيلاس » ، أى فى الفترة ما بين ٥٠٥ — ٥٢٣ م هرب لاجئون من اليعاقبة ممن يؤمنون بلاهوت المسيح وناسوته إلى الحيرة ، غير أن النساطرة أجلوهم عنها فذهب فريق منهم إلى نجران فراحوا يعملون على نشر مذهبهم بين سكانها .

وأيام الملك شرحبيل ينكف ملك اليمن وسبأ وريدان وتهامة ، قدم إلى نجران قديس يدعى « أزفير » وأقام كنيسة ورفع الصليب وراح يدعو إلى المسيحية ، فاستاء من ذلك « ذو ثعلبان » و« ذو قيفان » وكانا قيلين على نجران من قبل شرحبيل ، وأرسلا رجالهما إلى المدينة لهدم الكنيسة وإنزال الصليب والقبض على القديس ، فانطلق الرجال وقوضوا الكنيسة وقبضوا على « أزفير » وألقوه فى غياهب السجن فراح الرجل يدعو إلى دينه بين السجناء فآمن له قوم

من نزلاء السجن ، وبلغ ذلك الملك شرحبيل فغضب وبعث إلى القيلين اللذين كانا فى نجران أن أرسلا إلى ذلك الرجل الذى فتن الناس .

وسار « أزفير » من نجران قاصدا ظفار عاصمة الحميرين وكان محوطا بالحراس فراح طوال الرحلة يدعوهم إلى دينه ، وكان كلما نزل فى مكان بشر بالمسيحية فآمن له بعض من رافقوه وبعض من ألقوا إليه سمعهم وهو فى الطريق .

وبلغ أزفير ومن معه ظفار وانطلقوا إلى قصر الملك ، فلما رأى شرحبيل الرجل الذى فتن الناس راح ينهره ، ثم عرض عليه اليهودية وأخذ يجادله فى الدين ، وظل أزفير متمسكا بمسيحيته فراح يغريه بالذهب والفضة فقال أزفير :

ــ الذهب والفضة فانيان ، أما ساكن السماء فباق .

وراح أحد أحبار اليهود يحرض الملك على قتله فأمر شرحبيل بأن يرسل إلى نجران ، وأن يقتل هناك ليكون عبرة لمن يخرج على دين قومه أو يقدم من بلاد عربية لإفساد الناس ، فلما بلغ نجران انقض عليه اليهود ومزقوه كل ممزق .

كانت النصرانية تتسرب إلى العربية الجنوبية من البر والبحر من ديار الشام ومن العراق فى ركاب القوافل التجارية المستمرة التى كانت بين الشام والعراق واليمن ، ومن اليونان وإيطاليا على ظهور السفن اليونانية والرومانية ، ومن أكسوم عاصمة الحبشة على متون البحر أو من شعاب الجبال . وكان أهل حمير من يهود ومتهودين ووثنيين يقاومون انتشار ذلك الدين ويضطهدون أهله ، وكان العدوان اللدودان الفرس والروم يعملان على نشر المسيحية فى اليمن وإن كان كل منهما يحاول أن ينشر مذهبه الدينى ليجر الحميريين إلى معسكره ، فكانت الفرس تدعو إلى مذهب النساطرة بينا كانت القسطنطينية تبذل كل جهد لنشر مذهب اليعاقبة بين العرب .

وتصارعت اليهودية والنصرانية فى أرض اليمن كل فريق يحاول أن يبسط

سلطان دينه على الفريق الآخر ، وكانت المناظرات تنقلب غالبا إلى صراع بين أتباع الديانتين تسيل فيه الدماء . وقد كان قياصرة الروم وأكاسرة الفرس يعملون على إضرام نار العداوة والبغضاء بين اليمنيين ليحققوا مآربهم السياسية والاقتصادية .

كان الروم يضطهدون اليهود فكانوا يسومونهم سوء العذاب ، بينا وجد اليهود من ملوك الفرس الساسانيين تسامحا مذ أيام قورش وصار لهم نفوذ فى إمبراطورية فارس بعد أن استولت إستر على لب أخشويرش ومكنت لأبناء دينها فى البلاط الفارسي ودواوين الدولة ، فكان اليهود يضعون كل ما أوتوا من قوة فى خدمة أكاسرة فارس ويتعاونون معهم على زعزعة سلطان الروم فى كل مكان .

ورجحت كفة اليهود فى اليمن يوم أن تهود ذو نواس ملك اليمن وتعصب لدينه ، فراح يرصد الأحداث التى تجرى فى بيزنطة وينفعل بالاضطهاد الذى يقع على إخوانه فى الدين ويكيل للنصارى الذين يعيشون فى ملكه الصاع صاعين انتقاما منهم للعذاب الذى يقاسيه إخوانه اليهود فى إمبراطورية الروم .

وقامت المناظرات بين الأحبار والرهبان فى نجران واشتد كل فريق فى نقد دين الفريق الآخر ، ولم يكن ذو نواس ممن يؤمنون بقرع الحجة بالحجة بل كان يرى وهو المتعصب لدينه ثعصبا شديدا أن لا مكان للنصارى فى أرض اليمن وأن لا بد من القضاء عليهم قضاء مبرما . ولما كان متأثرا بقسوة التوراة التى كتبت فى بابل أيام السبى فقد أمر بحفر أخدود وأن تؤجج النار فيه وأن يلقى بالنصارى فى الجحيم .

وحفر الأخدود فى نجران واشتعلت فيه النيران وارتفعت ألسنتها فى السماء ، وانقض اليهود والمتهودون من حمير والوثنيون اليمنيون على النصارى

يذبحون الرجال والنساء والأطفال ويلقون بهم فى جهنم التى أوقد نارها ملكهم المتعصب المفتون .

﴿ والسماء ذات البروج . واليوم الموعود . وشاهد ومشهود . قُتِلَ أصحاب الأخدود . النار ذات الوقود . إذ هم عليها قعود . وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود . وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد . الذى له مُلكُ السموات والأرض والله على كل شىء شهيد ﴾ .

قتل ذو نواس المؤمنين والمؤمنات نصارى نجران الذين كانوا من النساطرة القائلين بربوبية الله ورسالة السيد المسيح ، ولم يكتف بقتل نصارى مملكته بل عزم على أن يقتفى آثارهم ويقطع دابرهم فى كل أرض له فيها أصدقاء وحلفاء .

وكانت الصلة طيبة بين ذى نواس والمنذر بن النعمان ملك الحيرة ، وكان المسيحيون النساطرة منتشرين فى الحيرة وبأيديهم مقاليد حكمها ، وعلى الرغم من عزم ذو نواس على أن يبعث وفدا إلى المنذر يخبره بما فعله بنصارى اليمن ويطلب منه أن يستأصل شأفة النصارى من أرضه .

وأوفد ذو نواس إلى المنذر وفدا وبعث معه برسالة ، وفى نفس الوقت بعث يوسطينوس الأول ملك الروم بوفد إلى ملك الحيرة ، وانطلق الوفدان وكل منهما يقصد الخورنق قصر ملوك الحيرة العجيب .

وبلغ رسل ذى نواس الحيرة فى نفس الوقت الذى دخلها فيه إبراهيم ومارشمعون أسقف بيت أرشام فيمن دخلها من وفد ملك الروم . ودخل الوفدان على المنذر بن النعمان وراح رئيس وفد اليمن يقرأ رسالة ذى نواس إلى أخيه ملك الحيرة وقد سرد فيها ما فعله بالنصارى وما أنزل بهم من صنوف العذاب ، وكان وفد الروم يصغون فى ضيق وقد ملئوا رعبا مما حاق بإخوانهم فى الدين من اضطهاد .

والتمس وفد ذى نواس من المنذر بن النعمان أن ينزل بالمسيحيين ما أنزله مولاهم بهم من عذاب ، وقالوا له إن سيدهم ملك حمير يسره أن يحمل إلى أخيه ملك الحيرة الأموال إذا ما قتل من فى مملكته من القائلين بطبيعة المسيح الواحدة أو من القائلين بناسوت المسيح ولاهوته على السواء . فما كان ذو نواس يؤمن بالمسيح ولا بالمسيحية وما كان كأباطرة الرومان الذين يطلبون من ملك الحيرة إخراج من فى أرضه من القائلين بالطبيعة الواحدة .

وأحس مارشمعون نارا تكوى فؤاده ولم يستطع صبرا فأوفد رسولا إلى نجران ليأتى له بالخبر ، فلما عاد الرسول بنبأ الفاجعة راح شمعون يدون كل ما سمع من وفد ذى نواس وكل ما جاء به رسوله من أنباء ، ثم بعث برسالة إلى الأساقفة فى الأرض وإلى أساقفة الروم ليعلن للملأ الفاجعة التى نزلت بإخوانهم فى الدين فى أرض العرب .

وبعث شمعون برسالة إلى بطريق الإسكندرية ليتوسط لدى نجاشى الحبشة فى مساندة نصارى اليمن ، ووجه نداء إلى أحبار طبرية ليخلصوا من بقى من المسيحيين من براثن الحاكم اليهودى المتعصب الذى يتلذذ بسفك دماء النصارى .

وراحت الأناشيد الكنائسية تنظم فى رثاء شهداء نجران ، وراحت تتلى قصة القديس « الحارث » شهيد نجران فى كنائس قنسرين والرها وبيزنطة والإسكندرية وبيت المقدس ، وسارت السفارات بين الملوك النصارى وبدا أن معركة وشيكة الوقوع بين قوى النصرانية وقوى ذى نواس انتقاما لشهداء نجران .

٢١

كان المغيرة بن قصى فريدا فى حسنه وجماله حتى قيل عنه قمر البطحاء ، وكانت أمه حبى بنت حليل تتعبد لمناف وكان من أعظم أصنامهم ، فدفعته أمه إلى مناف فغلب عليه عبد مناف .

وشب عبد مناف سيدا فى قريش فهو ابن قصى الذى اجتمعت له الرفادة والحجابة والسقاية واللواء وصاحب دار الندوة ، وتزوج عاتكة بنت مرة بن هلال فولدت له توأمين هاشما وعبد شمس ، وكانت رجل هاشم ملتصقة فى جبهة عبد شمس فجىء بالطبيب فلم يقدر على نزعها إلا بجراحة ، فلما سال الدم وجمت الوجوه وسرى بين الموجودين همس :

ـــ سيكون بين ولديهما دماء .

وكان اسم هاشم يوم أن ولدته أمه عمرا فما كان قد عرف بعد بهاشم ، وكبر عمرو والنور يتألق فى وجهه فكان لا يراه إنسان لا ينجذب إليه ، وتزوج عمرو قيلة بنت عامر بن مالك الخزاعى فأنجبت له أسدا . وكانت قريش فى ذلك الوقت إذا اشتد بأحدهم الجوع أغلق بابه عليه وعلى عياله حتى يموتوا جوعا ترفعا عن ذلة السؤال وخساسة الاجتداء ، وقد عرف ذلك بالاعتقاد .

وكان لأسد صديق من بنى مخزوم ولد معه وكان يحبه ويلعب معه ، وفى ذات يوم التقى أسد بصديقه فألفاه يبكى فقال له :

ـــ ما الذى أبكاك ؟

فقال الصبى وهو يشرق بدموعه :

ـــ نريد أن نعتقد .

وملئ قلب أسد رعبا فقد احتلت ذهنه صورة صديقه الحميم وهو يموت من الجوع ، فدخل أسد على أمه يبكى فهرعت إليه تسأله :

ـــ مالك ؟

فقال أسد لأمه : إن أهل صديقه المخزومى يريدون أن يعتقدوا .

فأرسلت إليهم بدقيق وشحم فعاشوا فيه أياما ، ثم عاد صديق أسد يبكي فقال له أسد :

ـــ مالك ؟

فقال له صديقه :

ـــ إن أهلى يريدون أن يعتقدوا .

ودخل أسد على أبيه يشكو إليه جدب الناس فقام هاشم خطيبا فى قريش فقال :

ـــ إنكم أجدبتم جدبا تقلون فيه وتذلون ، وأنتم أهل حرم الله وأشرف ولد آدم والناس لكم تبع .

قالوا :

ـــ نحن تبع لك فليس عليك منا خلاف .

فشرع لهم رحلة الشتاء إلى اليمن ورحلة الصيف إلى الشام للتجارة ، وراح يقسم أرباح التجارة على الأغنياء والفقراء ليسعد قومه : « ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقكم وإياهم » .

وآلف هاشم ملك الشام وأخذ منه خيلا فأمن به فى تجارته إلى الشام ، وآلف أخوه عبد شمس النجاشى ملك الحبشة وآلف أخوه المطلب ملك

حمير ، وآلف أخوه نوفل إمبراطور فارس فسموا المتجرين ، فراحت تجر قريش تختلف بخيل هؤلاء الإخوة فلا يتعرض لهم أحد . وتألق أبناء عبد مناف فى مكة حتى قال فيهم الشاعر :

يأيها الرجـــل المحول رحلـــه   هلا نزلت بآل عبد منـــاف
الآخذون العهـد من آفاقهـــا   والراحلـون لرحلـة الإيـلاف
والرائشون وليس يوجد رائش   والقائلـون هلـم للأضيـــاف
والخالطـون غنيهم بفقيرهـــم   حتـى يصير غنيهم كالكـــافى

« لإيلاف قريش . إيلافهم رحلة الشتاء والصيف . فليعبدوا رب هذا البيت . الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف » .

وأهل هلال ذى الحجة فقام هاشم صبيحته وأسند ظهره إلى الكعبة من تلقاء بابها ، فاجتمع الناس إليه فقال :

— « يا معشر قريش إنكم سادة العرب ، أحسنها وجوها وأعظمها أحلاما وأوسط العرب أنسابا وأقرب العرب إلى العرب أرحاما . يا معشر قريش إنكم جيران بيت الله أكرمكم الله بولايته وخصكم بجواره دون بنى إسماعيل ، وإنكم يأتيكم زوار الله يعظمون بيته فهم أضيافه ، وأحق من أكرم أضياف الله أنتم ، فأكرموا ضيفه وزواره فإنهم يأتون شعثا غبرا من كل بلد على ضوامر كالقدح ، فأكرموا ضيفه وزوار بيته ، فورب هذه البنية (الكعبة) لو كان لى مال يحتمل ذلك لكفيتكموه ، وأنا مخرج من طيب مالى وحلالى ما لم يقطع فيه رحم ولم يؤخذ بظلم ولم يدخل فيه حرام .

فمن شاء منكم أن يفعل مثل ذلك فعل . وأسألكم بحرمة هذا البيت أن لا يخرج رجل منكم من ماله لكرامة زوار بيت الله وتقويتهم إلا طيبا لم يؤخذ ظلما ولم يقطع فيه رحم ولم يؤخذ غصبا » .

فراح رجال قريش يخرجون أموالهم الطيبة ويضعون ما يخرجونه فى دار الندوة ، فكان هاشم يصنع للحجاج طعاما حتى يغادروا مكة .

وأصاب قومه أزمة شديدة فكره أن يكلف قريشا أمر الرفادة ، فذهب إلى الشام بجميع ماله فاشترى به كعكا ثم عاد إلى قومه فهشم ذلك الكعك هشما وصنع منه طعاما يشبه الثريد ، فقال الناس :

ـــ هاشم .. هاشم .

فسمى هاشما بعد أن كان اسمه عمرا .

وخرجت عير قريش إلى يثرب وكان هاشم بن عبد مناف سيد القافلة . وما إن حطت القافلة فى سوق يثرب حتى وقعت عيناه على امرأة جميلة واقفة على شرف من الأرض تبيع تجارة لها ، فدنا هاشم منها وسأل بعض من كان عندها :

ـــ من المرأة ؟

ـــ سلمى بنت عمرو .

ـــ ممن ؟

ـــ من بنى عدى بن النجار .

وراح هاشم يسأل عنها فعلم أنها كانت عند أحيحة بن الجلاح وأنها ولدت له عمرو بن أحيحة وأن زوجها قد مات ، وأنها لا تنكح الرجال لشرفها فى قومها حتى يشترطوا لها أن أمرها بيدها إذا كرهت رجلا فارقته .

وتقدم هاشم إليها وتزوجها فولدت له غلاما فى مقدم رأسه شعر أبيض فسمته شيبة ، وأراد هاشم أن يعود إلى مكة فتركه عندها وقد ربط بين مكة ويثرب ، بل بين شرف عدنان وشرف قحطان .

وراح هاشم يحمل ابن السبيل ويؤدى الحقوق ويبذل الجهد ليريح أهله

وحجاج بيت الله ، فحفر بئرا فلما انبعث منها الماء قال :

أنبـــــطت بئرا بماء قلاس جعلت ماءها بلاغا للناس

وحفر عبد شمس بن عبد مناف الطوى بأعلى مكة ، وراحت كل قبيلة من قريش تحفر بئرا فى رباعها فحفر أمية بن عبد شمس بئرا وسماها جفر مرة بن كعب .

وراح رجل يتمثل بشعر أحيحة بن الجلاح :

وما يدرى الفقير متى غنـــاه ولا يدرى الغنى متى يعيل (يفتقر)

فتذكر زوجه سلمى وابنه شيبة وملء وجدا ، فشد الرحال إلى يثرب ليطفئ نار الشوق ويضم ابنه الحبيب إلى صدره ، فلما رأى شيبة بين غلمان بنى النجار ود لو يحمله إلى مكة لينشأ فى قريش وفى حمى الكعبة ، ولكنه لما دخل على سلمى رق قلبه وقرر أن يدعه إلى جوارها لكأنما لم يشأ أن يفجعها فى زوجها وفى فلذة كبدها .

وراح رجال من قريش ورجال من خزاعة يتفاخرون ، ورأى الفريقان أن يحتكموا إلى هاشم فخطبهم فقال :

ـــ أيها الناس ، نحن آل إبراهيم وذرية إسماعيل وبنو النضر بن كنانة وبنو قصى بن كلاب وأرباب مكة وسكان الحرم ، لنا ذروة الحسب ومعدن المجد ، ولكل فى كل حلف يجب عليه نصرته وإجابة دعوته إلا ما دعا إلى عقوق عشيرة وقطع رحم .

يا بنى قصى أنتم كغصن شجرة أيهما كسر أوحش صاحبه ، والسيف لا يصان إلا بغمده ، ورامى العشيرة يصيبه سهمه ، ومن أمْحَكه (أغضبه) اللجاج أخرجه إلى البغى .

أيها الناس . الحلم شرف ، والصبر ظفر ، والمعروف كنز ، والجود سؤدد ،

والجهل سفه ، والأيام دول ، والدهر غُير (متقلب) ، والمرء منسوب إلى فعله ، ومأخوذ بعلمه ، فاصطنعوا المعروف تكسبوا الحمد ، ودعوا الفضول تجانبكم السفهاء ، وأكرموا الجليسَ يعمر ناديكم ، وحاموا الخليط يرغب فى جواركم ، وأنصفوا من أنفسكم يوثق بكم ، وعليكم بمكارم الأخلاق فإنها رفعة ، وإياكم والأخلاق الدنية فإنها تضع الشرف وتهدم المجد ، وإن نهنهة الجاهل (زجره) أهون من حزيرته ، ورأس العشيرة يحمل أثقالها ، ومقام الحليم عظة لمن انتفع به .

فقالت قريش :

ـــ رضينا بك .

وأذعن له الفريقان بالطاعة ، ولكن ابن أخيه أمية بن عبد شمس حسده فقد عجز عن أن يجاريه فى جوده وكرمه وكياسته وشجاعته . وزاد فى غضبه عليه أن ألسنة العرب على اختلافهم فى القبائل لهجت بالثناء عليه فنشبت العداوة بين أمية وهاشم . وفى ذات يوم جاء أمية إلى عمه وأراد منافرته فكره هاشم ذلك لنسبه وقدره ، ولكن قريشا أبت إلا أن تحكم الكاهن الخزاعى بينهما فمن يخذله الكاهن ينحر ببطن مكة خمسين ناقة سود الحدق ، ويجلو عن مكة عشر سنين .

وخرج هاشم فى نفر من أصحابه وخرج أمية بن عبد شمس فى نفر من خاصته فنزلوا على الكاهن ، فقال قبل أن يخبروه خبرهم :

ـــ والقمر الباهر ، والكوكب الزاهر ، والغمام الماطر ، وما بالجو من طائر ، وما اهتدى بعلم مسافر ، من منجد وغائر ، لقد سبق هاشم أمية إلى المفاخر .

وتهللت أسارير أنصار هاشم فقد حكم الكاهن الخزاعى لهاشم على ابن

أخيه ، واربد وجه أمية وغض بصره ، ولم يكتف الكاهن الخزاعى بما قال بل التفت إلى أمية وقال :

ــ تنافر رجلا هو أطول منك قامة ، وأعظم منك هامة ، وأحسن منك وسامة ، وأقل منك لامة ، وأكثر منك ولدا وأجزل منك صفرا ؟

فقال أمية :

ــ من انتكاث الزمان أن جعلناك حكما .

وساق هاشم الإبل ونحرها ببطن مكة وأطعمها الناس ، وخرج أمية إلى الشام ليقيم بها عشر السنين ، فكانت هذه أول عداوة وقعت بين هاشم وأمية ، وكانت بذرة الكراهية التى ستنمو على مر الأيام بين بنى هاشم وبنى أمية .

٢٢

مات أنسطاسيوس إمبراطور الروم ، وقبل أن يقبر نسجت فى القصر مؤامرة انتهت برفع جندى أمى من اليريا يقال له يوسطينوس إلى العرش ، وقد جاء معه إلى البلاط الرومانى يسطنيانوس ابن أخيه ، وما هى إلا أيام قليلة حتى كان يسطنيانوس يقوم بأعمال نائب قيصر .

وفى عام ٥٢٧ م قضى يوسطينوس نحبه وتبوأ يسطنيانوس عرش الإمبراطورية الرومانية الشرقية ، وراح يبعث الجيوش من القسطنطينية لاسترداد إفريقية من الوندال وإيطاليا من القوط الشرقيين وأسبانيا من القوط الغربيين ، ولحرب فارس عدو الرومان اللدود .

وكان يسطنيانوس قد تزوج ثيودورا وكانت ممثلة قبل أن ترفع إلى مكانة زوجة الإمبراطور ، وكانت شجاعة صافية الذهن لا تتمسك بالمثل كثيرا ، فكانت عونا له بل كانت قوتها تفوق قوته وسلطانه .

وكان يسطنيانوس يؤمن بلاهوت المسيح وناسوته فأراد أن يترك أثرا دينيا هندسيا يفوق هيكل سليمان ، فأمر ببناء أيا صوفيا كنيسة الحكمة المقدسة ، وما انتهى من بنائها حتى تهلل بالفرح ، ولكن سروره لم يدم طويلا فقد اكتشف أن زوجه تؤمن بوحدة طبيعة المسيح عقيدة أعدائه النساطرة ، وأنها تعمل على نشر عقيدتها الكافرة !

كان الانقسام فى قلب العرش بل فى سرير الملك ، وكانت المناقشات تحتدم بين الملك والملكة وكانت تيودورا ، تحاول أن تقنع الإمبراطور أن مصر

وسوريا قد تخرج من النفوذ الرومانى يوما بسبب عقيدة الإمبراطور ، ولما كان يعتبر نفسه من رجال اللاهوت فإنه لم يقتنع بمذهب وحدة طبيعة المسيح وخشى أن اتبعه أن يغضب الغرب ويجر على نفسه استياءه ، ولكنه كان يبحث عن وسيلة للتوفيق بين المذهبين يفرضها على عالم المسيحية كله ، فاتفق هو وتيودورا على أنه ينبغى لكل إنسان أن يتبع نظرية الإمبراطور فى اللاهوت حتى البطارقة والبابوات أنفسهم ، فسن سنة السيادة العليا الدينية للإمبراطور ، وصار دكتاتورا لاهوتيا .

وعقد المجامع الدينية ليقرر ما يشاء ، وسجن من عارضه من البابوات ورجال الدين ، ووضع صيغا لقانون الإيمان اعتقد أنها لا بد أن ترضى أصحاب مذهب وحدة طبيعة المسيح دون أن تخرق قرارات مجلس خلقيدونية ، ولكن الاستياء الدينى المستتر انتشر بين أصحاب المذهبين جميعا .

وجاءت الأنباء إلى القسطنطينية أن ذا نواس قد انقض على تجار الروم وسلبهم أموالهم انتقاما لإخوانه فى الدين اليهود المعذبين فى الإمبراطورية الرومانية ، فلم يحرك يسطنيانوس ساكنا فقد كان مشغولا بالقوط الشرقيين والغربيين والوندال وأبحاثه فى اللاهوت ، ولم يكن يرغب فى فتح جبهة جديدة بعيدة عن بلاده قد تطمع أعداءه فيه .

وتجاهل يسطنيانوس ما حاق بالتجار الروم فى أرض حمير وأرسل رسولا إلى النجاشى وإلى زعيم نصارى اليمن يرجو إعلان الحرب على الفرس وقطع العلاقات التجارية معهم لأنهما والقيصر على دين واحد ، فعليهما مساعدة أبناء دينهم الروم والاشتراك معهم فى قضيتهم وهى قضية عامة مشتركة على النصارى جميعا الدفاع عنها .

وطلب الرسول من ملك حمير خاصة أن يوافق على تعيين قيس شيخا على

قبيلة معد ، وأن يجهز جيشا كبيرا يشترك مع قبيلة معد فى غزو أرض فارس . وكان قيس من أبناء المشايخ وكان شجاعا قديرا غاية فى الكفاءة ، وقد وعد ملك حمير رسول يسطنيانوس خيرا ولكنه لم ينجز وعده .

ورأى ذو نواس أنه سيصبح محاطا بالنصارى الطامعين فى ملكه ، ففى الجنوب فى أكسوم نجاشى الحبشة ، وها هو ذا إمبراطور الروم يطلب تعيين قيس الموالى له شيخا على قبيلة معد القوية ، وفى قلب مملكته فى نجران حصن من أقوى حصون النصرانية ، ولما كان يهوديا متعصبا فقد آمن بأنه إذا قضى على النصرانية فى اليمن أرض دينه أمن غدرهم به إذا ما تحرك الملوك المسيحيون لغزو بلاده .

وعرض ذو نواس على نصارى اليمن أن يتهودوا فأبوا ، وقام النصارى الذين كانوا فى « ظفار » وكانوا من الأحباش بثورة مسلحة ، فبعث إليهم :

ـــ إن تسلموا لنا « ظفار » فلن تؤذيكم ، بل نعيدكم إلى الحبشة سالمين .

فوثقوا بكلامه وخرجوا إليه وكانوا ثلاثمائة محارب ، فقبض عليهم وغدر بهم فسلمهم إلى اليهود فقتلوهم ، وانطلق اليهود إلى بيعة « ظفار » وأوقدوا فيها النار بمن فيها .

وكتب إلى الحارث من أشراف مدينة نجران أن يأتيه مع من عنده من حملة السلاح ، وكان الحارث نصرانيا فجمع الرجال وانطلق إلى « ظفار » عاصمة الدولة فسمع بما كان من غدر ذى نواس بالنصارى ، فقفل راجعا إلى نجران وتحصن بها هو وإخوانه النصارى .

وأغار ذو نواس على نجران وحاصرها مدة ثم سقطت فى يده ، فعرض على أهلها أن يتهودوا فأبوا فخدَّ لهم أخدودا وأشعل فيه النيران وأعمل فيهم السيف وألقى بهم فى النار ، واستشهد الحارث فصار نشيدا ينشد فى الكنائس وقديسا

من الأبرار .

وأفلت دوس بن ثعلبة من القتل وانطلق فى الصحراء لا يلوى على شىء ، ورفعته النجاد وحطته الوهاد حتى بلغ القسطنطينية فدخل على الإمبراطور يسطنيانوس يستصرخه على ذى نواس ، وقص عليه ما كان من ملك حمير وأراه الإنجيل قد احترق بعضه بالنار ، فراح يسطنيانوس يفكر فرأى أن من الخير ألا يندفع فى حماسته فنصارى نجران من المؤمنين بطبيعة المسيح الواحدة من مذهب غير مذهبه ، وبلاد نجران بعيدة عن بلاده فمن يدرى ماذا تفعل فارس إذا ما تورط فى حرب اليمن ، فقال لدوس معتذرا :

ـــ بعدت بلادك عن بلادنا ونأت عنا فلا نقدر على أن نتناولها بالجنود ، ولكنى سأكتب لك إلى ملك الحبشة فإنه على هذا الدين وهو أقرب إلى بلادك منا فينصرك ويمنعك ويطلب لك بثأر ممن ظلمك واستحل منك ومن أهل دينك ما استحل .

وكتب يسطنيانوس إلى أخيه كالب نجاشى الحبشة كتابا يذكر له فيه حقه وما بلغ منه ومن أهل دينه ، ويأمره بنصر دوس وطلب ثأره ممن بغى عليه وعلى أهل دينه ، ودفع بالكتاب إلى دوس فخرج من القسطنطينية قاصدا أكسوم عاصمة الحبشة .

وكان بعض نصارى نجران قد فزع إلى النجاشى يستصرخونه ويلتمسون منه النصرة ، فقال لهم :

ـــ الرجال عندى كثيرة وليست عندى سفن ، وأنا كاتب إلى يسطنيانوس أطلب منه أن يمدنى بها .

وكتب كالب نجاشى الحبشة إلى أخيه يسطنيانوس يطلب منه أن يمده بسفن لحرب اليمن ونصرة دين المسيح . واتفق العاهلان على تجهيز الحملة ،

وحمل النجاشي سبعين ألفا من الرجال فى السفن التى بعث بها قيصر الروم ، ثم استدعى أرياط قائد الحملة وقال له :

— إن أنت ظهرت عليهم فاقتل ثلث رجالهم وأخرب ثلث بلادهم واسب ثلث نسائهم وأبنائهم .

وانطلق الأسطول الرومانى يحمل الذين اختلفوا فى المسيح لقتال يوسف ذى نواس الذى لم يفرق فى اضطهاده بين القائلين بوحدة طبيعة المسيح والقائلين بلاهوته وناسوته ، وكان أبرهة بين جنود الأحباش وكانت تطوف برأسه أمانى وأحلام .

ونزل الجيش الحبشى بساحل اليمن ، وسمع ذو نواس بنزوله فجمع إليه حمير وأرسل إلى قبائل اليمن يدعوهم للانضمام إليه ليحملوا حملة رجل واحد على الذين جاءوا ليستبيحوا بلادهم ، ولكن زعماء القبائل أبوا أن يصغوا إلى دعوة يوسف وقالوا :

— يدافع كل منا عن أرضه .

وتفرقت كلمة اليمن وتقدم أرياط ومن معه فوجد يوسف أن لا قبل له بجيوش الحبشة ، فناوش الأحباش ثم اضطر إلى أن يخوض غمار القتال فراح يقاتل حتى قتل ، ورثاه علقمة ذو جدن قائلا :

أوَ ما سمعت بقتل حمير يوسفا   أكل الثعالب لحمه لم يُقبر

وراح أرياط يهدم حصون اليمن ويخرب سلحين وبينون وغمدان وكل ما يقف فى سبيله من حصون ، حتى استتب له الأمر فى اليمن .

ومرت سنون وأبرهة يحلم بأن يستل الملك من أرياط فقام ينازعه فى أمر الحبشة فى اليمن ، فانحاز إلى أبرهة بعض الجند وانحاز إلى أرياط بعض الجند وانقسم الجيش على نفسه ، وكان لا بد من معركة تفصل بين أرياط وأبرهة .

وسار أبرهة إلى أرياط فلما تقارب الناس ودنا بعضهم من بعض أرسل أبرهة إلى أرياط :

ــ إنك لن تصنع بأن تلقى الحبشة بعضها ببعض حتى تفنيها شيئا ، فابرز لى وأبرز لك فأينا ما أصاب صاحبه انصرف إليه جنده .

فأرسل إليه أرياط :

ــ قد أنصفتنى فاخرج :

فخرج إليه أبرهة وكان رجلا قصيرا لحيما ، وخرج إليه أرياط وكان رجلا عظيما طويلا وسيما وفى يده حربة . وخلف أبرهة ربوة تمنع ظهره وفيها غلام له يقال عتودة ، فلما دنا أحدهما من صاحبه رفع أرياط الحربة فضرب بها على رأس أبرهة يريد يافوخه فوقعت الحربة على جبهة أبرهة فشرمت حاجبه وعينه وأنفه وشفته ، فبذلك سمى أبرهة الأشرم .

وحمل غلام أبرهة عتودة على أرياط من خلف أبرهة فقتله ، وانصرف جند أرياط إلى أبرهة فاجتمعت عليه الحبشة باليمن .

وبلغ كالب نجاشى الحبشة ما كان من أمر أبرهة فغضب غضبا شديدا وقال :

ــ عدا على أميرى فقتله بغير أمرى .

ثم حلف لا يدع أبرهة حتى يطأ بلاده ويجز ناصيته ، فلما بلغ ذلك أبرهة حلق رأسه ثم ملأ جرابا من تراب اليمن ثم بعث به إلى النجاشى وكتب إليه :

ــ أيها الملك ، إنما كان أرياط عبدك وأنا عبدك فاختلفنا فى أمرك وكل طاعته لك ، إلا أنى كنت أقوى منه على أمر الحبشة وأضبط لها وأسوس لها ، وقد حلقت رأسى كله حين بلغنى قسم الملك وبعثت إليه بجراب من أرض اليمن ليضعه تحت قدميه فيبر قسمه .

فلما انتهى ذلك إلى النجاشى رضى عنه وكتب إليه أن اثبت على عملك فى أرض اليمن حتى يأتيك أمرى .

وأصبح أبرهة الأشرم صاحب السلطة فى اليمن غير منازع .

٢٣

ازدهرت تجارة النخاسة فى الدنيا بأسرها ، فالرومان يبيعون أسرى الفرس والقوط والوندال ، والفرس يبيعون أسرى الروم والغساسنة العرب أحلافهم ، والحميريون يبيعون أسرى الحبشة ، والأحباش يبيعون أسرى اليمنيين ، فصار الإنسان سلعة من أروج سلع التجارة التى تحملها القوافل من مكان إلى مكان .

ولم يخل سوق من أسواق الأرض من بيع الرقيق ، فكان هاشم يعود من الشام بأرقاء فارس ، وكان عبد شمس يعود من أرض الحبشة بعبيد حمير ، وكان المطلب يعود من اليمن بأرقاء الحبشة ، وكان نوفل يعود من بلاط فارس يحمل أرقاء الروم والغساسنة . وقد أقبل المكيون على شراء العبيد ليقوموا بخدمة الدور والقوافل ورعى الغنم وجلب الماء من الآبار ، واشترى أهل الطائف العبيد ليفلحوا لهم الأرض وليرعوا بساتين الكروم ، ودفع رجال القبائل أكياس الذهب فى شراء عبيد الرومان والفرس واليمن والحبشة ليشتركوا معهم فى القتال والغارة على القوافل لسلبها ، فقد كان العبيد فى ذلك الوقت آلة الحرث وآلة الحرب وآلة اللهو فى زمن السلم وحقن الدماء .

وغصت مكة بالمجوس عبدة النار ، وبالنصارى القائلين بوحدة طبيعة المسيح ، وبالنصارى القائلين بلاهوت المسيح وناسوته ، وبالمسيحيين القائلين بأن المسيح هو الله ، وبالمسيحيين القائلين بأنه ابن الله ، وبالقائلين بأنه ثالث ثلاثة ، وبالوثنيين الذين يتعبدون لثلاثمائة وستين صنما تكدست فى جوف

الكعبة ، وبقلة من الموحدين الذين كانوا لا يزالون على ملة إبراهيم خليل الرحمن ، ومن الصابئة الذين كانوا على دين إدريس ويوقرون إبراهيم ويحيى والمسيح ويتنبأون بظهور محمد ملك العرب ، ومن الصابئة الذين انحرفوا إلى عبادة الكواكب والنجوم ، وبآحاد من اليهود الذين يحسبون أنهم وحدهم الناس وأن من عداهم أمم فعبدوا أنفسهم غرورا .

وقد اختلف المجوس والنصارى واليهود والصابئون كل الاختلاف فى أمر الدين ولكنهم اتفقوا فى شىء واحد ، اتفقوا على أن الدنيا لا تزال تنتظر بزوغ نجم رسول كريم بشر به زرادشت ، أنه صاحب الجمل الأحمر الآتى من بلاد العرب . وبشر به المسيح وهو الفارقليط الذى لا يتكلم من نفسه بل كل ما يسمع يتكلم به ، فهو لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى ، وهو الذى سيمكث مع الناس إلى الأبد . وبشر به موسى يوم أن قال : إن الله أوحى إليه : « سأقيم لهم نبيا من وسط إخوتهم مثلك وأجعل كلامى فى فمه . وبشر به من قبل إدريس وترقب الصابئة ظهوره فى بلاد العرب ، « الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم . وإن فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون » .

وكثر الجدل بين المكيين وبين عبيد الأرض من روم وفرس حول الدين والنفس ، فكان العرب يقولون إن النفس طائر ينبسط فى الجسم فإذا مات الإنسان أو قتل لم يزل يطيف به مستوحشا يصدح على قبره لا يستقر إلا إذا أخذ بثأر القتيل أو بلى جسم الميت . واشتد الحوار حول الله وبنات الله اللات والعزى ومناة والمسيح ابن الله . وبقى كل فريق على دينه : المشركون على وثنيتهم وأهل الكتاب يعبدون الله على حرف أو يشركون به وإن حسبوا أنهم على الصراط المستقيم .

وكان أشراف قريش يمضون نهارهم فى دار الندوة حيث يفصل فى قضايا

الناس وتبرم عقود الزواج ، فما كانت قريش تقطع أمرا من أمورها إلا فيها ، أو يجلسون حول الكعبة يتشاورون ويتحاورون حتى إذا ما جاء الليل أوقد أجواد مكة نار الضيافة على الأماكن المرتفعة من دورهم ليستدل الأضياف بها على المنزل ، وقد يوقدونها بالمندلى الرطب وهو مستورد من مندل بالهند وهو عطر له رائحة نفاذة ليهتدى به العميان إلى دور الكرم .

وجاء أوان رحلة الصيف فدب النشاط فى مكة ، وراح هاشم بن عبد مناف يغدو ويروح بين الناس وقد تهللت بالفرح وجوههم أغنياؤهم وفقراؤهم ، فقد كان هاشم يوزع أرباح رحلة الصيف ورحلة الشتاء على الناس جميعا فنجح فى أن يؤلف بين قلوب أغنياء مكة وفقرائها وبين قلوب ساداتها وعبيدها .

وتأهبت القافلة للرحيل فعمد رجالها إلى خيوط وعقدوها فى أغصان الشجر فقد كانوا يعتقدون أنهم إذا عادوا من رحلتهم ووجدوا الخيط كان ذلك دليلا على أن الزوجة لم تخنهم ، وإن لم يجدوه أو وجدوه محلولا كان ذلك دليل خيانة الزوجة فى أثناء الغيبة ، وكانوا يسمون ذلك الرتم .

وسخر قوم من قوم فقال قائل :

خانته لما رأت شيبا بمفرقه ... وغره حَلْفُها والعقد للرتم

وقال آخر :

لا تحسبن رتائما عقَّدتها ... تنبيك عنها باليقين الصادق

وقال آخر :

يعلل عمرو بالرتائم قلبه ... وفى الحى ظبى قد أحلت محارمه

فما نفعت تلك الوصايا ولا جنت ... عليه سوى ما لا يحب رتائمه

وأقبل هاشم بن عبد مناف يتلألأ النور فى وجهه وراح يحدث بعض

سادات قريش ، وكان يمس لحاهم أثناء الحديث أو يأخذها فى قبضته فقد كان ذلك للملاطفة وإظهار الود . ثم امتطى هاشم راحلته وأذن بالرحيل فانطلقت قافلة قريش إلى الشام ، وقد ارتفعت أيدى رجال مكة ونسائها وصبيانها ملوحة بالوداع وخفقت القلوب بأرق المشاعر وأنبل الإحساسات .

وراح رجال القافلة يتلفتون ويكثرون من التلفت إعرابا عن الشوق إلى البيت الحرام وأهله ، وتفاؤلا بالرجوع إلى الأرض المباركة إلى الوطن الحبيب . وألقى هاشم نظرة وداع على الكعبة فاستشعر غصة فى حلقه وما لبثت دموعه أن انهارت حتى بلت لحيته . وعجب هاشم لتلك الرقة التى اكتنفته فيا طالما خرج فى رحلة الشتاء ويا طالما خرج فى رحلة الصيف ولكنه لم يستشعر تلك الرقة التى تسرى بين جنبيه قبل ذلك .

وسارت القافلة فى معبد الكون وقد ارتفع صوت الحادى يحث الإبل على الإسراع ، وكان الحادى يترنم بالأوطان والحنين إلى الأحبة فإذا بهاشم يفكر فى ابنه شيبة ، ذلك الصغير الذى تركه عند أخواله بنى النجار بيثرب ، واحتلت صفحة ذهنه زوجه سلمى وهى تضم إلى صدرها ابنها الحبيب كأنما تحميه من عاديات الزمن ، فامتلأ بالوجد قلبه ، وطافت به فكرة أن ينقلب إلى يثرب يحمل ابنه معه إلى الشام ثم يقفل به راجعا إلى مكة ليشب فى قريش ، فى عز قومه ، ولكنه تذكر ما اشترطته سلمى يوم قبلت أن تتزوجه : ألا تغادر يثرب وأن يظل أبناؤها فى كنفها ، وقد قبل ذلك الشرط وترك لها ولديه شيبة وأخته رقية . وراح يطرد ذلك الخاطر ولكن طيف شيبة كان يملأ أقطار نفسه ويستولى عليه .

وانطلقت القافلة فى الصحراء حتى أشرفت على غزة فأحس هاشم وهناً يدب فى أوصاله وأنه يثاقل إلى الأرض ، ولكنه تحامل على نفسه وراح يجمع

إرادته ، ودار به الفضاء وهو ثابت على ظهر راحلته يتشبث بها خشية أن ينهار .

ودخلت القافلة غزة فراحت الأشجار تتراقص أمام عينيه وامتزج فى ذاكرته واقعه بماضيه فإذا بالمشاهد تختلط فى نفسه . إنه يرى الكعبة تملأ الفضاء وترن فى أذنيه الأصوات التى طالما ترددت فى دار الندوة وتصل إليه أصوات رجال قافلته كأنما تنبعث من مكان سحيق .

وحطت القافلة فى سوق غزة ونزل هاشم عن راحلته وهو يحاول أن يملك زمام نفسه ، ولكنه أحس أن رجليه خذلتاه وأنه يترنح ، فذهب لى خيمته وتمدد فيها ، وكانت أصوات رجاله تصل إليه ضعيفة واهنة بينما كانت أصوات حجاج بيت الله ترن فى أعماقه قوية مجلجلة .

وأطبق جفنيه على عينيه ولكنه كان يرى بوضوح سادات قريش وأغنياءها يحملون إلى دار الندوة ما فرضوه على أنفسهم لإطعام حجاج بيت الله ، ويرى الحجيج وقد أقبلوا على ما صنع لهم من طعام فترف بسمة خافتة فى صفحة وجهه الذابل .

ورأى بعين خياله نساءه وأولاده جميعا حوله وما اجتمعوا أبدا إلا فى هذه اللحظة ، سلمى بنت عمرو وولديه شيبة ورقية ، وقيلة بنت عامر بن مالك الخزاعية وولدها أسد ، وحجل بنت حبيب الثقفية وولديها ، وأم نضرة ، والشفاء ، وواقدة بنت أبى عدى المازنية وبنتيها أم خالدة وضعيفة . وأحس أنه يرنو إليهم فى حب وأن قلبه قد تفتح ليحتويهم جميعا .

ورن فى أذنيه صوت آت من بعيد : « هاشم وخلاك ذم » .

إن القوم ينافرونه وهو يكره ذلك ، إنهم يتفاخرون ويتنابذون بالألقاب ويقولون إنهم خير منه وهو لا يحب التفاخر ، وإنهم يحتكمون إلى الكهان وإلى ملوك الأرض فيشهد الكهان وملوك الأرض له عليهم فلا يتيه بذلك ولا يمتلئ

قلبه غرورا .

ودخل رجل من رجاله وناداه فلم يرد النداء ، ونظر الرجل فى وجهه فلاح عليه الهلع فزعيم قريش يجود بأنفاسه فى خيمة ، غريبا عن الأرض الطاهرة التى بارك الله فيها للعالمين .

وخرج الرجل يصيح وهو مذهول :

ـــ هاشم يموت .

وهرع الناس إليه والهين ، فلما وجدوه يجود بأنفاسه نزل بهم حزن ثقيل وحارت الدموع فى العيون ونزت النفوس بالأسى وانهصرت القلوب . فسيد القوم يموت بغزة لا نادبات يندبنه ولا نائحات ينحن عليه ولا من يشق عليه الثياب أسى وحزنا .

ولفظ هاشم آخر أنفاسه غريبا فى أرض الشام ، فسح رجال القافلة الدموع ثم حملوا سيدهم وقبروه ، وجاءوا بناقته فعكسوا عنقها وأداروا رأسها إلى مؤخرها وتركوها فى حفيرة لا تطعم ولا تسقى حتى تموت . وكانوا يعتقدون أن من مات ولم يبل عليه حشر ماشيا ، ومن كانت له بلية حشر راكبا على بليته . ولقد أراد رجال هاشم أن تكون له بلية يركبها يوم الحشر فقد كان هاشم ورجال قافلته يؤمنون بيوم الدين .

وراحوا يعقرون الإبل على قبره تعظيما له ومكافأة له على ما كان ينحره للأضياف ، ثم راح ينظر بعضهم إلى بعض فى ذهول فما كانوا يدرون ماذا يقولون للناس بمكة يوم أن يعودوا بلا سيدهم الذى ملأ الآفاق عدلا وكرما ؟!

٢٤

مات قباذ إمبراطور الفرس فطالب كاووس الأمير المزدكي بالعرش ، ولكن ماهيود رفض دعواه وقدم الوصية التى كتبها قباذ قبل موته إلى مجلس العظماء وهو يقول :

ــ إن إرادة الملك هى القانون .

كان الملك يكتب بيده ثلاث وصايا ويودع الأولى الموبدان موبد ، والثانية كبير الكتاب (دير مهيست) ، والثالثة كبير رجال الجيش (إيران سباهبد) . واجتمع الثلاثة الكبار للنظر فى أمر عرش إيران ، كان هناك طلب من كاووس ووصية صريحة من الإمبراطور الراحل بتولية كسرى عرش البلاد .

وجاء أوان إعلان وراثة العرش ففتحت أبواب القاعة الكبرى فى القصر وجيء بالتاج والعرش ، وأخذ الضباط مكانهم ثم دخل كبير الموابذة يحيط به الهرابذة والعظماء والوزراء وانطلقوا إلى حيث جلس أمراء البيت المالك ، ثم اصطفوا جميعا أمام الأمراء وقالوا :

ــ لقد تشاورنا أمام الإلـٰه الأعلى فأرشدنا وألهمنا وهدانا إلى الخير .

وصاح كبير الموابذة عاليا :

ــ إن الملائكة قد ارتضوا كسرى بن قباذ ملكا فبايعوه أيها الناس وإنها لبشرى لنا .

فارتفعت أصوات علماء الدين والزهاد والأتقياء فى جنبات القاعة فى القصر .

ــ آمين .

وخروا ساجدين ، ورفع الأمراء الأمير كسرى على العرش ، وتقدم الموبدان موبد ووضع التاج على رأس كسرى وهو يقول له :

ــ أتقبل من الله دين زرادشت الذى قواه كشتاسب بن لهراسب والذى أحياه أردشير بابك ؟

فقال كسرى :

ــ أقبل وسأعمل على خير رعيتى إن شاء الله .

وقام أمراء البيت المالك يبايعون كسرى ، وتقدم العظماء والـوزراء يصافحونه ، وحياه الضباط (الأساورة) تحية عسكرية ، ثم قام رجال الدين والزهاد والأتقياء بصلاة المساء والدعاء .

وجاءت وفود الدول لتهنئة كسرى تحمل الهدايا وأطيب التمنيات ، أقبل المنذر ملك الحيرة وابنه النعمان ، وجاء رسول ملك الصين ، ورسول من قبل قيصر ملك الروم . ونظر الرسول إلى إيوان كسرى وحسن بنيانه فأعجب به ولكن ذلك الإعجاب ما لبث أن تبخر فقد رأى اعوجاجا فى ميدانه ، فمال على من كان إلى جواره من الأشراف وقال له :

ــ كان يحتاج هذا الصحن أن يكون مربعا .

فقال له جاره :

ــ إن عجوزا لها منزل من الجانب المعوج ، وإن الملك أرادها على بيعه ورغبها فيه فأبت ، فلم يكرهها الملك وبقى الاعوجاج من ذلك على ما ترى .

فقال رسول قيصر :

ــ هذا الاعوجاج الآن أحسن من الاستواء .

وأصبح كسرى أنو شروان عماد كل السلطات فى البلاد يحكم على النبلاء

كما يحكم على عامة الشعب . وخضع له رجال الدين فقد قبل أن يكون زردشتيا وأن يكون حربا على المزدكيين ، فصار النظام بين الرعية والجيش ، والزينة يوم الزينة ، والمفزع والملجأ يوم الخوف من العدو .

وراح يعالج الفوضى التى أشاعها أتباع مزدك فى البلاد فرد الأموال إلى أهلها منقولة كانت أو ثابتة ، وجعل من الأموال التى لا وارث لها رصيدا لإصلاح ما فسد ، وأما من غلب على أمره من النساء فكان ينظر لحالة كل منهن على حدة ، فإذا كانت المرأة المغتصبة من طبقة الغاصب ولم تكن قد تزوجت من قبل أو كان زوجها قد توفى عنها يؤخذ الغالب لها حتى يغرم لها مهرها ويرضى أهلها ، فإذا لم يكونا من أهل طبقة واحدة يكون لها الخيار فى أن تبقى زوجة لغالبها أو أن يطلقها ، وعلى الزوج أن يدفع لزوجه المهر وأن يرضى أهلها على أية حال . وإذا كان للمرأة زوج على قيد الحياة وجب ردها إلى زوجها ، وألزم الغالب بأن يدفع لها مهرا مساويا للمهر الذى دفعه زوجها الشرعى من قبل .

وأمر بكل مولود اختلف فيه عنده أن يلحق بمن هو منهم إذا لم يعرف أبوه ، وأن يعطى نصيبا من مال الرجل الذى ينسب إليه إذا قبله الرجل . وأمر بكل من كان أضر برجل فى ماله أو ركب أحدا بمظلمة أن يؤخذ منه الحق ثم يعاقب الظالم بعد ذلك بقدر جرمه .

وأعاد بناء ما تهدم من المساكن والقرى حينما عجز الملاك عن المحافظة عليها ، وأعان أهلها لإصلاح حالهم وأمدهم بالمواشى وأدوات الرى . وراح يحفر الترع ويقيم الجسور الخشبية التى كسرت ويبنى الجسور الحجرية التى انهارت ويقيم الحصون لصد من تسول له نفسه الهجوم على بلاده .

واهتم كسرى بالجيش . حتى إنه كان يقف بين الجنود فى أثناء استعراض

بابك ـــ كاتب ديوان المقاتلة ـــ الجيش . وفى ذات يوم قام بابك باستعراض جنود الجيش فلم ير كسرى بينهم فأمر بإجراء العرض فى اليوم التالى ، فلم يره فأمر بالعرض فى اليوم الثالث ، فمثل كسرى ولكن لم يكن سلاحه كاملا فحكم عليه بغرامة تزيد درهما واحدا عما يفرض على سائر الجند .

وابتعد خطر المزدكية فى الداخل ولكن مركزها الخارجى كان يبرر الجهد الذى بذله كسرى فى إصلاح الجيش . وقد استتب السلم بين إيران وبيزنطة ففى سنة ٥٣٢ م وهى السنة الثانية من حكم كسرى أنو شروان وقع كسرى ويوسطنيانوس ملك الروم معاهدة صداقة ، وقد وضع كسرى فى قاعة الطعام بقصره كرسيا لملك الروم وآخر لملك الصين يجلسان عليهما إذا ما شرفا عاصمة ملكه ، ويظلان خاليين إذا ما عادا إلى ديارهما رمزا للصداقة والإخاء .

وعلى الرغم من الهدوء الذى ساد المنطقة فقد كان كسرى حزينا لمقتل ذى نواس واغتصاب أبرهة الملك فى اليمن ، فأبرهة مسيحى على دين يسطنيانوس ملك الروم وعلى دين ملك الحبشة ومن المتوقع أن يبرم معاهدة مع بيزنطة فيتقلص ظل الفرس فى اليمن ، بل قد تنتقل حمير إلى معسكر الأعداء بعد أن كان ملوكها يفزعون فى الملمات إلى حليفهم ملك الحيرة وإلى الفرس أنفسهم .

وكان كسرى محقا فى حزنه على النكبة التى نزلت باليمن فقد كان ملك الروم يحلم بعقد معاهدة مع أبرهة ، وأن يحرض حليفه على أن يزحف للاستيلاء على الحجاز فيقضى بذلك على آخر فاصل يفصل بين الروم وبين اليمن والحبشة ، ويحقق حلم الإسكندر وأغسطس ويوجه ضربة قاضية للفرس دون خوض غمار المعارك وإراقة الدماء .

ولم تقبل قبائل كندة وذى سحر وثمامة وحنش ومرثد وحنيف وذى خليل ويزن أن تستكين لأبرهة فثاروا عليه . ولما بلغ نبأ هذه الثورة مسامع أبرهة

جيش جيشا من الأحباش والحميريين وخرج لإخمادها ، وبينا الجيش فى طريقه للحرب إذا ببعض قواد الثائرين وجنودهم يظهرون أمامه يطلبون منه الصفح ، أما الباقون فقد تحصنوا فى مواقعهم وأبوا الخضوع للذل الذى جره غزو الحبشة لليمن .

وبينما كان أبرهة يفكر فى أمر بقية الثائرين إذا برسول جاء إليه يسعى يحمل إليه أسوأ نبأ . إن سد مأرب قد تصدع وتهدم بعض توابعه ، فأمر بتحضير مواد البناء والحجارة . وبينما كان الناس مشغولين بنقل مواد البناء كان أبرهة يشرف على بناء كنيسة عظيمة فى مدينة مأرب يضاهى بها كعبة العرب .

وفى حفل عظيم افتتح كنيسته ورتب لخدمتها جماعة من متنصرة سبأ ، وتقدم أبرهة نائب ملك الجعريين (الحبشة) ، وملك سبأ وذى ريدان وحضرموت واليمن وأعرابها فى النجاد وفى تهامة ، إلى حيث وقف البطريق ليتلقى منه البركات وليدعو الله فى خشوع أن يعينه على إعادة ترميم سد مأرب .

وبعد افتتاح كنيسة مأرب العظيمة عاد أبرهة إلى موضع السد ليضع أسسه ، واستعان بقبائل حمير وجنوده الحبش ، وتذمرت العشائر التى لم تتعود مثل هذه الأعمال الطويلة الشاقة فاضطر بعد مدة أن يسمح لهم بإجازة ليهيئوا لأنفسهم الطعام وليلتقطوا أنفاسهم بعد ذلك العمل المضنى الشاق .

وقفل أبرهة راجعا إلى مأرب فعقد معاهدة مع أقيال سبأ ، وتحسنت العلاقات بينه وبين سادات القوم فأرسلت إليه الغلات والمواد اللازمة للبناء وتقاطر الفعلة على موقع السد زمرا ودب النشاط ولم تخمد العزائم حتى انتهى العمل . وأمر أبرهة بتسجيل ذلك العمل الباهر فراح الكتاب يكتبون على السد : « بحول وقوة ورحمة الرحمن ومسيحه وروح القدس قد قام أبرهة نائب ملك الجعريين رمحز زبيمان ملك سبأ وذى ريدان وحضرموت واليمن

وأعرابها فى النجاد وفى تهامة بإقامة هذا السد » . ودون أبرهة ما أنفقه على بناء السد من أموال ، وما قدمه إلى العمال والجيش الذى اشترك فى العمل من طعام وإعاشة ، من اليوم الذى بدئ فيه بالإنشاء حتى يوم الانتهاء منه فى شهر ذى معان فى سنة ٦٥٨ الحميرية الموافقة لسنة ٥٤٣ من ميلاد المسيح .

والتفت حول أبرهة جماعة من الأسر الأرستقراطية القديمة ومن الأحباش ، وقد قضى فى أثناء وجوده فى مأرب على عصيان الأقيال الذين أشعلوا نيران الثورة فأصبح سيد اليمن وصاحب الأمر غير منازع .

ورأى كسرى أنو شروان أن يبعث إلى أبرهة وفدا ليهنئه بالعمل الجليل الذى قام به ، وأشار على حليفه المنذر ملك الحيرة أن يبعث إليه بوفد لعل أبرهة يميل إلى معسكر الفرس أو يقف على الحياد بين الفرس والرومان إذا ما تجددت العداوة ونشبت الحروب ، فانطلق الوفدان إلى مأرب ، وما إن دخلوا قصر أبرهة حتى وجدوا وفود يسطنيانوس ملك الروم والحارث بن جبلة ملك الغساسنة العرب حليف الروم ونجاشى الحبشة ووفد أبى كرب بن جبلة قد سبقهم إليه .

وغص قصر أبرهة فى مأرب بوفود الشرق ووفود الغرب التى تخطب وده ، وبذلت محاولات لاكتساب ذلك الرجل الذى استأثر باليمن ونازع النجاشى فى كل شىء حتى اللقب ولم يعد للنجاشى عليه سلطان .

وأخفق رسول كسرى فى اجتذاب الرجل إلى معسكر الفرس ، ولم ينجح رسول المنذر فى سفارته ، ورحب أبرهة برسول الروم وبوفد الحارث بن جبلة زعيم الغساسنة حلفاء الروم ، وراحت المفاوضات تدور بين أبرهة ويسطنيانوس ملك الروم لتجهيز حملة لإخضاع الحجاز ورفع الصليب على الجزيرة العربية كلها ، وبذلك يتم الاتصال بين مسيحيى بيزنطة والشام

ونصارى اليمن والحبشة ويتحقق الحلم الكبير .

وكانت العداوة مشتعلا أوارها بين المنذر ملك الحيرة والحارث بن جبلة ملك الغساسنة حلفاء الروم ، وقد خمدت إلى حين لما ساد الوفاق بين بيزنطة وفارس . ولكن العاهلين العربيين كرها ذلك السلام فقد تمكن المنذر من مباغتة أحد أبناء الحارث وكان يكلئ خيله فى البادية فأسره وقدمه ضحية إلى العزى .

وعلم المنذر أنها الحرب بينه وبين الحارث بن جبلة فجمع كل ما يملك من قوة ومن حديد ، وخرج فى معد كلها حتى جاء عين أباغ وهو واد من أودية العراق وراء الأنبار على الفرات لا يبعد كثيرا عن الحيرة ، وأرسل إلى الحارث الأعرج بن جبلة :

ــ إما أن تعطينى الفدية فأنصرف عنك بجنودى وإما أن تأذن بحرب .

فأرسل إليه الحارث :

ــ أنظرنا ننظر فى أمرنا .

فجمع الحارث عساكره وسار نحو المنذر والتقى الجمعان فى عين أباغ ، ودارت معركة رهيبة بين العرب والعَرب سالت فيها الدماء وسقطت الجثث لتنهشها نسور السماء ، وقتل ابنان للحارث ودارت الدائرة على المنذر فاستشهد فى المعركة ، فسار الحارث بولديه القتيلين إلى الحيرة فأنهبها وأحرقها ودفن ابنيه بها ، ثم عاد إلى الشام يلعق جراحه .

وحركت الحرب التى نشبت بين دولة الغساسنة الموالية للروم ودولة الحيرة الموالية للفرس نار العداوة بين كسرى ويوسطنيانوس فأعلن كسرى الحرب على بيزنطة ، وخرج بجيوشه قاصدا أنطاكية وكان فيها عظماء جنود قيصر وبطارقة الشرق فنشب القتال بين صديقى الأمس القريب ، ودارت

رحى معركة رهيبة لا هوادة فيها ولا لين .

وهجم الحراثون الإيرانيون على أسوار أنطاكية يعملون فيها معاولهم لهدمها ، وراح الفرسان ينازلون الفرسان ، وقد كان الفارس الإيرانى مسلحا بتجانيف ودرع وجوشن وساقين وسيف ورمح وترس وعمود وجعبة فيها قوسان بوتريهما وثلاثين نشابة ووترين مضفورين يعلقهما فى مغفر له ظهريا .

كان الفارس الإيرانى حصنا على صهوة جواده وكانت أسلحته أمضى من أسلحة الفارس الرومانى ، فانهزمت جنود يوسطنيانوس أمام جند كسرى وتقهقرت وجنود فارس فى أثرهم . واستمر القتال ضاريا فى قلب أنطاكية وما لبثت أن انهارت مقاومة الروم وسقطت أنطاكية فى قبضة كسرى أنو شروان .

وأمر كسرى المهندسين الذين كانوا فى رفقته أن يصوروا له مدينة أنطاكية على ذرعها وعدد منازلها وطرقها وجميع ما فيها ، وأن يبنوا له على صورتها مدينة إلى جنب المدائن فبنيت المدينة وعرفت بالرومية على صورة أنطاكية ، ثم حمل أهل أنطاكية حتى أسكنهم إياها فلما دخلوا باب المدينة مضى أهل كل بيت منهم إلى ما يشبه منازلهم التى كانوا فيها بأنطاكية .

وراح كسرى يغزو الدول الخاضعة للرومان فقد أصيبت حكومة بيزنطة بفساد بالغ ، فقد شرع حق انتخاب حكام المقاطعات فكان الحكام يشترون مناصبهم بالمال حتى إذا تم انتخابهم وتربعوا فى مقعد السلطة فرضوا الضرائب المحلية ليعوضوا ما أنفقوه وليكدسوا الأموال فى خزائنهم الخاصة .

وقد نجحت تيودورا المؤمنة بوحدة طبيعة المسيح أن تقنع زوجها يوسطنيانوس أن يلغى بيع الوظائف وأن يمنح كل حاكم مرتبا من خزائن الدولة يعيش منه ، وأن يظل الحاكم بمقاطعته خمسين يوما بعد التخلى عن منصبه

ليجيب عما يوجه إليه من اتهامات ، وكان ذلك الإصلاح بعد أن استشرى الفساد فى طول الإمبراطورية الرومانية وعرضها .

ولم يحاول يوسطنيانوس أن ينسق بين المقاطعات ولم يوحد السلطات التى تمنح لحكامها ، فكان يمنح سلطات استثنائية خاصة لبعض الحكام لكثرة اللصوص فى مقاطعتهم أو لاتساع رقعة الإمبراطورية بها ، فكان ذلك الاستثناء يوغر صدور الحكام الآخرين ويزعزع صدق ولائهم للإمبراطور الذى يفرق بينهم فى المعاملة .

وقد قلد يوسطنيانوس دقلديانوس فى أن جعل الأبناء يمارسون مهن آبائهم وخاصة تلك المهن المتعلقة بالأرض ، وعين موظفا كانت وظيفته أن يمنع أى شخص من المقاطعات من الدخول إلى القسطنطينية إلا إذا كان له عمل بها ، وأمر بتكليف العاطلين بالمدينة بالعمل فى مخابز الدولة فأحس الناس بالحجر على حرياتهم وضعفت حماستهم للدولة .

وفرض يوسطنيانوس ضريبة جديدة جلبت للدولة ثلاثة آلاف رطل من الذهب ، ولقد ضاق الناس ذرعا بضريبة الصادر وضريبة الوارد والضرائب غير المباشرة والعشور ورسوم الدمغة على الإيصالات والضرائب التى تجبى على بيع الرقيق وضرائب التركات ، وقد أثقلت تلك الضرائب كاهل الشعب فبدا للناس فى الإسكندرية وقبرص والمناطق الأخرى الخاضعة لحكم الرومان أن حكم كسرى أنو شروان أفضل من حكم يوسطنيانوس وضرائبه الفادحة .

وكان يوسنطنيانوس يستعين فى حروبه بفرق البرابرة أو بقبائل بأجمعها تحارب تحت إمرة أمرائهم ، وقد تركت سياسة استخدام الجند الحلفاء أسوأ الأثر فى الجيش الرومانى ، ذلك أن القائد هو الذى يجمع جنده ويعولهم فلم يكن للحكومة المركزية سلطان عليهم . وزاد الأمر سوءا أن يوسطنيانوس لم

يمنح قواده أى قدر من السلطة ولم يضع فى أيديهم الأموال التى يؤلفون بها قلوب جنودهم ، فكان التمرد يطل برأسه فى أثناء المعارك وكان صوت التذمر يرتفع فوق قعقعة السلاح .

وأوقفت الحروب التى نشبت بين فارس والروم ورود الحرير إلى الدولة الرومانية فحاول يوسطنيانوس أن يحافظ على سعره المنخفض وسن لذلك القوانين ، فكانت النتيجة أن قضى على صناعة الحرير لأن سر دودة القز لم يكن قد تسرب إلى القسطنطينية بعد . وقد اشترى الإمبراطور مصانع الحرير وصارت تجارة الحرير احتكارا إمبراطوريا ففرض ما شاء من الأسعار . فزاد ذلك فى استياء الناس وتذمرهم .

كانت القديسة هيلينا قد ابتدعت بدعة جلب الآثار المقدسة إلى القسطنطينية أيام قسطنطين فراحت الجثث المقدسة تتقاطر على المدينة ، فأحضرت هيلينا جثة القديس دنيال ونقلت بعدها جثة الحوارى أندراوس والقديس لوقا ، ونقلت جثة صمويل إلى عاصمة الرومان الشرقيين ، وعرفت جثة أشعيا طريقها إلى القسطنطينية . وفى أيام يوسطنيانوس جاءت جثة القديسة آن ، وشغل الناس بالأساطير وتمنوا أن يعثر المنقبون فى فلسطين على جثة مريم المجدلية .

وشغل الناس بالقديسين الذين يشفون ببركتهم من الأمراض عن الله ومسيحه ، واستعادت البيوت المقدسة المسيحية ما كان لأسلافها الوثنية من نفحات ، فلم يعد الرجال والنساء يهرعون إلى معابد أسكليبيوس أو لوكيتا الوثنية التماسا للشفاء من أسقامهم بل راحوا يتزاحمون على كنيسة القديس دميان والقديس فوزماس فهما يشفيان ببركتهما من كل الآلام والأوجاع .

وصارت الأضرحة المقدسة لكبير الملائكة « ميخائيل » منتجعات للعلاج

والشفاء ، وراح الرجال يفزعون إلى ضريح القديس أرتيميوس لشفاء عللهم الجنسية ، بينما تهرع النسوة لشريكته القديسة فبرونيا لإصلاح عقمهن .

وانتشرت الخرافات فى أنحاء الإمبراطورية الرومانية ، فالأبالسة والشياطين فى كل مكان ، وقد يتقمص الشيطان روح كلب أو يتحول إلى كلب ويشن هجوما ضاريا على الأتقياء ، وقد يبيع بعض الرجال أنفسهم للشيطان وهؤلاء يجوسون طوال الليل خلال القصور أو الدور أو الطرقات حاملين رءوسهم على أكفهم . وشغل القسس بالشعوذة والسحر حتى إنهم كانوا يتخذون من الراهبات وسيطات فى الجلسات التى يعقدونها لمعرفة غيب السموات !

ودب الوهن فى جسم الإمبراطورية الرومانية فكان من اليسير على كسرى أنو شروان أن يفتح مدينة هرقل والإسكندرية ، وقد عصف بالإمبراطورية الرومانية القوية ريح تمييز حكام على حكام والحجر على حرية الناس والضرائب الباهظة والجنود المرتزقة ، وكانت أعنف ريح ذلك الانقسام الدينى بين يوسطنيانوس وزوجه ثيودورا .

كان يوسطنيانوس يؤمن بلاهوت المسيح وناسوته وكانت ثيودورا تؤمن بوحدة طبيعة المسيح فكانت تستخدم نفوذها لتحقيق النصر لعقيدتها .

كان يوسطنيانوس يؤمن بلاهوت المسيح وناسوته وكانت ثيودورا متربعة على قلب زوجها الإمبراطور . وعلى الرغم من اختلاف الزوجين فى الدين فقد أثرت ثيودورا على زوجها وعلى قانونه الرومانى الذى وضعه ، فقد زينت له أن يمنح المرأة حقوقها فمنح للزوجة حق الحصول من زوجها على أملاك تعادل صداقها ، ومنح للأرملة حق الوصاية على أطفالها ، فاستجاب لها وجاء القانون متمشيا مع روحها وإن خالف روح بولس .

وكانت ثيودورا تؤيد أتباع مذهب وحدة طبيعة المسيح فى الخفاء وإن كان

ذلك التأييد يزيد هوة الاختلاف بين أبناء الإمبراطورية الواحدة ويوسع شرخ الانشقاق . فلما ماتت الإمبراطورة ثيودورا دخل زوجها يوسطنيانوس الحزين إلى جناحها ليلقى نظرة وداع على ما خلفت من متاع ، فإذا به يجد البطريق السابق أنثيموس الذى طرده لكفره إذ كان من أشد المتحمسين لمذهب طبيعة المسيح الواحدة فى غرفة من غرفاتها الداخلية ، وقد خبأته منذ اثنى عشر عاما . وغضب الإمبراطور وأحس أن ثيودورا كانت تعصف بأركان ملكه . ولو كان قلب ثيودورا ينبض بين جنبيها لقالت لزوجها : « لو آمنت يا مولاى بوحدة طبيعة المسيح لشددت إليك مستعمراتك المؤمنة بوحدة طبيعة المسيح ، أما وإنك من المؤمنين بلاهوت المسيح وناسوته فأبشر بانفصام وحدة الإمبراطورية » .

٢٥

عاد الحارث بن جبلة ملك الغساسنة إلى الشام بعد أن قتل المنذر ملك الحيرة ، ودفن ولديه فى أرض خصمه ، ونهب عرب الشام عرب الفرس إرضاء لقيصر وانتقاما من كسرى .

كان العرب مبعثرين فى الأرض قد تمزقت كلمتهم وتباينت أهواؤهم وألقيت البغضاء فى قلوبهم ، فراح العربى يقاتل العربى ويسفح دمه لينال الحظوة عند يوسطنيانوس أو كسرى أنو شروان ، فقد ملئ قلب الحارث بالفرح لما أنعم عليه قيصر بلقب « الحارث البطريق ورئيس القبيلة » بعد أن انتصر على المنذر وقتله . وابتهج أبو كرب بن جبلة لما عينه القيصر عاملا على غابات النخيل الواقعة على حدود فلسطين الجنوبية ، وخاض غمار المعارك مع الروم فى حربها مع الفرس وقدم جنوده العرب وقودا لنار المعركة . وقد انتفخت أوداجه غرورا لما أهدى إليه القيصر عشرين ألف أسير حرب فباعهم للفرس والأحباش وملأ جيوبه ذهبا .

ولم يقف تنافر عرب الحيرة وعرب الغساسنة عند حد العداوة السياسية وانضمام كل منهما إلى معسكر من المعسكرين المتنازعين على سيادة العالم ، بل وصلت العداوة إلى لب عقائدهم الدينية ، فلم تكن ممالك العرب وقبائلهم على قلب رجل واحد فقد كان نصارى الحيرة من النساطرة بينا كان نصارى غسان على مذهب القسطنطينية ، حتى سعى الحارث بن جبلة لدى الإمبراطورة ثيودورا لتعيين أساقفة للمقاطعات السورية من القائلين بوجود

طبيعة واحدة فى المسيح . وقد بذل الحارث جهودا مضنية للتقريب ما أمكن بين الكنيستين المتنازعتين فى قلب مملكته ، وفى تخفيف حدة غضب حكومة القسطنطينية على رجال المذهب الذى آمن به وعمل على انتشاره بين السريان وعرب الشام .

ولم يكن العرب الوثنيون فى مملكة الحيرة ومملكة غسان يتعبدون لصنم واحد ، بل كان لكل قبيلة صنمها المعبود الذى ترفعه فوق الأصنام جميعا وتجعله شريكا لله فى ملكه أو تجعله ابنا له أو بنتا . وكانت العداوة الدينية مستعرة بينهم وإن كانوا جميعا يحجون إلى البيت المقدس الذى أقام قواعده فى مكة إبراهيم خليل الرحمن وإسماعيل صادق الوعد الأمين .

وكان التنافس قد دب بين الأوس والخزرج فى يثرب ، فتحالفت كل قبيلة منهما مع قبيلة قوية من قبائل اليهود لتشد أزرها وتقف إلى جانبها إذا ما عدت القبيلة العربية الأخرى عليها ، فقد كانت كلمة اليهود هى العليا فى يثرب ، وكانت البغضاء قد ألقيت فى قلوب الأوس والخزرج وإن كانوا يخرجون معا ليحجوا إلى مناة إلٰهتهم العظيمة التى نصب تمثالها عند المشلل بقديد على ساحل البحر الأحمر على بعد أميال من المدينة ، وإلى البيت المحرم الذى كان مثابة للناس وأمنا .

وتقطعت الأوصال بين قبائل بنى إسماعيل من معديين ونزاريين وإياديين ومضريين وقرشيين ، فتنصر بعضهم وأشرك بعضهم وجعلوا لله أندادا ، وظل آحادهم على دين أبيهم إبراهيم حنفاء لا يشركون بربهم أحدا . ولم يعد يربط بينهم إلا ذلك البيت المحرم الذى يأتون إليه مهطعين ليذكروا الله ويتشفعوا إليه بشفعائهم فى أيام معدودة .

وكان عرب اليمن يئنون من وطأة حكم الأحباش ، فقد فقدوا حريتهم

وصاروا تحت حكم أبرهة الأشرم الذى بنى كنيسة فخمة فى صنعاء جلب إليها أمهر صناع الروم ، واستورد لها الفسيفاء والزينة ليجذب عرب الجزيرة وليصدهم عن الكعبة التى يعظمها العرب جميعا وتهفو إليها أفئدة الناس .

وانقسم العرب فى اليمن بين مسيحيين قائلين بوحدة طبيعة المسيح ، ومسيحيين قائلين بلاهوت المسيح وناسوته ، وبين متهودين يمارسون شعائر دينهم سرا خشية بطش أبرهة وأساقفته ، وبين وثنيين يعبدون الكواكب والنجوم ويتقربون إلى الرحمن بالأوثان والأصنام حتى إذا ما استدار العام وجاء أوان الحج شدوا الرحال إلى مكة ليطوفوا بالبيت العتيق وليؤدوا مناسك الحج ، ولتتجاوب أرجاء مكة : « لبيك اللهم لبيك . لبيك لا شريك لك لبيك . إلا شريك هو لك . تملكه وما ملك » .

وكان القرشيون يعيشون حول البيت العتيق تخرج قوافلهم من دار الندوة ويجتمع فيها ساداتهم الذين قد بلغوا سن الأربعين ليتشاوروا فى أمورهم كما يجتمع شيوخ الرومان فى مجلسهم ليدلوا برأيهم فى أمور إمبراطوريتهم . وقد انقادت زعامتهم إلى هاشم بن عبد مناف ولما يتجاوز الخامسة والعشرين . وقد مات هاشم بغزة فى شرخ الشباب فحزنت عليه قريش حزن الثكلى على وحيدها ، فتولى أخوه المطلب الرفادة وسقاية الحجيج من بعده ، فقد كان شيبة أكبر أبناء هاشم صبيا يلعب مع الغلمان هناك فى يثرب فى رعاية أخواله بنى النجار وأمه سلمى بنت عمرو الخزرجية .

وكانت سلمى تحدث ابنها عن أبيه زعيم قريش وسيد البطحاء ، وكانت تروى على مسامع الصبى مفاخر قومه فشب شيبة معتزا بقرشيته يذكرها على الدوام وكان يفاخر أترابه من الصبيان بشرف أهله كلما لعب معهم وانتصر عليهم .

وكان يذهب إلى بساتين يثرب وجنات بنى قريظة ويمد بصره إلى المروج الخضر ويصغى إلى خرير الماء فترق نفسه ، وكان يرقب نمو الزرع وارتفاع النخل فتعلم الصبر ، وكان يمشى فى الأسواق وما أكثر ما جلس فى حوانيت التجار اليهود فتعلم بعض فنون التجارة والحساب .

وكان يلقى سمعه إلى المحاولات الدينية التى كانت تدور بين اليهود فعرف شيئا عن التوراة وعن الله ويوم السبت . ولم يعرف شيئا عن البعث والحساب يوم الدين فقد كان اليهود يؤمنون بأن المرء يجزى عن عمله فى الدنيا وأن اليهود وحدهم ينامون فى حضن إبراهيم إذا ما ذهبوا إلى الأرض التى لا رجعة منها ، وقد جاءتهم تلك المعتقدات بعد أن حملوا إلى بابل وتأثروا بمعتقدات البابليين وفسد الدين .

وخرج شيبة ذات يوم ليلعب مع الفتيان وكان أحب اللعب إليه الرماية ، فدعا أبناء أخواله إلى مباراة فى رمى السهام فاصطف الفتيان أمام هدف صغير فى مثل الكف . وفى ذلك الوقت مر رجل من بنى الحارث بن عبد مناة ، فوقف يرقب المباراة من بعيد .

وراح الصبيان يرمون سهامهم فأخطئوا الهدف ، وتقدم شيبة وأزاح عن عينيه خصلة الشعر البيضاء التى تهدلت على جبينه ، ثم وضع سهمه الصغير فى قوسه وأطلقه فأصاب الهدف فرفت على شفتيه بسمة انتصار .

ووضع سهما آخر وصوبه فأصاب مرة ثانية فهزه الفرح وصاح مفاخرا :

— أنا ابن هاشم ، أنا ابن سيد البطحاء .

ورمى الرجل الصبى بنظرة فاحصة فألفى النور الذى كان يتألق فى وجه هاشم يتلألأ فى وجه شيبة ، ورأى الغلام تعلوه مهابة وكأنه ولد ليكون زعيما فى قومه وسيدا من خيرة ساداتها .

وامتطى الرجل راحلته وانطلق إلى مكة للحج وقد عزم على أن ينبئ المطلب نبأ ابن أخيه هاشم الذى يتيه على أقرانه من بنى النجار بشرف منبته .

وكان المطلب فى الكعبة يغدو ويروح يصدر أوامره لرجاله وعبيده ، فقد بدأ موسم الحج وكان عليه أن يوفر للحجاج الماء والطعام وأن يسهر على راحتهم . وبينما المطلب فى مجلسه إذ أقبل عليه ذلك الرجل وقال :

ـــ لو رأيت ابن أخيك شيبة فينا لرأيت جمالا وهيبة وشرفا . لقد نظرت إليه وهو يبارى فتياننا فى رمى السهام ويقول كلما أصاب الهدف : « أنا ابن هاشم ، أنا ابن سيد البطحاء » .

فرفع المطلب رأسه وقال :

ـــ لا أمسى حتى أخرج إليه فأقدم به .

فقال الرجل :

ـــ ما أرى سلمى ولا أخواله يتركونه لك .

فقال المطلب فى عزم :

ـــ ما كنت لأدعه هناك ويترك مآثر قومه ومكانته ونسبه وشرفه .

وما جاء الليل حتى كان المطلب على ظهر راحلته يجد السير إلى يثرب ليعود بشيبة ابن أخيه هاشم . ليشب بين أهله وفى بيت هاشم العظيم .

ووصل المطلب إلى يثرب وجعل يسأل عن شيبة حتى اهتدى إليه فوجده يلعب بين الفتيان فعرفه ، خيل إليه أنه يرى هاشما فخفق قلبه وهاجت شجونه حتى إنه أحس الدموع تبلل روحه قبل أن تترقرق فى عينيه ، ونادى فى رقة :

ـــ شيبة .

فالتفت الفتى إلى الرجل الذى راح يتقدم نحوه وقد أشرقت ابتسامة حلوة فى صفحة وجهه ، وأصبح المطلب على بعد خطوة من الغلام فلم يستطع أن

يكبح عواطفه فضم شيبة إلى صدره وقال :

ــ أنا عمك يا بني . أنا المطلب .

ووقف الفتيان ينظرون دون أن تتحرك منهم الشفاه . كانت قلوبهم الغضة تستشعر روعة اللحظة وعظمة اللقاء فقد كانت أمجاد يثرب فى أحضان عز مكة وشرفها .

وقال المطلب للفتى الذى كان يرنو إليه فى حب وإكبار :

ــ ما جئت يا شيبة إلا لأعيدك إلى قومك .

وفى مثل لمح البصر احتلت صورة سلمى رأس ابنها واستولت على وجدانه ، وتدفقت كنوز محبتها فغمرت كل مشاعره فقال فى رقة آسرة :

ــ لا أبرح حتى تأذن لى أمى .

وانطلقا إلى سلمى فقال لها المطلب :

ــ جئت أقبض ابن أخى وألحقه ببلده وقومه .

وأحست سلمى كأن خنجرا صوب إلى قلبها وكأن سقف الدار قد حر عليها وكأنها تهوى إلى واد سحيق ليس له قرار ، وشعرت بلوعة الفراق فإذا بمرارة فى نفسها ووقدة نار فى حلقها ودموع تحجرت فى مآقيها وانتشرت بين جنباتها نار ، فخطفت ابنها وضمته إلى صدرها وقالت فى صوت مرتجف مرعوب يقطر حزنا :

ــ لا لست بمرسلته معك ، إنه ابنى .

فقال المطلب فى إصرار :

ــ لن أذهب حتى آخذه معى ، إنه ابن أخى ونحن أهل بيت شريف فى قومنا والمقام ببلده خير له من المقام هٰهنا .

وصمت المطلب لحظة فقد كانت صفحة وجه سلمى مرآة تعكس

انفعالات نفسها ، كانت فى ضيق وحيرة وأسى فقد جاء من يحاول أن ينزع من بين أحضانها ابنها الحبيب ، ابن هاشم الذى ذهب ولن يعود . وغمرها خوف شديد فقد خيل إليها أن المجهول قد فتح فاه ليطبق على شيبة وكأنما قرأ المطلب أفكارها فقال :

ـــ وهو ابنك حيث كان .

فقالت سلمى فى صوت متهدج وهى تضغط بذراعيها على الفتى النحيل الذى تهدلت خصلة شعره البيضاء على وجهه :

ـــ دعنى ثلاثة أيام أفكر .

وراح شيبة يجوس خلال يثرب يقلب وجهه فيها كأنما يتزود منها بنظراته الأخيرة ، فقد أحس أنه مفارقها إلى شرف أهله . إنه يمد بصره إلى آطام اليهود والأوس والخزرج فيحس كأنما يراها لأول مرة ، إنها عز المدينة . وراح يمشى فى الأسواق يتلفت ، كان الحدادون فى حوانيتهم يصنعون أدوات الزراعة والدروع والسيوف والنجارون عاكفين على أعمالهم وقد ازدحمت سوق الصياغة بالمفتونين بالذهب.ترى ماذا سيرى فى مكة ؟!

وانطلق إلى بساتين المدينة وكانت جميعها فى أيدى اليهود فالعرب يحتقرون الزراعة ، ووقف يدير عينيه فى المكان : كان الزرع مختلفا ألوانه يسر الناظرين ، والمياه تترقرق فى القنوات كاللجين ، والثمار تتدلى كاليواقيت والزبرجد والمرجان . كان المشهد يبده القلب ويشرح النفس ويلذ العين ، فجلس على الأرض وأطلق لخياله عنانه يسرح فى الماضى ويحاول أن يخترق ببصيرته حجب الغيب لعله يرى ملامح مستقبله المجهول .

وذهب إلى جبل أحد ، إنه جبل هائل يقف على مشارف المدينة كحارس عظيم فى وجهه صرامة وفى قلبه حب دفين . فاستشعر كأن مشاعره قد شدت

إلى ذلك الجبل وأن بينه وبينه أسبابا قد تتوطد على مر الأيام .

وسخر شيبة من مشاعره فكيف تتوطد الأسباب بينه وبين أحد وعمه فى الدار ينتظر مرور الأيام الثلاثة ليحمله بعيدا عن أحد وآطام يثرب وبنى النجار وبنى قريظة والأوس وبنى النضير وقينقاع ، وبساتين المدينة وعيونها الجارية ونخيلها الذى انتشر فى أرجائها كأعمدة مقدسة فى معبد عظيم ؟!

وعاد شيبة إلى دار أمه وقد تساوقت نفسه مع الكون كله وأحس تعاطفا بينه وبين كل ما وقعت عليه عيناه . ومر بالبيت الذى بناه تبع للنبى الذى حدثه عنه أحبار اليهود أنه قد صار فى حوزة بنى النجار ، وألقى عليه نظرة عابرة ثم دلف إلى الدار ليمكث مع أمه ينعم بالحب ويشنف أذنيه بحديثها العذب ويفتح قلبه لكنوز العواطف الرقيقة التى كانت تنسكب فيه .

ومرت الأيام وسلمى فى حيرة تتجاذبها عاطفتها ومصلحة ابنها الحبيب . إنها لا تطيق فراقه فأهون عليها أن تستل روحها من بين جبينها من أن ينتزع شيبة منها ، وإنها لن تغفر لنفسها لو أن أنانيتها انتصرت على مصلحة ابنها الحبيب ، ففى ذهابه إلى أهله عزه وشرفه ومستقبله .

وجاء المطلب ليسمع من سلمى قرارها فراحت سلمى تجمع شتات نفسها وتجاهد أن تلم ذاتها التى ذهبت شعاعا ، فكل خلجة من خلجاتها ترتجف وكل نبضة من نبضات قلبها تهتف بها أن ترحم نفسها وتبقى ابنها إلى جوارها بعد أن ذهب هاشم ولن يعود ، إنه نبضة منها بل هو خفقات الفؤاد ونور البصر وروح الروح . وتحرك لسانها وخرج الصوت منها ينطق بأقسى قرار تتخذه أرملة ، فخيل إليها أن صوتها غريب عنها كأنما كان آتيا من وراء غيب بعيد فقالت بصوت خافت :

— أذنت لك فى أن تأخذه .

وأحست سلمى أن شيئا قاسيا قد عصف بها ، وأنها توشك أن تنهار ، ولكنها تجلدت وراحت تقاوم الدموع التى جرت إلى عينيها تريد أن تسيل . واستشعر المطلب ما فى مقالتها من أسى وشجن فتحركت رقته ورأى أن من الأوفق أن يفر من الموقف المشحون بالانفعالات ، فأخذ شيبة من يده لينطلق به إلى الباب ، ولكن شيبة ارتمى فى حضن أمه ونشج بالبكاء فانهمرت العبرات .

وامتطى المطلب راحلته وأركب شيبة خلفه ووقفت سلمى تودع ابنها ، حتى إذا ما انطلقت الراحلة بالراكبين الكريمين لم تعد سلمى ترى شيئا فقد حالت الدموع بينها وبين شيبة الحبيب . وأحست فى تلك اللحظة أن آخر خيط يربط بينها وبين قريش بل آخر خيط يربط يثرب بمكة قد انقطع .

وراح شيبة يتلفت يلقى نظرة وداع على مرتع صباه وأرض منبته ، وما إن خلف يثرب وراءه حتى أحس لأول مرة قسوة اليتم فقد كان ذلك اليوم أول يوم تغيب فيه سلمى عن عينيه ، وإن كانت فى ذاكرته لا تريم . وعجب الفتى فى نفسه كيف قبلت أمه فراقه ولم يدر بخلده أن أمه إنما ضحت بسعادتها فى سبيل مستقبل زاهر ينتظره ، فهو وريث هاشم صاحب الرفادة والسقاية ، وإنه لشرف عظيم أن يصبح ابنها ذات يوم الرجل الذى يطعم حجاج بيت الله ويروى ظمأهم .

ومر الفتى وعمه بمناة وكان الأوس والخزرج يعظمونها فألفى الناس يذبحون عندها ويطوفون بها ثم يستأنفون رحلتهم إلى مكة ليحجوا إلى البيت العتيق ، فقفزت إلى ذهنه تلك المحاورات التى كانت تدور بين اليهود عن الله وعن التوراة وعن أنبياء بنى إسرائيل . ولم يقو عقله اليافع على أن يستمر طويلا فى التفكير فى الكون وفى رب اليهود وأرباب العرب فراح يشغل ذهنه بمراقبة الطريق والإصغاء إلى حديث المطلب .

وانقضت الرحلة وكان الوقت ظهرا عندما دخل المطلب مكة وهو راكب جمله وخلفه شيبة كأنه البدر يتألق وجهه بالنور ، كان كيوسف الصديق حسنا فلما رآهما الناس حسبوا أن المطلب اشترى له عبدا فراحوا يشيرون إلى شيبة ويقولون :

— عبد المطلب .. عبد المطلب .

وأطرق شيبة برأسه كما أطرق يوسف الصديق يوم أن أسروه بضاعة وباعوه فى مصر بيع العبيد . كان شيبة يستشعر غربة وكان يوسف يستشعر غربة ولكن شيبة كان فى حمى عمه وإن لم تحس نفسه بعد بالاطمئنان والهدوء .

وأناخ المطلب راحلته ونزل عنها وأخذ بيد ابن أخيه ثم انطلقا إلى الكعبة ليطوفا بها ، وكان موسم الحج قد وافى فكانت الكعبة تغص بالعرب الذين أتوا من كل فج عميق ، فراح شيبة يطوف حول أول بيت وضع للناس وهو مأخوذ قد انشرح صدره للحرم الذى جعله الله مثابة للناس وأمنا . وما أتم المطلب وابن أخيه طوافهما وانطلقا إلى الدار حتى عاد الناس يرمقون شيبة فى إعجاب ويقولون :

— عبد المطلب .. عبد المطلب .

فصاح المطلب بهم :

— ويحكم ! إنما هو ابن أخى هاشم قدمت به من المدينة .

ودخل المطلب بيته فهرعت إليه زوجه ووقفت ترنو إلى الفتى الجميل ، فقال لها زوجها :

— شيبة ، ابن أخى هاشم .

ولم يكن للمطلب ذرية فقال لامرأته كما قال الذى اشترى يوسف من مصر لامرأته :

— أكرمى مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا .

وذهب المطلب وشيبة إلى السوق واشترى المطلب لابن أخيه حلة جديدة ، ثم خرج به إلى الناس وقال :

— هذا شيبة ابن أخى هاشم ، عدت به من المدينة .

فنظر الناس إلى شيبة فى إكبار فقد كان وجهه يتلألأ بالنور كأبيه ، وكان على الرغم من حداثة سنه فخما كهاشم العظيم . وراح شيبة يغدو ويروح بين الكعبة ودار الندوة ودور بنى هاشم ودور قريش . لم يدعه الناس بشيبة بل أطلقوا عليه عبد المطلب .

٢٦

كان لليهود فى يثرب تسعة وخمسون أطما قد وضعوا فيها أسلحتهم وأموالهم وكدسوا فيها المؤن حتى إذا ما خافوا عدوا لهم دخلوا فى آطامهم وتحصنوا بها ودافعوا عن أموالهم وأنفسهم وذراريهم . وكان للعرب النازلين عليهم قبل قدوم الأوس والخزرج ثلاثة عشر أطما ، فلما قدم الأوس والخزرج من اليمن إلى يثرب تفرقوا فى عاليتها وسافلتها . منهم من نزل مع قوم من بنى إسرائيل ومنهم من نزل وحده لا مع بنى إسرائيل ولا مع العرب .

وأقامت الأوس والخزرج بالمدينة ووجدوا الأموال والآطام والنخيل فى أيدى اليهود ووجدوا العدد والقوة معهم ، فمكثوا لا يحركون ساكنا خشية أن يجليهم اليهود عن البلاد .

وعلى مر الأيام زاد عدد العرب القادمين من اليمن وصار لهم مال من التجارة ، فلما رأت قريظة والنضير ـــ وكانتا أوفر قبائل اليهود عددا وأكثرها قوة ـــ حال الأوس والخزرج خافوهم أن يغلبوهم على دورهم وأموالهم فسألوهم أن يعقدوا بينهم جوارا وحلفا يأمن به بعضهم من بعض ويمتنعون به ممن سواهم . فتعاقدوا وتحالفوا واشتركوا فى التجارة معا وكثر الأخذ والعطاء بينهم .

وعلى الرغم من العداوة التى بين الصدوقيين والفريسيين من اليهود فقد وجدوا من مصلحتهم أن يتفقوا وأن ينصبوا عليهم ملكا خشية أن ينتهز الأوس والخزرج فرصة انقسامهم ويثبوا عليهم وينتزعوا الأرض منهم ، فرضوا

بالفيطوان ملكا عليهم .

وظهر فى العرب القادمين من اليمن مالك بن العجلان أخو بنى سالم بن عوف بن الخزرج ، فاتفق الحيان من الأوس والخزرج على أن تئول كلمتهم إلى مالك فصار مالك بن العجلان زعيم القوم وسيدهم .

وأحس الفيطوان قوة فراح يستبد بالناس ويشرع فيهم بما يشاء ، وقد كان مما شرعه أن ما من عروس فى يثرب تهدى إلى زوجها حتى تدخل عليه فيكون هو الذى يغتصبها قبل زوجها .

وخطبت أخت مالك بن العجلان وتحددت ليلة زفافها فسال لعاب الفيطوان واشتهى أن يفرض ما سنه فى قومه على الأوس والخزرج ، فلو أن أخت منافسه خضعت له لذل قومها وخضد شوكتهم وجللهم بعار لا يرفعون بعده رءوسهم أبدا ، فأرسل الطاغية أعوانه إلى أخت مالك بن العجلان ليبلغوها ما فرضه الفيطوان عليها .

وذعرت أخت مالك ولم تستطع صبرا فخرجت تبحث عن أخيها فوجدته فى نادى قومه ، فنادت فى لهفة :

ـــ مالك ! أخى مالك .

فغضب مالك واربد وجهه وقام إلى أخته والغضب يعصف به ، فقال لها فى حدة :

ـــ لقد جئت بسُبَّة يا هنتاه تنادينى ولا تستحى ؟!

فقالت له أخته وقد شرقت بدموعها :

ـــ الذى يراد بى أكبر .

ـــ وماذا يراد بك ؟

فأطرقت حياء وسالت عبراتها على خديها وقالت :

ــ أهدى إلى غير زوجى .

فثارت دماء مالك فى عروقه فقال فى ثورة :

ــ إلى من ؟

ــ إلى الطاغية ، إلى ملك اليهود .

ــ أكفيك ذلك .

وتزيا مالك بن العجلان بزى النساء ودخل مع أخته وقد أخفى سيفه فى طيات ثيابه ، وجاء الطاغية ودخل حيث كانت أخت مالك وبعض النسوة فأشار للنسوة بالانصراف ، وأقبل على أخت مالك وقد انبسطت أساريره وأطلت الشهوة من عينيه وملأت بسمة الزهو والانتصار صفحة وجهه ، فإن هى إلا لحظات حتى يذل الأوس والخزرج وتساق إليه بناتهم قبل أن يدخلن إلى أزواجهن .

وأحس مالك كأن أتون نار اندلع فى كيانه وامتلأ صدره بالحقد والغضب وثارت كرامته ، فإذا بالسيف يرتفع فى الهواء ثم ينقض كالصاعقة على عنق الطاغية قبل أن يضم فريسته بين براثنه ، فإذا به ينهار كالجدار يخبط فى دمه .

ووقف مالك ينظر إلى ملك اليهود وهو يلفظ آخر أنفاسه والأفكار تنثال على رأسه ، إنها الحرب بين قبيلتيه وقبائل اليهود المنتشرة فى كل مكان ، وإنه لا قبل له على حرب سافرة إذا ما أفاق اليهود من هول المفاجأة وجمعوا كلمتهم واتفقوا على الثأر لزعيمهم الذى اغتاله زعيم العرب فى البلاد . فرأى أن يستعين بملك من ملوك العرب لينصره على اليهود الذين أرادوا أن يعبثوا بشرف العرب وأن يذلوا كبرياءهم .

إن آباءه قد خرجوا من اليمن فلماذا لا يفزع إلى ملك اليمن يطلب منه المؤازرة ؟ وكاد يستريح لذلك الخاطر ولكنه تذكر أن اليهودية انتشرت فى اليمن

وأن رابطة الدين قد تكون أقوى من العصبية القبلية فرجع عن ذلك الرأى وراح يفكر فى حل آخر ، فهداه تفكيره إلى أن الحارث بن جبلة من أصل يمنى مثله وأنه من أعوان يوسطنيانوس ملك الروم وأن ملك الروم يمقت اليهود وأن الحارث بن جبلة يسعده قتال اليهود إظهارا لنخوته وإرضاء لسيده .

واستراح لذلك الخاطر فانطلق إلى الرمق بن زيد بن امرئ القيس أحد بنى سالم بن العوف بن الخزرج ، وكان دميما شاعرا بليغا وقال له :

— انطلق إلى ملك الغساسنة وصف له ما نحن فيه من ذلك وغلبة اليهود علينا واسأله النصرة .

فقال له الرمق :

— وماذا أنت فاعل ؟

— سأعمل على إنامة الفتنة حتى تقبل خيل الحارث بن جبلة .

وانطلق الرمق إلى الشام وقد راحت أفعال الحارث بن جبلة تمر بذهنه ويقيس عليها مستقبل سفارته . تذكر أن الحارث خرج إلى فلسطين وأخمد ثورة السامريين التى نشبت بين اليهود فاستراح لخواطره ، فإذا كان الحارث قد خرج إلى فلسطين لغزو اليهود فسيلبى نداء مالك بن العجلان وسينطلق إلى يثرب ليقضى على اليهود هناك كما قضى على رءوسهم فى السامرة من قبل .

ووصل الرمق إلى حوران فإذا بالكنائس قد انتشرت فى ربوعها ، وإذا بالقصور والدور على جانبى طرقاتها التى ازدهرت بالأشجار ، وإذا بالناس فى غدو ورواح يجوسون خلال أسواقها التى غصت بالسلع التى جلبت من القسطنطينية ومن روما ومن مصر ومن بلاد اليمن .

ولاح لعينى الرمق قصر ملك الغساسنة فخفق قلبه وراح يجمع شتات أمره ويستلهم فصاحته ، فإذا بأبيات من الشعر تتراقص على لسانه تعبر عن

حال قومه أصدق تعبير أهاجت عواطفه وأمدته بقوة شدت عزائمه .

ودخل قصر الملك والتمس مقابلة العاهل الغسانى فأذن له ، فسار فى طرقات القصر وهو مبهور فقد كان القصر فى فخامة قصور أباطرة الروم وأكاسرة الفرس قد زين بتماثيل رائعة ، وكان أفخمها تمثال يوسطنيانوس ملك الروم وحامى كنيستها .

وفتح باب قاعة العرش وما إن لمح الرمق الحارث بن جبلة وحوله وزراؤه ورجال مملكته حتى خر ساجدا . وأذن له الملك أن يرفع رأسه فلما قام على قدميه رماه الملك بنظرة فاحصة فألفاه دميما غاية الدمامة فعجب فى نفسه كيف يختار قوم مثل ذلك الدميم ليكون سفيرهم !

وأذن الحارث بن جبلة للرمق أن يبسط قضيته فراح الرمق يتحدث فى بلاغة كانت أعذب من الموسيقى ويصف حال قومه شعرا رصينا استولى على أفئدة سامعيه وراح يعمل فيهم عمل السحر ، فلما انتهى الرمق من مقالته قال له الملك :

ــ عسل طيب فى وعاء خبيث .

ورفت على شفتى الرمق بسمة خفيفة ثم قال :

ــ أيها الملك ، إنما يحتاج من الرجل إلى أصغريه : لسانه وقلبه .

فقال الملك وهو يرمقه فى إعجاب :

ــ صدقت .

وجمع الحارث بن جبلة جيوشه وخرج من حوران وقد أظهر أنه خارج إلى اليمن ليشترك فى المعركة التى ستنشب هناك بين النصرانية واليهودية ، بين جنود الحبشة النصارى وبين ذى نواس اليهودى الذى خد لنصارى نجران أخدودا وأشعل فيه نيرانه وألقى فيه النصارى الذين أبوا أن يرتدوا عن دينهم

ويدخلوا فى دين اليهود . فلما كان فى الطريق عرج إلى يثرب ليقاتل يهود المدينة وينصر أهله فقد قال له الرمق فيما قال :

ــ إن الغساسنة من جفنة بن عامر وأن الأوس والخزرج من جفنة أيضا فعلى ذلك فجدهم الأعلى واحد .

ونزل جيش الحارث بن جبلة بذى حُرض وجاء إليه مالك بن العجلان سرا ، فراح الرجلان يتشاوران فقال مالك للملك :

ــ إن علم القوم ما تريد تحصنوا فى آطامهم فلم تقدر عليهم ، ولكن ادعهم للقائك وتلطف معهم يأمنوك ويطمئنوا إليك ، فتباغتهم ، وتتمكن من رقابهم .

وأرسل الحارث إلى أهل المدينة من الأوس والخزرج فأتوا إليه فوصلهم وأعطاهم ، فلما عادوا إلى دورهم وإلى أعمالهم راحوا يحدثون اليهود عن كرم ملك الغساسنة وعن الهدايا التى وصلهم بها وعن التحف التى يفيض بها معسكره وعن الأموال التى يحملها معه فسال لعاب اليهود وتحرك فيهم طمعهم وباتوا يرقبون دعوة الملك .

وأرسل الحارس بن جبلة إلى اليهود يدعوهم إلى وليمة أعدها لهم وقال لهم رسله :

ــ من أراد العطاء من الملك فليخرج إليه .

وهز الفرح اليهود ودفعهم الطمع إلى الخروج بأولادهم وخدمهم رجاء أن يحبوهم الملك وأن يعودوا من عنده بأجزل عطاء . وانطلق اليهود رجالا ونساء زمرا إلى حيث أعد لهم الملك وليمة فاخرة وخلت الآطام من حراسها .

وعلى ضوء المشاعل لاحت الموائد التى مدها الملك ككنوز ألقيت فى الصحراء ، فهرع اليهود إليها وراحوا يتناولون ما لذ وطاب وكان وجوه القوم

ورؤساؤهم يحلمون بالهدايا الفاخرة التى سيحبوهم بها ملك الغساسنة . وامتد السمر وانتشر المرح فبدا كأن ذى حرض فى عيد من أعياد اليهود .

ودبت حركة فى المكان فالتفت ضيفان الملك إلى مصدرها فإذا بجنود مقبلين ، فتهللت الوجوه وانشرحت الصدور ولاح الطمع فى العيون فقد جاء الجند بعطاء الملك الكريم ، واتجه الجنود إلى وجوه بنى إسرائيل وأشرافهم وإن هى إلا لحظة حتى ارتفعت السيوف وقطعت الرءوس ، فبرقت أبصار النساء والغلمان ودب الخوف فى القلوب وندت من الشفاه أنات الهلع وماج الناس بعضهم فى بعض يستبقون إلى الآطام والحصون فرارا من الفزع الأكبر .

وقتل الحارث بن جبلة أشراف اليهود ، وقد أرضى ذلك الأوس والخزرج ، فقد صارت لهم الكلمة العليا فى المدينة وسيرضى ذلك الإمبراطور يوسطنيانوس فقد كان ذو نواس ملك اليمن الذى تهود يعذب نصارى مأرب ونجران ، ولم تكن الحرب قد نشبت بين ذى نواس والحبشة ولم يكن أبرهة قد تربع على عرش اليمن بعد .

وكانت الأفراح فى دور الأوس والخزرج فراحوا يعبرون بالشعر عن مشاعرهم يمتدحون مالك بن العجلان الذى قتل طاغية اليهود ، ويمتدحون الحارث بن جبلة الذى نصر أهله وأعزهم فى المدينة فراح أحدهم يمدح مالكا :

فليشهد بما أقول عصابة بَلَوِيَّة وعصابة من سالم
وهل كان للفيطون عُقر نسائكم حكم النصيب وليس حكم الحاكم
حتى حباه مالك عن عِرْسِه حمراء تضحك عن نجيع قاتم

وقام الرمق — العسل الطيب فى الوعاء الخبيث — يمدح ابن جبلة ، فأرهفت الآذان وساد السكون . وتدفق الرمق ينشد الملك شعرا ساحرا أخاذا :

الراشقــات الفاتنــات المرشقــات بما جزينــا
أمثـــال غزلان الصرائم يأتـــزرن ويرتدينــا
الرَّيْـطَ والديبــاج والحلى المفصلَ والبُرينـــا[1]
وأبـــو جبيلـــة خير من يمشي وأوفــــاه يمينــا
وأبرهـــم براً وأعلمهـــــم بهدى الصالحينــا
القائـــد الخيـــل الصونـــع بالكمـــاة المُعلمينـــا
أبـــقت لنـــا الأيـــام والحَـــرْبُ الملمـــة تعترينـــا
كَبْشاً له در يغــل متــونها الذكـــر السمينــا
ومعاقـــلا شُمًّــا وأسيافــا يقمــــن وينحنينـــا
ومحلـــه زوراء تجحـــف بالرجـــال الظالمينـــا

كان العرب ينشدون الشعر تعبيرا عن سرورهم وكان اليهود ينوحون على قتلاهم فى دورهم وآطامهم ، وقد راحت سارة القرظية ترثى من قتل من قومها :

بأهلي رمـــة لم تغـــن شيئـــا ... بذى حرض تُعفِّيها الريـــاح
كهـول من قريظـة أتلـــفتهم ... سيوفُ الخزرجيـة والرمـاح
ولـو أذنـوا بأمرهـم لحَـالَت ... هنـالك دونهم حرب رَدَاحُ[2]

وقفل الحارث بن جبلة ملك الشام عائدا إلى حوران وقد مهد المدينة للأوس والخزرج فتفرقوا فى عالية المدينة وسافلتها واتخذوا الأموال والآطام وصارت لهم الكلمة والرأى . وأحس اليهود ذلة ومسكنة فى المدينة التى كانت

---

(١) البرين جمع برة : كل حلقة من سوار أو قرط أو خلخال .
(٢) حرب رداح : حرب ثقيلة تضم كتائب جرارة .

فى قبضة يدهم ، ولما كان مالك بن العجلان هو الذى قتل طاغيتهم واستنصر ملك الغساسنة فنصره وقتل أشرافهم وجعل السؤدد فى العرب فقد راح اليهود يلعنون مالك بن العجلان فى كنائسهم وبيوت عباداتهم ، فبلغه ذلك فقال :

تحامى اليهود بتَلْعَانِها تحامى الحمير بأبوالها
وماذا على بأن يلعنوا وتأتى المنايا بإذلالها

ولم يدم الوفاء بين الأوس والخزرج طويلا فإن رجلا من الأوس قتل رجلا من بنى ثعلبة وكان حليفا لمالك بن العجلان ، فقام مالك قبيلته الخزرج ليثأروا من الأوس قاتل حليفه ، فهبت الأوس للدفاع عن رجل قبيلتهم فنشبت حرب سُمَيْر بين القبيلتين وكان النصر فيها للخزرج ، وكانت تلك الحرب فاتحة العداوة بين الحيين وبداية سلسلة الحروب التى نشبت بينهما على مر الأيام .

واشتعلت نيران حرب أخرى بين الأوس والخزرج بسبب امرأة من بنى سالم ، وقد كانت الحرب بين بنى جحجبا من الأوس وبنى مازن بن النجار من الخزرج ، وقد وقعت فى موضع الرحابة انهزمت فيه بنو جحجبا .

وقد كانت الحروب تنشب بين الحيين العربيين لأسباب تافهة تثيرها العصبية الضيقة ، يشعل فتيلها فى الغالب أفراد لا منازل كبيرة لهم فى المجتمع يقومون بأمور سخيفة ، فإذا ما وقع على أحدهم اعتداء نادى قومه للأخذ بثأره فتثور الحروب وتسيل الدماء وتتسع هوة الخلاف وتلقى فى القلوب العداوة والبغضاء .

٢٧

كان عبد المطلب يجلس فى الملتزم بين باب الكعبة والحجر الأسود يتعلم الكتابة والحساب مع صبيان قريش ، وقد كان الغلام جميل الصورة لين الجانب فطنا هذبت الفترة التى قضاها فى يثرب نفسه ومنحته سماحة كسماحة أرضها الخضراء ورقة كرقة جداولها الجارية بالخير والنماء ، وقد شب يتيما بعيدا عن أمه ليصلب عوده ويعتمد على نفسه ليصبح شخصية قوية فريدة فى قريش .

وكان عبد المطلب إذا ما غادر الملتزم انطلق إلى دار الندوة ليجلس إلى جوار عمه المطلب ، وليصغى إلى شيوخ قريش وهم يتناجون ويتشاورون فى أمر دينهم ودنياهم ، ويتخاصمون أحيانا وتشتد بينهم المنازعات أحيانا ثم يتداعون للصلح فى أغلب الأحايين . فتلقن منذ نعومة أظفاره أساليب الإدارة وفنون السياسة وكان من يرشف منهم رحيق علمه سادة محنكين .

وكان فى مواسم التجارة يمشى فى الأسواق ويمد بصره إلى السلع الواردة من الفرس والشام ومصر وبلاد الروم واليمن والحبشة ، فتتسع مداركه ، ويرى الموازين والمكاييل والمقاييس والأخذ والعطاء بين الناس فيتعلم شيئا من الحساب وأصول التجارة ، وكان يلقى سمعه إلى أحاديث الوافدين من أنحاء الأرض فيلم بطرف من فنون الشعوب وآدابها ومن تاريخها ومن علاقة الدول بعضها ببعض .

سمع عبد المطلب ولا شك بالعداوة الناشبة بين كسرى أنو شروان وبين

يوسطنيانوس قيصر الروم ، ووصلت إليه أنباء العداوة بين الحارث بن جبلة والمنذر بن النعمان واضطهاد ذى نواس الذى تهود لنصارى اليمن ، فقد كانت قوافل التجارة تحمل الأنباء والجواسيس مع السلع التى تعرض فى الأسواق ، وقد سرت الأنباء من دولة إلى دولة عبر طرق التجارة واستفادت من تعبيدها كما استفاد الرسل والمصلحون والمبشرون وجحافل الجيوش .

وفى أوان الحج كان عبد المطلب يعاون عمه المطلب فى إطعام الحجيج وفى نقل الماء إليهم وتوفيره لسقايتهم وسقاية إبلهم ورواحلهم ، وقد عرف أن ذلك الشرف كان لأبيه وأنه وريثه فكان يتعجل الأيام لتكون له الرفادة والسقاية كما كانت لهاشم العظيم .

ونسى عبد المطلب يتمه ولم يعد يذكر إلا أنه قرشى من قريش سادات مكة وحكامها ، وقد توطدت أواصر المحبة بينه وبين شباب قبيلته إلا أنه اصطفى من بينهم حرب بن أمية بن عبد شمس فقد كانا لا يفترقان أبدا ، يتسامران حول الكعبة ويجوسان معا فى مكة وينطلقان إلى الأسواق يصغيان إلى الشعراء الذين يحولون الأسواق التجارية إلى نوادى أدبية ، فكان رنين النظم يربو أحيانا على رنين الذهب والفضة .

وعرف عبد المطلب العلاقة بين عملة قيصر وعملة كسرى وعملة النجاشى وعملة فرعون وعملة ملوك الحيرة والغساسنة واليمن ، والقروض والعقود والفوائد والربا . وقد عرف بعض ذلك أيام كان يلعب فى يثرب مع أقرانه ولكنه فى مكة أتقن معارفه فقد كان فى بيئة تعيش بالتجارة وفى التجارة وللتجارة .

ومرت الأيام وصار ابن هاشم رجلا فلم يهرع إلى الحانات يحتسى الخمر كأقرانه من قريش ، ولم ينطلق إلى البغايا المنتشرات فى كل مكان ولم يشد

الرحال إلى يثرب متعللا بزيارة أخواله ليذهب إلى صاحبات الرايات الحمر اللاتى كان شباب العرب ييمم إليهن ليروى شهوات الأبدان ، بل كتب على نفسه العفة ونأى عن رذائل الجاهلية .

وعزم عبد المطلب على الزواج فراح يفكر . إن سادات قريش يتمنونه زوجا لبناتهن وإن أشراف مكة يرحبون به ، فإنه لشرف عظيم أن يتزوج قرشى فيهم فما بالك إذا كان ذلك القرشي بكر هاشم ومن ستئول إليه الرفادة والسقاية بعد عمه المطلب ، فما أعقب المطلب وقد أشرف على الهلاك . ولكن عبد المطلب وطد نفسه على ألا يتزوج فتاة من مكة ، فقد انتشرت الرذائل فى القبائل التى تحضرت وهو يريد زوجة طاهرة لم تدنس الحضارة حميد خصالها .

وولى عبد المطلب وجهه إلى القبائل فألفى أن قبيلة هوازن لا تزال على فضائل بداوتها ، فشد الرحال إليها وخطب من جُندب بن حجير ابنته السمراء . وقد ماجت القبيلة بالفرح إذ ارتبطت الأسباب بهذه المصاهرة بين القبيلة وبين قريش سادات الحرم .

وحمل عبد المطلب سمراء إلى داره فكانت نعم الزوجة ، ملأت حياته حبا وحبورا . ولكن لم تكن له عصبة من نسبه فى مكة بل كانت عصبته فى قريش ، وإن قريشا قد تنفس عليه مكانته يوما وتتنكر لصلة الدم التى بينها وبينه ، إلا أن عبد المطلب لم يستشعر ذلك الخطر فى ذلك اليوم فقد كان شابا يافعا ولم يكن زعيما فى قومه حتى يكثر حساده وشانئوه .

وأنجبت له سمراء الحارث فقر به عينا ، وتهللت قبيلة سمراء بالفرح فقد ولد فيها سيد من سادات البيت المعظم وقد أصبحوا أخواله ، وعما قريب يمرح أبناء سمراء حول الكعبة ويدرجون إلى دار الندوة ليلقنوا فيها الحكمة . ولكن سمراء لم تنجب لعبد المطلب غير الحارث فمنحوه كل حبهم وأحاطوه برعايتهم .

وتأهبت قوافل قريش للانطلاق إلى اليمن ، وامتلأت الكعبة بوجوه الناس ينتظرون خروج زعيم القافلة من دار الندوة . ومر الوقت وأزيحت الستارة التى أسدلت على بابها فإذا برجل مهيب فخم قد علت السنون وجهه يحيط به هالة من قريش ، فهمس الناس :

ـــ الفيض .

وتقدم المطلب ومن حوله عبد المطلب وحرب بن أمية ونوفل وعبد شمس وأشراف الناس وذهبوا إلى حيث أناخت البعير . وتعانق الرجال ثم ركب المطلب راحلته وأشار للقافلة أن تنطلق ففصلت العير وسارت فى قطار طويل قاصدة اليمن ، فما كانت الحرب قد نشبت بعد بين حمير والأحباش ، وما كان أبرهة الأشرم قد استقر على عرش بلقيس .

ومرت الأيام والشهور وعادت القافلة إلى الحرم وقد نكس الرجال رءوسهم فقد مات الفيض ، مات المطلب صاحب الرفادة والسقاية الشهم الكريم فى أرض اليمن غريبا ، كما مات هاشم غريبا فى أرض عرة من الشام .

وأراد عبد المطلب أن يتولى إرث أبيه وأن يصبح صاحب الرفادة والسقاية فى مكة ، ولكن كان هناك عمه نوفل فهو أسن منه وأشرف ، وقد طمع فيما فى يد ابن أخيه فمشى عبد المطلب إلى رجالات قومه فسألهم النصرة على عمه فقالوا :

ـــ لسنا بداخلين بينك وبين عمك .

وأحس عبد المطلب أنه فرد ليست له عصبة تنصره فى مكة ، فقد تزوج فى القبائل فرأى أن يستعين بأخواله على عمه الذى ظلمه فكتب إلى أخواله :

يا طول ليلى لأحزانى وأشغالى   هل من رسول إلى النجار أخوالى
ينبى عديا ودينارا ومازنها   ومالكا عصمة الجيران عن حالى

قد كنت فيكم ولا أخشى ظلامة ذى ظلم عزيز منيعا ناعم البال
حتى ارتحلت إلى قومى وأزعجنى عن ذاك مطَّلب عمى بترحال
وكنت ما كان حيا ناعما جَذِلا أمشى العِرَضْنَة(١) سحَّابا لأذيالى
فغاب مطَّلب فى قعر مظلمة وقام نوفل كى يعدو على مالى
أإن رأى رجلا غابت عمومته وغاب أخواله عنه بلا وال
أنحى عليه ولم يحفظ له رحما ما أمنع المرء بين العم والخال
فاستنفروا وامنعوا ضيم ابن أختكم لاتخذلوه وما أنتم بخذَّال
ما مثلكم فى بنى قحطان قاطبة حى لجار وإنعام وإفضال
أنتم ليان لمن لانت عريكتُه سِلْم وسمام الأبلح الغالى

فخرج سعد بن عدى النجارى فى ثمانين راكبا حتى أتى الأبطح، وبلغ ذلك عبد المطلب فخرج يتلقاه فلما اجتمع به قال :

ـــ المنزل يا خال .

فقال سعد فى عزم :

ـــ أما حتى ألقى نوفلا فلا .

فقال عبد المطلب :

ـــ تركته جالسا فى الحجر فى مشايخ قريش .

فأقبل سعد ورجاله من الخزرج حتى وقف على رأس نوفل، فلما رآهم نوفل قال :

ـــ أنعموا صباحا .

قالوا :

(١) فى مشيته بغى من نشاطه .

ــ لا نعم صباحك أيها الرجل . أنصف ابن أختنا من ظلامته .

ــ أفعل بالحب لكم والكرامة .

وأنصف نوفل ابن أخيه وانصرف أخوال عبد المطلب من بني النجار إلى يثرب ، ورأى نوفل أن ابن هاشم قد امتنع عليه بأخواله فحالف بني عبد شمس على بني هاشم . فدعا ذلك عبد المطلب إلى الحلف فدخل مع رجالات خزاعة الكعبة وكتبوا كتابا تحالفوا فيه وتعاهدوا على أن ينصر بعضهم بعضا على من عاداهم فكان فى مكة حلف بنى عبد شمس وحلف بنى هاشم وخزاعة .

وتأهبت قوافل قريش للخروج إلى العراق فراح العبيد يغدون ويروحون بين مخازن التجار ورواحلهم يضعون على ظهورها السلع التى ستباع فى أسواق العراق ، ولما انتهى كل شيء خرج نوفل بن عبد مناف على رأس القافلة وكان نوفل آخر من بقى من بنى عبد مناف .

وانطلقت القافلة فى ملك الله حتى إذا ما بلغت سلمان من ناحية العراق فاضت روح نوفل ، وقد هلك قبله أخوه هاشم بأرض الشام ثم عبد شمس بمكة ثم المطلب بردمان من أرض اليمن ، فراح الشعراء يبكون بنى عبد مناف أهل الجود والكرم ، وقال مطرود بن كعب الخزاعى يبكيهم جميعا :

يا عين جودى وأذرى الدمع وانهمرى
وابكى على السرِّ من كعب المغيرات
يا عين واستنفرى بالدمع واحتفلى
وابكى خبيئة نفسى فى الملمات
وابكى على كل فياض أخى ثقة
ضخم الدَّسيعة[1] وهاب الجزيلات

---

(١) الدَّسيعة : العطية الجزيلة

محض الضريبة عالى الهم مختلق
جلد النحيرة ناء بالعظيمات
صعب البديهة لا نِكسٌ[1] ولا كل
ماضى العزيمة متلاف الكريمات
صَقْر توسط من كعب إذا نسبوا
بُحبوحة المجد والشم الرفيعات
ثم اندبى الفيض والفياض مطَّلبا
واستخرجى بعد فيضات بجمات
أمسى بردمان عنا اليوم مغتربا
يا لهف نفسى عليه بين أموات
وابكى لك الويل إما كنت باكية
لعبد شمس بشرفات البنيات
وهاشم فى ضريح وسط بلقعة
تسفى الرياح عليه بين غزات
ونوفل كان دون القوم خالصتى
أمسى بسلمان فى رمس بمومات
لم ألق مثلهم عُجما ولا عربا
إذا استقلت بهم أدم المطيات
أمست ديارهم منهم معطلة
وقد يكونون زينا فى السريات

(١) لا نِكسٌ : غير جبان .

أفناهـــم الدهـــر أم كلت سيوفهـــم
أم كل من عاش أزواد المنيـــــــات
أصبـــحت أرضى من الأقـــوام بَعدَهـــم
بَسط الوجـــوه وإلقـــاء التحيـــات
يا عين فابكـى أبـا الشعث الشجيـات[1]
يبكينـــه حُسراً مثـــل البليـــات
يبـــكين أكـــرم من يمشى على قدم
يُعْوِلنـــه بدمـــوع بعـــد عَبرات
يبـكين شخصا طويـل البـاع ذا ثَجـر[2]
آبى الهضيمـــة فراج الجليـــلات
يبـكين عمـرو العُـلا إذ حان مصرعـه
سمح السجيـــة بسام العشيـــات
يبـيـه مستكينـــات على حَزَن
يا طول ذلك من حزن وعـــوْلات
يبـــكين لما جلاهـــن الزمـــان له
خُضْر الخدود كأمثـــال الحميـــات
محتزمـــات على أوساطهـــن لِمَـــا
جَرَّ الزمـــان من احـــداث المصيبـــات
أبـــيت ليلى أراعـــى النجـــم من ألم
أبكـى وتبكـى معـى شجـون بنيـاتى

(١) الشجيات : يقصد هاشم بن عبد مناف .
(٢) ذا ثَجر : التمر يخلط بغيره ، يريد وصفه بالكرم .

وجاء أوان الحج فخرج كل غنى فى قريش عن جزء من ماله إلى عبد المطلب ليصنع منه طعاما للحجاج يأكله من لم يكن له سعة ولا زاد ، وراح عبد المطلب يضع حياضا من أدم بفناء الكعبة ، وراحت الإبل تجلب الماء من الآبار خارج مكة وتملأ الحياض ليشرب منها ضيف بيت الله .

وأشرف عبد المطلب على راحة الحجيج ، حتى إذا ما انتهى الموسم نام عبد المطلب ذات يوم فى حجر إسماعيل يتفيأ ظلال الكعبة فأتاه آت فقال :

ـــ احفر طيبة .

فقال عبد المطلب وهو لا يزال فى نومه .

ـــ وما طيبة ؟

واستيقظ عبد المطلب وقد أحس كأن قول الهاتف قد حفر فى نفسه ، فراح يعدو إلى دار الندوة ويروح إلى بيته ويصغى إلى محدثيه قد شغل عن كل شيء بذلك الهاتف الذى أمره أن يحفر طيبة ، وما يدرى ما طيبة !

وأشرقت شمس يوم جديد فانطلق عبد المطلب وابنه الحارث إلى الكعبة وطافا بها ، ثم دخل عبد المطلب دار الندوة ليصرف شئون مكة ويجتمع بساداتها يتشاورون فى أمور دينهم ودنياهم ، وذهب الحارث ليشرف على عبيد عبد المطلب من روم وفرس وأحباش وبرابرة أوروبيين أسرهم يوسطنيانوس من بلاد الشمال وباعهم بيع الرقيق .

وأشرف اليوم على الانتهاء وخرج عبد المطلب من دار الحكومة وذهب إلى مضجعه فى الحجرة ونام فيه ، فجاءه الهاتف فقال :

ـــ احفر برة .

ـــ وما برة ؟

وذهب عنه الهاتف .

واستيقظ عبد المطلب وقد شغل بالرؤيا التى رآها وبذلك الهاتف الذى أمره مرة بحفر طيبة ومرة أخرى بحفر برة ، وما يدرى ما طيبة وما برة ، فلما كان الغد رجع إلى مضجعه ونام فيه فجاءه الهاتف فقال :

ــ احفر المضنونة .

فقال عبد المطلب فى لهفة :

ــ وما المضنونة ؟

وذهب عنه وقام عبد المطلب وهو فى حيرة من أمره ، إن الهاتف هتف به أن يحفر طيبة وأن يحفر برة وأن يحفر المضنونة ، حتى إذا ما سأله ما طيبة وما برة وما المضنونة ذهب عنه ولم يوضح له أمره . وجعل عبد المطلب يفكر فى حلمه ويتساءل فى نفسه : أأضغاث أحلام أم أمر من السماء ؟ وإذا كان أمرا من الإلـٰه فلم لا يرشده الهاتف إلى كيفية تنفيذ ذلك الأمر وتحقيق رغبة السماء ؟!

وانقضى اليوم فلما كان الغد رجع عبد المطلب إلى مضجعه ونام فيه ، فجاءه الهاتف فقال :

ــ احفر زمزم .

ــ وما زمزم ؟

ــ لا تنزف أبدا ولا تُذم ، تسقى الحجيج الأعظم .

فقام عبد المطلب من نومه متهللا فقد عرف أن طيبة والبرة والمضنونة إنما هى زمزم بئر أبيه إسماعيل ، فانطلق إلى قريش فقال :

ــ تعلمون أنى قد أمرت أن أحفر لكم زمزم .

فقالوا له :

ــ فهل بين لك أين هى ؟

ــ لا .

— فارجع إلى مضجعك الذى رأيت فيه ما رأيت فإن يك حقا من الله يبين لك ، وإن يك من الشيطان فلن يعود إليك .

فرجع عبد المطلب إلى مضجعه فنام فيه فأتى الهاتف فقال :

— احفر زمزم .

— وأين هى ؟

— بين الفرث والدم ، عند نقرة الغراب الأعصم ، عند قرية النمل .

وفهمها عبد المطلب ، إن زمزم عند منحر قريش بين إساف ونائلة ، فغدا عبد المطلب ومعه ابنه الحارث وليس له يومئذ ولد غيره ، فوجد قرية النمل ووجد الغراب ينقر عندها بين الوثنين فامتلأ قلبه بالفرح . لقد صدقت رؤياه فجاء بالمعول وجاء بابنه الحارث ليشترك معه فى شرف حفر زمزم ، ولم يأت بأحد من عبيده الروم والفرس والأحباش ليعاونوه فقد أبى إلا أن يكون ذلك الشرف فيه وفى الحارث ولده الحبيب .

وراح عبد المطلب وابنه يحفران وقد تصبب العرق منهما ، وراح سادات قريش يمرون بهما ويسخرون من اللذين استجابا لوحى الشيطان . ولم تفت سخريتهم فى عضد عبد المطلب فقد كان الإيمان بالعثور على بئر زمزم ميراث أبيه إسماعيل يملأ أقطار نفسه .

وضرب عبد المطلب المعول فإذا به يرتطم بالحجارة التى طوى بها البئر ، فصاح صيحة فرح تجاوبت لها أرجاء مكة ، وجاء الذين كانوا يسخرون من عبد المطلب وابنه يهرولون ليسمعوا النبأ العظيم .

وعلمت قريش أن عبد المطلب قد عثر على بئر زمزم فحسدوه أن يكون له ذلك الشرف وحده ، فقالوا :

— والله لا نتركك تحفر بين وثنينا هذين اللذين ننحر عندهما .

فقال عبد المطلب لابنه الحارث :

ـــ رد عني حتى أحفر فوالله لأمضين لما أمرت به .

وعجز الحارث عن أن يرد عن أبيه وأن يحجز قريشا عنه حتى يتم حفر البئر التى أمره الله أن يحفرها ، فأحس عبد المطلب قهرا فلو كان له عشرة أبناء لما قدرت قريش على أن تحول بينه وبين ما يريد ، فالتفت إلى الكعبة فنذر لئن أكمل الله له عشرة ذكور حتى يراهم أن يذبح أحدهم قربانا إلى ربه .

وقالت له قريش :

ـــ يا عبد المطلب إنها بئر أبينا إسماعيل وإن لنا فيها حقا ، فأشركنا معك فيها .

فقال فى عزم :

ـــ ما أنا بفاعل ، إن هذا الأمر قد خصصت به دونكم وأُعطيته من بينكم .

ـــ فأنصفنا فإنا غير تاركيك حتى نخاصمك فيها .

ـــ فاجعلوا بيني وبينكم من شئتم أحاكمكم إليه .

ـــ كاهنة بني سعد هذيم .

ـــ نعم .

وركب عبد المطلب ومعه نفر من بني أبيه من بني عبد مناف ، وركب من كل قبيلة من قريش نفر وانطلقوا ناحية الشام ، فقد كانت الكاهنة بأشراف الشام .

وساروا أياما حتى إذا كانوا ببعض تلك المفاوز بين الحجاز والشام ، فنى ماء عبد المطلب وأصحابه فظمئوا حتى أيقنوا بالهلكة ، فذهبوا إلى من معهم من قبائل قريش وقالوا :

ـــ اسقونا .

فأبوا عليهم وقالوا :

ـــ إنا بمفازة ونحن نخشى على أنفسنا مثل ما أصابكم .

فلما رأى عبد المطلب ما صنع القوم وما يتخوف على نفسه وأصحابه قال :

ـــ ماذا ترون ؟

ـــ ما رأينا إلا تبع لرأيك فمرنا بما شئت .

ـــ فإنى أرى أن يحفر كل رجل منكم حفرته لنفسه بما بكم الآن من القوة ، فكلما مات رجل دفعه أصحابه فى حفرته ثم واروه ، حتى يكون آخركم رجلا واحدا ، فضيعة رجل واحد أيسر من ضيعة ركب جميعا .

ـــ نعم ما أمرت به .

فقام كل واحد منهم فحفر حفرته ثم قعدوا ينتظرون الموت عطشا ، وراح عبد المطلب يفكر فيما أشار به على أصحابه فأحس أنه تخادل . وضايقه أنه ركن إلى اليأس واستسلم للموت فهب واقفا وقد ارتسم العزم فى وجهه فقال :

ـــ والله إن إلقاءنا بأيدينا هكذا للموت لا نضرب فى الأرض ولا نبتغى لأنفسنا لعجز ، فعسى الله أن يرزقنا ماء ببعض البلاد ، ارتحلوا .

وذهب أصحاب عبد المطلب إلى رواحلهم فراح من معهم من قبائل قريش ينظرون إليهم ما هم فاعلون ، وتقدم عبد المطلب إلى راحلته فركبها ، فلما انبعثت به انفجرت من تحت خفها عين من ماء عذب ، فصاح عبد المطلب فرحا وصاح أصحابه وتهللوا بالسرور ، ثم نزل فشرب وشرب أصحابه واستسقوا حتى ملأوا أسقيتهم .

وذهب إلى القبائل من قريش الذين أبوا أن يسقوه ويسقوا أصحابه ، فقال :

ـــ هلُم إلى الماء فقد سقانا الله ، فاشربوا واستقوا .

فجاءوا فشربوا واستقوا وجعلوا ينظرون بعضهم إلى بعض يتلاومون ، إن

ربهم قد هدى عبد المطلب إلى بئر زمزم وقد فجر له الماء فى الصحراء لما نفد ماؤه وماء أصحابه ، لقد حكم الله لعبد المطلب مرتين فقالوا له :

ــ قد والله قضى علينا يا عبد المطلب ، والله لا نخاصمك فى زمزم أبدا . إن الذى سقاك هذا الماء بهذه الفلاوة لهو الذى سقاك زمزم ، فارجع إلى سقايتك .

فرجع ورجعوا معه ولم يصلوا إلى الكاهنة ، وخلوا بينه وبين زمزم وكفوا عنه فراح يحفر هو وابنه الحارث ، فوجد فيها غزالين من ذهب وهما الغزالان اللذان دفنتهما جُرهم فيها حين خرجت من مكة ، ووجد فيها أسيافا وأدرعا فعاد الطمع إلى قريش ، إنهم خلوا بينه وبين البئر ولم يتصالحوا على أن يدعوا له ما فيها من كنوز ، فقالت له قريش :

ــ يا عبد المطلب لنا معك فى هذا شرك وحق .

قال فى عزم :

ــ لا ولكن هلم إلى أمر نصف بينى وبينكم ، نضرب عليها بالقداح .

ــ وكيف ؟

ــ أجعل للكعبة قِدْحين ولى قدحين ولكم قدحين ، فمن خرج له قِدْحاه على شيء كان له ، ومن تخلف قدحاه فلا شيء له .

ــ أنصفت .

وانطلقوا إلى هبل وكان فى جوف الكعبة وكان أعظم أصنامهم ، وانطلقوا إلى صاحب القداح فجعل قدحين أصفرين للكعبة وقدحين أسودين لعبد المطلب وقدحين أبيضين لقريش ، وكان القدح سهما يستقسمون به . فوضع صاحب القدح السهام فى جراب وتأهب لإخراج أول سهمين .

وراح عبد المطلب يدعو الله الذى هداه إلى بئر زمزم والذى فجر له فى

الفلاة أن يؤيده وأن ينصره ، وضرب صاحب القداح يده فى الجراب فخرج الأصفران على الغزالين .

فصاح عبد المطلب فى فرح :

ــ إنهما للكعبة . لبيت الله .

ومد صاحب القداح يده مرة أخرى فى الجراب فخرج الأسودان على الأسياف والأدرع ، فقال صاحب القداح :

ــ إنهما لعبد المطلب .

وتخلف قدحا قريش الأبيضان .

فضرب عبد المطلب الأسياف بابا للكعبة ، وعلق فى جوفها الغزالين من ذهب ، وشكر الله على أن هداه إلى زمزم ، لا تنزف أبدا ولا تذم ، تسقى الحجيج الأعظم .

٢٨

كانت الأرض تنبض بالكراهية فقد وقعت العداوة بين كسرى أنو شروان ويوسطنيانوس ملك الروم ، وحارب المنذر ملك الحيرة وحليف الفرس الحارث بن جبلة ملك الغساسنة وحليف الروم ، وقد قتل المنذر فى المعركة فاشتدت ضراوة نار العداوة بين عرب الفرس وعرب الروم ، ووطأت الحبشة بخيلها ورجلها أرض اليمن وصار أبرهة الأشرم ملك حمير دون منازع ، وإن كان يظهر الود لنجاشي الحبشة فى الوقت الذى يلقى فيه سمعه إلى يوسطنيانوس الذى يزين له غزو الحجاز ليتصل نصارى بيزنطة بنصارى اليمن والحبشة .

وكانت تلك الدول جميعا تقاسى من الانقسام فى داخلها ، وإن كان عواهلها يحاولون أن تبدو أممهم وحدة متماسكة تقف صفا واحدا خلف ملكها وقائدها وصاحب السلطان الدينى الذى يزعم أنه خليفة الله فى الأرض يفعل ما توحيه إليه السماء ، وإن كانت أبواب السماء قد أغلقت دون الجميع فقد طال عليهم العهد وقست قلوبهم وضلوا عن الصراط .

كان كسرى أنو شروال يحاول أن يقيم العدل فى مملكته ، فدعا إلى إيوانه بالمدائن الكبراء والعظماء وأصحاب الإقطاعيات وكبار الموظفين وقال لهم :

ــ قد أتاح الله لى ملك الدنيا فأشركتكم فيه وأعطيت كلا منكم ولاية ، ولم أمنع رزق من له على حق فى أثناء حكمى وتركت لعظمائكم ما أعطاهم أبى إياه من ولايات أو مناصب ، فما خفضت من عيش أحدكم ولا حططت

من قدر أحد .

فوعدوه جميعا بالإنصاف والعدل بين الناس ، وعاد الولاة إلى ولاياتهم غير مبالين بنصائحه ، وقد رأى كل منهم فى غروره أنه أجلس الملك على العرش وأنه حر إن شاء اعترف به وإن شاء خلعه .

وكان أشدهم عتواً أحد القواد الذين عينهم كسرى على الولايات وقد ولاه إقليم أذربيجان ولم يكن له مثيل فى القوة والجاه . فكان أكثر القواد أسلحة وحرسا وكانت قصوره أفخم القصور وأكثرها بذخا ، وقد أراد هذا الوالى أن يبنى بيتا ريفيا فأراد أن يشترى كوخا صغيرا لفقيرة عجوز ، فأبت صاحبته بيعه واستولى على ملكها .

وحاولت العجوز أن يعوضها الحاكم عن كوخها ولكنه أعرض عنها ، وألحت فى طلبها دون جدوى فلم تجد مفرا من أن تفزع إلى كسرى فذهبت تلتمس مقابلة الملك فى الصيد ورفعت إليه ظلامتها ، فأخذ الملك الشكوى وأمر أن تنزل ضيفة عند حاكم أقرب قرية منه ، ثم أمر بنقلها إلى قصره حين عاد من الصيد .

وأرسل كسرى رسولا إلى أذربيجان ووكل إليه أن يقوم بتفتيش جميع المدن والنواحى ، وأن يتحرى حالة الحقول والبساتين ليرى ما إذا كانت الضرائب التى فرضت عليها عادلة ، ويتأكد أأصاب المزروعات ضرر من الأمطار ثم ينظر فى حالة المراعى وأماكن الصيد ، ولكن الرسالة السرية كانت بحث شكوى العجوز الفقيرة .

وعاد الرسول بعد أن علم أن العجوز محقة فى شكواها ، فجمع الملك العظماء والموابذة وسألهم :

ـــ كم يملك والى أذربيجان من نقود الذهب والفضة ؟

— لديه ما يساوى خمسمائة ألف دينار من أدوات الذهب والفضة .

— ما قيمته ستمائة ألف دينار .

— وكم لديه من الأملاك ؟

— ليس فى خراسان أو العراق أو أذربيجان ناحية أو مدينة لا يملك فيها بيوتا أو حانات أو أرضا مثمرة أو بيوتا تستغل .

— كم لديه من الخيل والبغال ؟

— ثلاثون ألفا .

— كم لديه من الغنم ؟

— مائتا ألف .

— كم لديه من العبيد إناثا وذكورا .

— ألف وسبعمائة عبد تركى ورومى وحبشى ، وإن لديه أربعمائة وألف جارية .

— أى عقاب يستحق رجل يملك هذا كله إذا طمع فى كوخ امرأة عجوز فقيرة تقية فيسلبها كوخا والقليل الذى عندها ؟

— إنه يستحق العذاب .

فأمر كسرى أنو شروان بسلخه ورمى لحمه للكلاب ، وبملء جلده بالقش وتعليقه على باب القصر ، وأن ينادى المنادى سبعة أيام بأن من يرتكب عملا ظالما يلقى هذا الجزاء . وانتصف كسرى أنو شروان لعجوز فقيرة ولم ينصف شعبه فقد كانت الضياع والأموال فى أيدى حفنة صغيرة من الولاة وكبار الملاك بينا كان سواد الشعب يقاسى الفقر والحرمان .

وقد حالف كسرى رجال الدين الزردشتى لكى يخلص نهائيا من المزدكية ، وكان حر التفكير فكانت نفسه قابلة لبحث الآراء المختلفة فى

المسائل الدينية والطبيعية . ولم يكن يتردد فى استخدام النصارى فى الوظائف ذات النفع العام وقد سمح لليعاقبة أن يكونوا لأنفسهم فرقة وأن ينتخبوا جاثليقا لهم ، وعلى الرغم من ذلك التسامح فقد أعلن الموبدان موبد داد ـ هرمز على نصارى إيران حربا شعواء حينما بدأت الحرب بين الفرس والروم .

وألف المسيحى بولس برسا وكان مطران نصيبين بعد ما تم الصلح بين إيران وبيزنطة سنة ٥٦٢ م مختصرا لمنطق أرسطو باللغة السريانية لكى يقرأه الملك ، وقد عرض فيه الآراء المختلفة بالله والعالم : « فقد وجد من يعتقدون فى إلـٰه واحد ، ويدعى آخرون بأنه ليس بواحد ، ويقول آخرون بأن له صفات متضادة ، وينفى آخرون عنه الصفات ، وبعض يقول إنه قادر على كل شىء ، وبعض آخر يقول إن قدرته لا تشمل كل شىء ، بعض يقول إنه خلق الدنيا وكل ما فيها ، وآخرون يقولون إنه ليس خالق كل شىء ، وهناك من يقول إن العالم محدث ، وآخرون يقولون إنه قديم .. » .

وراح يولس برسا مطران نصيبين بعد أن طال عليه الأمد وفسدت المسيحية السمحة يزين لكسرى أنو شروان الفلسفة ويفضلها على الدين ، ولم يكن الحال فى الدولة الرومانية أحسن منه فى مملكة الساسانيين ، فإن يوسطنيانوس أطلق العنان لهواه كلاهوتى ففرض على البطارقة والباباوات أنفسهم أن يتتبعوا نظريته فى اللاهوت ، وكان يزج فى السجون من يعارض مذهبه الدينى . وراح يجمع المجالس الدينية ، وقد جمع ثلاثة مجامع كنسية متعاقبة كان يقرر مبدأ جديدا فى المسيحية فى كل مجمع منها . وفى عام ٥٥٣ م عقد المجلس المسكونى الخامس واستنكر فيه قرارات المجامع الثلاثة السابقة ، وندد بالكفر المستتر الذى أقرته تلك المؤتمرات !

وراح يتنكر صيغا لقانون الإيمان رأى أنها لا بد أن تحوز رضا أصحاب

وحدة طبيعة المسيح ، وراح الإمبراطور يتعمق فى خوضه فى دقائق مذهب صورة المسيح وخفاياها فى أثناء بحثه عن حل للمعضلة التى وضع فيها بولس الذى زعم أنه رسول جميع الذين آمنوا بفلسفته التى مزجها بالمسيحية ، فكان يوسطنيانوس يتأرجح بين لاهوت المسيح وناسوته ، وبين وحدة طبيعة المسيح وبين عقيدة التثليث التى يجد العقل صعوبة فى تصورها ، فوقع أخيرا فى الضلالة ولم يكن رعاياه أحسن منه حالا .

وأخفقت سياسة يوسطنيانوس الدينية فى أداء غرضها الرئيسى ، فولايات الإمبراطورية الرومانية الشرقية كانت فى شك من أمره وأمرها ، وكانت الولايات الغربية تستريبه ، ولولا فداحة الضرائب التى أثقلت كاهل الناس لاندلعت ألسنة نيران الثورة ولقامت حرب أهلية بين القائلين بلاهوت المسيح وناسوته وبين القائلين بوحدة طبيعة المسيح ، فقد ألقيت العداوة بين الطائفتين وبينهما وبين القائلين ببنوة المسيح : ﴿ وقالوا اتخذ الله ولدا سبحانه بل له ما فى السموات والأرض كل له قانتون ﴾ .

وكانت الحيرة تموج بالشعراء فى عهد عمرو بن المنذر الذى نسب إلى أمه هند ، فعرف بعمرو بن هند . وكان رجلا سريع الانفعال يتألم كثيرا مما يقال له ، وكان الشعراء يحضرون إليه من أماكن نائية لإنشاده شعرهم ولنيل جوائزه ، ولم تكن مجالسه لتخلو من منافسة الشعراء بعضهم لبعض ومن نقد بعضهم شعر بعض . وقد حدث أن جاء إليه طرفة بن العبد والمسيب بن عَلَس فراح كل منهما ينقد شعر صاحبه ، ومال عمرو بن هند إلى أحدهما فهجاه الآخر ، وأصبح هجاء الشعراء له أمرا مألوفا ما دام قد قبل أن يكون حكما بينهم .

وكان للشعر والشعراء فى ذلك الوقت منزلة عند العرب لا تدانيها منزلة ،

وكانت المفاخرات والمنافسات بينهم تؤدى إلى غضب القبائل وغضب الملك الذى كثيرا ما كان يتهم بتحيزه فى أحكامه لشاعر على شاعر . وقد هجته الخرنق أخت طرفة بن العبد وهجت عبد عمرو بن بشر الذى وشى بطرفة عند ابن هند .

وكان امرؤ القيس الشاعر ابن عتمه وقد لجأ إليه مستجيرا به أيام أن كان أبوه المنذر يتعقبه فأجاره ومكث عنده زمانا . فلما سمع به المنذر طلبه من ابنه فأنذره عمرو ، فهرب حتى أتى حمير مستجيرا بها .

وقد طلب عمرو بن هند من بنى تغلب حينما تولى الملك مساعدته فى الأخذ بالثأر من الغساسنة ومن ملكهم الحارث بن جبلة قتلة أبيه فامتنعوا ، فانصرف عنهم وجمع الجموع ، فلما تهيأت كان أول عمل قام به غزو تغلب فأوجعهم وآذاهم انتقاما منهم لامتناعهم عن نصرته ومعاضدته .

وأغار عمرو على تميم وأغار على الشام وأغار على طىء وتوسط بين بكر وتغلب ابنى وائل فأصلح بينهما بعد حرب البسوس وأخذ رهائن من كل حى من الحيين غلاما من أشرافهم ليكف بعضهم عن بعض . فكانوا يصحبونه فى السلم والحرب .

وقد بنت أمه هند دير هند الكبرى فى الحيرة ، وقد لقبت فيه بالملكة بنت الأملاك وأم الملك عمرو بن المنذر . وكان الملك وأمه على دين النصارى من المؤمنين بوحدة طبيعة المسيح ، فقد كان العرب فى كل مكان يؤمنون بأن لهذا العالم إلـٰها واحدا ولكن الوثنيين منهم جعلوا لله شركاء فعبدوا فى أرض الحيرة العزى والأصنام الأخرى وقالوا إنهن يقربنهم إلى الله زلفى .

وقد فسد الدين فى الحيرة كما فسد فى كل مكان على وجه الأرض ، وشغل الناس بشعر الشعراء الذين كانوا يفدون من كل أنحاء بلاد العرب

لينشدوا شعرهم ولينفثوا نار العداوة فى القبائل والنفوس . «والشعراء يتبعهم الغاوون . ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون . وأنهم يقولون ما لا يفعلون » .

وكان عرب الشام فى كنف الروم فكانوا وعرب الفرس فى الحيرة ألد الخصوم . فكانت وحدة العرب ممزقة ولم يكن بينهم إلا الحروب والدماء والثارات : وكان الحارث بن جبلة ملك الغساسنة على دين عمرو بن هند ، كان من المؤمنين بوجود طبيعة واحدة للمسيح ، ولكن السياسة فرقت بينهم وأشعلت نار الحروب التى جعلت العربى يقتل العربى إرضاء لكسرى وقيصر .

كانت المدائن قبلة ملوك الحيرة ، وكانت القسطنطينية قبلة ملوك الغساسنة . ففى سنة ٥٦٣ م ولى الحارث بن جبلة وجهه شطر القسطنطينية ليفاوض رجال الحكم فيمن سيخلفه على العرش بعد وفاته من أولاده ، وفى السياسة التى ينبغى سلوكها قبل عمرو بن هند ملك الحيرة !

واستقبل الحارث استقبالا حافلا فى القسطنطينية ، وترك أثرا عميقا فى نفوس أهل العاصمة وفى رجال القصر والحاشية . وقابل الحارث الإمبراطور يوسطنيانوس وأبرمت بينهما معاهدة تعمل على زيادة شقة الخلاف بين عرب الفرس وعرب الروم ، فقد كان رجال السياسة فى القسطنطينية يرون أن فى اتفاق كلمة العرب قضاء على سلطان الروم والفرس جميعا .

وكان الدين قد فسد فى أرض الشام كما فسد فى الحيرة ولم يبق منه إلا القشور ، وكان الفساد قد تغلغل فى كيان شعوب الأرض حتى النخاع ، وقد ران على نفوس البشر ظلام من جور السادة ، وقلق أثاره من لبسوا مسوح الرهبان وراحوا ينهلون من مناهل الفلسفة ، وضياع مذ ضل قواد سفينة البشرية عن مرفأ الدين وهم يحسبون أنهم على الطريق .

وكان اليهود يقاسون مر الاضطهاد فى أرض الروم وفى البلاد التى تخضع للروم أو تعتنق مذهبها الدينى ، ففى القسطنطينية وفى أرض الشام وفى اليمن بعد أن وطئتها جيوش الحبشة وانتصرت على ذى نواس المتهود ، قامت المناظرات العنيفة بين أحبار اليهود ورهبان النصارى . « وقالت اليهود ليست النصارى على شىء وقالت النصارى ليست اليهود على شىء وهم يتلون الكتاب » .

وقد ذلك اليهود فى المدينة بعد أن انتصر عليهم الأوس والخزرج كما ذلوا فى كل مكان . « وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق ، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون » .

ولم تتحد كلمة الأوس والخزرج طويلا ، فسرعان ما دب بينهم الشقاق ودارت رحى الحرب تطحن حلفاء الأمس القريب ، وكانت حروب كثيرة لم يسمع قط فى قوم أكثر منها ولا أطول . تفرقت كلمة الحيين ، فلم يجتمع لهم أمر ، ولم ينفعهم تدينهم ، فقد زاد تفرقهم على مدى الأيام علي الرغم من أنهم جميعا كانوا يحجون إلى مناة وينحرون لها ويقدمون القرابين .

وتربع أبرهة الأشرم على عرش سبأ وبنى فى صنعاء كنيسة جلب لها أمهر الصناع من روما والقسطنطينية ، وزينها بالفسيفساء ووضع فيها الصلبان وتماثيل المسيح المصلوب ، السيد الذى جاء ليمحق القرابين فجعله البشر أعظم قربان استجابة لفكرة فلسفية استعارها بولص من عباد بعل الوثنيين .

وراح أبرهة يبنى الكنائس فى اليمن فبنى كنيسة فى نجران عرفت بكعبة اليمن ، وكنيسة فى صنعاء عرفت « بالقليس » وهى كلمة مشتقة من Ekklessia اليونانية ومعناها « الكنيسة » ، وأنشأ الحبش كنيسة أخرى فى « ظفار » ، وانتشر الأساقفة والمبشرون فى العربية السعيدة يدعون العرب إلى

دينهم وإلى الانشقاق والتشاحن المنتشر بين النصارى بعد أن استبدلت عقيدة الأيام الأولى الصافية بالسخف والخرافات .

وانتزع أبرهة حامى المسيحية فى اليمن وحامل لوائها امرأة من زوجها أبى مرة بن ذى يزن وتزوجها ، فصارت ريحانة ابنة علقمة بن مالك بن يزيد بن كهلان زوجة الملك رغم أنف زوجها اليمنى ، وقد أقيمت مراسيم الزواج فى القليس كنيسته التى يريد أن يكره الناس على الحج إليها وأن يصدهم عن بيت الله الذى أقام قواعده إبراهيم وإسماعيل ، أول بيت وضع للناس .

وتنصر بعض العرب فى اليمن وبقى بعضهم على وثنيتهم الأولى ، ولم تجلب المسيحية فى ركابها الهدوء والسكينة للناس بل أوقعت الفرقة بين الذين آمنوا بالتثليث والذين آمنوا بوحدة طبيعة المسيح وقد كان كل ما أخذه العرب الذين تنصروا عن الكنيسة معاقرة الخمر فقد استقر فى وجدانهم من تعاليم الأساقفة والمبشرين أن المسيح كان شارب خمر بل كان يدمن شربها !

وفى مكة حيث وضع أول بيت للناس ليكون منارة التوحيد كان الناس يؤمنون بإلـه قادر رفع السماء وبسط الأرض وهو الرزاق ، إلا أنهم جعلوا له شركاء فجلبوا الأصنام من مصر وسورية والعراق وأرض النبط وكدسوها فى جوف الكعبة ، بل أصبح فى كل دار صنم يتمسحون به ويطوفون حوله كلما خرجوا من دورهم أو عادوا إليها .

اعتقد العرب أنهم إنما يعبدون الأصنام ليقربوهم إلى الله زلفى فجعلوا لله أندادا ، وعبدوا الشمس والقمر والنجوم على أنها زوجة رب الأرباب وأبناؤه وبناته ، وزعموا أن الله قد خلى لنفر من الآلهة بعض تصرفات مثل شفاء المرضى والإتيان بالذرية والنسل وإبعاد المجاعة وإقصاء الوباء فكانوا يتقربون إليها بالذبائح وينزلون لها عن قسم من نتاج أراضيهم ومواشيهم قربانا .

وانتشرت بينهم الخرافات فزعموا أن على كل صنم شيطانا موكلا بأمر الله ، فمن عبد الصنم حق عبادته قضى الشيطان حوائجه بأمر الله وإلا أصابه الشيطان بنكبة بأمر الله . وأن الإنسان إذا مات أو قتل اجتمع دم الدماغ أو أجزاء منه فانتصب طيرا هامة فرجع إلى رأس القبر كل مائة سنة ، وأن روح القتيل الذى لا يدرى بثأره تصير هامة فتزقو وتقول : اسقونى اسقونى ، وإذا أدرك بثأره ذهبت ولا تعود .

وكانوا يخرجون النساء فى الحرب ليبُلْن بين الصفين يرون أن ذلك يطفئ نار الحرب ويقودهم إلى السلم ، وقد سخر بعض شعرائهم من هذه العادة فقال :

هيهات رد الخيـــل بالأبــــوال إذا غدت فى صور السعــــالى[1]

واشتغلوا بالرقى والعزائم وبالخرافات التى تجلب الحب وتنسى العاشق حبيبته ، فكانت الهِنَّمة يجتلب بها الرجال ويستعطف بها قلوبهم ، فكان النسوة يحرقن البخور فى دورهن أو خيامهم ويقلن للخرزة فى إيمان عميق :

ــ أخذته بالهِنَّمة ، بالليل زوج وبالنهار أمة .

وكانت المرأة إذا أرادت منع الحمل شدت على حقويها خرزة العقرة ، وإذا أرادت التزين لجأت إلى الوشم فتنقش أغلب بدنها بألوان من النقوش من صور حيوانات وغيرها ، وتنقش شفتيها بالوشم الأزرق .

وكانت المرأة إذا مات زوجها تدخل بيتا حقيرا وتلبس شر ثيابها لا تمس ماء ولا تقلم ظفرا ولا تزيل شعرا حتى تمر بها سنة ، فتهرع إلى بيت أبويها وتأتى بشاة أو طائر تمسح به جلدها ثم ترمى ببعرة إشارة إلى أنها رمت العدة رمى

---

(١) السعالى : أخبث الغيلان .

البعرة ، وتفاؤلا بعدم عودتها إلى ما كانت فيه وشوقا إلى التزويج لبعد عهدها به .

وكان الرجل منهم يجمع بين الأختين ويختلف على امرأة أبيه ، فإذا مات الرجل عن المرأة أو طلقها قام أكبر بنيه فإن كان له حاجة فيها طرح ثوبه عليها ، وإن لم يكن له حاجة فيها تزوجها بعض إخوته بمهر جديد .

وكان الرجل يرث امرأة ذى قرابة فإن كانت جميلة تزوجها وإن كانت دميمة حبسها حتى تموت فيرثها ، وكان له أن ينكح ما يشاء من النساء أحرارا وإماء وأن يرغم إماءه على احتراف الدعارة ليحصل على ما يبغى من أموال .

وكان الاستبضاع منتشرا بينهم وهو أن يسمح الرجل لزوجته أن تضاجع رجلا قويا أو شريفا أو ذى رأى ليأتى النسل قويا أو شريفا أو من ذوى الرأى والحصافة .

وكان الرجال يوصون أهليهم بالبكاء والنوح عليهم إذا ماتوا ، وقد قال طرفة بن العبد لابنة أخيه معبد لما أحس أن عمرو بن المنذر ملك الحيرة يلتمس قتله :

فإن مت فانعينى بما أنا أهله وشقى علىَّ الجيب يا بنة معبد

وكان الاعتقاد بوجود إلٰه واحد قادر قد اختفى مذ راح بولص يعبث بالمسيحية السمحة ويطعمها بفلسفات الوثنيين ، وكانت عقيدة الثالوث المقدس قد أثارت الاختلافات المعقدة وتنافست الشيع والطوائف الكثيرة مظهرة الحذق فى تفسير كيف أمكن الإنسان أن يصبح إلٰها وكيف أمكن أن يصير الثلاثة واحدا ، وقد أدى ذلك إلى ظهور تلال من مؤلفات الجدل والمناظرة باعدت بين الإنسان والغرض المنشود من الدين. وقد أطلق العنان للخمر والميسر والزنا .

كان العالم على شفا السقوط فى هاوية الفوضى فقد انهارت العقائد التى

تعين على إقامة الحضارة ، وقد بدا أن المدنية الكبرى التى تكلف بناؤها جهود أربعة آلاف من السنين مشرفة على التفكك والانحلال ، وأن البشرية توشك أن ترجع ثانية إلى ما كانت عليه من الهمجية فقد طال على الناس الأمد وقست قلوبهم وتسرب العطب حتى اللباب إلى شجرة المدنية التى كانت تظلل العالم كله .

ظهر الفساد فى البر والبحر وراح الناس يضربون فى دياجير الجاهلية يتناحرون ويتحاربون تشجعهم عقائدهم على التفرقة والانهيار بدلا من الاتحاد والنظام ، فبدا أن البشرية تنتظر مولد النور ، وبين مظاهر ذلك الفساد الشامل ولد محمد ليكون رحمة للعالمين .

التـــذييل

قال الذين يتشككون فى كل شيء وينكرون ما لا يجدون له سندا من كتابة مسمارية أو كتابة على ورق البردى أو نقش على الحجر : إن سيل العرم وخراب سد مأرب وتمزيق أهل سبأ كل ممزق إن هو إلا أسطورة من أساطير الأولين . وزعم المؤرخون الإسلاميون والإخباريون أن سد مأرب قد تهدم قبل مولد المسيح عليه السلام ورتبوا على ذلك أحداثا وكتبوا تاريخ منطقة الشرق الأوسط معتمدين على ذلك الزعم ، فقال ابن هشام فى السيرة النبوية :

« وكان خروج عمرو بن عامر من اليمن ـــ فيما حدثنى أبو زيد الأنصارى ـــ أنه رأى جُرَذا (فأرا كبيرا) يحفر فى سد مأرب الذى كان يحبس عليهم الماء فيصرفونه حيث شاءوا من أرضهم ، فعلم أنه لا بقاء للسد على ذلك فاعتزم على النقلة من اليمن ، فكاد قومه فأمر أصغر ولده إذا أغلظ له ولطمه أن يقوم إليه ويلطمه ، ففعل ابنه ما أمره به . فقال عمرو : لا أقيم ببلد لطم وجهى فيه أصغر ولدى وعرض أمواله فقال بعض أشراف اليمن : اغتنموا غضبة عمرو فاشتروا منه أمواله . وانتقل فى ولده وولد ولده . وقالت الأزد : لا نتخلف عن عمرو بن عامر.فباعوا أموالهم وخرجوا معه ، فساروا حتى نزلوا بلاد علكِ مجتازين يرتادون البلدان فحاربتهم علك فكانت حربهم سجالا ، ثم ارتحلوا عنهم فتفرقوا فى البلدان فنزل آل جفنة بن عمرو بن عامر الشام ، ونزلت

الأوس والخزرج يثرب ، ونزلت خزاعة مَرًّا ، ونزلت أزد السراة السراة ، ونزلت أزد عُمان عمان ، ثم أرسل الله تعالى على السد السيل فهدمه ففيه أنزل الله تبارك وتعالى على رسوله محمد ﷺ : « لقد كان لسبأ فى مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور . فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم »(1) .

وعلى هذه الرواية يكون الغساسنة ملوك الشام من اليمن وتكون خزاعة التى حكمت مكة قبل أن ينتزع منهم قصى ولاية البيت من اليمن أيضا ، وقد كانت ولايتهم للبيت بعد سيل العرم . ويقال خزاعة : بنو حارثة بن عمرو بن عامر وإنما سميت خزاعة لأنهم تخزعوا من ولد عمرو بن عامر حين أقبلوا من اليمن يريدون الشام فنزلوا بمر الظهران فأقاموا بها ، ثم نفوا جرهم عن مكة واستولوا على ولاية البيت .

وعلى هذه الرواية يكون الأوس والخزرج من اليمن انطلقوا بعد سيل العرم إلى يثرب ، ونزلوا بها بين قبائل اليهود وفى حمايتهم .

أنكر المنكرون وقوع سيل العرم وأرجع الإخباريون ذلك الحادث إلى ما قبل الميلاد ، وحدد التاريخ المكتوب زمن سيل العرم ما بين سنة ٥٤٢ و ٥٧٠ ميلادية . وقد محق ذلك التاريخ المكتوب قول القائلين بأن العرم كان أسطورة من الأساطير. فقد ترك لنا « أبرهة » وثيقة مهمة على جانب خطير من الأهمية وهى النص الذى وسم بـ Glaser, 618 وبـ Cis, 15 عند الباحثين فى العربية الجنوبية ، وهذه الوثيقة تبحث فى تجديد أبرهة لسد مأرب مرتين المرة الأولى فى شهر « ذو المدرج » من سنة ٦٥٧ من التاريخ الحميرى المقابلة لسنة ٥٤٢ للميلاد ، والثانية فى شهر « ذو معان » من سنة ٦٥٨ من التاريخ الحميرى أى فى

سنة ٥٤٣ ميلادية أى بعد سنة واحدة من التجديد الأول .

ومن هذه الوثيقة يثبت أن سد مأرب قد خرب بعد سنة ٥٤٣ ميلادية ، وأن سيل العرم وتمزق سبأ كل ممزق كان بعد تلك السنة أو فى أثنائها . ولم أستطع أن أفر من هذه الحقيقة وأنا أروى تاريخ هذه الحقبة رواية تاريخية تعتمد أول ما تعتمد على تسلسل الأحداث واحترام تسلسلها الزمنى ، فلم أعتمد على رواية ابن هشام والإخباريين الإسلاميين الذين حسبوا أن سيل العرم كان قبل الميلاد بل أرجعت واقعة خراب سد مأرب إلى تاريخها الحقيقى ، ورحت آخذ بالروايات التاريخية التى تتفق مع هذه الحقيقة فلم آخذ برواية القائلين بأن خزاعة من اليمن وإنما سميت خزاعة لأنهم تخزعوا من ولد عمرو بن عامر بعد سيل العرم ، بل أخذت بالرأى القائل بأن عمرو بن لحى جد الخزاعيين من عدنان وليس من قحطان .

ولم تضطرب روايات الإخباريين مثل اضطرابها فى هذه الحقبة الواقعة بين قريش ومولد الرسول عليه الصلاة والسلام ، فقد كانت رواياتهم تناقض بعضها بعضا ، بل إن المؤرخ منهم كان يروى عن حادث واحد روايات متعارضة مما يدل على أنه كان يدون ما يسمع دون نقد أو تمحيص .

ومن مواضع الاختلاف بين الإخباريين اختلافهم فى تسلسل أسماء من حكموا اليمن والحيرة وغسان فى هذه الحقبة التى ندرسها ، وقد اعتمدت فى تسلسل الأحداث فى هذا الجزء من السيرة على روايات المؤرخين الرومان واللاتين الذين عاصروا الأحداث المروية فى منطقة الشرق الأوسط وعلى روايات الإخباريين التى تتفق مع منطق التاريخ فيما لم أجد له سندا فى نصوص جاهلية أو نصوص مؤرخين معاصرين .

وقد أكثر الإخباريون والمؤرخون الإسلاميون من رواية الأساطير

والمعجزات التى وقعت من الصالحين الذين كانوا على دين سماوى ، وقد استعنت ببعض تلك الأساطير للدلالة على سمة العصر الذى أروى قصته . وكذلك أثبت بعض ما جرى بين الكهان والحكام فقد كانت الكهانة بمثابة الدين عند العرب قبل الإسلام ، وسأعرض نموذجا من النماذج الكثيرة التى لم أعتمد عليها والتى تفيضى بها كتب المؤرخين الإسلاميين .

قال ابن هشام فى « السيرة النبوية » تحت عنوان « ابتداء وقوع النصرانية بنجران » : قال ابن إسحاق : حدثنى المغيرة بن أبى لبيد مولى الأخنس عن وهب بن منبه اليمانى أنه حدثهم :

أن موقع ذلك الدين بنجران كان أن رجلا من بقايا أهل دين عيسى ابن مريم يقال له فيميون وكان رجلا صالحا مجتهدا زاهدا فى الدنيا مجاب الدعوة . وكان سائحا ينزل بين القرى لا يعرف بقرية إلا خرج منها إلى قرية لا يعرف بها ، وكان لا يأكل إلا من كسب يديه وكان بناء يعمل الطين وكان يعظم الأحد ، فإذا كان يوم الأحد لم يعمل فيه شيئا وخرج إلى فلاة من الأرض فصلى بها حتى يُمسى . قال : وكان فى قرية من قرى الشام يعمل عمله ذلك مستخفيا ففطن لشأنه رجل من أهله يقال له صالح ، فأحبه صالح حبا لم يحبه شيئا كان قبله فكان يتبعه حيث ذهب ولا يفطن له فيميون . حتى خرج مرة فى يوم الأحد إلى فلاة من الأرض كما كان يصنع وقد أتبعه صالح وفيميون لا يدرى ، فجلس صالح منه منظر العين مستخفيا منه لا يحب أن يعلم بمكانه ، وقام فيميون يصلى فبينما هو يصلى إذ أقبل نحوه التنين ــ الحية ذات الرءوس السبعة ــ فلما رآها فيميون دعا عليها فماتت ، ورآها صالح ولم يدر ما أصابها فخافها عليه ، فعيل عولُه (نفد صبره) فصرخ : يا فيميون . التنين قد أقبل نحوك . فلم يتلفت إليه وأقبل على صلاته حتى فرغ منها ، وأمسى فانصرف

وعرف أنه قد عُرف . وعرف صالح أنه قد رأى مكانه فقال له : يا فيميون تعلم والله أنى ما أحببت شيئا قط حبك ، وقد أردت صحبتك والكينونة معك حيث كنت . فقال ما شئت ، أمرى كما ترى ، فإن علمت أنك تقوى عليه فنعم ، فلزمه صالح .

وقد كاد أهل القرية يفطنون لشأنه وكان إذا فاجأ الضر العبد منهم دعا له فشُفى ، وإذا دعى إلى أحد به ضر لم يأته . وكان لرجل من أهل القرية ابن ضرير فسأل عن شأن فيميون فقيل له . إنه لا يأتى أحدا دعاه ولكنه رجل يعمل للناس البنيان بالأجر ، فعمد الرجل إلى ابنه ذلك فوضعه فى حجرته وألقى عليه ثوبا ، ثم جاءه فقال له : يا فيميون إنى قد أردت أن أعمل فى بيتى عملا فانطلق معى إليه حتى تنظر إليه فأشارطك عليه ، فانطلق معه حتى دخل حجرته ثم قال له : ما تريد أن تعمل فى بيتك هذا ؟ قال : كذا وكذا . ثم انتشط الرجل الثوب (كشفه بسرعة) عن الصبى ثم قال له : يا فيميون : عبد من عباد الله أصابه ما ترى فادع الله له ، فدعا له فيميون فقام الصبى ليس به من بأس . وعرف فيميون أنه قد عرف فخرج من القرية واتبعه صالح . فبينما هو يمشى فى بعض الشام إذ مر بشجرة عظيمة فناداه منها رجل فقال : يا فيميون . قال : نعم . قال : مازلت أنظرك وأقول متى يجىء حتى سمعت صوتك فعرفت أنك هو . لا تبرح حتى تقوم على فإنى ميت الآن ، قال : فمات وقام عليه وواراه ، ثم انصرف .

وتبعه صالح حتى وطآ بعض أرض العرب فعدوا عليهما ، فاختطفتهما سيارة من بعض العرب فخرجوا بهما حتى باعوهما بنجران وأهل نجران يومئذ على دين العرب يعبدون نخلة طويلة بين أظهرهم لها عيد فى كل سنة ، إذا كان ذلك العيد علقوا عليها كل ثوب حسن وجدوه وحلىَّ النساء ثم خرجوا إليها

فعكفوا عليها يوما ، فابتاع فيميون رجل من أشرافهم وابتاع صالحا آخر ، فكان فيميون إذا قام من الليل يتهجد فى بيت له — أسكنه إياه سيده — يصلى ، استسرج له البيت نورا حتى يصبح من غير مصباح ، فرأى ذلك سيده فأعجبه ما يرى منه فسأله عن دينه فأخبره به ، وقال فيميون : إنما أنتم فى باطل ، إن هذه النخلة لا تضر ولا تنفع ولو دعوت عليها إلٰهى الذى أعبده لأهلكها وهو الله وحده لا شريك له . قال : فقال له سيده : فافعل فإنك إن فعلت دخلنا فى دينك وتركنا ما نحن فيه . قال : فقام فيميون فتطهر وصلى ركعتين ثم دعا الله عليها فأرسل الله عليهما ريحا فجعفتها (أتلفتها وأسقطتها) من أصلها فألقتها ، فاتبعه عند ذلك أهل نجران على دينه فحملهم على الشريعة من دين عيسى ابن مريم عليه السلام ، ثم دخلت عليهم الأحداث التى دخلت على أهل دينهم بكل أرض فمن هنالك كانت النصرانية بنجران فى أرض العرب .

فهذا حديث وهب بن منبه عن ابتداء النصرانية فى نجران ، وهناك حديث محمد بن كعب القرظى عن أمر عبد الله بن الثامر وقصة أصحاب الأخدود ، وهو حديث عن السحر وتعليم أبناء عظماء نجران السحر على يدى ساحر عظيم ، واختلاف ابن الثامر إلى فيميون عوضا عن ذهابه إلى ذلك الساحر ، وتعلم عبد الله بن الثامر النصرانية على فيميون فجعل عبد الله بن الثامر إذا دخل نجران لم يلحق أحدا به ضر إلا قال له : يا عبد الله أتوحد الله وتدخل فى دينى وأدعو الله فيعافيك مما أنت فيه من البلاء ؟ فيقول : نعم . فيوحد الله ويسلم ويدعو له فيشفى حتى لم يبق بنجران أحد به ضر إلا أتاه على أمره ودعا له فعوفى ، حتى رفع شأنه إلى ملك نجران فدعاه فقال له : أفسدت علىَّ أهل قريتى وخالفت دينى ودين آبائى لأمثلن بك ، قال : لا تقدر على ذلك . قال : فجعل يرسل به إلى الجبل الطويل فيطرح على رأسه فيقع إلى الأرض ليس به

بأس ، وجعل يبعث به إلى مياه بنجران بحور لا يقع فيها شيء إلا هلك ، فيُلقى فيها فيخرج ليس به بأس . فلما غلبه قال له عبد الله بن الثامر : إنك والله لن تقدر على قتلى حتى توحد الله فتؤمن بما آمنت به ، فإنك إن فعلت ذلك سُلِّطت عليَّ تقتلنى قال : فوحد الله تعالى ذلك الملك وشهد شهادة عبد الله ابن الثامر ، ثم ضربه بعصا فى يده فشجه شجة غير كبيرة فقتله .

ووهب بن منبه ومحمد بن كعب القرظى من اليهود الذين أسلموا ، وقد روى مسلمة أهل الكتاب أحاديث كثيرة متهافتة عن حسن نية أو سوء قصد ، وقد أخذ عنهم الإخباريون المسلمون دون حذر على اعتبار أنهم أهل كتاب وأهل علم ، فماجت جوانب التاريخ الإسلامى بالإسرائيليات وأساطير الأولين والخرافات وخوارق المعجزات ، وقد حاولت وأنا أكتب السيرة أن أبتعد عن الإسرائيليات وأن أعتمد على التاريخ ومنطق الأحداث .

وقد حاولت فى هذا الجزء من السيرة أن ألقى ضوءا على أن المهتمين بالديانات فى الفترة ما بين المسيح عليه السلام ومولد محمد ﷺ كانوا ينتظرون ظهور « الفارقليط » الذى بشر به المسيح ، فزعم مانى أنه هو « الفارقليط » وكذلك زعم مزدك وقد كذبهما معارضوهما وقالوا لهما إن نبوءة ساسان تؤكد أن « الفارقليط » المنتظر من بلاد العرب وأن زرادشت قد أوصاهم بأن يستمسكوا بما جاءهم به إلى أن يجيئهم صاحب الجمل الأحمر من بلاد العرب . وكان هدفى من ذلك تأكيد أن البشرية كانت تنتظر ظهور ذلك النبى العالمى الذى بشر به الأنبياء من قبل وقال عنه المسيح : إن لم أذهب لم يأت « الفارقليط » الذى سيمكث معكم إلى الأبد ، فالفارقليط نبى منتظر رسول عالمى تترقب ظهوره البشرية ، وليس المعزى ولا روح القدس كما حاول أحبار النصارى ورجال الدين المسيحى تفسير معنى « الفارقليط » بعد بعث محمد

رسول الله ﷺ : « ومبشرا برسول يأتي من بعدى اسمه أحمد »(١) .

وقد راودتنى فكرة عن « التصوف عند العرب » عندما كنت أكتب الفصل الخاص بولاية الإجازة بالناس من عرفة ومزدلفة ومنى ، فقد كانت صوفة هي التى تلى الإجازة بالناس ، وقد عرفت بذلك الاسم لأن الغوث بن مر أد بن طابخة بن إلياس بن مضر قد تصدقت به أمه على الكعبة عبدا لها يخدمها ويقوم عليها وألبسته الصوف وجعلته ربيطا للكعبة ، فعرف هو وولده من بعده بصوفة ، وقد صار ذلك سنة فى العرب فكان يقال صوفة وصوفان لكل من يقوم بشىء من خدمة البيت . وعندى أنه لما جاء الإسلام وانقطع بعض المسلمين للعبادة ووهبوا أنفسهم لله عرفوا بالصوفى ، كما عرف الذين وهبوا أنفسهم للكعبة قبل الإسلام بصوفة وعرفت طريقتهم بالتصوف . ثم بدأ اتصال الإسلام بفارس والهند فنهل التصوف كعلم من فلسفات الفرس والهنود .

ولو ألقينا نظرة فاحصة على العالم منذ أيام إبراهيم الخليل إلى يوم مولد الرسول ﷺ فى الاقتصاد والاجتماع والفلسفة والدين ، لوجدنا أن العالم قد مر بكل ما يمر به عالمنا اليوم من تصارع فى المذاهب الاقتصادية بين الرأسمالية والشيوعية ومن مبادئ أخلاقية ومبادئ تحررية إباحية انحلالية فوضوية ، ومن فلسفات جادة تبحث عن جوهر الحقيقة وفلسفات تدعو إلى تحصيل اللذة والسرور وتمجيد الجسد وإنكار الروح ، ومن وثنيين وموحدين ومؤمنين بالثالوث المقدس قبل أن يعتنق بولص مبدأ التثليث ويورثه للمسيحيين الذين آمنوا بما جاءهم به بولص يوم أن سلب كرسى السيد

---

(١) الصف ٦

المسيح ، ومن قدريين ودهريين وطبيعيين ووجوديين .

كان الملك فى مصر القديمة أيام الفراعين إلـٰها تجبى الضرائب لتملأ خزائنه وتقوم الحروب إعلاء لذكره وتشاد العمائر تكريما له وتشريفا لمخلوق ما أن يكون له نصيب فإن هذا لا يعدو أن يكون عارية يستردها الملك عندما يشاء ، وكانت الرعية ملكا له يتصرف فى حياتها وأرواحها كيفما يريد .

ويقوم إلى جوار الملك مستشاروه وطائفة الكهنة والأسرات الغنية من النبلاء والقواد ، وقد كان لهم نفوذهم وكان الملك يغدق عليهم على حساب الشعب فى الوقت الذى يؤلب فيه طائفة على أخرى ليستقيم له الأمر وليضمن لنفسه حكما طويلا مملوءا بالخير والبركات .

وفى العراق فى أرض بابل قبل أن يتولى العرش حمورابى — ويقال إن إبراهيم الخليل قد بعث فى عهد أبيه — وهو المؤسس الحقيقى للوحدة البابلية ، كانت سومر وأكاد متحدتين تحت تاج واحد ، وكانت المدينة تكون فى المجتمع خلية لها حياتها الخاصة ويعتبر تأسيسها عملا دينيا لا يستطاع القيام به إلا بناء على أوامر الآلهة العظام ، لأن المدينة هى قبل كل شىء مركز للعبادة ، فكان لاسم المدينة واسم الإلـٰه الذى تنازل فرضى أن يستقر بها مدلول واحد . ولما أنشأ ملوك الأسرة البابلية الأولى مدنا جديدة منحوها اسم الإلـٰه المعبود ، مثل « كارشماش » ومعناها « قلعة الإلـٰه شماش » ، و« نور أداده » ومعناها « نور الإلـٰه أداد » .

كان الإلـٰه فى العراق سيد المدينة الحقيقى وكان يسكنها مع زوجه وأولاده وخدمه وسدنته ، وكان المعبد مسكنه وكان أفخر مساكن المدينة على الإطلاق ، وكان للآلهة أملاك خاصة وصوامع للغلال وعبيد وجيوش . ولم يكن الإلـٰه يدير شخصيا شئون المملكة أو المدينة بل كان يختار وكيلا ، ملكا

أو إيشاكو ، يعهد إليه رعاية شئون شعبه . فكان الملك أو رجل الدين — وكثيرا ما كان الملك هو الكاهن الأعظم للإلـٰه — يستغل الشعب باسم إلـٰهه المعبود .

وكان الملك وهو المشرف على الإدارة المدنية والدينية لا يلبث أن يؤله نفسه فيصبح المتصرف فى المعابد وأملاكها وخيرات البلاد وفى شعبه المسكين .

أما فى فارس فقد كون الإيرانيون منذ القدم جمعية من الأسر الكبيرة يستند نظام إقليمها إلى أربع وحدات : البيت والقرية والقبيلة والإقليم ، وسمى الشعب آريا وهى الكلمة التى اشتق منها إيران .

وكانت الدولة الأخمينية استمرارا للدولة الأشورية والبابلية ، ولكن التنظيم على أساس الأسرة لم يمح فكان فى فارس الأخمينية سبع قبائل ممتازة يجرى فى إحداها الدم الملكى . وقد جعل الملك الأعظم لنفسه أتباعا يمنحهم إقطاعات يتوارثونها مع امتيازات خاصة . ولم تعد صلة الأسرات وثيقة بالقرى الفارسية التى نشئوا فيها فحسب بل تعدتها إلى أملاك كبيرة أخرى فى شتى أنحاء الدولة . وقد أتيح لأناس من غير الأسرات الكبيرة من الفرس والميديين ومن الأجانب أيضا كالإغريق المنفيين أن يملكوا إمارات يمنحها الملك الأعظم ، وقد تمتعوا بامتيازات تتفاوت خطورة منها الإعفاء من الضريبة أحيانا بحيث كان فى مقدورهم أن يستحوذوا على الأموال التى يجبونها من رعاياهم .

وهذا هو مبدأ الإقطاع فى فارس . كان الملك هو الرئيس الأعلى وكان الأمراء هم رؤساء البيوت الكبيرة ، وكان لكل منهم حراثون وعليهم يقع

عبء الخدمة العسكرية ، وكانوا خاضعين لضرب من الرق تحت سيطرة ساداتهم الأقوياء .

لم يعرف الشرق منذ فجر التاريخ إلى مولد الرسول عليه الصلاة والسلام من نظم الحكم غير النظام الملكى المستبد الذى استمد سلطانه من السماء ، بادعائه أنه وكيل الإلـٰه فى الأرض مرة وبزعمه أنه هو الإلـٰه نفسه مرات . أما فى الغرب فقد استبدلت رومة حكم الملوك بحكم الشيوخ فولدت بذلك الجمهورية ، وظل مجلس الشيوخ صاحب السلطة العليا فى رومة وكان حق المجلس من الوجهة النظرية مقصورا على مناقشة ما يعرضه عليه أحد كبار الحكام من المسائل وإصدار قرار فيها ، وكانت قراراته فى هذه المسائل استشارية محضة ليس لها قوة القانون ، ولكن كان للمجلس من عظم المكانة ما جعل الحكام يعملون بتوصياته فى جميع الحالات تقريبا .

وظل مجلس الشيوخ هو صاحب السلطة فى رومة إلى أن انتزع يوليوس قيصر السلطة منه وصار الحكم فيها قيصريا . وقد كانت الديمقراطية تحتضر فى عاصمة البلاد الإيطالية فكانت الأحكام القضائية ومناصب الدولة وعرش الملوك الخاضعين لسلطانها تباع إلى من يعرض فيها أغلى الأثمان ، من ذلك أن القسم الأول من المقترعين فى الجمعية قد استولى فى عام ٥٣ م على عشرة ملايين سسترس ثمنا لأصوات أفراده ، ولما لم ينفع المال لم يتورع ذوو الشأن عن الالتجاء إلى الاغتيال أو كشف الستار عن ماضى الناس والتهديد بالكشف عن فضائحهم فلم يروا أمامهم سبيلا غير الإذعان . وفشا الإجرام فى المدينة كما انتشرت السرقات فى الأقاليم ، ولم تكن فى هذه ولا فى تلك قوة من الشرطة تطمئن الناس على أنفسهم أو أموالهم فكان الأغنياء يستأجرون

عصابات من المجالدين يدفعون عنهم الأذى أو يؤيدونهم فى الجمعية .

واستهوت رائحة المال أو هبات الحبوب أحط الطبقات فى إيطاليا فهرعت إلى رومة وجعلت اجتماعات الجمعية مهزلة من المهازل ، فكان كل من يقبل الاقتراع كما يطلب إليه يؤذن له بدخولها سواء أكان من مواطنى رومة أم من غير مواطنيها . وكان يحدث فى بعض الأحيان ألا يكون من بين من أعطوا أصواتهم إلا أقلية صغيرة هى التى لها حق الاقتراع . وكثيرا ما كان الخطباء يحصلون على حق الخطابة فى الجمعية بالهجوم على المنصة والاستيلاء عليها قوة واقتدارا ، وأضحت العصابة التى ترفعها قوتها على سائر العصابات المنافسة لها هى التى تشرع للدولة كما كان الذين يقترعون على غير هواها يضربون حتى يكاد يقضى عليهم ثم تشعل النار بعد الضرب فى بيوتهم ، وقد كتب شيشرون بعد جلسة من تلك الجلسات يقول :

« لقد امتلأ التيبر بجثث المواطنين كما سدت بها البالوعات العامة ، واضطر الأرقاء إلى امتصاص الدم بالإسفنج من السوق العامة » .

هذه هى أساليب الحكم فى العصور الخالية ، ملكية مستبدة أو جمهورية سرعان ما يدب فى ديمقراطيتها الفساد ، أو قيصرية أو كسروية ، وهى بعينيها أساليب الحكم فى عصرنا ، فلم تستطع البشرية أن تبتدع أسلوبا آخر غير تلك الأساليب التى مارستها منذ أقدم العصور . وقد وقع الظلم فى جميع صور الحكم على سواد الشعب بينما استأثر بخيرات الأرض طبقة مستبدة منحت نفسها حقوقا باسم الحق الإلـٰهى تارة ، وباسم الشعب تارة أخرى وبحق القوة والقهر على مر العصور .

وقد بعث الله رسله ليقفوا فى وجوه الجبارين ولينتزعوا منهم حق الناس

وليشرعوا لهم ما يصلح دينهم ودنياهم ويشحذ ضمائرهم لسعادة البشرية جمعاء ، وقد عرفت البشرية العزة والكرامة والسعادة الحقة فى ظل الدين ، وتفيأت ظلال العدالة ما دامت فى كنف القوانين السماوية ، وقد تمرغت فى حمأة الاستبداد والظلم كلما طال على الناس العهد وقست قلوبهم .

وقد حاولت الفلسفة فى بعض الأحايين أن ترسم للناس طريق سعادتهم فأضلتهم الطريق ، وإن بدا فى بعض ما قال به الفلاسفة أن طريقهم وطريق الدين واحد وأنهم على الصراط المستقيم .

كان أفلاطون فى جمهوريته ينشد العدالة فراح يسأل ما الإنسان وما مصيره ، وخلص من أسئلته إلى أن الدولة المثلى فى نظره يجب أن تكون أرستقراطية تحكمها طبقة من الحكام يتعلمون تعليما عاليا وافيا ثم يختارون لمنصبهم بفضل مقدرتهم على إدراك المبادئ التى تقوم عليها الدولة وجدارتهم فى تطبيقها وحفظها ، وهؤلاء يعيشون عيشة شيوعية لكى لا تغريهم المطامع بالحياد عن الصراط المستقيم .

قال أفلاطون بشيوعية المال وبشيوعية النساء والأولاد لتتحرر البشرية من كل ميل للملكية ، وأسهب فى طريقة تربية النساء ومساواة المرأة بالرجل وقيام الدولة على تربية الأبناء غير الشرعيين ، وأورد كثيرا من الآراء الفلسفية فى شيوعية المال والمرأة والأولاد ، وقد ظلت آراؤه مجرد خيال فيلسوف فى مدينته الفاضلة إلى أن قام مزدك بثورته فى فارس وفرض شيوعية المال والمرأة والولد فماذا كان شكل المجتمع ؟

قد وجب فى الجماعة المانوية على الصديقين أن يعيشوا بلا نساء وألّا يملكوا من الغذاء غير قوت يوم واحد ، ومن الملابس غير ما يكفى سنة

واحدة . وقد فرضت قواعد مماثلة على الطبقات العليا من الفرقة المزدكية ، بيد أن رؤساء المزدكية أدركوا أن الرجال العاديين لا يستطيعون التخلص من حب اللذات المادية ، أى الرغبة فى تملك الأموال والنساء ، إلا فى اللحظة التى يستطيعون فيها إشباع هذه الحاجات بالاختيار . وبهذه الفكرة ظهرت النظرية الاجتماعية للمزدكية ، فإن الله إنما جعل الأرزاق فى الأرض ليقسمها العباد بينهم بالتساوى بحيث لا يكون لأحدهم أكثر مما لغيره ، وقد نشأ عدم المساواة بالقوة فكل يريد إشباع رغباته على حساب أخيه . والحقيقة أن من كان عنده فضلة من الأموال والنساء والمتعة فليس هو أولى به من غيره فينبغى أن يأخذوا من الأغنياء للفقراء وأن يردوا من المكثرين على المقلين ، وذلك ليقيموا المساواة البدائية . ينبغى أن تكون النساء والأموال شركة بين الناس كاشتراكهم فى الماء والكلأ .

واعتنق السفلة ذلك المذهب وكاتفوا مزدك وأصحابه وشايعوهم ، فابتلى الناس بهم وقوى أمرهم حتى كانوا يدخلون على المرء فى داره فيغلبونه على منزله ونسائه وأمواله لا يستطيع الامتناع منهم . وحملوا قباذ إمبراطورهم على تزيين ذلك وتوعدوه بخلعه فلم يلبثوا إلا قليلا حتى صاروا لا يعرف الرجل منهم ولده ولا المولود أباه ، ولا يملك الرجل شيئا فما يتمتع به . وظهر قوم لا يتحلون بشرف العمل ، لا ضياع لهم موروثة ولا حسب ولا نسب ولا حرفة ولا صناعة ، عاطلون مستعدون للغمز وبث الكذب والافتراء ، بل هم مع ذلك يحيون فى رغد من العيش وسعة المال .

عم التطاول كل مكان واقتحم الثوار القصور ناهبين الأموال مغتصبين الحرائر مهملين الأراضى ، فقد كان السادة الجدد لا يعرفون الزراعة .

لقد فتت هذه الاضطرابات الشيوعية فى عضد الدولة حتى إن الحارث بن جبلة ملك غسان قد طرد المنذر حليف الفرس من الحيرة ومرغ أنف الإمبراطورية الفارسية فى الرغام .

ولما ولى كسرى أنو شروان الحكم بدأ إصلاحاته بالقضاء على الفوضى التى أحدثها أتباع مزدك ، فرد الأموال إلى أهلها منقولة كانت أو ثابتة ، وجعل من الأموال التى لا وارث لها رصيدا لإصلاح ما فسد . وأما من غلب على أمره من النساء فكان ينظر لحالة كل منهن على حدة : فإذا كانت المرأة المغتصبة من طبقة الغاصب ولم تكن قد تزوجت من قبل أو كان زوجها قد توفى عنها يؤخذ الغالب لها حتى يغرم لها مهرها ويرضى أهلها ، فإذا لم يكونا من أهل طبقة واحدة فالطلاق واجب إذا أصرت الزوجة عليه ، وعلى الزوج أن يدفع لزوجه المهر وأن يرضى أهلها . وإذا كان للمرأة زوج على قيد الحياة وجب ردها إلى زوجها ، وألزم الغالب بأن يدفع لها مهرا مساويا للمهر الذى دفعه زوجها الشرعى من قبل .

وأمر بكل مولود اختلف فيه عنده أن يلحق بما هو منهم إذا لم يعرف أبوه ، وأن يعطى نصيبا من مال الرجل الذي ينسب إليه إذا قبله الرجل . وأمر بكل من كان أضر برجل فى ماله أو ركب أحدا بمظلمة أن يؤخذ منه الحق ثم يعاقب الظالم بعد ذلك بقدر جرمه .

وأمر بعيال ذوى الأحساب الذين مات قيمهم فكتبوا له ، فأنكح بناتهم الأكفاء وجعل جهازهم من بيت المال ، وأنكح شبابهم من بيوتات الأشراف وساق عنهم وأغناهم وأمرهم بملازمة بابه ليستعان بهم فى أعماله .

وقضى كسرى على طائفة المزدكية ولكن بقيت الفكرة يتوارثها أجيال من

البشر ، حتى قام القراطمة فى أيام الدولة العباسية الأخيرة يدعون إلى شيوعية المال وشيوعية المرأة ، وقد عاث القرامطة فسادا فى الدولة الإسلامية حتى أوهنوا الأمة بذلك الفساد الذى كاد أن يجتث جذورها الطيبة التى امتدت فى ضمير البشرية .

كان الدين هو الغيث الذى روى شجرة العدالة على مر العصور ، وقد حاولت الفلسفة أن تؤدى رسالة الدين فى بعض الأحايين فأقامت مدنا فاضلة فى عقول الفلاسفة ورسمت سبلا للعدالة فى خيالاتهم ، فلما جاء بعض المؤمنين بالآراء الفلسفية البراقة من ذوى القوة والنفوذ وطبقوا على الناس مذاهب الفلاسفة نشروا الظلم فى الأرض وأشاعوا الفساد باسم العدالة والتقوى والحق .

وقد نجح الدين فى إسعاد الناس وأخفقت الفلسفة لأن الدين من عند من سوى النفوس ، أما الفلسفة فهى ثمرة عقول أصحاب القلوب المتقلبة ، أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون ؟

لقد أدت الفلسفة رسالتها أيام كانت تابعة للعقيدة تؤيد بالدليل العقلى ما سلمت به النفوس بالإيمان تسليما لا يقبل ريبة ولا شكا ، وقد سار الفلاسفة فى ركاب الدين لما كان الدين القوة الوحيدة التى استطاعت أن تثبت لغزوات أمم الشمال المتبربرة التى قوضت الدولة الرومانية ، فقد كانت هذه الدولة عاجزة من الوجهة السياسية لا تقوى على حماية نفسها من برابرة الشمال ، وكانت الحضارة العلمية على وشك الانهيار على أيدى أولئك الغزاة خصوصا إذا علمنا أن تلك الحضارة كانت فى نفسها منحلة القوى مقوضة الدعائم ، وكانت الحياة الفكرية بأسرها توشك أن تندك على أيدى هؤلاء الفاتحين

السذج الحفاة لو لم تكن هناك تلك القوى الروحية التى اضطرت هؤلاء الغزاة إلى التسليم بها والدخول فى دينها ، والتى عرفت كيف تنقذ هيكل المدنية وتصونه خلال هاتيك القرون ، تلك كانت قوة الدين التى قامت بما لم تستطع أن تقوم به الدولة .

فمن جانب الدين وحده اتصل العالم الجديد بعلم القدماء ، وعن طريق الدين وحده عرفت البشرية السعادة الحقيقية ، ولما وضعت الفلسفة نفسها فى خدمة الدين وأيدت العقائد الدينية قامت بدور إيجابى فى سبيل رفاهية البشرية وراحة النفوس ، ولكن لما عاد الفلاسفة إلى البحوث العلمية مدفوعين بلذة البحث مولعين بجمال المعرفة فى ذاتها معارضين العقيدة الدينية أحيانا ، زعزعوا عقائد البشر وغرسوا فى نفوس الناس الشك والقلق وألقوا بهم فى التيه يتلفتون مفزوعين يقاسون الضياع الأكبر .

« يأيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا إنى بما تعملون عليم . وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون . فتقطعوا أمرهم بينهم زبرا كل حزب بما لديهم فرحون . فذرهم فى غمرتهم حتى حين . أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين . نسارع لهم فى الخيرات بل لا يشعرون . إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون . والذين هم بآيات ربهم يؤمنون . والذين هم بربهم لا يشركون . والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون . أولٰئك يسارعون فى الخيرات وهم لها سابقون . ولا نكلف نفسا إلا وسعها ولدينا كتاب ينطق بالحق وهم لا يظلمون . بل قلوبهم فى غمرة من هذا ولهم أعمال من دون ذلك هم لها عاملون . حتى إذا أخذنا مترفيهم بالعذاب إذا هم

يجأرون . لا تجأروا اليوم إنكم منا لا تنصرون . قد كانت آياتى تتلى عليكم فكنتم على أعقابكم تنكصون . مستكبرين به سامرا تهجرون . أفلم يدبروا القول أم جاءهم ما لم يأت آباءهم الأولين »[١]

القاهرة فى ٢٩ / ٣ / ١٩٦٧

---

(١) المؤمنون : ٥١ — ٦٨ .

المـراجع

القرآن الكريم

تاريخ الأمم والملوك — للطبرى

السيرة النبوية — لابن هشام

شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام — لتقى الدين محمد بن أحمد الفاسى

تاريخ العرب قبل الإسلام — للدكتور جواد على

البداية والنهاية — لابن كثير

عيون الأخبار — لابن قتيبة

العقد الفريد — لابن عبد ربه

بلوغ الأرب — للألوسى

وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى — للسمهودى

إيران فى عهد الساسانيين — لكريستينس ــ ترجمة يحيى الخشاب

قصة الحضارة — ول ديورانت

مختصر دراسة التاريخ — توينبى

قصة الفلسفة الحديثة — أحمد أمين وزكى نجيب محمود

جمهورية أفلاطون — ترجمة حنا خباز

الحضارة البيزنطية — لستيفن ونسيمان ــ ترجمة جاويد

تاريخ ابن خلدون

التاج — للجاحظ

Persia Past and Present — Jackson

History of the Jews — By Sachar

رقم الإيداع ٢١٩٧

الترقيم الدولى ٦ ــ ١٢٢ ــ ٣١٦ ــ ٩٧٧

السيرة النبوية

محمد رسول الله ﷺ
والذين معه

مولد الرسول ﷺ

عبد الحميد جوده السحار

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ، وإن فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون * الحق من ربك فلا تكونن من الممترين * ﴾ .

(قرآن كريم)

١

كانا بيتين متجاورين خلف الكعبة ، أحدهما بيت زهرة بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر ، قريش العظيم ؛ والآخر بيت أخيه قُصى أول بنى كعب بن لؤى ، أصاب ملكا أطاع له به قومه فكانت إليه الحجابة والسدانة والرفادة والندوة واللواء ، فحاز شرف مكة كله ، وقطع مكة رباعا بين قومه فأنزل كل قوم من قريش منازلهم من مكة التى أصبحوا عليها ، ولما أرادت قريش البنيان قالوا لقصى :

ـــ كيف نصنع فى شجر الحرم ؟

فحذرهم قطعه وخوفهم العقوبة فى ذلك ، فكان أحدهم يحوف بالبنيان حول الشجرة حتى تكون فى منزله .

وجمع قصى قريشا حول الحرم فسمته مجمعا لما جمع من أمرها ، وتيمنت بأمره فما تنكح امرأة ولا يتزوج رجل من قريش وما يتشاورون فى أمر نزل بهم ولا يعقدون لواء لحرب قوم من غيرهم إلا فى داره يعقده لهم بعض ولده ، وما تدرع (تلبس الدرع) جارية إذا بلغت أن تدرع من قريش إلا فى داره يشق عليها فيها درعا ثم تدرعه ثم ينطلق بها إلى أهلها ، فكان أمره فى قومه كالدين المتبع لا يعمل بغيره .

وشرف بيتا الشقيقين زهرة وقصى وظلت أواصر المحبة متينة بين أبناء العم ، وذهب زهرة وذهب قصى فإذا بدار زهرة تضيق بأبنائه وإذا بدار قصى تضيق بأولاد عبد مناف وعبد الدار وعبد العزى وعبد قصى وتخمر

وبرة ، فابتنى أولاد زهرة دورا حول دار أبيهم وابتنى أبناء قصى دورا حول دار أبيهم . وقامت دور بنى زهرة إلى جوار دور بنى قصى وكانت ألوية السلام ترفرف على الجميع .

ولد عبد مناف أربعة نفر : هاشم وعبد شمس والمطلب ونوفل ، وكان عبد مناف قد شرف فى زمان وذهب كل مذهب ، وكان عبد العزى قد ذاع صيته ، وكان عبد قصى قد علا ذكره ، ولم يكن خاملا من أبناء قصى إلا عبد الدار بكره ، فلما كبر قصى أشفق على عبد الدار وأراد أن يلحقه بإخوته فقال له :

ـــ أما والله يا بنى لألحقتك بالقوم وإن كانوا قد شرفوا عليك ؛ لا يدخل رجل منهم الكعبة حتى تكون أنت تفتحها له ، ولا يعقد لقريش لواء لحربها إلا أنت بيدك ، ولا يشرب أحد بمكة إلا من سقايتك ، ولا يأكل أحد من أهل الموسم طعاما إلا طعامك ، ولا تقطع قريش أمرا من أمورها إلا فى دارك .

وأعطاه داره دار الندوة التى لا تقضى قريش أمرا من أمورها إلا فيها ، وأعطاه الحجابة والسقاية والرفادة ؛ وفتح قصى بتلك الوصية أبواب الشحناء بين أولاده .

ورأى بنو عبد مناف أنهم أولى من بنى عبد الدار بالحجابة واللواء والسقاية والرفادة ، لشرفهم عليهم وفضلهم فى قومهم ، فأجمعوا على أن يأخذوا ما بأيدى بنى عبد الدار . فتفرقت عند ذلك قريش ، طائفة مع عبد شمس وهاشم والمطلب ونوفل يرون أنهم أحق بذلك الشرف من بنى عبد الدار وكان بنو زهرة منهم ، وطائفة مع عبد الدار يرون ألا ينزع منهم ما كان قصى جعل لهم .

وأخرج بنو عبد مناف جفنة مملوءة طيبا ووضعوها لأحلافهم عند

الكعبة ، ثم غمس القوم أيديهم فيها و لم يتأخر أحد من بنى زهرة ، فتعاقدوا وتعاهدوا ثم مسحوا الكعبة بأيديهم توكيدا على أنفسهم ..

كان بنو زهرة وبنو عبد مناف من المطيبين ، وكان بنو زهرة قد تأهبوا لخوض غمار الحرب لمساندة عبد شمس وهاشم والمطلب ونوفل . وكانوا على استعداد لأن يجودوا بدمائهم من أجل بنى عبد مناف ، لولا أن الفريقين المتنازعين قد تداعوا إلى الصلح على أن يعطوا بنى عبد مناف السقاية والرفادة ، وأن تكون الحجابة واللواء والندوة لبنى عبد الدار كما كانت .

وكان عبد شمس رجلا سفارا قلما يعيش بمكة ، فولى هاشم بن عبد مناف الرفادة والسقاية وسن الرحلتين لقريش : رحلتى الشتاء والصيف . وقدم المدينة فتزوج سلمى بنت عمرو أحد بنى عدى بن النجار فربط الأسباب بين مكة والمدينة واليمن ، فقد كانت سلمى من الخزرج ، وكان الأوس والخزرج من اليمن .

وولد لهاشم شيبة وعرف بعبد المطلب ، فكان عبد المطلب جماع حضارة قريش وحضارة يثرب ومدينة سبأ .

ووقعت العداوة بين هاشم وبين أخيه أمية بن عبد شمس ، فقد كان هاشم يحمل ابن السبيل ويؤدى الحقوق ، يتلألأ وجهه بالنور ويضرب بجوده المثل . وأراد أمية أن يتشبه به فعجز عنه فشمت به ناس كثير من قريش ، فكانت المنافرة بين هاشم وأمية ، وقد حكم الحكم الذى احتكما إليه أن يخرج أمية من مكة عشر سنين وأن تذبح إبله ويطعمها الناس فكانت أول عداوة بين هاشم وأمية . وقد ورث بنو هاشم فيما ورثوا عدواتهم لبنى أمية ، وقد وقف بنو زهرة إلى جوار هاشم وسخروا فيمن سخر بأمية ابن أخيه .

وذاع صيت هاشم حتى طغى على صيت قصى فعرفت داره بدار هاشم

وعرف الحى الذى أقام فيه بنوه من بعده بحى هاشم . وظل اسم زهرة علما على قومه و لم يطغ عليه صيت أحد من بنيه وإن أنجب أشرافا كما أنجب قصى أشرافا ، وقد صار هاشم وزهرة أفضل حيين فى العرب .

كانت دور بنى هاشم إلى جوار دور بنى زهرة ، وقد صار عبد المطلب سيد بنى هاشم وزعيم قريش ، وانتهى أمر بنى زهرة إلى وهب ووهيب . وقد تزوج وهب برة بنت عبد العزى بن عثمان بن عبد الدار بن قصى ، وعلى الرغم من زواجه حفيدة عبد الدار فقد كان قلبه مع عبد المطلب حفيد عبد مناف . وقد كان الود متصلا بين وهب ووهيب وعبد المطلب سيد قريش فما كان ينقضى يوم دون أن يجتمعوا فى دار الندوة أو فى ظل الكعبة أو فى دار من دورهم يتشاورون فى أمور دينهم ودنياهم .

وفتحت دار عبد المطلب وخرج منها زعيم قريش يحف به أبناؤه الحارث والزبير وحَجْل والمقدَّم وضرار وعبد العزى ــ وقد عرف بأبى لهب لإشراق وجهه ــ وعبد مناف الذى عرف بأبى طالب . فقد رأى عبد المطلب يوم كان يقوم بحفر زمزم وحده أن ابنه الوحيد الحارث أعجز من أن يصد عنه قومه الذين أتوا ليمنعوه من أن يحفر بين صنميهما إساف ونائلة ، فوطن النفس على أن يتزوج فى بيوتات قريش لتكون له عصبة منهم يؤيدونه ويناصرونه ، فتزوج فى بنى نزار وتزوج فى بنى مخزوم وتزوج فى بنى مرة بن كعب بن لؤى وتزوج فى بنى قصى بن كلاب ، فجمع بيوت قريش على قلب رجل واحد .

وكان عبد المطلب قد نذر حين لقى من قريش ما لقى عند حفر زمزم : لئن ولد له عشرة نفر ثم بلغوا معه حتى يمنعوه لينحرنَّ أحدهم لله عند الكعبة . إنه ليذكر ذلك النذر ولا ينساه . وقد توافى بنوه عشرة بعد أن وضعت له فاطمة بنت عمر بن عائذ بن عمران بن مخزوم بن يقظة بن مرة بن كعب بن لؤى بن

غالب بن فهر بن مالك بن النضر ابنه عبد الله ، بيد أن عبد الله لم يبلغ الحُلم بعد فعاش عبد المطلب ينتظر أن يبلغ عبد الله مبلغ الرجال ليفى بنذره .

وانطلق عبد المطلب إلى الكعبة وكان مديد القامة أبيض مشربا بحمرة حسن الوجه يتألق بالنور وعز الملك ، يطيف به من حضر من بنيه كأنهم أسد غاب ، ويسير خلفهم عبيدهم من فرس وروم وأحباش فقد كانت تجارة أسرى الحرب أروج تجارة ، وكان الإقبال على شراء الرقيق الأبيض من الجنسين شديدا ، فالرجال آلة جيدة من آلات التجارة والصناعة فهم أهل حضارة وعلم ، والنساء بارعات الحسن يشعلن نار الصبابة فى قلوب رجال الصحراء .

وبلغ عبد المطلب وبنوه الحرم فراحوا يطوفون بالكعبة . حتى إذا ما أتموا الطواف انطلق عبد المطلب إلى فراش معد له فى ظل البيت العتيق وجلس عليه ، وجلس أبناؤه حوله بعيدا عن ذلك الفراش فما كان يجلس عليه أحد غيره احتراما له وإجلالا لقدره .

وجاء أمية بن عبد شمس وابنه حرب ، وكان أمية قصير القامة نحيف الجسم وكان فى رفقته ابنه حرب ، وكان حرب نديم عبد المطلب قلما يفترقان وإن كانت الغيرة من عبد المطلب تنهش قلب أمية ، فقد ذهب أبوه هاشم بالشرف يوم أن حكم له الكاهن الذى ذهبا إليه ليحكم بينهما أيهما أعز نفرا وأكثر فضلا . وها هو ذا عبد المطلب يذهب بالشرف كما ذهب به أبوه من قبل ، فلقد دعاه الناس « شيبة الحمد » لكثرة حمد الناس له ، ودعوه بالفياض لجوده ، ومطعم طير السماء لأنه كان يرفع من مائدته للطير والوحوش فى رءوس الجبال ، وقد أسلس قومه له القيادة يفزعون إليه فى النوائب ويلجئون إليه فى الأمور .

كان أمية يؤمن فى قرارة نفسه أنه أحق بزعامة قريش من هاشم عمه ، وإنه لعلى يقين من أن ابنه حرب أحق بزعامة قريش من عبد المطلب بن هاشم . فإن كان عبد المطلب يطعم الناس فإن نيرانه ونيران ابنه حرب تظل مشعشة طوال الليل تدعو الضيف إلى حيث الكرم والجود ، وإن كان عبد المطلب يبعث بقوافل قريش إلى بلاد فارس وبلاد الروم واليمن فإن ابنه حرب ينطلق بالتجارة إلى العراق ، وقد توطدت الصداقة بينه وبين أشراف الحيرة حتى إنه تعلم الكتابة منهم .

ازدهرت التجارة فى مكة وخرجت القوافل تجوب الآفاق تحمل الأقمشة والمعادن والجلود والعطور والأصباغ والجواهر والأصواف والحلى ، وقد حل المكيون محل التجار اليمنيين بعد أن استولى أبرهة على اليمن وشل تجارتها . وأصبح تجار مكة يحملون حرير فارس إلى بلاد الروم بعد أن وقعت البغضاء بين كسرى أنو شروان إمبراطور إيران ويوسطنيانوس إمبراطور الروم وقطعت سبل الاتصال بين إمبراطورية الشرق وإمبراطورية الغرب . فإن كانت الأموال قد تدفقت على مكة فإن الظروف السياسية فى المنطقة قد خدمت عبد المطلب ، وإن ابن أخيه حرب قد بذل جهدا ضخما فى ثراء مكة .

كان أمية بن عبد شمس يحس كأن عبد المطلب قذى فى عينيه ولكن ابنه حرب كان يحب عبد المطلب . ولم يكن قد مرضت نفسه من ابن هاشم بعد . فلما رأى عبد المطلب انجفل إلى مجلسه بينا ذهب أبوه أمية إلى الملتزم ، إلى حيث كان الكتاب يبرمون العقود ويكتبون المواثيق .

وراح عبد المطلب وحرب بن أمية يتناجيان ، حتى إذا ما جاء وهب ووهيب وبعض رجال زهرة من التجار الذين كانوا يجوبون أسواق مصر

وبصرى والشام دار الحديث حول أخبار تلك البلاد ، فقال الذى كان يأتى بالأثواب المنسوجة فى تانيس والمصوغات المجلوبة من منف :

ـــ إن أهل مصر فى ضيق فقد وضع قيصر عليهم ضرائب باهظة ، وهم يقاسون ذل الاضطهاد فإذا كانوا على دين النصارى مثلهم مثل الـــروم فالاختلاف بينهم فى الدين شديد .

وراح الرجل يتحدث عن أوجه الخلاف فى الدين بين أقباط مصر وبين نصارى الروم ، فالأقباط على المذهب القائل بوحدة طبيعة المسيح بينا الرومان يؤمنون بلاهوت المسيح وناسوته وبالتثليث . وكان العرب على علم بدين الروم . فقد كان للرومان بيوت تجارية فى مكة وكانت تلك البيوت تقوم بالتجارة وبالتجسس على أحوال العرب ، فقد كان أبرهة الأشرم يتطلع إلى غزو الحجاز ليتصل نصارى الحبشة واليمن بنصارى الشام والروم ، فيتحقق بذلك حلم الرومان الذى أخفق فى تحقيقة أو ليوس غاليوس يوم أن اتهم صالح وزير ملك النبط بالخيانة وبتضليل جيش الرومان فى الصحراء .

وراح حرب بن أمية يتحدث عن عرب دومة الجندل وعن صديقه بشر بن عبد الملك أخى أكيدر بن عبد الملك صاحب دومة الجندل وعن انتشار الكتابة هناك ، وأصغى عبد المطلب وبنوه ومن عنده من الرجال إلى حديث القلم العربى فى الحيرة والأنبار وفى دومة الجندل فى عجب وإعجاب ، ولا غرو فقد طمر الزمن حقيقة نشأة القلم العربى فما دار بخلد أحد من السمّار أنه على بعد خطوات منهم منذ ألفين ومائتين من السنين قد نشأ القلم العربى عند بئر زمزم ، فى تلك الأيام التى كانت هاجر المصرية تعلم ابنها إسماعيل مبادىء الكتابة والقراءة ، وإن إسماعيل قد كتب الجمل موصولة ، وأن ابنه قيدار قد فصل بينها ، وأن أبناء إسماعيل حملوا معهم ذلك القلم يوم أن خرجوا من مكة

ليتفسحوا فى الأرض إلى دومة الجندل وإلى صحراء سيناء وإلى أرض النبط . وقد ازدهر ذلك القلم فى البتراء وانتشر فيما حولها من البلاد ثم عاد مرة أخرى إلى مكة بعد أن تهذب ليصبح قلم قريش وينتظر النبأ العظيم .

ودار الحديث حول الفرس وكسرى أنو شروان وعدله وكرمه ، وراح الحاضرون يقصون بعض نوادر كرمه فقال قائل منهم :

ـــ قعد كسرى أنو شروان ذات يوم فى المهرجان ووضعت الموائد . ودخل وجوه الناس الإيوان على طبقاتهم ومراتبهم ، وقام الموكلون بالموائد على رءوس الناس وكان كسرى بحيث يراهم .

فلما فرغ الناس من الطعام جاءوا بالشراب فى آنيته الفضية وجامات الذهب ، فشرب الأساورة وأهل الطبقة العالية فى آنية الذهب . فلما انصرف الناس ورفعت الموائد أخذ بعض القوم جاما ذهبا فأخفاه فى خبائه وأنو شروان يلحظه ، فصرف وجهه عنه . وافتقد صاحب الشراب الجام فصاح : لا يخرجن أحد من الدار حتى يفتش .

فقال كسرى : « لا تتعرض لأحد » . وأذن للناس فانصرفوا ، فقال صاحب الشراب : « أيها الملك إنا فقدنا بعض آنية الذهب » . فقال الملك : « قد أخذها من لا يردها عليك ، وقد رآه من لا ينم عليه » .

وجاء رجل يهودى يسعى حتى إذا بلغ مجلس عبد المطلب ألقى التحية ثم جلس ، فقد كان فى جوار عبد المطلب وفى حمايته ، وقد كانت مكة تفيض باليهود ونصارى الروم والأحباش الذين يشرفون على تجارتهم فى المدينة المقدسة التى يحج إليها العرب ويأتون إليها من كل فج عميق ، وكانوا يمارسون ديانتهم فى حرية فقد كانت كل العبادات تمارس فى مكة .

شب عبد المطلب فى يثرب فى كنف أمه سلمى بنت عمرو الخزرجية ،

وكان فى صباه يدور على حوانيت اليهود فى السوق فى النهار ويمضى بعض الأمسيات يصغى إلى حديث الدين ، فاعتنق بعض آراء اليهود دون أن يدرى ، فلما بدأ عبد المطلب يتحدث أسفر عن أثر اليهود فى معتقداته قال :

— لن يخرج من الدنيا ظلوم حتى ينتقم منه وتصيبه عقوبه .

فقال اليهودى فى فرح :

— صدقت .

كانت اليهودية قد فسدت بعد أن حمل بختنصر اليهود أسرى إلى بابل ، فقد نسوا الآخرة والبعث بعد الموت وما دعاهم إليه إبراهيم وإسحاق ويعقوب ويوسف وموسى ، واعتنقوا معتقدات البابليين وقالوا بما كان يقول البابليون من أن المرء يثاب على عمله فى الدنيا إن خيرا فخير وإن شرا فشر ، وأنكروا البعث والقيامة والحساب فى الدار الآخرة .

وراح أحد الحاضرين يؤيد رأى عبد المطلب فقال :

— إن هى إلا حياتنا الدنيا .

وأخذ اليهودى طرف الحديث وراح يحدث أخبار بنى إسرائيل فصار قطب الرحى فى مجلس أشراف قريش وسادتها ، وضايق ذلك حرب بن أمية فنهر اليهودى وأغلظ له فرمى عبد المطلب حرب بن أمية بنظرة قاسية فهمها حرب ، فقد كانت تقول فى فصاحة قد يعجز عنها اللسان : « إنه فى جوارى وإنى لا أسمح لك أن تنهره فى مجلسى » . فنهض حرب بن أمية وقد لاح فى وجهه الغضب ، ثم انصرف لا يلوى على شىء .

٢

كانت العداوة مستعرة الأوار بن عرب الفرس وعرب الروم . فإن كان عمرو بن هند ملك الحيرة قد أصبح فى الغابرين وإن كان الحارث بن جبلة ملك الغساسنة قد لحق بآبائه ، فإن قابوس أخا عمرو بن هند كان أول ما فكر فيه بعد أن صار ملك الحيرة أن يغزو الشام وأن يأسر المنذر بن الحارث بن جبلة ملك الغساسنة وحليف الروم .

تولى قابوس الحكم وهو رجل مسن حنكته التجارب وعركته الأيام ، ولكنه لم يفكر فى أن يجمع شمل العرب بأن يعقد صلحا بينه وبين عرب الشام ويوحد صفوف الحيرة وغسان ليصبح للعرب قوة تهابها فارس وتخشاها الروم ، بل عمل على فرقة العرب وإشعال نار البغضاء فى النفوس فجمع جيوشه وخرج من الحيرة قاصدا عرب الشام . وقد كان على علم بالطريق فإنه قد حمل حملة انتقامية على الغساسنة فى أيام أخيه .

وأغار الشيخ قابوس على الشام وأعمل القتل فى الرجال وسبى ما وقع فى يده من النساء وأسر الشباب ليبيعهم فى أسواق الحيرة وفارس ويثرب ومكة ، وغنم غنائم كثيرة ثم قفل عائدا وهو يحلم برضا كسرى أنو شروان إمبراطور الفرس العظيم .

وأفاق المنذر بن الحارس بن جبلة من هول المفاجأة فجمع جيوشه وخرج فى أثر عدوه يطير على جناح الكراهية حتى لحق به ، فالتحم عرب الحيرة بعرب الشام ودارت معركة رهيبة سالت فيها دماء العرب على الأرض إرضاء

لكسرى وقيصر ، و لم يتمكن قابوس من الثبات فانهزم هزيمة منكرة وفر هو ومن سار معه من الناجين فى اتجاه نهر الفرات ، تاركا عددا من الأمراء اللخميين أسرى فى أيدى المنذر .

واقتفى جيش الشام أثر جيش الحيرة فقد كان المنذر يطمع فى أن يقضى على غريمه فى المعركة ، ولكن قابوس كان قد نجح فى انسحابه فى أن يدخل مملكته . فلما رأى المنذر أنه أصبح على ثلاث مراحل من الحيرة وأنه قد أخذ من قابوس أموالا كثيرة وعددا من الجمال كبيرا آثر أن يعود منتصرا ليرضى بنصره يوسطانيوس قيصر الروم .

كان قابوس يبغى من حروبه وجه كسرى ، وكان المنذر بن الحارث يبغى وجه قيصر ، وكانت دماء العرب تسيل أنهارا إرضاء لكسرى وقيصر . وكان كل من كسرى أنو شروان ويوسطانيوس راضيا عن تلك الحروب كل الرضا فقد كانت توهن العرب وتمنع كلاب الحراسة من أن يتحولوا إلى أسد غاب ينقضون على قلب الفرس وقلب الروم .

وجلس قابوس فى قصره الخورنق يفكر فى أمره : إنه هزم من المنذر بن الحارث هزيمة تجرح النفس وتدمى القلب ولن يذوق الراحة قبل أن يثأر لهزيمته ويعيد للحيرة كرامتها . وطار فكره إلى المدائن عاصمة فارس فقد كانت قبلة ملوك الحيرة ، كما كانت القسطنطينية قبلة ملوك الشام .

آه لو كان عدى بن زيد العبادى فى الحيرة لانطلق معه إلى المدائن ولفتحت لهما أبواب قصر كسرى ، فما كان كسرى أنو شروان يرد لعدى طلبا . ولكن عدى فى جفير فى البحرين ينعم برياضها ومائها ومنازعها ، وإنه ليشتو فى الحيرة ويأتى المدائن فى خلال ذلك فيخدم كسرى .

وشرد قابوس يفكر فى عدى ، فإذا بالسنين تطوى فى ذهن الملك الشيخ

وإذا بالأحداث تترادف على رأسه فتتفتح الرؤيا لعين الخيال ، وإذا بتاريخ قد طوته السنون يبعث فى نفس الملك المتهالك على أعتاب فارس .

وكان منزل أيوب بن محروف بن عامر بم عُقيَّة بن امرئ القيس بن زيد بن تميم بن مر بن أد بن طابخة بن إلياس بن مضر بن نزار ، جد عدى فى اليمامة ، فأصاب دما فى قومه فهرب فألحق بأوس بن قلام أحد بنى الحارث بن كعب بالحيرة . وكان بين أيوب بن محروف وبين أوس بن قلام هذا نسب من قبل النساء . فلما تقدم عليه أيوب أكرمه وأنزله فى داره فمكث معه ما شاء الله أن يمكث ، ثم إن أوسا قال له :

ـــ يا بن خال ، أتريد المقام عندى وفى دارى ؟

ـــ نعم . علمت أنى إن أتيت قومى وقد أصبت فيهم دما لم أسلم ، وما لى دار إلا دارك آخر الدهر .

ـــ إنى قد كبرت وأنا خائف أن أموت فلا يعرف ولدى لك من الحق مثل ما أعرف ، وأخشى أن يقع بينك وبينهم أمر يقطعون فيه الرحم ، فانظر أحب مكان فى الحيرة إليك فأعلمنى به لأقطعكه أو أبتاعه لك .

فابتاع له موقع داره بثلثمائه أوقية من ذهب وأنفق عليها مائتى أوقية ذهبا ، وأعطاه مائتين من الإبل برعائها وفرسا وقينة . فمكث فى منزل أوس حتى هلك ثم تحول إلى داره التى فى شرق الحيرة . واتصل أيوب بالملوك الذين كانوا بالحيرة وعرفوا حقه وحق ابنه يزيد ، وثبت أيوب فلم يكن منهم ملك يملك إلا ولولد أيوب منه جوائز وحُملان .

وتزوج زيد بن أيوب امرأة من آل قلام فولدت حمَّادا . فخرج زيد بن أيوب ذات يوم يريد الصيد فى ناس من أهل الحيرة فانفرد فى الصيد وتباعد من أصحابه ، فلقيه رجل من بنى امرئ القيس الذين كان لهم الثأر قبل أبيه فعرف

فيه شبه أيوب ، فقال له :

ـــ ممن الرجل ؟

ـــ من بنى تميم .

ـــ من أيهم ؟

ـــ مرئى (نسبة إلى امرئ القيس) .

ـــ وأين منزلك ؟

ـــ الحيرة .

ـــ أمن بنى أيوب أنت ؟

ـــ نعم ، ومن أين تعرف بنى أيوب ؟

واستوحش من الأعرابى وذكر الثأر الذى هرب أبوه منه ، فقال الأعرابى فى خبث :

ـــ سمعت بهم .

ولم يعلمه أنه عرفه ، فقال له زيد بن أيوب :

ـــ فمن أى العرب أنت ؟

ـــ أنا امرؤ من طيئ .

فأمنه زيد وسكت عنه .

ثم إن الأعرابى اغتفل زيد بن أيوب فرماه بسهم فوضعه بين كتفيه ففلق قلبه ، فلم يبرح حافر دابته حتى مات .

ومكث حماد فى أخواله حتى أيفع فخرج ذات يوم يلعب مع غلمان بنى لحيان ، فلطم اللحيانى عين حماد فشجه حماد ، فخرج أبو اللحيانى فضرب حمادا فجزعت من ذلك أم حماد وحولته إلى دار زيد بن أيوب وعلمته الكتابة فى دار أبيه ، فكان حماد أول من كتب من بنى أيوب فخرج من أكتب الناس .

وطلب حتى صار كاتب النعمان الأكبر ، فلبث كاتبا له حتى ولد له ابن من امرأة تزوجها من طيئ فسماه زيدا باسم أبيه ، وكان لحماد صديق من الدهاقين (التجار) العظماء يقال له فروخ ماهان ، وكان محسنا إلى حماد ، فلما حضرت حمادا الوفاة أوصى بابنه إلى زيد الدهقان وكان من المرازبة ، فأخذه الدهقان إليه فكان عنده مع ولده .

كان زيد قد حذق الكتابة العربية قبل أن يأخذه الدهقان ، فعلمه لما أخذه الفارسية وكان لبيبا ، فأشار الدهقان على كسرى أن يجعله على البريد فى حوائجه ، ولم يكن كسرى يفعل ذلك إلا بأولاد المرازبة ، فمكث يتولى ذلك لكسرى زمانا . ثم إن النعمان النصرى اللخمى هلك فاختلف أهل الحيرة فيمن يملكونه إلى أن يعقد كسرى الأمر لرجل ينصِّبه ، فأشار عليهم المرزبان بزيد بن حماد فكان على الحيرة إلى أن ملَّك كسرى المنذر بن ماء السماء .

وتزوج زيد بن حماد نعمة بنت ثعلبة العدوى فولدت له عديًّا ، وملك المنذر وكان لا يعصيه فى شيء . وولد للمرزبان ابن فسماه « شاهان مَرْدْ » فلما تحرك عدى بن زيد وأيفع طرحه أبوه فى الكتَّاب ، حتى إذا حذق أرسله المرزبان مع ابنه « شاهان مرد » إلى كتاب الفارسية ، فكان يختلف مع ابنه ويتعلم الكتابة والكلام بالفارسية ، حتى خرج من أفهم الناس بها وأفصحهم بالعربية .

وقال الشعر وتعلم الرمى بالنشاب فخرج من الأساورة الرماة ، وتعلم لعب العجم على الخيل بالصوالجة وغيرها . ثم إن المرزبان وفد على كسرى ومعه ابنه « شاهان مرد » فبينما هما واقفان بين يديه إذ سقط طائران على السور فتطاعما كما يتطاعم الذكر والأنثى ، فجعل كل واحد منقاره فى منقار الآخر

فقال كسرى للمرزبان وابنه :

ــ ليرم كل واحد منكما واحدا من هذين الطائرين فإن قتلماهما أدخلتكما بيت المال وملأت أفواهكما بالجوهر ، ومن أخطأ منكما عاقبته .

فاعتمد كل واحد منهما طائرا منهما ورميا فقتلاهما جميعا ، فبعثهما إلى بيت المال فملئت أفواههما جوهرا . وأثبت « شاهان مرد » وسائر أولاد المرزبان فى صحابته ، فقال فروخ ماهان عند ذلك للملك :

ــ إن عندى غلاما من العرب خلفه أبوه عندى فربيته ، فهو أفصح الناس وأكتبهم بالعربية والفارسية ، والملك محتاج إلى مثله ، فإن رأى أن يُثبته فى ولدى فعل .

ــ ادعه .

فأرسل إلى عَدِيٍّ بن زيد وكان جميل الوجه فائق الحسن وكانت الفرس تبرك بالجميل الوجه ، فلما كلمه الملك وجده أظرف الناس وأحضرهم جوابا ، فرغب فيه وأثبته مع ولد المرزبان . فكان عدى ــ حفيد عدنان ــ أول من كتب بالعربية فى ديوان كسرى . فرغب أهل الحيرة إلى عدى ورهبوه ، فلم يزل بالمدائن فى ديوان كسرى يؤذن له عليه فى الخاصة وهو معجب به قريب منه ، وأبوه زيد بن حماد يومئذ حى ، إلى أن ارتفع ذكر عدى وخمل ذكر أبيه ، فكان عدى إذا دخل على المنذر قام جميع من عنده حتى يقعد عدى ، فعلا له بذلك صيت عظيم ، فكان إذا أراد المقام بالحيرة فى منزله ومع أبيه وأهله استأذن كسرى فأقام فيهم الشهر والشهرين وأكثر وأقل .

وأرسل كسرى عدى بن زيد إلى ملك الروم بهدية من طُرَف ما عنده ، فلما أتاه عدى بها أكرمه وحمله إلى عماله على البريد ليريه سعة أرضه وعظيم ملكه ، فمن ثم وقف عدى بدمشق وقال فيها الشعر .

وفسد أمر الحيرة وعدى بدمشق حتى أصلح أبوه بينهم ، لأن أهل الحيرة كان عليهم المنذر أرادوا قتله لأنه كان لا يعدل فيهم وكان يأخذ من أموالهم ما يعجبه ، فلما تيقن أن أهل الحيرة قد أجمعوا على قتله بعث إلى زيد بن حماد وكان قبله على الحيرة فقال له :

ـــ يا زيد أنت خليفة أبى وقد بلغنى ما أجمع عليه أهل الحيرة فلا حاجة لى فى ملككم دونكموه ملكوه من شئتم .

فقال له زيد :

ـــ إن الأمر ليس إلىّ ، ولكنى أسيرُ لك هذا الأمر ولا آلوك نصحا .

فلما أصبح غدا إليه الناس فحيوه تحية الملك وقالوا له :

ـــ ألا تبعث إلى عبدك الظالم فتريح منه رعيتك .

وفهم زيد أنهم يعنون المنذر فقال لهم :

ـــ أولا خير من ذلك ؟

ـــ أشر علينا .

ـــ تدعونه على حاله فإنه من أهل بيت مُلك، وأنا آتيه فأخبره أن أهل الحيرة قد اختاروا رجلا يكون أمر الحيرة إليه ، إلا أن يكون غزو أو قتال فلك اسم الملك وليس إليك سوى ذلك من الأمور .

ـــ رأيك أفضل .

فأتى المنذر فأخبره بما قالوا ، فقبل ذلك وفرح وقال :

ـــ إن لك يا زيد علىّ نعمة لا أكفرها ما عرفت من حق سبد .

وكان سبد صنما لأهل الحيرة ، فولى أهل الحيرة زيدا على كل شيء سوى اسم الملك فإنهم أقروه للمنذر .

ثم هلك زيد وابنه عدى يومئذ بالشام ، وكانت لزيد ألف ناقة كان أهل

الحيرة أعطوه إياها حين ولوه ما ولوه ، فلما هلك أرادوا أخذها فبلغ ذلك المنذر فقال :

ــ لا واللات والعزى لا يؤخذ مما كان فى يد زيد شىء ، وأنا أسمع الصوت .

ثم إن عديا قدم المدائن على كسرى بهدية قيصر ، فصادف أباه والمرزبان الذى رباه قد هلكا جميعا ، فاستأذن كسرى فى الإلمام بالحيرة فأذن له فتوجه إليها . وبلغ المنذر خبره فخرج فتلقاه الناس ورجع معه وعدى أنبل أهل الحيرة فى أنفسهم ولو أراد أن يملكوه لملكوه ، ولكنه كان يؤثر الصيد واللهو واللعب على الملك فمكث سنين يبدو فى فصل السنة ، فيقيم فى جفير ويشتو بالحيرة ويأتى المدائن فى خلال ذلك فيخدم قيصر .

وكان المنذر لما ملك جعل ابنه النعمان بن المنذر فى حجر عدى بن زيد فهم الذين أرضعوه وربوه ، وكان للمنذر ابن آخر يقال له « الأسود » أمه مارية بنت الحارث بن جلهم من تيْم الرباب ، فأرضعه ورباه قوم من أهل الحيرة يقال لهم مرينا ينسبون إلى لخم وكانوا أشرافا .

وكان للمنذر سوى هذين من الولد عشرة ، وكان ولده يقال لهم « الأشاهب » من جمالهم . وكان النعمان من بينهم أحمر أبرش قصيرا ، وأمه سلمى بنت وائل بن عطية الصائغ من أهل فدك على بعد يومين من المدينة .

ومرت الأيام وقدم عدى بهدية من كسرى إلى المنذر والنعمان يومئذ فتى شاب ، وبعد أن قدم عدى هدية كسرى إلى المنذر دخل البيعة ليصلى لله فى الوقت الذى دخلت فيه هند بنت النعمان .

كانت هند من أجمل نساء أهل زمانها وكانت مديدة القامة عبلة الجسم ولها حينئذ إحدى عشرة سنة ، فرآها عدى وهى غافلة فلم تنتبه له حتى تأملها ،

وقد كان جواريها رأين عديا وهو مقبل فلم يقلن لها كي يراها عدى .

ورأت هند عديا ينظر إليها فشق ذلك عليها وسبت جواريها ونالت بعضهن بضرب ، فوقعت هند فى نفس عدى فلبث حولا لا يخبر بذلك أحدا .

وجاءت جارية من جواريها إليها وراحت تزين لها بيعة توما وتصف لها من فيها من الرواهب ومن يأتيها من جوارى الحيرة وحسن بنائها وسرجها ، ثم قالت لها .

ــ سلى أمك الإذن لك فى إتيانها .

فسألتها ذلك فأذنت لها ، وبادرت الجارية إلى عدى فأخبرته الخبر فبادر فلبس قباء كان « فرخانشاه مرد » قد كساه إياه وكان مذهبا لم ير مثله حسنا ، وكان عدى حسن الوجه مديد القامة حلو العينين حسن المبسم نقى الثغر ، وأخذ معه جماعة من فتيان الحيرة فدخل البيعة ، فلما رأته الجارية قالت لهند :

ــ انظرى إلى الفتى ! فهو والله أحسن من كل ما تريدين من السرج وغيرها !

ــ ومن هو ؟

ــ عدى بن زيد .

ــ أتخافين أن يعرفنى إن دنوت منه لأراه من قريب ؟

ــ ومن أين يعرفك وما رآك قط من حيث يعرفك !

فدنت منه وهو يمازح الفتيان الذين معه وقد برع عليهم بجماله وحسن كلامه وفصاحته وما عليه من الثياب ، فذهلت لما رأته وبهتت تنظر إليه ، وعرفت الجارية ما بها وتبينته فى وجهها فقالت لها :

ــ كلميه .

فكلمته وانصرفت وقد تبعته نفسها وهويته وانصرف وقد شغف بها

حبا . فلما كان الغد تعرضت له الجارية فلما رآها هش لها وكان قبل ذلك لا يكلمها ، وقال لها :

— ما غدا بك ؟

فعاهدته على أن تحتال له فى هند ، ثم تركته فأتت هندا فقالت :

— أما تشتهين أن ترى عديا ؟

— وكيف لى به ؟

— أعده فى ظهر القصر وتشرفين عليه .

— افعلى .

فواعدته إلى ذلك المكان فأتاه ، وأشرفت هند عليه فكادت تموت وقالت :

— إن لم تدخليه إلىَّ هلكت .

فبادرت الأمة إلى النعمان فأخبرته خبرها وصدقته ، وذكرت أنها قد شغفت به وأنه إن لم يزوجها به افتضحت فى أمره أو ماتت ، فقال لها :

— ويلك ! وكيف أبدؤه بذلك !

— هو أرغب فى ذلك من أن تبدأه أنت ، وأنا أحتال فى ذلك من حيث لا يعلم أنك عرفت أمره .

وأتت عديا فأخبرته الخبر وقالت :

— ادعه ، فإذا أخذ الشراب منك فاخطب إليه فإنه غير رادك .

— أخشى أن يغضبه هذا فيكون سبب العداوة بيننا .

— ما قلت لك هذا حتى فرغت منه معه .

فصنع عدى طعاما واحتفل فيه ، ثم أتى النعمان فسأله أن يتغدى عنده هو وأصحابه ففعل ، فلما أخذ منه الشراب خطبها إلى النعمان فأجابه وزوجه

وضمها إليه بعد ثلاثة أيام .

طافت كل هذه الأحداث برأس الملك قابوس وهو جالس فى مكانه ثم غمغم : « ذلك عدى بن زيد وقد تزوج فيها ، وهذه مكانته فى بلاط كسرى . إنه سيعاوننى ولا ريب وسيلتمس من كسرى أن يجهزنى لقتال المنذر بن الحارث بن جبلة حليف الروم » .

وتأهب الشيخ قابوس للسفر إلى المدائن وهو يحلم باستقبال رائع كذلك الاستقبال الذى قوبل به الحارث بن جبلة فى القسطنطينية ، ترى أيخرج كسرى أنو شروان لاستقباله كما خرج يوسطانيوس لاستقبال الحارث ؟

ووصل قابوس إلى عاصمة فارس فإذا بضابط عظيم فى استقباله ، وبعد أن حياه فى إجلال قاده إلى قاعة العرش ليقابل « الإنسان الأول » . فما كان أحد ليجرؤ أن ينادى الملك باسمه أو لقبه ، فملوك الساسانيين من الكائنات الإلـٰهية .

وفتح باب قاعة العرش ونادى الحارس الواقف بالباب بصوت جهورى :

ـــ الملك المبجل قابوس ملك الحيرة .

ودخل قابوس يحف به رجال القصر فإذا بكسرى أنو شروان على عرشه وعلى رأسه التاج من الذهب محلى بالجواهر والياقوت الذى رصع به يشع عظمة ، وقد أحيط بصف من اللآلئ كانت تلمع فوق التاج وقد انعكس نورها المتموج على ألوان الزمرد الزاهية ، فلما وقعت عينا قابوس على ذلك التألق وقعتا على عجب محير .

وكان كسرى يلبس سروالا مزخرفا بالذهب منسوجا باليد على لون السماء ، وكان العرش محمولا على الخيول ذات الأجنحة ، وعلى بعد عشرة أذرع جلس الأساورة وأبناء الملوك وكان عدى بن زيد فيهم . وعلى بعد عشرة

أذرع من هذه الطبقة جلست بطانة الملك وندماؤه ومحدثوه من أهل الشرف والعلم .

وتقدم قابوس من العرش حتى إذا ما أصبح على بعد خطوات من كسرى جذب من كمه ششتقة بيضاء نقية غطى بها فمه ليمنع أنفاسه من تلويث الأشياء المقدسة ووقاية لجلال الملكية ، ثم بدأ حديثه بالتحية ، وتمنى أن يحقق الله رغبات قدسية الملك الطاهر والإنسان الأول .

وأجلس كسرى أنو شروان الملك قابوس ملك الحيرة إلى جواره ثم راح يسأله عن رحلته وعن حالة بلاده وجيشه ، فأخذ قابوس يصف ما لقى من كرم رجال الملك الطيب أينما نزل ، وراح يصف حال بلاده وحال جيشه الذى يريد أن يقويه ليغزو أهل الشام نكاية فى قيصر ، وكان يقول بين كل جملة وجملة « خلدك الله » أو « حقق الله رغبات قدسيتكم » ليستميل كسرى أنو شروان وينال رضاه وعطفه .

وانتقل كسرى وقابوس إلى مائدة الملك ، وكان عن يمين كرسى الملك كرسى من الذهب وكرسيان آخران من الذهب عن يساره وورائه ، فأحد هذه الكراسى الثلاثة كان خاصا بملك الصين ، والثانى لملك الروم ، والثالث لملك الخزر ، بحيث إنهم إذا أتوا إلى بلاط كسرى جلسوا على هذه الكراسى . وهذه الكراسى الثلاثة توضع طول السنة ، فلم تكن ترفع ولا يجرؤ أحد على الجلوس عليها ، ولكن كسرى أجلس قابوس عن يمينه إكراما له وتعظيما .

وكان أمام العرش كرسى من ذهب جلس عليه البزرك فرمادار — ومن تحته كراسى حجزت للمرازبة والعظماء ؛ وكان لكلّ كرسى خاص حسب مكانته .

وأمر كسرى بالتأهب للخروج للصيد إكراما لقابوس ، فراح الأساورة

والموبدان موبد وخاصة الملك يعرضون دوابهم على صاحب دواب الملك ، لأنه لا ينبغى أن يكون حصان أحدهم بليدا أو كثير النفور أو العثار أو الجماح ، فيكون على الملك من ذلك بعض ما يكره .

ولما كان ينبغى على الحصان ألا يروث أو يبول أو يتحصن أو يتشعب فى حضرة الملك فقد امتنع الأساورة عن أن يطعموا دوابهم ، ففى الغد سيخرجون مع الملك وضيفه إلى رحلة صيد ، وكانت مصاحبة الملك فى رحلة واجبا ثقيلا وشرفا غير مساغ عند عظماء مملكته !

وخرج كسرى وقابوس وعدى بن زيد للصيد ، وقد كانت فرصة طيبة لقابوس فاهتبلها وحدث الملك الطيب عن رغبته فى تقوية جيشه ليغزو المنذر ابن الحارث بن جبلة حليف قيصر ، وقد شد عدى بن زيد أزر قابوس حتى إن كسرى وعد بمعاونة ملك الحيرة وتجهيزه لقتال عرب الشام .

وعاد قابوس إلى عاصمة ملكه وقد تدفقت الدماء حارة فى عروق الشيخ وراح قلبه يخفق بالكراهية لعرب الروم ، وما كاد يستقر فى قصر الخورنق حتى أصدر أوامره بتجهيز الجيوش للخروج لقتال الغساسنة .

وراح العرب يتأهبون لسفك دماء العرب . أما من رجل رشيد من العرب يوحد صفوفهم لوجه الله لا لوجه كسرى ولا لوجه قيصر ؟!

٣

خرجت آمنة بنت وهب ، وابنة عمها هالة بنت وهيب ، وبعض بنات بنى زهرة وصبيانهم ، وبعض بنات بنى هاشم وصبيانهم ، من دورهم ليلعبوا على روابى مكة وفى وديانها ، وانطلقوا فى طرقات مكة الضيقه يضحكون فى براءة الملائكة . وإن هى إلا خطوات حتى أشرفوا على الكعبة ، فقد كانت الدور تحيط بالحرم تقترب منه أو تبتعد عنه لما لكل أسرة من مكانة ومقام ، فكان بنو زهرة وبنو هاشم أقرب أهل مكة إلى البيت المقدس فقد كانا أشرف حيين من العرب .

كانت الشمس قد أشرقت فغمرت أشعتها الدور التى انتشرت على سفوح الجبال المحيطة بأول بيت وضع للناس ، وبدأت الحياة تدب فى الوادى المقدس فانحدر الناس ليطوفوا بالبيت العتيق قبل أن ينصرفوا إلى أعمالهم . واستقبل غلام من بنى زهرة قرص الشمس وقد أخذ بين سبابته وإبهامه سنا له قد سقطت ، ثم قذف بها وهو يقول :

ــ يا شمس ، أبدلينى بسن أحسن منها ، ولتجر فى ظلمتها آياتك .

وضحكت آمنة وغلمان بنى زهرة وبنى هاشم ثم انطلقوا كفراشات طليقة إلى الصفا ووقفوا فوقه ينظرون إلى الكعبة وإلى بئر زمزم وإلى قوافل الحجاج التى بدأت تفد على مكة ، فقد دنا موسم الحج . ولمح أحدهم قافلة قادمة من ناحية الطائف فصاح فى فرح :

ــ قافلة عبد المطلب ، جاءت بالتمر والزبيب .

كان عبد المطلب يأتى بالتمر والزبيب من حر ماله ويضعها فى ماء زمزم ليسقى الحجيج تقربا إلى الله ، وقد كان غلمان قريش ينهلون فى الموسم من أحواض الماء القريبة من الحرم التى وضع فيها التمر والزبيب ، كانوا يجدون سعادة فى مزاحمة الحجاج على الماء فقد كانوا يحسون إحساس من بدأ كفاح الحياة لأول مرة .

وانحدرت آمنة من فوق الصفا ، وانحدر معها لداتها ، وراحت تهرول بين الصفا والمروة كما يفعل الحجاج ، تشبها بهاجر لما كانت تهرول بينهما بحثا عن الماء لتنقذ وحيدها إسماعيل من الموت عطشا قبل أن يفجر الله له زمزم . وكانت آمنة سعيدة فى سعيها ، رقيقة كنسيم الصبا ، متفتحة كزهرة الربيع ، تستشعر على الرغم من حداثة سنها أنها من أشرف بيت من بيوت قريش ، إلا أنها لم تكن تحس فى أعماقها أنها أشرف من وطئت قدماها الرمال التى وطأتها قدما هاجر أم العرب ، فإن كان لهاجر فضل تكوين المجتمع المكى حول زمزم . فمنها سينبعث النور الذى سيخرج من مكة ليغمر وجه الأرض كلها .

واتخذت آمنة وبنات بنى زهرة وبنى هاشم وغلمانهم طريقهم إلى الكعبة ، وقد نصب الحمس قبابهم الحمر بين الصفا وباب الحرم ، وكانت القباب من الأدم ، فالحمس فى الأشهر الحرم لا يغزلون صوفا ولا وبرا ولا يدخلون بيتا من الشعر والمدر . إنهم أبناء الحرم المتزمتون فى دينهم لا يعظمون شيئا من الأرض التى وراء الحرم ، وقد تركوا الوقوف على عرفة لأنه خارج عن الحرم واكتفوا بالوقوف بالمزدلفة .

وكان الحمس يقولون : لا نطوف فى الثياب التى قارفنا فيها الذنوب ، ولا نعبد الله فى ثياب أذنبنا فيها ، ولا نطوف فى ثياب عصينا الله فيها ، فكانوا

يعيرون الناس ثيابا جديدة أو يبيعونها للقادرين . وكان الفقراء يطوفون بالبيت عرايا ، أما من يطوف بثيابه فقد كان عليه أن يطرحها بعد الطواف حتى تبلى من وطأة الأقدام ولفح الشمس وزمجرة الرياح .

ودخلت آمنة ولداتها الحرام . كان أمامهم مقام إبراهيم وباب الكعبة وعن شمائلهم بئر زمزم ، فانطلقوا إلى البئر ليطفئوا عطشهم ثم ذهبوا ليطوفوا بالبيت مع الطائفين .

وكانت الأصنام منصوبة فى الكعبة ومن حولها ، وكان الناس يعبدونها لتقربهم إلى الله زلفى ، وكانت آمنة تنظر إلى الأصنام فى ريبة فجدها أبو كبشة قد كفر بالأصنام جميعا وعبد كوكب « الشعرى العبور » وهو من نجوم الجوزاء ، وقد سخر من عبادة الأصنام التى لا تملك لنفسها نفعا ولا ضرا ، وقد سمعت آمنة ولا ريب من رجال الأسرة ونسائها بدعوة أبى كبشة وما سنه للعرب من عبادة الكواكب وتسفيه أحلام قومه .

كانت مكة قد انتقلت من مرحلة الورع إلى مرحلة الخرافة فراح أهلها ينسجون حول كل ظواهر الطبيعة أسطورة . فقالوا إن الشعرى العبور كانت و « شعرى الغميصاء » و « سهيل » مجتمعة ، لذلك يقال للشعريات أختا « سهيل » ، فانحدر سهيل فصار يمانيا ، واتبعته العبور فعبرت « المجرة » ، وأقامت الغميصاء فبكت لفقد سهيل حتى غمصت ، وذلك هو سبب أن الشعرى العبور أشد ضياء من الشعرى الغميصاء التى أضعف البكاء نور عينها .

كانت آمنة تحس راحة كلما لاذت بالحرم وانشراحا يملأ وجدانها ونورا ينتشر فى جوانب نفسها ، وأن قلبها الصغير قد اتسع ليحتوى الكون كله ، فهى تستشعر تناسقا مع الوجود وتعاطفا مع كل ما تقع عيناها عليه .

وحانت من آمنة التفاتة فرأت مجلس عبد المطلب وقد جلس حوله أبناؤه العشرة كأنهم أسد غاب ، وقد كان عبد الله فيهم فطافت بذهنها حقيقة لم تفطن إليها من قبل ؛ إن الدنيا لا تثبت على حال ، فعبد الله منذ عهد قريب كان بين غلمان بنى هاشم يلعب معهم فى الحجون ويجرى بين الصفا والمروة وينطلق معهم إلى السوق ، وها هو ذا اليوم قد بلغ مبلغ الرجال وجلس بين سادات قريش شريفا من أشرف بيت ، ترى ماذا يسمع عبد الله من حديث وماذا يقول فى مثل ذلك المجلس الجليل !؟

وضم عبد المطلب ابنه عبد الله إلى صدره فى حب ، فقد كان عبد الله أصغر بنيه وأحبهم إلى قلبه ، وتوجت شفتى عبد الله ابتسامة رقيقة فبدا لآمنة أن وجه الدنيا كلها قد أشرق بالابتسام ، وأحست آمنة أنها ليست وحدها التى ترسل النظر إلى عبد الله فقد لمحت رقيقة بنت نوفل بن أسد بن عبد العزى بن قصى أخت ورقة بن نوفل ، واقفة عند حجر إسماعيل تختلس النظر إلى عبد الله .

كان ورقة بن نوفل قد تنصر بعد أن كفر بأوثان قومه وطلب الدين فى الآفاق ، فكان يعكف على التوراة و الإنجيل وديانات الأقدمين ، حتى إذا ما دخلت عليه أخته رقيقة راح يحدثها عن الدين ويقول لها فيما يقول :

— إنه كائن فى هذه الأمة نبى .

فكانت رقيقة تحلم بأن تكون أم ذلك النبى المنتظر ، وكانت تقلب بصرها فى وجوه شباب قريش كأنما كانت تبحث عن وجه والد ذلك النبى ، وقد كانت رقيقة ذات فراسة فاستراحت إلى وجه عبد الله .

وأقبل وهب سيد بنى زهرة ووهيب أخوه على مجلس عبد المطلب وجلسا ، وراح وهب يحادث عبد المطلب وقد أخذ بذقنه ملاطفا ، ورأته آمنة فقالت لهالة :

ــ قد جاء أبى وأبوك .

والتفتت هالة فوقعت عيناها على أبيها وهيب وقد راح يحادث أمية بن حرب بن عبد شمس نديم عبد المطلب زعيم قريش ، فلاح فى وجهها خوف فابتعدت وقد اتخذت طريقها ناحية الباب الذى يفضى إلى سوق مكة ، وفتيات بنى زهرة وبنى هاشم وغلمانهم فى أثرها .

وخرجت آمنة وهالة والذين معهما إلى سوق مكة وكان سقيفة قد حجبت أشعة الشمس الحامية ، وقد انتشرت على جانبى السوق حوانيت التجار التى غصت بالأقمشة المصنوعة فى تانيس والحلى المجلوبة من منف والحرير الوارد من فارس والطرف السورية .

وراحت ذرية زهرة وهاشم يتفرسون فى وجوه الناس الذين كانت السوق تموج بهم ، كانوا عربا ونصارى ويهودا وسوريين ومصريين وأحباشا وورومانيين قد عرفوا الراحة والاستقرار فى مكة ، بعد أن ذاقوا مرارة الاضطهاد فى بلادهم .

كانت السوق قد ازدحمت بكل أجناس الأرض ، تترد فى جنباتها لغات متباينة ، فكان أهل مكة يلتقطون كلمة من هنا وكلمة من هناك فتثرى بذلك لغتهم ، ويقتبسون ما يروق لهم من حضارة الشعوب التى جاء أبناؤها إليها مختارين يلتمسون الأمن ، أو جاءوا إليها كارهين فى ركاب تجار الرقيق الذين كانوا يبيعون أسرى الحروب فى أسواق العرب ، فازدهرت حضارة مكة ، وانتشر الترف فى بيوت أغنيائها .

ووقفت آمنة وابنة عمها ومن معهما أمام صائغ ينظرن إلى ما يصنع من حلى فى إعجاب ، كان الصائغ يهوديا وكان الذهب فى مناجم بنى سليم استخرجه العرب وجلبوه إلى مكة ليصنع منه الحلى أو ليضرب سبائك ذهبية للذين

يكنزون الذهب والفضة .

وظلوا يجوسون خلال السوق حتى أحسوا التعب يمشى فى أوصالهم ، فقفلوا عائدين إلى دورهم يقصون على أهلهم فى فرح ما فعلوا فى يومهم وما صادفوا من أحداث جذبت انتباههم ، وقد حسبوا أن الأيام كلها لعب ولهو وزينة .

ومرت الأيام والأشهر والسنون وآمنة تعيش بين أهلها ومع لداتها حياتها السعيدة الرتيبة ، وفى ذات يوم رأت أبويها يتناجيان بعيدا عنها ، ثم رأت أمها تقبل عليها وتقول لها :

ـــ سيأخذك أبوك يا آمنة إلى دار الندوة .

دار الندوة ؟! إنها لحظة حاسمة فى حياتها ، إنها الفاصل بين طفولتها الحرة الطليقة وبين شبابها المحجوب فى خدرها ، لقد انتهت أيام انطلاقها كفراشة إلى روابى مكة وربوعها كما انتهت من قبل أيام لعب عبد الله معهم ، لقد أصبحت شابة وخلفت طفولتها البريئة دبر أذنها كما أصبح عبد الله فتى من فتيان قريش يتطلع إلى مستقبله .

وتأهبت آمنة للانطلاق إلى دار الندوة مع أبيها فراحت تتحرك فى تؤدة ، فقد أحست فجأة نضجا فى جسمها وفى عقلها وإن كانت رهبة غامضة قد انتشرت فى جوفها . وجاء أبوها وأخذها وانطلق بها إلى الكعبة .

والتقى وهب وآمنة ووهيب فى الحرم وراحوا يطوفون بالكعبة سبعة أشواط ، ثم ذهبوا إلى دار الندوة وقد كانت لبنى عبد الدار بن قصى ، فكانوا يقومون بمراسم الزواج والختان والفصل بين الناس فى قضاياهم ، وإن كان عبد المطلب زعيم قريش وصاحب السقاية والرفادة .

وتقدمت آمنة من المكلف بمراسيم حجب فتيات مكة فشق قميصها ثم

حجب به وجهها ، فكان ذلك إيذانا بأن آمنة قد حجبت ولن تقع عليها بعد اليوم إلا عيون المحارم من أهلها .

وتقدمت هالة وشق قميصها وحجبت ، ثم عادت آمنة وهالة إلى دور بنى زهرة وقد ضرب عليهما الحجاب وحيل بينهما وبين شباب الأسرة وبين شباب الأسر القرشية التى كانت تتبادل الزيارات مع بنى زهرة .

وجاءت سودة عمة وهب إلى داره فخف إليها نساء بنى زهرة وفتياتها يرحبن بها وإن كانت زرقاء قبيحة الصورة ، فقد كانت كاهنة قريش ، وكانت تخبرهم بما ستأتى به الأيام .

كانت سودة تنظر فى النجوم وكانت تكثر من الصيام حتى تشف روحها وتنسلخ نفسها من البشرية إلى الروحانية ، وكانت تجتهد فى الاتصال بالملأ الأعلى لتأتى بخبر السماء ، وقد صدق بعض ما تنبأت فقالت قريش : « إنها تنظر بنور الله » .

وجلست سودة وجلس نساء بنى زهرة حولها وتعلقت بها العيون وأرهفت الآذان ، فراحت سودة تتفرس فى وجوه الجالسات عندها ثم قالت :

— إن فيكم يا بنى زهرة نذيرة أو تلد نذيرا ، فأعرضوا علىّ بناتكم .

وخفقت القلوب فى الصدور وزاغت الأبصار ، وساد السكون برهة وإن تحركت فى النفوس الأمنيات ، فقد كانت كل أم فى بنى زهرة تتمنى أن تكون ابنتها هى النذيرة أو التى ستلد ذلك النذير .

وقدمت أم هالة ابنتها إلى سودة وقد أرهفت حواسها وتعلقت كل آمالها بكاهنة قريش الزرقاء القميئة ، فراحت سودة تتفرس فى هالة وتتحدث فى طلاقة كأنما كانت تقرأ فى كتاب مفتوح . إنها تحدثها عن زواجها بسيد من سادات قريش قد شرف فى قومه حتى انقادت له الزعامة ، وعن ولدها

الشهيد ، وعن أشياء رائعة كثيرة ، ولكنها لم تقل لها إنها النذيرة أو من ستلد ذلك النذير .

وعرضت أمهات بنى زهرة بناتهن على سودة فراحت كاهنة قريش تتنبأ بمستقبل كل فتاة وقد ساد المكان ترقب وقلق ولهفة ، فما من فتاة من اللاتى عرضن عليها كانت النذيرة أو التى ستلد النذير .

وقدمت برة بنت عبد العزى ابنتها آمنة إلى سودة ، فراحت الكاهنة تتفرس فى آمنة وتنظر فى منخارها وتقلب النظر فيها ، وسيطر على المكان سكون رهيب ، ولاح فى وجه الكاهنة الاهتمام الشديد وكتمت أنفاسها برهة ، ثم راحت تشهق وتزفر فى صوت مسموع وقطبت جبينها ، وسرعان ما انبسطت أساريرها وظهر عليها طمأنينة عجيبة لكأنما قد ألقى الخبر فى روعها وأضاء ظلام نفسها ، وتحركت شفتاها وإذا بالنسوة كلهن آذان واعية قالت :

ـــ هذه هى التى ستلد النذير .

وسرى صوت سودة عذبا رقيقا لكأنما كان صوت القدر ، وصوبت العيون إلى آمنة فأطرقت حياء وإن كانت أهازيج الفرح تدوى فى جنباتها .

٤

مات يوسطنيانوس إمبراطور الروم وخلفه على العرش يوسطينوس الثانى الذى كان متزوجا من صوفيا ابنة أخت تيودورا ممثلة الأوبرا الكوميدية التى صارت إمبراطورة الدولة الرومانية ، والتى قامت بأهم دور فى البلاط الرومانى قبل أن تجود بأنفاسها .

وتجددت الحروب بين الكتلتين المتنازعتين على سيادة العالم : الكتلة الفارسية بقيادة كسرى أنو شروان والكتلة الرومانية بقيادة الإمبراطور يوسطينوس الثانى . وامتشق عرب الحيرة الجسام لقتال عرب الشام ، وسار قابوس على رأس جيشه لغزو المنذر بن الحارث بن جبلة ، ودارت رحى الحرب وانتصر المنذر بن الحارث ملك الغساسنة على قابوس ملك الحيرة فعاد قابوس يلعق جراحه ويتأهب لإعادة الكرة واستئاف القتال .

واشتعلت نار العداوة بين الشرق والغرب ، وانقسم العالم إلى معسكرين : دول تؤيد فارس ودول تؤيد الرومان . وقد كانت الحبشة وأبرهة الأشرم فى اليمن ممن يؤيدون الروم فقد كانوا جميعا على دين واحد وإن اختلفوا فى المذاهب بين قائلين بوحدة طبيعة المسيح وقائلين بالتثليث ولاهوت المسيح وناسوته .

ونزلت الكوارث على الرومان فقد انتصر الفرس على الروم نصرا مؤزرا وانقضت قبيلة جديدة من البرابرة الآفار على الإمبراطورية الرومانية من الشمال وعزت قبيلة اللومبارد فى الغرب من إيطاليا ، فبدا أن الإمبراطورية الرومانية تترنح تحت ضربات أعدائها .

ورأى يوسطينوس أن يلجأ إلى حليفه أبرهة ليحارب الفرس ليخفف الضغط عنه ، فبعث إليه يلتمس منه أن يتحرك لمناوأة فارس ليشغلها من تسديد الضربات القاتلة إلى الدولة الرومانية حامية الدين المسيحى ، ففكر أبرهة فى تلك الدعوة فوجد أنه إن لم يتحرك فستفرغ فارس من حرب القسطنطينية ثم توجه جيوشها إلى اليمن لتقويض ملكة ، فرأى أن من الحكمة أن يتحرك وأن يؤيد يوسطينوس وأن يسير إليه حتى تتصل جيوش أبرهة النصرانية بجيوش نصارى الشام ونصارى القسطنطينية ،ومن ثمَّ تتجه جميعا إلى المدائن لتطعن قلب المجوس طعنة لا تقوم لفارس بعدها قائمة .

وراح أبرهة يدبر تنفيذ خططه : إنه سيزحف بجيشه على الحجاز ولن تستطيع قوة من قوى القبائل المتناثرة بأرض العرب أن تقف فى وجهه . سيستولى على مكة ثم ينطلق منها إلى يثرب ثم يزحف إلى الشام لتلتقى جيوشه بجيوش المنذر بن الحارث بن جبلة ، وفى أرض الشام تتجمع جيوش أبرهة وجيوش المنذر وجيوش يوسطينوس ومنها تخرج جيوش النصارى حاملة الصليب لغزو فارس فى عقر دارها .

واستراح أبرهة إلى تدبيره فسيحقق مجد الدنيا وعز الآخرة ، سيدفع عن مملكته شر الفرس وسيقوض كعبة العرب وينشر دين النصارى فى مكة كما نشره فى اليمن .

كان أبرهة قد اتخذ صنعاء عاصمة لملكته فى اليمن وبنى فيها كنيسة فخمة رائعة ، وقد استذل أهل اليمن فى بنائها وجعل ينقل إليها فى قصر بلقيس رخاما وأحجارا وأمتعة عظيمة ، وركب فيها صلبانا من ذهب وفضة ، وجعل فيها منابر من عاج وآبنوس ، وجعل ارتفاعها عظيما جدا واتساعها باهرا . وقد كان أبرهة يحلم بأن تكون تلك الكنيسة نواة لدولة مسيحية كبرى فى اليمن

تنداح حتى تغطى وجه الجزيرة العربية كلها .

وكان التفاؤل يملأ جوانح أبرهة فكتب إلى نجاشي الحبشة : « إنى قد بنيت لك كنيسة لم يبن مثلها لملك كان قبلك ، ولست بمنته حتى أصرف إليها حج العرب » .

وكان أبرهة يطمع فى أن تنافس كنيسته كعبة العرب ، ظن أنه يستطيع بالترهيب والترغيب أن يوجه حجاج العرب إلى صنعاء لتجنى اليمن ما تجنيه مكة من حجاج بيت الله . ولكن العرب أعرضوا عن كنيسته وانطلقوا إلى الحرم من كل فج عميق تهتز بتلبيتهم جبال مكة .

وحنق أبرهة على عبدة الأوثان الذين أبوا أن يدخلوا فى دينه ، ولجوا فى العناد فأولوا كنيسته ظهورهم وقوضوا حلمه الجميل الذى كان يصور له أنه يستطيع أن يحقق أغراضه السياسية عن طريق دخول العرب فى المسيحية أفواجا . فلو أنهم قبلوا النصرانية لمد سلطانه على الحجاز دون قتال ، أما وإنهم قد أبوا أن يعتنقوا دينه وظلوا على وثنيتهم فلم يعد أمامه إلا أن يعلن الحرب على مكة مركز إشعاعهم الدينى ، وأن يهدم الكعبة إرضاء لغروره وتحقيقا لهدفه السياسى .

وجاء إلى صنعاء جواسيس أبرهة من أحباش وروم والتفوا بأبرهة وراحوا يقصون عليه أنباء مكة ، فألقى إليهم سمعه وراح يفكر قليلا فيما سمع فأشرق وجهه بابتسامة عريضة ، فمكة ليس بها تحصينات وأهلها لا قبل لهم به . إن هى إلا وثبة واحدة وتكون كعبتها أنقاضا تذروها الرياح .

كان أبرهة يدبر لتدمير مكة وكانت مكة آمنة ، الناس من كل بلاد العرب يطوفون ببيتها العتيق والسلام يرفرف عليها ، فزعيمها عبد المطلب ينفر من استخدام القوة ويحرص على أن يحل جميع مشاكل مجتمعه بالطرق السلمية ،

فإذا ما حدث بينه وبين أحد خصام التجأ إلى طريق التحكيم ، طريق السلام ، فهو زعيم قبيلة تجارية مصلحتها فى إقرار السلام ضمانا لأمن قوافلها التى تجوب الآفاق شمالا وجنوبا وشرقا وغربا .

كانت كل أسرة من الأسر المكية فى جوهرها حكومة قائمة بنفسها ، ولكنها وضعت مصالح مكة أولا وقبل كل شىء ، فتجمعت حول الحرم لأغراض اجتماعية واقتصادية ودينية وأسلست قيادتها لسادات أسرها العريقة . وراحت جميع الأسر تعمل على أن تجنى خيرات الأرض إلى الوادى المقدس ، وعلى أن يسود الأمن الحرم ، فكان ذلك التجمع هو وحدة التنظيم السياسى الطبيعية للمجتمع المكى ، « أو لم نمكن لهم حرما آمنا يجبى إليه ثمرات كل شىء رزقا من لدنا ، ولكن أكثرهم لا يعلمون » .

وكانت نيران الحرب مشتعلة فى فارس وفى الحيرة وفى الشام وفى الدولة الرومانية . وكان أبرهة يجمع وقودها بينا كانت النيران على قمم جبال مكة لترشد قوافل التجارة إلى سبلها . وقد أرسل عبد المطلب قوافل قريش إلى فارس وإلى أنطاكية وإلى غزة وإلى مصر وإلى الحبشة ، فقد كانت علاقته طيبة بكل ممالك الشرق الأوسط وجنوب الجزيرة العربية على الرغم من العداوات الناشبة بين تلك الدول .

كانت قوافل قريش إذا ما أهل رجب ترتحل إلى عدن والشحْر فتقيم فى عدن أيام رمضان فتشترى التجارات وأنواع الطيب ، ومنها يرتحلون إلى سوق صنعاء وكانت تقوم فى النصف من رمضان إلى آخره . وكان عبد المطلب يؤثر الخروج فى هذه الرحلة فقد كان له أصدقاء من سادات اليمن .

وراحت قريش تتأهب لرحلة الشتاء فأناخ الرجال ألفين من البعير خارج الحرم ، وانطلق العبيد من أحباش وروم وفرش ينقلون على أضواء المشاعل

السلع من مخازن ساداتهم إلى ظهور الإبل ، وقد غص المكان بشباب قريش وشيوخها ونسائها فما من رجل أو امرأة موسرة إلا وله نصيب فى القافلة .

وانتشر فى المكان الصيارفة يقرضون المحتاجين بالربا ، وجلس الكتاب يعقدون العقود ويبرمون المواثيق ، وعلى مرمى حجر من قطار الإبل ضربت البغايا خيامهن وجاء طلاب اللذة بالخمر . وسال عرق الفقراء يروى الصحراء بينا كان أشراف قريش فى أحضان الغانيات المتطلعات إلى ما فى جيوبهم من ذهب وفضة .

وجلجلت ضحكات المجون تشق الفضاء ، ومزقت أنات المكدودين سكون البيداء ، وامتزجت آهات اللذة بآهات التعب برغاء الإبل بضوضاء الصيارفة والمضاربين وصياح النسوة اللاتى تترقرق الحياة فى وجوههن فى الأسواق ويطل الجشع من أعينهن كلما رأين الأثرياء ، حتى نال النصب من الجميع فارتموا على الأرض وأنفاسهم مبهورة يترقبون طلوع الصباح .

وأشرقت الشمس واستأنف الرجال تجهيز القافلة ، بينا انسحب سمار الليل وندماء البغايا وحلفاء الكأس إلى دورهم ليستريحوا بالنهار حتى يستطيعوا أن يستأنفوا إطفاء شهوة الجسد متسربلين بالظلام .

وتم تجهيز القافلة ، وجاء عبد المطلب يحيط به أبناؤه العشرة رجالا أشداء كتماثيل الذهب ، ثم راح يودعهم حتى إذا ما أقبل عبد الله ضمه إلى صدره فى حنان وقبله قبلة أودعها كل حبه ، ثم أذن بالرحيل ففصلت العير وانطلقت فى قطار طويل لم تشهد مكة له مثيلا ، فقد بلغ عدد الإبل ألفين وعدد الرجال ثلاثمائة .

وبلغت القافلة الشحر فنزلت بسوقها ، كانت الأشجار وارفة الظلال والأرض قد أخذت زخرفها وازينت ، فالخضرة تمتد إلى الآفاق والجداول

تتدفق من الجبال كأنها شرايين الحياة وروعة الطبيعة تسر القلب ، فقد كانت الأمطار تغسل كل شيء وتبعث الحياة فى الأرض الميتة ، ثم تجرى فى أودية اليمن إلى مأرب وتفرش شواطئها بالزهور والثمار .

ونعم رجال قريش يطيب المقام ، كانوا يشتغلون بالنهار بالتجارة ويتسامرون بالليل مع رجال قضاعة ، فقد كان ثلاثةَ أبطن من قضاعة مُجْتَوِرين بين الشحر وحضر موت ، بنو ناعب وبنو داهن ، وبنو رئام ، أقلهم عددا وأشجعهم لقاء .

وسقط الليل وجلس الرجال إلى الرجال ، ودار الحديث حول الكهان فقد كانت الكهانة والعرافة تستولى على ألباب الناس ، وقد كان الرجال يهرعون إلى الكهان أينما كانوا وعلى أى دين كانوا ، فقد كان بهم شوق إلى الاطلاع على الغيب ، وكانوا يثقون فى الكهان ثقة لا حد لها حتى إنهم كانوا يفزعون إليهم لفصل خصوماتهم ومنازعاتهم ، أو إذا حزبهم أمر .

وراح سيد من سادات قضاعة يتحدث فقال فى زهو :

— كانت لبنى رئام عجوز تسمى خويلة ، وكانت لها أمة من مولدات العرب تسمى زبراء ، وكان يدخل على خويلة أربعون رجلا كلهم لها مَحْرم : بنو إخوة وبنو أخوات ، وكانت خويلة عقيما وكانت بنو ناعب وبنو داهن متظاهرين على بنى رئام ، فاجتمع بنو رئام ذات يوم فى عُرس لهم وهم سبعون رجلا كلهم شجاع بئيس ، فطعموا وأقبلوا على شرابهم ، وكانت زبراء كاهنة فقالت لخويلة :

— انطلقى بنا إلى قومك أنذرهم .

فأقبلت خويلة تتوكأ على زبراء ، فلما أبصرها القوم قاموا إجلالا لها فقالت :

ـــ يا ثمر الأكباد ، وأنداد الأولاد ، وشجا الحساد ! هذه زبراء تخبركم عن أنباء ، قبل انحسار الظلام ، بالمُؤيِد (الداهية) الشنعاء ، فاستمعوا مـا تقول !

قالوا :

ـــ ما تقولين يا زبراء ؟

فقالت :

ـــ والليل الغاسق ، واللوُح (الهواء بين السماء والأرض) الخافق ، والصباح الشارق ، والنجم الطارق ، والمزن الوادق ، إن شجر الوادى ليأدو خَتْلا (خداعا) ويحرق أنيابا غضلا ، وإن صخر الطود لينذر ثكلا ، لا تجدون عنه معلا (منجيا) .

فوافقت قوما سكارى فقالوا :

ـــ ريح خجوج (سريعة المر) ، بعيد ما بين الفروج ، أتت زبراء بالأبلق النتوج (ما لا يمكن) .

فقالت زبراء :

ـــ مهلا يا بنى الأعزة ! والله إنى لأشم ذفر الرجال تحت الحديد !

فقال لها فتى منهم :

ـــ يا حذاق ، والله لا تشمين إلا ذفر (نتن) إبطيك !

فانصرفت عنهم فارتاب قوم من ذوى أسنانهم ، فانصرف منهم أربعون وبقى ثلاثون فرقدوا فى مشربهم ، وطرقتهم بنو داهن ، وبنو ناعب فقتلوهم أجمعين .

كان عبد المطلب يصغى إلى حديث الرجال فى انتباه ثم سرعان ما غفل عنه وراح يفكر فى نفسه : إنه فى شوق إلى الذهاب إلى كاهن من الكهان أو حبر

من الأحبار ، فهو يحس إحساسا غامضا أنه مقبل على أمر ذى شأن ، فراح يسأل من حوله من سادات القوم عن كاهن شهير ، فدلوه على حبر فى أرض اليمن .

وانتقلت قافلة قريش إلى عدن على ساحل بحر الهند جنوبى باب المندب بميله إلى الشرق ، وهو مورد حط وقلاع مراكب الهند ومصر ، فكانت سوقا رائجة للبضائع الهندية والأقمشة المصرية وألقوا أسماعهم إلى أحاديث الأقوام الذين غصت بهم السوق ، حتى إذا ما أقبل رمضان شدوا الرحال إلى صنعاء وهم يحملون بالخضرة والماء ، فقد كانت عدن جرداء يجلب إليها الماء على ظهور الإبل من آفاق بعيدة .

كانت صنعاء من أحسن البلاد مساكن وأطيبها وأصحها هواء ، فانطلق رجال قريش يشاهدون ظفار قصر الملك أبرهة وقصر غُمدان وهو قصر عجيب من عشرين طبقة بعشرين سقفا بين كل سقفين عشرين ذراعا ، فيه مائة مسكن ، وأعلى غرفه ممرد بقوارير ، وقد زين بتهاويل وزخارف وقف أمامها أهل مكة فاغرى الأفواه من الدهشة ، أما عبد المطلب فقد انطلق إلى الحبر الذى دل عليه ليخبره بأنباء الغيب ، ويريحه من ذلك التشوف الذى استبد به .

ودخل عبد المطلب على الحبر وكان يقرأ فى التوراة ، فألقى عليه التحية ثم جلس فقال له الحبر :

— ممن الرجل ؟

— من قريش .

— من أيهم ؟

— من بنى هاشم .

ـــ أتأذن لى أن أنظر فى بعضك ؟

ـــ نعم ، ما لم يكن عورة .

ففتح الحبر إحدى منخرى عبد المطلب فنظر فيها ثم نظر فى الأخرى ، فقال :

ـــ أنا أشهد أن فى إحدى يديك ملكا ، وفى الأخرى نبوة .

وصمت الرجل برهة ثم قال :

ـــ إنما نجد ذلك فى بنى زهرة ، فكيف ذلك ؟

فقال عبد المطلب وهو شارد :

ـــ لا أدرى .

وخرج عبد المطلب من عند الحبر وهو يفكر فيما سمع ، أن فى إحدى يديه ملكا وفى الأخرى نبوة ، إن ذلك فى بنى زهرة . وتذكر عبد المطلب ما شاع فى مكة عن سودة كاهنة قريش ، إنها قالت لبنى زهرة ذات يوم : فيكم نذيرة أو تلد نذيرا فاعرضوا على بناتكم ، فعرضت الأمهات عليها بناتهن فقالت فى كل واحدة منهن قولا ، حتى عرضت عليها آمنة بنت وهب فقالت : هذه النذيرة أو تلد نذيرا له شأن وبرهان .

ووقر فى ضمير عبد المطلب أنها آمنة ، وفى تلك اللحظة ملأت صورة عبد الله أقطار نفسه ففاضت جوانحه حنانا ، وأحس أمنا غامرا ، وسرى فى جوفه همس حبيب يقول : إنهما آمنة وعبد الله .

وأشرقت جنباته بالنور ، ورفت على شفتيه بسمة رقيقة حالمة .

٥

قفلت قافلة قريش بالرجوع إلى مكة وقد أسرى بهم الحادى وأمعن فى السير ، وخاصم الكرى العيون ، يطوون الفلاة من الشوق للقاء الأحبة على جناح المحبة ، فأفئدة الركب تهوى إلى البيت العتيق ، وإلى فلذات الأكباد ، وإلى الأهل والخلان ، وإلى الأرض الطيبة والوطن الحبيب .

وكان عبد المطلب مشغول القلب مشغول البال ، فقد ترك فؤاده هناك حيث الأحبة والصحاب ، وملأ رأسه حديث الحبر ونبوءته ففى إحدى يديه ملك وفى الأخرى نبوة ، وإن ذلك فى بنى زهرة . ترى أيجتمع الملك والنبوة فى رجل واحد ، أم أن الملك فى رجل والنبوة فى آخر ؟

واستمر عبد المطلب يجرى وراء أفكاره يقلب الأمر ويبدىء ويعيد ، ويتذكر كل ما تنبأ به المتنبئون ، فسودة عمة وهب كاهنة قريش قد تنبأت بأن آمنة نذيرة أو تلد نذيرا ، فإن زوج عبد الله بآمنة فقد تتحقق بشارة حبر اليمن وتأتى النبوة وهو يعرف النبوة حق المعرفة ، فيا طالما أصغى إلى قصص الأنبياء يرويها اليهود أيام كان غلاما فى يثرب فى كنف أمه سلمى بنت عمرو الخزرجية ، أما الملك فإنه لا يدرى كيف يقوم فى مكة ، وما عرف المجتمع الذى تكون حول زمزم الملكية يوما ، فسادات مكة وشيوخها هم مصدر السلطات فيها ، إلا أنه قد عزم على أن يزوج ابنه عبد الله فى بنى زهرة ؛ أن يزوجه آمنة بنت وهب وأن يتزوج هو نفسه فيهم ، فمن يدرى فقد تتحقق نبوءة حبر اليمن ويأتى الملك والنبوة .

وترادفت الأشواق واضطرم الحشا بالحنين والقافلة تسرى فى الكون العريض ، وتتابع الليل والنهار حتى بدت مكة للعيون فإذا بثراها كأنه التبر ، وإذا بالأرواح تستنشق أطيب عبير ، وإذا بدموع الرقة تبلل النفوس ، وراح كل راكب يحث راحلته على الإسراع ولو طاوع نفسه لنزل عن راحلته ، وانطلق يعدو وهو يلثم كل الوجود .

وبدا البيت العتيق وركناه فخفقت القلوب وفاضت الأشواق حتى سالت الدموع من غمام الجفون ، وأناخت القافلة خارج الحرم فهرع أهل مكة يستقبلون العائدين بالأحضان والقبلات والعبرات ووجيب الأفئدة المتلهفة إلى اللقاء والعناق ، لإطفاء نار الشوق التى تتلظى فى الجوانح والمهج والنفوس .

وخف أبناء عبد المطلب العشرة كأنهم ظباء تتواثب إلى أبيهم الجليل ، فراح يضمهم إلى صدره وهو دامع العين يكاد يذوب رقة ، حتى إذا ما تقدم عبد الله وارتمى بين ذراعى أبيه احتواه عبد المطلب وهو يستشعر نفس المشاعر الفياضة الرقيقة الناعمة التى استشعرها يعقوب يوم أن ضم إلى قلبه بعد طول غياب يوسف الحبيب .

ولم ينس عبد المطلب فى غمره اللقاء وفورة العواطف ابنه العباس ، فقد تركه فى حجر أمه يوم أن شد الرحال إلى اليمن وكان قد أشرف على الثانية من عمره . إنه ليذكر تلك اللحظة التى حمله فيها ليقبله قبل الرحيل ، وإنه ليفكر كيف تعلق بعنقه وأبى أن يعود إلى أمه وظل متشبثا به إلى أن انتزعته من أحضانه وهو يبكى ، ولم يكف عن العويل إلا بعد أن أخذ يداعبه ويلثمه هنا وهناك ويعده بالتمر والزبيب .

وراح رجال القافلة يطوفون بالكعبة طواف القدوم . كانت الشمس

ترسل أشعتها الحامية فيتفصد العرق من الوجوه ، ولكن الطائفين كانوا يحسون كأنهم بالجنان يطوفون ، فقد كانت نفوسهم مطمئنة لا هم ولا قلق ولا خوف ولا ضياع فى الكون العريض ، بل كانوا فى حرم الله آمنين . ولولا تلك الأصنام التى تكدست فى جوف الكعبة ونصبت حولها لفتحت عليهم بركات من السماء ولملئت جوانحهم بالنور .

وانطلق رجال القافلة إلى دورهم يحمل كل منهم ما جاء به لأهله من هدايا ، وانطلق عبد المطلب إلى داره وحوله أبناؤه وعبيده ورجاله يحملون من الخيرات الشىء الكثير ، عرف بعضها طريقها إلى مخازن عبد المطلب حتى تحمل إلى أصحابها ، واتخذ بعضها طريقه إلى دار زعيم قريش لتقسم بين نسائه وأولاده وإمائه وعبيده ، وليتصدق ببعضها على المحتاجين من المكيين .

وملأ الحبور دور قريش فقد كانت رحلة الشتاء موفقة ، وجاء الليل فانساب الشباب إلى مجالس اللهو والسمر والمجون ، ودخل عبد المطلب ليستريح ولكنه لم تغمض له عين فقد راح يفكر فى نبوءة الحبر اليهودى ، واستولت النبوءة عليه فلم يطف به النوم ، فوطن النفس على أن ينطلق فى الصباح إلى دور بنى زهرة ، وأن يخطب آمنة بنت وهب لابنه عبد الله وهالة بنت وهيب لنفسه .

وتنفس الصبح ومد فراش عبد المطلب فى ظل الكعبة ، وجاء بعض من كانت لهم تجارة فى القافلة ليسألوه عن أموالهم ولكنهم لم يجدوه ، فظلوا واقفين لا يجلس أحد منهم على فراشه احتراما له وإجلالا لقدره . ثم جاء عبد المطلب ومن حوله أبناؤه العشرة كأنهم أسد غاب فحياه الجميع فى توقير .

وجلس عبد المطلب على فراشه وحده وجلس أبناؤه على مقربة منه ، وجاء أصحاب الحاجات يسألونه حاجاتهم فرد على كل منهم ماله ، حتى إذا ما

انصرفوا جميعا حانت منه التفاتة إلى بئر زمزم فتذكر حلمه الذى أقض مضجعه فى أمسه بعد أن مشى الوسن إلى عينيه ، فقد أمر فى النوم بالوفاء بنذره ، قيل له : « قرب أحد أولادك الذى نذرت » .

وراح يتفرس فى وجوه مولده حتى إذا ما التقت عيناه بعينى عبد الله خفق قلبه حنانا ، إنه كان يفكر بالأمس فى تزويجه بآمنة بنت وهب ، النذيرة ، أو التى ستلد النذير .

وها هو ذا اليوم لا يدرى ماذا يخبئ القدر لابنه الحبيب ، ولم يشأ أن يسترسل فى عواطفه فقال :

— يا بنى ، كنت نذرت نذرا علمتموه قبل اليوم ، فما تقولون ؟

وساد القلق برهة ثم قالوا :

— الأمر لك وإليك ونحن بين يديك .

وأطرق عبد المطلب برهة فقالوا له :

— كيف نصنع ؟

— ليأخذ كل رجل منكم قِدْحا ثم يكتب فيه اسمه ، ثم ائتونى .

فانطلق أولاده إلى هبل وكان فى جوف الكعبة ، وراح كل واحد منهم يكتب اسمه على سهم ثم عادوا إليه وأتوه بالقداح ، فأخذها ونهض وذهب إلى هبل وأولاده من حوله .

ودعا بالأمين الذى يضرب بالقداح فدفع إليه قداحهم وقال :

— حرك ولا تعجل .

ووضعت السهام فى كيس ومد الأمين يده ليخرج سهما ، فحبست الأنفاس وخفقت القلوب وزاغت الأبصار . وراح عبد الله وأبو طالب والزبير يتبادلون النظرات فقد كانوا أشقاء ، وكانت أمهم فاطمة بنت عمرو

ابن عائذ بن عبد بن عمران بن مخزوم بن يقظة بن مرة بن كعب .

وخرج سهم عبد الله فأحس أبو طالب رأسه يدور ، إنه يحب عبد الله من كل قلبه ولا يطيق أن يرى الشاب الوسيم يذبح أمام عينيه ، ومادت الأرض تحت قدميه إلا أنه راح يجمع شتات نفسه حتى لا ينهار .

وأخذ عبد المطلب الشفرة ثم أقبل بعبد الله إلى إساف ونائلة ليذبحه وهو واله حزين ، فقد كان عبد الله أحب ولده إليه ، وكان عبد المطلب يرى أن السهم لو كان قد أخطأه فقد أبقى .

وانتشر الخبر فى أرجاء مكة انتشار الريح ، فقامت قريش من أنديتها تهرول إلى حيث انطلق عبد المطلب وعبد الله ، وجاء بنو مخزوم أخوال عبد الله وقد ارتسم الفزع فى وجوههم فقد كان عبد الله حبيبا إلى قلوبهم جميعا .

وأتى بعبد الله وأضجعه ووضع الشفرة على عنقه ليذبحه وعبد الله مستسلم كما استسلم إسماعيل لأمر الله من قبل . وهم بذبحه فوثب إليه أبو طالب وأمسك يد عبد المطلب عن أخيه وقال رجال من قريش :

ــ ماذا تريد يا عبد المطلب ؟

ــ أذبحه .

فقالت له قريش وبنوه :

ــ والله لا تذبحه أبدا حتى تعذر فيه . لئن فعلت هذا لا يزال الرجل يأتى بابنه حتى يذبحه ، فما بقاء الناس على هذا !

ووثب بنو مخزوم إلى عبد المطلب فقالوا :

ــ يا أبا الحارث إنا لا نسلم ابن أختنا للذبح ، فاذبح من شئت من ولدك غيره .

ــ إنى نذرت نذرا وقد خرج القدح ولا بد من ذبحه .

فقال بنو مخزوم :

ــ كلا لا يكون ذلك أبدا وفينا ذو روح .

وقال المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم :

ــ والله لا تذبحه أبدا حتى تعذر فيه ، فإن كان فداؤه بأموال فديناه .

ــ إنا لنفديه بجميع أموالنا من طارف وتالد .

ــ والله ما أحسنت عشرة أمه .

ــ يا أبا الحارث إن هذا الذى عزمت عليه لعظيم ، وإنك إن ذبحت ابنك لم تتهنَّ بالعيش من بعده . ولكن لا عليك ، أنت على رأس أمرك تثبت حتى نصير معك إلى كاهنة بنى سعد إن أمرتك بذبحه ذبحته ، وإن أمرتك بأمر لك فيه فرج قبلته .

وتعلقت العيون بشفتى عبد المطلب فلما قال : « لكم ذلك » زفر الجميع فى راحة ، فقد كان دون ما يبغى عبد المطلب خطوب تضطرب .

وانتشر الخبر فى مكة فأطلت النسوة ينظرن إلى الفتى الذى نذر أبوه ذبحه فى عطف وإشفاق ، إنه عبد الله ابن زعيم قريش وما أكثر ما وقعت عيونهن عليه من قبل ، ولكنه بدا فى تلك اللحظة مسربلا بجلال وجمال ، بجلال اللحظة الرهيبة التى يعيشها وجمال الصبر على ما نزل به من خطوب ، فوقع فى قلب بعض النسوة ما وقع فى قلوب النسوة اللاتى دعتهن امرأة العزيز لما سمعت بمكرهن وقلن :

ــ حاش لله ما هذا بشرا إن هذا إلا مَلَك كريم .

وأطالت رقيقة بنت نوفل النظر إلى وجه الفتى الجميل ، إنها لترى فى وجهه شيئا لا ترى مثله فى وجه شباب قريش ، إنه جميل وما أكثر الجمال فى قريش ، ولكن جماله نادر يشف عن جمال الروح . إن كل جارحة من جوارحها تهفو

إليه ، وإنها لتتمنى من كل قلبها أن يكون لها زوجا فهى تحس فى أعماقها أن سيكون لذلك الفتى شأن أى شأن .

وشردت رقيقة ورن فى جوفها صوت أخيها ورقة بن نوفل يقول : « إن لهذه الأمة نبيا وقد دنا يوم مولده » فإن كان ما يزعم ورقة حقا فلن يكون أبوه غير ذلك الفتى الذى يتأهب أهله للانطلاق به إلى خيبر لترى كاهنتها رأيها فيه ، فرقيقة صاحبة فراسة وما خانتها فراستها من قبل .

وتأهب عبد المطلب وبنوه وبنو مخزوم أخوال عبد الله للانطلاق إلى المدينة ، فقد كانوا يرون الكهانة حقا ، ثم شدوا الرحال إلى كاهنة بنى سعد وخلفوا وراءهم قلوبا واجفة ، وقد كانت أكثر القلوب اضطرابا قلب أمه فاطمة وقلب آمنة بنت وهب . فقد كان عبد الله صديق الصبا قبل أن يبلغ مبلغ الرجال وقبل أن يضرب على آمنة الحجاب ، وقلب رقيقة بنت نوفل التى كانت تحلم بالفتى الهاشمى فى يقظتها وفى منامها .

وبلغ الركب المدينة ، وسأل عبد المطلب عن كاهنة بنى سعد فقيل له إنها بخيبر ، فركبوا حتى جاءوها ، فراح عبد المطلب يقص عليها نذره وما أراد بابنه فقالت لهم :

ــ ارجعوا عنى اليوم حتى يأتينى تابعى فأسأله .

فرجعوا من عندها ، فلما خرجوا عنها لم يذهب عبد المطلب إلى أخواله بنى النجار ، ولم ينطلق إلى مراتع صباه ، ولم يذهب إلى أسواق المدينة كما اعتاد أن يذهب أيام أن كان فى حضن أمه سلمى بنت عمرو ، فقد كان مشغول البال بمصير ابنه الحبيب ، فقام يدعو الله ويبتهل إليه أن يوفقه إلى ما يرضاه .

رأى إبراهيم عليه السلام فى منامه أن يذبح ابنه الوحيد فامتثل إلى أمر الله ، فإبراهيم خليل الرحمن ، وقد برهن بذلك الامتثال على أن حبه لله أشد من حبه

لوحيده وفلذة كبده ، ففدا الله الابن الحبيب بذبح عظيم . ونذر عبد المطلب نذرا أن يذبح واحدا من ولده إذا بلغ بنوه عشرة ، وقد أراد عبد المطلب أن يوفى بنذره فمنعه أخوال عبد الله وبنوه ، وأشاروا عليه أن يستشير كاهنة من كواهنهم . ترى لو كان إيمان عبد المطلب كإيمان أبيه إبراهيم أما كانت السماء تفدى ابنه بذبح عظيم ؟ إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين . وجاء الصباح فغدا عبد المطلب وأبناؤه وأخوال عبد الله من بنى مخزوم إلى كاهنة بنى سعد فقالت لهم :

ــ قد جاءنى الخبر ؟ كم الدية فيكم ؟

قالوا :

ــ عشر من الإبل .

قالت :

ــ فارجعوا إلى بلادكم ثم قربوا صاحبكم وقربوا عشرا من الإبل ، ثم اضربوا عليها وعليه بالقداح ، فإذا خرجت على صاحبكم فزيدوا من الإبل حتى يرضى ربكم ، وإن خرجت على الإبل فانحروها عنه فقد رضى ربكم ونجا صاحبكم .

فخرجوا حتى جاءوا مكة ، فلما أجمعوا على ذلك من الأمر قام عبد المطلب عند هبل يدعو الله ، ثم قربوا عبد الله وعشرا من الإبل ، ثم ضربوا فخرج القدح على عبد الله ، فزادوا عشرا من الإبل فبلغت الإبل عشرين ، وقام عبد المطلب يدعو الله أحر دعاء ، ثم ضربوا فخرج القدح على عبد الله ، فزادوا عشرا من الإبل فبلغت الإبل ثلاثين ، وقام عبد المطلب يدعو الله ثم ضربوا فخرج القدح على عبد الله ، فزادوا عشرا من الإبل فبلغت الإبل أربعين .

وقام عبد المطلب يدعو الله وراح أبو طالب يرنو إلى أخيه فى قلق وحب ، وساد المكان سكون رهيب ، ثم ضربوا فخرج القدح على عبد الله فسرت همهمة فزادوا عشرا من الإبل فبلغت الإبل خمسين ، وقام عبد المطلب يدعو الله ، ثم ضربوا فخرج القدح على عبد الله ، فزادوا عشر من الإبل فبلغت الإبل ستين ، وقام عبد المطلب يدعو الله ، ثم ضربوا فخرج القدح على عبد الله ، فزادوا عشرا من الإبل فبلغت الإبل ثمانين ، وقام عبد المطلب يدعو الله ، ثم ضربوا فخرج القدح على عبد الله ، فزادوا عشرا من الإبل فبلغت الإبل تسعين ، وقام عبد المطلب يدعو الله ثم ضربوا فخرج القدح على عبد الله .

وزاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر ، ولاح الهلع فى وجه أبى طالب والتفت ناحية أخيه الزبير فألفاه شاحبا لكأنما كان يعانى سكرات الموت ، واتجهت الأبصار إلى عبد الله فإذا به صابر وإن غامت صفحة وجهه الجميل بسحابة من الحزن ، فقد أغمه أن ربه لم يرض عن فدائه .

وزادوا عشرا من الإبل فبلغت مائة ، وقام عبد المطلب يدعو الله ، ثم ضربوا فخرج القدح على الإبل فارتجت جنبات الكعبة بصيحات الفرح ، قالت قريش ومن حضر :

ـــ قد انتهى رضا ربك يا عبد المطلب .

وبلغ التهاليل مسامع الواقفين خارج الكعبة ، وكانت بينهم رقيقة بنت نوفل قد جاءت لترى مصير عبد الله الذى شغفها حبا ، فقالت فى لهفة للواقفين عند باب الكعبة :

— ماذا جرى ؟

— نجا عبد الله ورضا الإلـٰه .

وأحست راحة وإن ظل قلبها يخفق كجناح حمامة فى صدرها ، واشرأبت بعنقها لترى فتى قريش الذى أصبح حديث مكة وقبلة الأنظار ليستريح الفؤاد الواجف الولهان ، إلا أن خروج عبد الله قد تأخر فعادت تقول فى قلق :

— ماذا هناك ؟

قال عبد المطلب :

— لا والله حتى أضرب عليها ثلاث مرات .

وعاد الخوف مرة أخرى ليستبد بها ، ولفها قلق ، وعجبت لذلك الشيخ الذى يصر على أن يضرب القداح على ابنه ثلاثا بعد أن أعلن الإلـٰه رضاه ، ليته يخرج الساعة ويذبح الإبل المائة ويريح القلوب المضطربة ولا يمد فى العذاب مدا .

وضرب الكاهن على عبد الله والإبل وقام عبد المطلب يدعو الله . وذهب أبو طالب إلى أخيه وقد لف ذراعه حوله كأنما يمنع عنه عاديات القدر ، وحبست الأنفاس ، وأخرجَ الكاهن السهم ، وما إن وقعت عليه العيون حتى انطلقت أصوات الفرح من الحناجر :

— خرج القدح على الإبل .

ثم عاد الكاهن يضرب الثانية على الإبل وعبد الله ، وعبد المطلب قائم يدعو الله ويناشده وقد غمرت الدموع روحه ، فالذبيح أحب أبنائه إليه وإنه ليبتهل إلى الله أن يكون رضاه بالدية حقا، فقد كان حبه لإلـٰهه كحبه لأبنائه أو أشد.

وخرجت يد الكاهن بالقدح وارتجت جنبات الكعبة بأصوات الفرح :

— خرج القدح على الإبل .

وطفرت الدموع فى مآقى القوم فقد بلغ الانفعال أشده ، إنها الثالثة فإن رضى الإلٰه نجا عبد الله ، وجرت السنة فى الدية بمائة من الإبل ، وتأهب الكاهن ليضرب بالقدح فانبهرت الأنفاس وزاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر ، وظل عبد المطلب قائما يدعو الله ويبتهل إليه ويناشده فى حرارة حتى إن أفئدة الناس كادت تنفطر أسى على الشيخ الجليل الذى يكاد يذوب فى حرارة دعواته .

ووقفت رقيقة بنت نوفل وقد أسندت قلبها بيدها لكأنما تمنعه من أن يفر من بين جنباتها ، وقد خنقتها عبراتها وغامت مقلتاها بغمام الجفون ، فرأت مشاهد مكة تتراقص أمام عينيها ، وخيل إليها أن نور الوجود يوشك أن ينطفئ .

وراحت العيون كلها تتبع يد الكاهن وهو يمدها فى الكيس ويخرج السهم ، وإذا بأصوات البشرى تدوى فى جوف الكعبة :

— خرج القدح على الإبل .. خرج القدح على الإبل .

وضم أبو طالب أخاه عبد الله إلى صدره ودموعه تجرى على خديه ، وقلبه يدوى بين جنبيه ، ومشاعره الفوارة تنتشر بين الضلوع ولا تجد لها متنفسا إلا فى قبلات الفرح التى كانت تغمر وجه الذبيح بلا حساب .

وأقبل الزبير وأبو لهب والحارث يضمون عبد الله إلى قلوبهم ، وهرع عبد المطلب إلى ولده الحبيب ودموعه تبلل لحيته واحتواه بين جنبيه لكأنما يحتوى أنفس كنز فى الوجود . ثم قال فى صوت متهدج يقطر رقة وبشرا وانفعالا :

— اليوم ولدت لى .

وراحت رقيقة بنت نوفل تزاحم الناس وهى ذاهلة عن كل ما حولها إلا مشاعرها التى كانت تدفعها دفعا لرؤية الحبيب الذى أصبح أسطورة قريش ،

لعل قلبها المتشوف لعبد الله يهدأ ، ولعل نفسها تستقر وتعرف السلام ، ولكنها عجزت عن أن تشق لها طريقا فى الجموع التى كانت تتدافع بالمناكب لتصل إلى حيث كان بنو هاشم وبنو مخزوم والذبيح .

ومرت لحظات وعبد الله قائم بين الجموع وقد صار مستودعا لأحاسيس فوارة غاية الفورة ، فراحت كنوز قلبه تمده بمشاعر الفرح والنشوة والنصر حتى فاضت جوانحه بعواطفه الرقيقة فجرت من عينيه الدموع ، ثم أحس الناس جميعا أن الشكر قد وجب لله فخروا سجدا وبكيا .

٦

انفرج باب الكعبة عن عبد المطلب وعبد الله وإخوته وسادات بنى هاشم وبنى مخزوم ، فصوبت العيون إلى عبد الله أحسن فتى يرى فى قريش وأجملهم وقد زاده الفداء سحرا على سحره .

كان عبد الله فى الثامنة عشرة من عمره ، وقد خرج من باب الكعبة يتألق فى مجده فراحت فتيات قريش من بنى مخزوم وعبد شمس وعبد مناف يأكلنه بأعينهن ، وقد استولت عليهن جميعا أمنية واحدة : أن يصبح عبد الله زوجا لهن ، وأن يأتى ذلك اليوم السعيد الذى يغلق فيه عليه وعليهن الأبواب .

وراحت رقيقة بنت نوفل تخوض فى الجموع التى تكدست فى الحرم فقد عزمت على أن تصل إلى عبد الله مهما قاست من مشقة ، ففؤادها يهوى إليه ، وكل جارحة من جوارحها تشتهيه ، وهى لا تستطيع قمعا لعواطفها المشبوبة التى تستبد بها ، فراحت تتقدم صوب من خفق بحبه الفؤاد ، وقد استحالت كل حواسها إلى عيون ترصد الفتى الهاشمى وقلوب تضطرب بالهوى والصبابة والهيام .

وجىء بمائة من أطيب إبل عبد المطلب ، وجاء صبيان مكة وفقراؤها فى أثرها . فماج الناس فى الحرم موجا شديدا ، واشتد الزحام حتى إن رقيقة بنت نوفل جرفت بعيدا عن عبد الله بعد أن صارت منه قاب خطوتين أو أدنى ، ولم يدب اليأس فى قلبها بل راحت تجاهد لتدنو منه مرة أخرى فقد وقر فى نفسها أنها تسعى لخير الدنيا وعز الآخرة .

وراحت الإبل تنحر بين إساف ونائلة ، وزراح فقراء مكة ينقضون عليها انقضاض الصقور وقد رفت على شفتي عبد المطلب ابتسامة رضا ، وسرعان ما تذكر وهو فى قمة نشوته نبوءة الحبر اليمنى ونبوءة سودة عمة وهب ، فرأى أن يتوج أفراحه بتزويج عبد الله آمنة بنت وهب ، واستولت عليه الفكرة فراح يتلفت يبحث بعينيه عن سيد بنى زهرة فإذا به قريب منه ، فذهب إليه وراح يناجيه فأشرق وجه سيد قريش وسيد بنى زهرة بالسرور والبهجة .

ونجحت رقيقة فى أن تصل إلى حيث وقف عبد الله فتهلل وجهها بالفرح وإن كانت أنفاسها مبهورة وقلبها يدوى دويا بين ضلوعها ، ومالت برأسها نحو الفتى المنتصب بين قومه كتمثال الذهب وقالت فى صوت مضطرب :

ـــ أين تذهب يا عبد الله ؟

ـــ مع أبى .

فجمعت نفسها التى ذهبت شعاعا وقالت فى وجد :

ـــ لك مثل الإبل التى نحرت عنك وتعال معى .

فقال عبد الله وقد أشاح بوجهه عنها :

ـــ أنا مع أبى لا أستطيع فراقه .

كانت رقيقة من أجمل النساء وكانت تطمع فى عبد الله ، فقالت لمن شغفت به حبا فى حرم الكعبة دون أن تغلق الأبواب : هيت لك ، فأعرض عنها لأن الكريم يحمى عرضه ، ولو كان مؤمنا لقال لها ما قال يوسف لامرأة العزيز : « معاذ الله إنه ربى أحسن مثواى إنه لا يفلح الظالمون » .

وأفاقت رقيقة على طعنة الإعراض التى سددها حبيب الروح إلى قلبها الولهان فأحست كبرياءها تدمى ، وحقدت على نفسها لذلك الضعف الذى استبد بها وجعلها تعرض نفسها رخيصة على فتى قريش .

رخيصة ؟! إنها عرضت عليه مائة من الإبل ، ليته بقبل ، فإن فيه شيئا غامضا مثيرا يشدها إليه ، إن فيه سحرا تتفتح له الروح قبل أن يحن إليه الجسد ، إن فيه إشراقا لم تر مثله فى شباب قريش ، إن فيه سرا لا تعرف حقيقة كنهه وإن كانت تحس خطره كأنما قد ألهمته .

وجاء رسول وهب إلى دور بنى زهرة بالبشرى وقال إن زعيم قريش عبد المطلب بن هاشم قادم هو وابنه الذبيح ليزوج عبد الله آمنة بنت وهب ، وانتشر النبأ بين نساء بنى زهرة ففاضت القلوب بالفرح ، وخفت برة بنت عبد العزى إلى حيث كانت ابنتها آمنة وقالت لها وقد تهللت بالسرور وفؤادها يرقص طربا بين جنبيها :

ــ إن عبد المطلب قادم ليزوجك عبد الله .

وأطرقت آمنة حياء وإن أشرقت أساريرها ، وإن خفق قلبها أعذب خفقات فى الوجود ، خفقات تحقيق أعظم حلم راود فتاة ، فقد كان عبد الله أملها مذ كان يلهو مع الغلمان فى ربوع مكة وعلى روابيها ، وكانت ترقب فى لهفة ذلك اليوم السعيد الذى يقبل فيه عبد الله الكوكب المنير بين إخوته ليطلبها لنفسه زوجة .

كانت أعز أمنيات حياتها أن يأتى البشير بأروع نبأ يهفو إليه فؤادها ، وها هى ذى أمها الحبيبة تحمل إليها البشرى متهللة الأسارير ، فتستشعر آمنة أن الوجود كله يخفق بالفرح ، وأن جبال مكة ووديانها تترنم بأهازيج البهجة ، وأن إشراقة ساحرة قد أشرقت على الكون فغمرته بنور لطيف يملأ النفوس أمنا ، إنها رقت حتى أحست كأنما تسبح فى فضاء هواؤه النشوة والحبور ، ولكنها راحت تجاهد لتدارى حقيقة مشاعرها غير أنها عجزت عن ذلك ، فقد كان وجهها مرآة صادقة للمشاعر الناعمة الموارة بين الضلوع .

جاءت جدتها قيلة بنت أبى كبشة أم وهب تسعى وقد هزها النبأ ، فما كانت تجد فى قريش فتى كفئا لفتاة بنى زهرة مثل عبد الله ، فراحت تقول فى صوت متهدج خنقته عبرات الفرح :

— مبارك . مبارك يا آمنة .

وارتمت الفتاة فى أحضان جدتها فاحتضنتها وقلبها يتدفق بالحنان ، وغابا عن الوجود لحظة مترعة بأنبل ما فى البشرية من عواطف . وراحت برة ترنو إلى تعانق العزيزتين فطفرت الدموع من مآقيها وقد هزتها شدة انفعالها هزا .

كان سادات قريش يتشاورون قبل عقد زواج فتى من فتيانهم فى دار الندوة ، فقد كانت المصاهرة أمرا يهم القبيلة كلها ، فالفتى القرشى الشريف سيربط قبيلته بقبيلة أخرى ، فلابد أن يكون هناك تكافؤ بين الزوجين وبين الأسرتين وبين القبيلتين . وقد كانت آمنة بنت وهب أفضل فتاة فى قريش نسبا وموضعا ، وكان عبد الله فتى قريش الذى يتمنى سادات قريش وأشرافها أن يزوجوه فتياتهم ، فلم يكن هنالك من سبب يدعو إلى تشاور أهل الرأى فى دار الندوة فى أمر ذلك الزواج الذى بدا كأنما كل ملابسات الحياة قد مهدت له ، ولكأنه كان أمرا مقضيا .

ودخل وهب على ابنته وقد تألقت عيناه بالفرح وقال لها :

— إن شيخ بنى هاشم قد جاء يطلبك زوجة لفتاه عبد الله .

وأسبلت آمنة جفنيها على عينيها فقد خجلت من أن يقرأ أبوها سيد بنى زهرة الفرحة الطاغية التى ملأت جوانحها ، ولم يكن وهب ينتظر منها ردا فموجات الفرح على الوجوه وفى العيون وعلى الشفاه وفى حركات أمه وزوجته وابنته وسكناتهن أبلغ تعبير عن الترحيب بهذه المصاهرة .

وانطلق وهب خفيفا لا تكاد قدماه تلمسان الأرض من فرحته إلى حيث

جلس الرجال ، وجاءت بنات عبد المطلب ونسوة بنى هاشم وقد أشرقت وجوههن بالسرور ، بعد أن كن قياما هناك عند الكعبة يذرفن الدموع على عبد الله الذى كان كاهن هبل يضرب عليه بالقداح ينتظرن أمر الله فيه .

سعادة غامرة وفرحة مجنحة وسرور وحبور لف دار وهب وغمر من فيها من شيوخ وعجائز ورجال ونسوة وفتيان وفتيات ، وفاض حتى ملأ دور مكة وسكانها . ولم يحس بالحسرة والألم إلا الفتيات اللاتى كن يطمعن فى زواج عبد الله ، فقد كانت الغيرة تنهش أفئدتهن بعد أن تحطمت أحلامهن .

واجتمع رجال بنى هاشم وسادات بنى مخزوم أخوال عبد الله وشيوخ بنى زهرة ، وجلس عبد الله متسربلا بالجمال والجلال بين أخويه الزبير وأبى طالب ومن حوله باقى إخوته . وقد كان عبد الله على الرغم من حداثة سنة يحس خطره فقد فداه الله بمائة من الإبل كما فدى جده إسماعيل بذبح عظيم ، وقد أعرض عمن قالت له هيت لك كما أعرض يوسف عن امرأة العزيز .

كان كل سادات قريش ومكة فى دار وهب سيد بنى زهرة يحتفلون بذلك الرباط المقدس الذى سيربط بين أفضل حيين فى العرب بنى هاشم وزهرة ، ولو كان هناك فسحة من الوقت لبعث عبد المطلب يدعو أخواله من بنى النجار من يثرب ليشتركوا معه فى أفراحه ، فقد كانت صلة المودة وثيقة بين بنى هاشم وبنى النجار إذ كان عبد المطلب زعيم قريش وسيدها ثمرة مصاهرة مكة ليثرب .

وقام عبد المطلب يعدد مناقب قريش وبنى هاشم ، ثم طلب من وهب أن يزوج عبد الله آمنة بنت وهب . وفى نفس الوقت طلب من أخيه وهيب أن يزوجه ابنته هالة ، فقام وهب وعدد مناقب بنى زهرة ، ثم رحب بزواج عبد الله وابنته آمنة ، وقام بعده أخوه وهيب وأعلن موافقته على تزويج ابنته هالة

لعبد المطلب شيخ بنى هاشم وزعيم مكة .

وقام أبو طالب والزبير إلى عبد الله يقبلانه مهنئين ، ثم راح باقى إخوته يضمونه إلى صدورهم وهم يتمنون لأخيهم التوفيق . وأقبل رجال قريش على عبد المطلب وعبد الله ووهب ووهيب وراحوا يصافحونهم قائلين بالرفاء والبنين .

وهرعت نسوة بنى هاشم وبنى زهرة إلى آمنة وهالة ورحن يقبلنهما ويتمنين لهما أطيب التمنيات ، ووقفت سودة عمة وهب كاهنة مكة بعيدا تتفرس فى وجه آمنة ، إنها تنبأت لها ذات يوم بأنها ستلد نذيرا وإنها لترى فى وجهها تلك اللحظة شيئا غامضا مثيرا يهز وجدانها وإن عجزت كهانتها عن أن تميط اللثام عن كنهه، فهو شيء رائع لم تر فى وجوه فتيات العرب مثله ، شيء تهفو إليه الأرواح ويستعصى على فراسة الكهان والعرافين .

كان رجال قريش ونساؤها ورجال بني زهرة ونساؤها فرحين مستبشرين بزواج عبد الله وآمنة ، فتى قريش وزهرة بنى زهرة . وكانوا يرجون الخير الكثير لهذه المصاهرة ، وعلى الرغم من أن آمنة وأم عبد الله وأبويهما قد حلقوا كثيرا فى دنيا الأمانى ، فما من أحد من مكة ، قدر خطورة تلك الليلة حق قدرها ، فقد كانت ليلة مباركة لم يجد الزمن من قبل بمثلها ، ليلة قدر لها أن تكون مبدأ من سيجعله الله رحمة للعالمين ، إن الله لذو فضل على الناس ولكن اكثر الناس لا يشكرون .

وكان من عادة العرب أن يبيت الزوج ثلاثة أيام فى بيت أهل زوجه ، وقد كان لوهب بيت فى منى عند الجمرة الصغرى ، فذهب عبد الله وآمنة إلى هناك ، بينما بات عبد المطلب وهالة فى بيت بنى زهرة بعد أن انسحب المهنئون .

وسار عبد الله وآمنة متسربلين بالليل فى منى ، فى نفس الطريق الذى سار فيه إبراهيم خليل الرحمن وإسماعيل صادق الوعد الأمين وهاجر المؤمنة التى لو وزن إيمانها بإيمان أهل الأرض لرجحتهم ، يوم أن ذهب إبراهيم بابنه الوحيد ليذبحه تصديقا للرؤيا التى رآها فى منامه .

كان النسيم يهب رخاء والقمر يرسل أشعته الفضية فيكسو أرجاء منى بالسحر ، وجبل ثبير يطل على الوادى كحارس أمين ، ولولا ذلك الصنم الذى نصب فى المكان الذى هم إبراهيم فيه بذبح ابنه الحبيب لبدا كأن الرحمة قد تجلت على الكون .

ودخل عبد الله وآمنة بيت وهب فى منى وأغلقا الباب وراءهما ، فإذا بعبير طيب يملأ أرجاء الدار ، وإذا بنور القمر يتسلل من النوافذ فينفث فى النفوس راحة وأمنا . ولكن عبد الله وآمنة كانا فى قمة السعادة فغفلا عن كل شىء إلا نفسيهما ، فقد كانت هذه أول ليلة يخلو فيها كل منهما بصاحبه ، وحملت آمنة بنور الهدى وابن الذبيحين .

ومرت الأيام الثلاثة وعبد الله وآمنة يستشفان أريج الماضى التليد ويحسان خفق قلب الوجود ، فقد كانت جبال منى ووديانها تنبض بالذكريات ، فعند الجمرة الصغرى ظهر الشيطان لإسماعيل وقال له : أتدرى إلى أين يذهب بك أبوك ؟ إنه يزعم أن الله قد أمره بذبحك ، فحصبه إسماعيل . وفى ذلك المكان من ذلك العهد رمى العرب الشيطان بالجمرات إحياء لتلك الذكرى .

وأمام البيت الذى بنى به عبد الله بآمنة ، كانت الجمرة الوسطى حيث ظهر الشيطان لهاجر وقال لها : أتدرين أين يذهب الشيخ بابنك ، إنه ذاهب ليذبحه ، فحصبته هاجر المؤمنة المستسلمة لأمر الله . وعلى مرمى البصر الجمرة الكبرى حيث ظهر الشيطان لخليل الرحمن . وجبل ثبير ومجر الكبش .

إنها أماكن هرع إليها الناس مذ أقام إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ، ومذ أذن إبراهيم فى الناس بالحج ، ومذ قال : « يا بنى إنى أرى فى المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى ؟ قال : يا أبت أفعل ما تؤمر ستجدنى إن شاء الله من الصابرين . فلما أسلما وتله للجبين . وناديناه أن يا إبراهيم . قد صدقت الرؤيا ، إنا كذلك نجزى المحسنين . إن هذا لهو البلاء المبين . وفديناه بذبح عظيم » .

أماكن مباركة مذ فرض الله على الناس الحج بعد أن أقام إبراهيم القواعد من أول بيت وضع للناس ، ويا طالما ترددت فى جنبات ذلك الوادى تلبية المؤمنين على مر العصور : لبيك اللهم لبيك ! لبيك لا شريك لك لبيك ! إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك . ولما طال على الناس الأمد وقست قلوبهم وأشركوا بربهم ظلت مراسم الحج كما كانت على عهد إبراهيم الخليل ، إلا أن الوثنيين المشركين أضافوا إلى التلبية ما يتسق مع شركهم فقالوا :

— لبيك اللهم لبيك ! لبيك لا شريك لك لبيك ! إلا شريك هو لك ، تملكه وما ملك .

اقضت الأيام الثلاثة السعيدة المباركة التى أمضاها عبد الله وآمنة فى بيت وهب بمنى عند الجمرة الوسطى ، فأخذ عبد الله آمنة وانطلقا إلى داره بمكة ، وما كانت آمنة تدرى أنها حملت « بدعوة إبراهيم » . « وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك السميع العليم . ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك التواب الرحيم . ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم » .

وبلغا دار عبد الله ، إنها دار من دور بنى هاشم لم تكن مرتفعة البنيان ،

ولكنها كانت دارا جميلة لعروسين ، فقاد عبدُ الله آمنة إلى الدرج الحجرى وراحا يرقيان فيه هونا حتى بلغا بابا يفتح من الشمال ، فدلفا إلى فناء واسع وسارا فيه كطيفين كريمين حتى وصلا إلى الجدار الأيمن قاصدين الباب الذى فتح فيه .

ودخل عبد الله وآمنة فإذا بقبة فى وسطها مقصورة من الخشب أعدت لتكون مخدع العروس ، والتفت عبد الله إلى آمنة فإذا وجهها قد تهلـل بالفرح ، وإذا بابتسامة رضا قد رفت على شفتيها ، فأقبل عبد الله عليها وقد غمره السرور .

وخرج عبد الله ليطوف بالكعبة فلم يطف بها مذ خرج منها بعد أن نحرت مائة من الإبل فدية له لا يصد عنها إنسان ، وانطلق حتى إذا ما بلغ البيت العتيق رأى رقيقة بنت نوفل واقفة عند الكعبة فذهب إليها والتقت عيناه بعينيها ، وسرعان ما أشاحت بوجهها عنه .

وعجب عبد الله ، إنها قد عرضت عليه نفسها ومائة من الإبل منذ ثلاثة أيام فما لها تزور عنه اليوم ؟

وأراد عبد الله أن يعرف سر ذلك التحول فقال لها :

ــ مالك لا تعرضين عليَّ اليوم ما كنت عرضت علىّ بالأمس ؟

فقد عبد الله سحره بعد أن تزوج آمنة بنت وهب وزهدت فيه رقيقة ، فقالت وهى تحول بصرها عنه إلى الكعبة :

ــ فارقك النور الذى كان معك بالأمس ، فليس لى بك اليوم حاجة !

٧

جلس عبد المطلب على فراشه فى ظل الكعبة بعد أن غادر بيت وهيب وحمل زوجه هالة بنت وهيب إلى داره ، وكان عبد المطلب متفتح النفس متهلل الأسارير فقد تزوج هو وابنه عبد الله فى ليلة واحدة ، وقد توطدت بذلك الأواصر بين بنى زهرة وبنى هاشم ، وامتلأت صدور بنى مخزوم أخوال عبد الله بالسرور بعد أن فدى شيخ بنى هاشم ابنه بمائة من الإبل ، وزوجه آمنة بنت وهب فتاة بنى زهرة التى كانت تتيه بجمالها وشرفها ومقامها على بنات أشراف مكة وسادتها .

وجاء إلى مجلس عبد المطلب نديمه حرب بن عبد شمس وعبد الله بن جدعان بعد أن أعرض عن اللهو وأغلق بينه وبين الشر أبوابا ، فقد كان عبد الله بن جدعان شريرا لا يعاشر إلا رفاق السوء ، سريع الغضب كثير الجنايات حتى أبغضه قومه وعشيرته وأهله وقبيلته ، وحتى امتلأ قلب أبيه ببغضه فقد كان عار الأسرة والقبيلة .

أوغل عبد الله بن جدعان فى الشرور ثم فكر ودبر ، فرأى أن ارتكاب السوء يقود إلى الضلالة والضياع فى تيه الوجود . كانت نفس عبد الله طيبة وإن تبدت خامدة مكبوتة ران عليها ميل إلى الشر والعدوان والفجور ، فقد طمر الجوهر الطيب فى أعماق شعوره ، فلما بدأ الصراع فى جوفه بين الخير والشر ، بين المغلق والمفتوح انتصرت المعنويات على الماديات ، فهجر العدوان والسلب والنهب إلى المسالمة والأمانة فانتشل نفسه من انهيار سريع

بعد أن خان ذاته بفعل قوى مهلكة خداعة كامنة انطلقت تحت ضغط محنة أخلاقية إلى طريق الآثام والشرور .

حكم عبد الله بن جدعان على نفسه بعدوانه على أهله وعشيرته وقبيلته بمكابدة انهيار معنوى ، فلما نشب فى جوفه صراع روحى انزاحت الغشاوة عن جوهر طيب فاختار طريق الخير ، وقد قاده ذلك السبيل إلى الغنى والشرف والسلطان . ولكن الناس لا يستطيعون أن يصدقوا أن النفس قادرة على النهوض من كبوتها من تلقاء نفسها ، وأنها قادرة على أن تقود صاحبها إلى الغنى دون أسطورة ودون وصف صراع البطل الظافر مع جبار أسطورى فى سبيل الاستحواذ على كنز ، فقالوا إن عبد الله بن جدعان لما فر من وجه أبيه وقومه لجأ إلى الجبال ، وبينا هو مختبئ هناك إذ رأى ثعبانا على باب مغارة ، وهم بأن يفر من ذلك الثعبان ولكنه فطن إلى أنه من ذهب وعيناه من جوهر ، فاستولى على الثعبان ودخل المغارة وإذا به يعثر على كنوز مضاض بن عمرو الجرهمى .

إنها نفس الأسطورة التى رددتها الأساطير اليونانية وأساطير الشعوب كلما انتصرت نفس على ضعفها وانطلقت فى طريق الخير لتجمع ثروة ، وقد أصبح عبد الله بن جدعان من أغنياء مكة وأجوادها ، وصار مجلسه مع عبد المطلب زعيم قريش بعد أن كان مع مجان مكة وأشرارها .

وجاء عبد الله بن عبد المطلب متهلل الأسارير وألقى على الموجودين تحية الصباح ، ثم جلس إلى جوار أبيه ومد بصره إلى الكعبة وراح يراقب حمام الحمى وهو يطوف حولها ، والناس وقد ازدحموا عند زمزم ، فامتلأ قلبه بإشراقة من المحبة ، وأحس تعاطفا مع كل ما حوله وتناسقا مع الوجود ، فقد كانت نفسه راضية وآماله مجنحة بعد أن ذاق السعادة الحقة مذ انطلق مَعَ

زوجة آمنة بنت وهب إلى بيت أبيها بمنى ، وبعد أن عاد بها إلى داره القائمة بين دور بنى هاشم خلف الكعبة .

إنه مذ بنى بآمنة يستشعر فى أعماقه أن شيئا عظيما مثيرا قد حدث ، فقد كانت الليلة الأولى التى أغلق فيها عليه وعلى آمنة الدار ليلة لم ير أروع منها طوال حياته ، كان القمر يرسل أشعته إلى جبال منى ووديانها ، وقد انسكب ضوءه من النافذة فغمر الحجرة بنور لطيف . إنه طالما سرى فى الليل ، وطالما أحس سحر القمر ، ولكن القمر فى تلك الليلة كان شيئا آخر ، كان أكثر تألقا مما كان ، وكانت أشعته كأنها عواطف حانية زاخرة بالمحبة تحتوى الوجود كله بين جوانحها ، وقد هب النسيم رخاء كأنما يحمل بشرى ورحمة للناس كافة .

إن أريج تلك الليلة لا يزال طيبا فى نفسه ، وإنه فى دهشة من أمره ! أفاح الطيب من أرجاء الدنيا حقا أم انبعث من روحه ، فقد أحس رائحة المسك فى أنفه مذ قالت له رقيقة بنت نوفل : هَيت لَك ، وأعرض عنها وذهب إلى بيت آمنة ، إنه ليشم رائحة المسك الأذفر أينما سار منذ تلك الليلة المباركة ، ويرى الدنيا تتلألأ بالبهجة والإشراق .

كان عبد الله أصغر الموجودين سنا فقد كان فى الثامنة عشرة ، إلا أنه أحس فى أعماقه على الرغم من حداثة سنه أنه أصبح شيئا جليلا بعد أن تزوج آمنة . ولم يكن ما أحسه كبرا فقد سمع أهله فى خطبهم يعددون مناقب قريش : نحن آل إبراهيم وذرية إسماعيل وبنو النضر بن كنانة وبنو قصى بن كلاب وأرباب مكة وسكان الحرم ، لنا ذروة الحسب ومَعْدِن المجد ، فلم يملأه ذلك التفاخر زهوا ، ولكن الليلة خيل له فيها أن الأرض كانت تتلقى وحى السماء قد رفعت من شأنه فى عين ذاته ، حتى إن إحساسا غامضا قد غمره بأنه أصبح أجل شأنا من كل سادات قريش وأشرافها .

وأفاق عبد الله من أحلام يقظته على صوت فيه غنة يقول :

ـــ أنعم صباحا يا فياض ، يا مطعم طير السماء .

فرفع عبد الله رأسه فرأى ذلك اليهودى الذى كان فى جوار أبيه يحيى عبد المطلب ويجلس ، ولمح التغير الذى اعترى وجه حرب بن أمية فقد كان حرب يضيق بذلك اليهودى ولا يستريح لحديثه .

والتفت عبد المطلب إلى ولده وراح يأمرهم بترك البغى والظلم ويحثهم على مكارم الأخلاق وينهاهم عن سفاسف الأموز ، وفيما هو منطلق فى حديثه قال قائل من الجالسين عنده :

ـــ إنك تقول لنا فى وصاياك لن يخرج من الدنيا ظلوم حتى ينتقم منه وتصيبه عقوبة .

فقال اليهودى :

ـــ إن المرء يثاب فى الدنيا على أعماله ، إن خيرا فخير وإن شرا فشر .

كان ذلك هو اعتقاد اليهود بعد أن حملوا أسرى من أورشليم إلى بابل ، وأعادوا كتابة التوراة هناك متأثرين بعقائد البابليين التى كانت تقول إن المرء بعد مغادرة الحياة يذهب إلى الأرض التى لا رجعة منها وأنه يثاب فى دنياه عن أعماله . وقد تأثر عبد المطلب بيهود يثرب لما كان فى كنف أمه سلمى بنت عمرو قبل أن يعود به المطلب إلى قومه ، واعتنق ذلك الرأى وراح يدعو إليه فى مجالسه ، وقد كان ذلك اليهودى ينبرى لتأييد رأى عبد المطلب فقد كان فى تأييده تأييد لدينه . وكان حرب بن أمية يحرق الأرم غيظا من ذلك المتطفل على مجلسهم فقال فى غلظة :

ـــ الزم الصمت .

ونظر عبد المطلب إلى نديمه فى عتاب وقد ضايقت نظرات عبد المطلب

حرب بن أمية ، ولو طاوع وسوسات نفسه لقام وشهر سيفه وأطاح برأس ذلك اليهودى الذى يعكر الصفو بين النديمين .

وراح قائل يعارض رأى عبد المطلب ويقول إن ظلوما من أهل الشام قد هلك بعد أن ملأ الأرض ظلما و لم تصبه عقوبة ، فأطرق عبد المطلب يفكر ثم قال :

ـــ والله إن وراء هذه الدار دارا يجزى فيها المحسن بإحسانه ، ويعاقب فيها المسىء بإساءته .

و لم يكن ما قاله عبد المطلب من قبيل الإلهام فقد كان نصارى الروم والشام والحيرة والحبشة يغدون ويروحون فى مكة ، وقد سمع عبد المطلب منهم لا ريب عن الدار الآخرة ، فلما أفحمه الرأى القائل بأن الظلوم قد يخرج من الدنيا دون أن تصيبه العقوبة كفر بمعتقدات اليهود الذين شب بينهم فى المدينة ، واعتنق ما يقول به النصارى من أن وراء هذه الدار دارا يجزى فيها المحسن بإحسانه ويعاقب المسىء بإساءته . ولو رفعت أسجاف الماضى البعيد عن بئر زمزم لرأى عبد المطلب هاجر جالسة عند البئر تلقن ابنها إسماعيل دين أبيه إبراهيم وتحدثه عن اليوم الآخر « يوم تأتى كل نفس تجادل عن نفسها وتوفى كل نفس ما عملت وهم لا يُظلمون » ولكن طال على الناس الأمد وقست قلوبهم فأشركوا بربهم ونسوا يوم الدين .

وعاد الصحاب يتحاورون ، وسرعان ما راح عبد الله يجرى وراء أحلامه فقد وعده أبوه بأن يبعثه إلى الشام مع قوافل قريش ، وقد قال له إنه سينزل بيثرب وسيرحب به أخواله بنو النجار ، فراح يرى نفسه بعين خياله فى قافلة قريش وهى تسرى فى أرض ذات نخل وعلى جانبيها الحقول كشطئان من سندس أخضر ، ورأى سوق الصياغة وهو يشترى لآمنة حليا فاخرة من يهود

بنى قريظة ، ثم رأى نفسه يعود وقد كسب مالا ممدودا فأشرق وجهه بالابتسام . ولكن سرعان ما قطب جبينه فما كانت أحلامه تعبر عن المشاعر الفياضة التى تموج بين ضلوعه ، فما من مكى خرج إلى الشام إلا وقد عاد إلى أهله بالحلى والهدايا والكسب الوفير ، وإن ما يحسه فى أغوار ذاته شىء أروع من المال والتجارة ، شىء غامض ساحر لذيذ ، يملأ الروح بنور على نور ، ويمد الفؤاد بكنوز من السعادة تزرى بكنوز الأرض من ذهب وفضة .

ومالت الشمس لتغيب فى الأفق الغربى خلف جبال مكة فنهض عبد المطلب وقام بنوه ومن كانوا عنده وراحوا يطوفون بالكعبة قبل أن يعودوا إلى دورهم ، ثم انطلق عبد المطلب وبنوه إلى دور بنى هاشم من باب إبراهيم ، وخرج الآخرون من أبواب متفرقة .

ودخل عبد الله على آمنة فألفاها تتألق بالبشر وتقبل عليه مرحبة به كأنما قد آب من سفر طويل ، وراح العروسان يتناجيان فيحس كل منهما أن رباطا قويا قد شد كلا منهما إلى الآخر وإن لم يمض على زواجهما أكثر من أربعة أيام ، رباطا روحيا وثيقا يحطم كل الحواجز والسدود التى تقوم عادة بين نفسين وإن عاشا تحت سقف واحد عشرات السنين .

كانت آمنة سعيدة كل السعادة راضية كل الرضا تستشعر كأنما قد احتوت الوجود كله بين جوانحها ، وأن بركة عظيمة قد غمرتها بالنشوة وراحت تسكب فى فؤادها رحيق الحب لكل ما تقع عليه عيناها ، وأن فيضا روحيا ينبثق بالرحمة من أغوار نفسها فإذا بها تحس أنها تعيش فى دنيا جديدة تنبض رقة وأمنا وسلاما .

وبدت الدار الصغيرة للعروسين كأنها روضة من رياض الجنة ، فراحا يهيمان فيها كفراشتين حالمتين يخفق قلباهما بسعادة عارمة وتتفجر أعماقهما

بحب ليس له من نفاد ، حتى إذا ما دثر الليل الكون بعباءته السوداء ذهب عبد الله وآمنة إلى مخدعهما وأسلما جنبيهما للرقاد .

وطافت بمكة أحلام قطبت جباه ورفت على الشفاه بسمات ، وقد كانت البسمة التى توجت شفتى آمنة أعذب بسمة رسمت على شفتين فى تلك الليلة ، فقد كان حلمها رائعا غاية الروعة لكأنما كان حقيقة واقعة ساحرة أخاذة تبدهُ النفس والعقل والوجدان ، وتملأ المشاعر بخدر لذيذ .

وانبعث من أعماقها نور وهاج أضاء أرجاء الدنيا ، إنها ترى قصور بُصْرى من أرض الشام ، وإن هاتفا يهتف بها :

ــ إنك قد حملت بسيد هذه الأمة .

٨

كان العرب يتعشقون الحرية ، وقد مارسوا تلك الحرية وتحللوا من القيود حتى صارت الحرية إباحية ، وقد فقد الدين سلطانه على النفوس وأصبح علاقة بين العبد والرب تحكم الوجدان ولا تحكم واقع الحياة ، وصار الدين أداة لجلب منافع دنيوية وسعادة أرضية ، فقد وقر فى أذهان العرب الوثنيين أن المرء يثاب فى دنياه على أفعاله ، وأن ليست هناك دار أخرى .

ولم تعد الأخلاق قيمة حقيقية من قيم الدين ، وتغاضى المجتمع عن الجرائم الخلقية وصار الناس يوزنون بما يملكون من ذهب وفضة ، فراحت شهوة المال المجنونة تعربد فى النفوس وتتحكم فى تصرفات الناس ، فأصبح التعامل مع الطبيعة لا مع ما وراء الطبيعة ، مع المادة لا مع الله .

وأصبح الدين فى مكة فى عزلة عن المجتمع المكى وإن كان المكيون جميعا يطوفون بالبيت العتيق كل صباح قبل أن يستفتحوا يومهم وكل مساء قبل أن يستشيروا إلـٰههم ويضربوا بالقداح عنده ، وما كانوا يفعلون ذلك عن إيمان عميق بدينهم بل تسكينا للخوف من المجهول الذى كان يستبد بهم ، واستجابة لوسوسات الكهان والعرافين الذين عملوا على نشر الأساطير والخرافات والجهل لتحقيق مغانم دنيوية مستغلين ما يتمتعون به من وميض الفراسة الذى بسط سلطانهم على المكيين جميعا .

وكان أهل الكتاب الذين يعيشون فى مكة يعانون ازدواج الشخصية ، فاليهودى كان يمارس شعائر دينه فى تزمت شديد وفى نفس الوقت يرتكب كل

المحرمات مع المسيحيين أو الوثنيين من العرب ، فقد كان اليهودى يعتقد أنه هو الناس وأما عدا اليهود فهم أمم « كلاب البشرية » ، وأن الله لن يحاسب اليهود على ما يرتكبون من آثام فى حق الأميين : « ليس علينا فى الأميين من سبيل » .

وكان المسيحيون يمارسون شعائرهم الدينية ويقولون للعرب فى استعلاء ما لقنهم بولس من عقائد فاسدة : « لسنا أولاد جارية » . وكان المسيحى إذا احتاج إلى المال يقترضه من اليهودى بربا فاحش نهت عنه المسيحية ، وكان يأبى إلا أن يحقر مقرضه فلا يسلم عليه بيده ولا يلمسه إنما يأمره أن يقف بعيدا ويصرخ فيه : « ضع المال واغرب عن وجهى يا خنزير » ، ونسى الناس جميعا أنهم لآدم وآدم من تراب ، وأن رب الناس وإلٰه الناس وملك الناس واحد لا شريك له .

تحرر المجتمع المكى من قيود الأخلاق ، فبعد أن كان الرجل يخطب إلى الرجل وليته أو ابنته ويعين صداقها ثم يعقد عليها أصبح ذلك فى فئة قليلة من الذين حافظوا على التقاليد القديمة ، أما الذين تحرروا من عقائد القوم والأفكار الموروثة فقد صاروا يدخلون دون العشرة على امرأة ما ثم يصيبها كلهم عن رضا منهم وتواطؤ بينهم وبينها ، فإذا حملت ووضعت ومرت ليال بعد أن تضع حملها أرسلت إليهم ، فلم يستطع رجل منهم أن يمتنع حتى يجتمعوا عندها فتقول لهم : قد عرفتم الذى كان من أمركم وقد ولدت فهو ابنك يا فلان . تسمى من أحبت باسمه فيلتحق به ولدها لا يستطيع أن يمتنع به الرجل .

وانتشرت البغايا فى مكة وكن ينصبن على أبوابهن رايات تكون عَلَمًا فمن أرادهن دخل عليهن ، فإذا حملت إحداهن ووضعت حملها جمعوا لها من دخل بها ودعوا القافة ، فيتفرس القائف فى الولد ثم الرجال فيعرف شبه الولد بالوالد بوميض الفراسة والآثار الخفية ، فيلحق ولد البغى بالذى يرى القائف أن

يستحلفه به فيدعى ابنه لا يمتنع عن ذلك .

وقد اشتهرت بغايا كثيرات فى مكة منهن سريفة جارية زمعة بن الأسود ، وفرسة جارية هشام بن ربيعة ، وأم عليط جارية صفوان بن أمية ، وحنة القبطية جارية العاص بن وائل . وكان بعض الإماء يمقتن البغاء فكن يكرهن عليه : « ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصنا لتبتغوا عرض الحياة الدنيا » .

ولم يعد للرباط المقدس الذى يربط الرجل بزوجه أى وزن ، فإذا أراد الرجل أن ينجب كريما أو شجاعا أو قويا يقول لزوجه إذا طهرت من طمثها .

ـــ أرسلى إلى فلان فاستبضعى منه .

فترسل المرأة إلى الرجل المنشود وتطلب منه الجماع ، فكان الرئيس أو الشجاع أو الكريم يأتى إلى دار الزوج ليؤدى ما يطلب منه لتحسين النوع وهو راضى النفس ، وكان زوجها يعتزلها ولا يمسها أبدا حتى يتبين حملها من ذلك الرجل ، وكان نكاح الاستبضاع مباركا من الزوج والزوجة والمجتمع جميعه .

وانتشر فى مكة زواج المتعة وهو زواج إلى أجل ، فإذا انقضى وقعت الفرقة . ونكاح البدل وهو أن يقول الرجل الرجل : انزل لى عن امرأتك وأنزل لك عن امرأتى . ونكاح الخدن وهو أن تتخذ الزوجة صديقا . وقد كان العرب يقولون ما استتر فلا بأس به وما ظهر فهو لوم ، وقد قل فى النساء المحصنات : « محصنات غير مسافحات ولا متخذات أخذان » .

وقد حكم الربا الحياة الاقتصادية فى مكة والمدينة والطائف وأسواق العرب ، فقد كان الدائنون يأكلون الربا أضعافا مضاعفة ، فأصحاب النخيل عند جنى الثمر كانوا يتفقون مع القائمين على جمع المحصول على أن يدعوا لهم على أن يسددوا ضعفه فى العام القابل ، فإذا ما

حل الأجل وعز المدين عن السداد فقد كان الدائن يمنحه أجلا آخر على أن يسدد المدين ضعف الكمية التى استحقت فى الأجل الأول .

وإذا أقرض الدائن المدين ناقة عمرها سنة فعلى المدين أن يدفع للدائن بعد عام ناقة عمرها سنتان ، فإذا عجز عن تقديم تلك الناقة فعليه أن يدفع فى السنة التالية ناقة عمرها ثلاث سنوات . وكان ذلك هو الحال فى العمليات المالية ، فإذا أقرض رجل آخر مائة دينار لمدة عام فعلى المدين أن يدفع فى الأجل المسمى مائتى دينار ، فإذا عجز عن الوفاء صار عليه أن يدفع فى السنة التالية أربعمائة دينار ، وهكذا دواليك إلى أن يوفى المدين دينه .

وكانت المعاملات جميعا بين الدائن والمدين على مثل تلك الحال ، فإذا ما أقرض رجل آخر مبلغا من المال أو سلعة من السلع ، فعلى المدين أن يدفع فى الأجل المسمى المبلغ المقترض أو السلعة مع فائدة يتفق عليها ، فإذا أعلن المدين عجزه عن الوفاء فإن الدائن يقبل عن طيب خاطر مد الأجل على أن يسدد المدين الدين مضاعفا : « لا تأكلوا الربا أضعافا مضاعفة واتقوا الله لعلكم تفلحون » ..

وكان بنو ثقيف يأتون من الطائف إلى مكة ليقدموا القروض لبنى المغيرة ، وغالبا ما كان بنو المغيرة عند حلول الأجل يعتذرون عن السداد ويطلبون مد الأجل لقاء دفع فوائد تأجيل السداد ، فكان أفراد الطرفين يحررون عقودا جديدة بما اتفقوا عليه عند الملتزم بين باب الكعبة والحجر الأسود ، وهم يستنزلون اللعنات على من خان أو فجر أو بدل .

كان بنو ثقيف يقدمون الذهب والفضة والأنعام ومحاصيل أرضهم الخصبة ، فما كان لهم فى الناس من دين فعليهم أن يسددوا رأس المال أضعافا مضاعفة . إنها سنة وشرع شرعه القادرون الذين يملكون الذهب والفضة وما

فى الأرض من متاع ، وفرضوه على المحتاجين المضطرين الذين لا يجدون سندا من حاكم قوى مرهف الحس والضمير ، أو من دين سماوى ينهى عن أكل أموال الناس بالباطل وينذر الكافرين منهم بعذاب أليم .

وانقسم الربا إلى ربا نسيئة وربا فضل ، فربا النسيئة أن يقدم الدائن إلى المدين مبلغا ما على أن يتقاضى فوائده كل شهر ويظل رأسه ثابتا لا يربو ، فإذا حل الأجل سدد المدين ما اقترض ، وإلا طلب مهلة وقبل عن طيب خاطر أن يدفع الدين مضاعفا .

أما ربا الفضل فهو استبدال الذهب بالذهب والفضة بالفضة والبر بالبر والشعير بالشعير والتمر بالتمر والملح بالملح والورق بالورق إلى أجل ، على أن يحصل على فائدة من نفس الصنف لا أن يرد مثلا بمثل سواء بسواء ، أو يبيع غائبا بناجز لتحقيق أرباح غير مشروعة .

وكان العرب يرون شرعية الربا وكانوا يقولون فى بساطة : « إنما البيع مثل الربا » ويضربون مثلا بمن يشترى ثيابا بعشرة دنانير ويبيعها بأحد عشر دينار ، فذلك عمل مشروع ، وكذلك الحال فيمن يقرض آخر عشرة دنانير ويحصلها أحد عشر دينارا ، فكما أن البيع مشروع فالربا مشروع على هذا القياس . وكانوا يرون أن أية عملية تجارية أو ربوية مشروعة ما دام الطرفان قد ارتضيا شروطها ، فالبيع والربا ضروريان لسد حاجات البشر ، فإن كان المقرض لا ينال فى النهاية إلا رأس ماله فلماذا يخاطر بماله ويقرضه للمحتاجين ؟

كانوا يرون أن الربا يقوم بخدمة اجتماعية فهو يمكن المحتاجين من سد حاجاتهم ويشجع المقرضين على أن يقرضوا أموالهم للناس لإشباع رغباتهم ، وما كانوا بقادرين أن يتصوروا شيئا آخر فقد كانوا يعيشون فى مجتمع توزن فيه كل الأمور بالمادة ، وما كان اللروحانيات وزن يذكر .

وانتشر في بلاد العرب كما انتشر فى كل بقاع الأرض العبيد ، فالرقيق بضاعة ضرورية لا بد منها لأهل المال تدر عليهم أرباحا عظيمة ، فهم آلات ذلك الزمن ومصدر من مصادر الاستغلال للحصول على الثروة ، كما أنهم سلاح يستخدم للدفاع عن السادة الأثرياء فى أيام السلم وفى أيام الحرب .

وكانت مكة بلد الأثرياء والتجار غاصنة بعبيد الحبشة والسودان والرومان والفرس والغساسنة وعرب الحيرة وكان أثرياء مكة يستغلون العبيد فى الأعمال الشاقة وفى حراسة قوافل التجارة وفى زيادة رءوس أموالهم ، وكانوا يكرهون فتياتهم على البغاء ليبتغوا عرض الحياة الدنيا .

كان الأسرى البيض الذين يقعون فى أيدى الفرس أو الروم أو القبائل المغيرة على الحدود يباعون فى أسواق النخاسة ، وكانت أسعار هذه البضاعة تفوق البضاعة المستوردة من إفريقية ، وكانت جودة إنتاج الرقيق الأبيض والتفنن فيه والبراعة فى الصناعة التى لا تعرفها إفريقية تعوض عن ذلك الفرق .

ووكل إلى موالى العراق وبلاد الشام والروم وغيرهم من ذوى البشرة البيضاء إدارة الأعمال والقيام بالحرف التى تحتاج إلى خبرة ومهارة وفن ، فكانوا ينهضون بأعمال البناء والنجارة الدقيقة . وهذه البضاعة التى استوردتها قريش من الخارج وإن كانت تابعة تؤمر فتفعل وتكلف فتستجيب ، إلا أنها كانت بضاعة حية لها قلب نابض ودماغ يعمل ولحم ودم ولبعضها علم وفهم ومعرفة تفوق معرفة أصحابها المالكين لها ، فأثر هؤلاء العبيد أصحاب الحضارت فى حضارة قريش وفى معتقداتها .

وجلس عبد المطلب على فراشه فى ظل الكعبة وحوله ندماؤه وأبناؤه العشرة كأنهم أسد غاب ، وراح عبد المطلب يرقب الكتاب الذين كانوا يبرمون العقود عند الملتزم والناس أحرارا وعبيدا وهم يطوفون بالبيت ،

ويصغى إلى الابتهالات التى تنبعث من القلب حارة فتهز وجدانه هزا وترهف ضميره وتجعله بهيم فى الكون العريض .

ووقف رجلان ينظران إلى عبد المطلب وأبنائه ويتناجيان ؛ فقال أحدهما لصاحبه :

— بمثل هؤلاء تبنى الممالك .

والتقطت أذن عبد المطلب حديث الرجل فشرد ذهنه وتذكر تلك الرؤيا التى هالته ففزع منها فزعا شديدا ، رأى كأن شجرة نبتت من ظهره قد نال رأسها السماء وضربت بأغصانها المشرق والمغرب وما رأى نورا أزهر منها وأعظم من نور الشمس سبعين مرة ، ورأى العرب والعجم لها ساجدين وهى تزداد كل ساعة عظما ونورا وارتفاعا ، ساعة تخفى وساعة تظهر . ورأى رهطا من قريش قد تعلقوا بأغصانها ، وقوما من قريش يريدون قطعها ، فإذا دنوا منها أخذهم شاب لم ير قط أحس منه وجها ولا أطيب ريحا فكسر أظهرهم وقلع أعينهم ، فرفع يده لينال منها نصيبا فلم ينل ، فقال : « لمن النصيب ؟ » فقيل له : « النصيب لهؤلاء الذين تعلقوا بها وسبقوك » .

إنه انتبه فى تلك الليلة مذعورا ولم تستقر نفسه حتى ذهب إلى كاهنة قريش ، فقالت : « لئن صدقت رؤياك ليخرجن من صلبك رجل يملك المشرق والمغرب وتدين له الناس » .

ونظر عبد المطلب إلى ابنه أبى طالب . كان أبو طالب فى الخامسة والثلاثين وكان عبد المطلب يحس فى أعماقه أن سيكون لابنه هذا شأن عظيم ، حتى إنه قال لأبى طالب بعد أن قص عليه حلمه وما قالت كاهنة قريش : « لعلك أن تكون هو المولود » .

وأسبل عبد المطلب جفنيه على عينيه ليرى فى وضوح ما يدور فى رأسه

ويسمع ما تهمس به نفسه ، فقد قام فى جوفه سؤال : « أيكون ملك فى مكة ؟ » .

ولاح فى وجه عبد المطلب حيرة . أيصدق حلمه ويملك أبو طالب بمكة أم يثور الناس عليه ؟.

وانقضى النهار وانصرف عبد المطلب وأبناؤه إلى دورهم ، فذهب شيخ بنى هاشم إلى هالة بنت وهيب ، وانطلق عبد الله على جناح الشوق إلى آمنة بنت وهب ، ويمم أبو طالب والزبير شطر دور بنى هاشم ، بينا انسل أبو لهب إلى دار فتاة من فتيات البغاء المنتشرات فى مكة ليجتمع بشباب سادات قريش المترفين الفاسقين الباحثين عن المتعة المتمرغين فى حمأة الفساد .

واكتمل عقد الشباب العابثين فدارت كئوس الخمر ، وامتزجت ضحكات الرجال بضحكات الناس ، وجرت الألسن بأشعار ماجنة حتى كاد الليل أن ينتصف ، فمشى الملل إلى النفوس التى أنهكها طول العبث والمزاح ، وأراد الرجال أن يعيدوا إلى أفئدتهم التى كادت تموت الحماس فصاح صائح :

ـــ الميسر يا صحاب .

فقال أحدهم عابثا .

ـــ أهو من اليسر أم من اليسار ؟

ـــ إنه من اليسر إن كان أخذ مالك بيسر ، وهو من اليسار إن كنا سنسلب يسارك .

وتجاوبت فى المكان ضحكات فارغة وقام الرجال والنسوة للعب القمار ، وجىء بالقداح وهى عيدان قد نحتت وملست وجعلت سواء فى الطول ، وهى الأزلام والأقلام وهى عشرة ، الفذ والتوأم والرقيب والحلس والنافس

والمسبل والمعلى والمنيح والسفيح والوغد ؛ فللأول وهو الفذ سهم إن فاز وفوزه خروجه ، وعليه غُرم سهم إن خاب و لم يخرج . وكذلك باقيها على الترتيب فيما له وعليه ، إلى المعلى ، وهو السابع له سبعة إن خرج وعليه سبعة إن لم يخرج . يفرض فى كل سهم منها بحسب ماله ، وعليه حز ، وتكثر هذه السهام بثلاثة أخر أغفال ليس فيها حزوز ولا لها علامات ليكون ذلك أنفى للتهمة وأبعد من المحاباة ، وهى المنيح والسفيح والوغد .

ووضعت السهام فى كيس والتفت الذى سيضرب بالقداح إلى الأيسار الذين سيشتركون فى القمار ، فقال أحدهم :

ـــ الفذ .

فراح زملاؤه يركبونه بسخريتهم فقال :

ـــ إن خاب فغرم سهم وإن فاز فكسب سهم ، وأنا سهل أحب السهل .

وقال آخر :

ـــ التوأم .

ونظر إلى أبى لهب وقال :

ـــ كهاشم وعبد شمس .

فنظر صاحب القداح إلى أبى لهب وقال :

ـــ وأنت يا بن سيد قريش ؟

فقال أبو لهب فى زهو :

ـــ المعلى .

فقال قائل :

ـــ وما ضرك لو خسرت ، مال عبد المطلب كحصى مكة .

فمالت فتاة عليه وقالت :

— إنه ابن أكرمين ، ويا لسرورى يوم أن يصبح سيد قريش .

وراح صاحب القداح يوزع الأزلام على اللاعبين ، وبقى سهمان فقال الرجل :

— من يتمم ؟

فصاحت الأصوات :

— أبو لهب .. أبو لهب .

فأخذ أبو لهب ما فضل من القداح وقال للأيسار فى زهو :

— قد تممتم .

وأخذ ثوب شديد البياض ولف على يد « الحرضة » وهو الذى سيضرب للأيسار بالقداح ليغشى بصره فلا يعرف قدح أبى لهب دون غيره بعد أن لف بقطعة من جراب ، لئلا يجد مس قدح يكون له مع صاحبه محاباة .

وأخذ الحُرْضة و لم ينظر فيها ، وجلس خلفه آخر هو الرقيب وهو الذى ينظر فيما يخرج من القداح فيخبر الأيسار به ويعتمدوا على قوله فيه .

جلس الأيسار حول الحرضة ضارب القداح دائرين به ، ومد الحرضة يده وأخرج سهما ورفعه من غير أن ينظر إليه ثم ناوله الرقيب وصاح :

— التوأم .

ودفع بالسهم إلى صاحبه فأخذ الرجل سهمين من الأموال الموضوعة ، فقال له الحرضة :

— أتعيد السهم ؟

فقال الرجل :

— لا أرغب فى التثنية .

واكتفى الرجل بفوزه . واستأنف ضارب القداح الضرب بالقداح الباقية

على الثمانية أسهم الباقية ، ورفع الرجل قدحا فتسلمه الرقيب وقال :

ـــ المسبل .

ودفع بالقدح إلى صاحبه فتناول الرجل ستة أسهم من الأموال ثم أعاد سهمه وهو يستشهد بقول النابغة فى زهو :

إنى أتمم أيسارى وأمنحهم مَثْنَى وأكسو الجفنة الأدما

وأطل الجشع من العيون ودنت النسوة من الأيسار وقد سال لعاب طمعهن. وانبهرت الأنفاس وأرهفت الحواس وأشرقت وجوه وغامت بالحزن وجوه وبدت نواجز أقوام وقطبت جباه أقوام ، وقد لاح على أبى لهب الكدر الشديد فقد خاصمه حظه وخسر كل ما كان معه .

وأقبل رجل يسعى حتى وقف على رءوس الأيسار وصاح :

ـــ جاءت قافلة من الشام تحمل خمرا .

فضج المكان بصياح الفائزين والنسوة اليغايا وأطرق أبو لهب أسى ، ومرت لحظة وإذا بغز التى الذهب اللتين علقهما عبد المطلب فى الكعبة تملآن صفحة رأسه ، وإذا به يرى نفسه ينسل ويسرق غزالة منهما ويشترى بها خمرا .

وأحس أبو لهب جهدا فراح يزفر فى صوت مسموع ، وأسبل جفنيه على عينيه لكيلا يرى تلك الصورة البشعة التى استولت على تفكيره ولكن غزالة الكعبة استقرت أمام عين خياله لا تريم .

وتململ وهز رأسه فى عنف ليطرد الرؤى التى تنثال على رأسه ، ووضع أصابعه فى أذنيه حتى لا يسمع همزات شيطانه ، ولكن الصور التى كانت تمر فى ذهنه والأصوات التى تتردد بين جنبيه كانت نابعة من أغوار نفسه تتفجر تفجر البراكين .

واندكت مقاومة أبى لهب فنهض وقد لاح فى وجهه عزم أكيد ، ونظر إلى بعض الرفاق وأشار لهم برأسه أن اتبعونى فهبوا واقفين ، ثم ساروا خلف ابن سيد القوم وزعيم مكة يمنون النفس بخمر الشام اللذيذ .

وانطلق أبو لهب ورفاقه إلى الكعبة ودخلوا فى جوفها وسرقوا غزالة من الغزالتين متسترين بالليل ، ثم هرعوا إلى القافلة التى أقبلت من الشام واشتروا بالغزالة خمرا .

وتنفس الصبح وخرج المكيون ليطوفوا بالحرم ، وفتح كاهن هبل بابها للراغبين فى تقديم القرابين للإلـٰه أو فى الاستقسام بالأزلام ، وحانت من الكاهن التفاتة فلم يجد إلا غزالة واحدة معلقة فندت منه صيحة إنكار ، ثم خرج مفزوعا يعلن على الملأ النبأ الأليم .

وقرع الخبر أذنى عبد الله بن جدعان وبلغ مسامع قريش ، فأحس الناس خوفا يقبض أفئدتهم وأصبحوا يخشون أن تنزل بهم نازلة من السماء فانتشروا فى مكة يبحثون عن غزالة الذهب التى سرقت من البيت المقدس . وكان عبد الله بن جدعان أشدهم طلبا لها فقد بات يهاب المجهول بعد أن كان أكثر أهل مكة شرورا وأقساهم قلبا .

ووعد عبد الله بن جدعان بجائزة لمن يرشد إلى من سرق الغزالة ، وإذا بعقد الألسن تحل وإذا بأصابع الاتهام تشير إلى أبى لهب وصحبه ، فذهب عبد الله ابن جدعان إلى رجال القافلة التى وردت من الشام واسترد منهم الغزالة ، ثم انطلق فى إثر أبى لهب ورفاقه المجان .

وألقى القبض على بعض صحاب أبى لهب وقطعت أيديهم جزاء وفاقا على ما ارتكبوه فى الحرم ، وفر بعضهم إلى أخواله من خزاعة .

وجاء عبد الله بن جدعان ورجال من قريش ليقبضوا على أبى لهب وينفذوا

الحكم فيه ، ولكن خزاعة منعت عنه قريش ، فراح الرجال يعيرونه صائحين :

ـــ سارق غزالة الكعبة .. سارق غزالة الكعبة .

منعت خزاعة عن أبى لهب قريشا ، ونفذ حكم القطع فى فريق دون فريق ، و لم يكن ذلك بدعا فقد كان الشريف الذى يسرق لا يقطع بينا تقطع يد السارق إن لم يكن له ولى ولا نصير .

وخشى عبد المطلب أن تسرق الغزالتان مرة أخرى فجاء بهما وضربهما فى باب الكعبة ، فكان أول ذهب حليت به .

٩

جلس أحيحة بن الجلاح الأوسى وقد أطرق يفكر فى أمره وأمر ذلك الوليد الذى ستضعه امرأته بعد حين وقد صار شيخا وبلغ من العمر عتيا ، فراحت حياته تمر فى مخيلته فتنبسط أساريره مرة وتنقبض مرات ، فقد كانت حياة حافلة بالأحداث لكأنما كانت تاريخ يثرب بما فيها من صراع وكفاح وأمل .

رأى نفسه وهو شاب يافع يتقدم لخطبة سلمى بنت عمرو الخزرجية ليشد الأواصر بين الأوس والخزرج وليوحد بين الحيين من العرب حتى يستطيعا أن يقفا فى وجه اليهود سكان المدينة إذا ما تركوا خلافاتهم ذات يوم وعزموا على مناهضة قوة العرب التى كانت آخذة فى النمو فى المدينة . ثم رأى فى وضوح ليلة أن بنى بسلمى ويوم أن ولدت له عمرا وأخاه معبدا فتهللت أساريره ، وسرعان ما عبس لما تذكر الخلاف الذى دب بينه وبين سلمى وانتهى بطلاقهما .

كانت سلمى امرأة ذات شخصية قوية تحس استقلالها ، وكان هو شاعرا مرهف الحس قد ذاع صيته ولم يتجاوز شرخ الشباب ، فكان يضيق بانطلاقها وذهابها إلى الأسواق لتشرف على تجارتها ، فكان الجفاء والخصام والانفصال .

وأبت سلمى أن تنكح الرجال حتى يشترطوا لها أن أمرها بيدها ، إذا كرهت رجلا فارقته . وجاء هاشم بن عبد مناف سيد قريش فى تجارة إلى يثرب ورأى سلمى وقد وقفت على مرتفع من الأرض تشرف على تجارتها ،

فأعجب بها وتقدم إليها يخطبها . ثم تزوجها فولدت له شيبة وقد صار شيبة عبد المطلب زعيم قريش وسيدها .

ورأى أحيحة نفسه وهو يتنازع الشرف هو ومالك بين العجلان ، كان هو سيد الأوس وكان مالك سيد الخزرج . وقد علا ذكر مالك يوم أن قتل الفيطوان ملك اليهود الذى أراد أن يفتض نساء العرب قبل أن يدخلن على أزواجهن ، ثم انطلق إلى الحارث بن جبلة ملك الغساسنة واستنجد به فجاء الحارث بجنوده وقتل سادات اليهود ومكن للعرب فى يثرب .

ورأى أحيحة والأسى يعتصر قلبه ذلك اليوم المشئوم الذى فتح باب العداوة بين الأوس والخزرج . كان سوق بنى قينقاع يغص بالناس ، وجاء رسول عبد ياليل الثقفى إلى السوق بفرس وحلة ثم وقف وقال :

ـــ إن عبد ياليل بن عمرو الثقفى قد بعثنى بهذه الفرس وهذه الحُلة وقال لى : ادفعهما إلى أعز أهل يثرب .

فوثب إليه كعب الثعلبى وهو رجل من غطفان كان جارا لمالك بن العجلان الخزرجى وقال :

ـــ مالك بن العجلان أعز أهل يثرب .

وقام رجل آخر فقال :

ـــ بل أحيحة بن الجلاح أعز أهل يثرب .

ودوت أصوات التنافر فى أذنى أحيحة وهو جالس فى مكانه كأنما كانت آتية من أغوار بئر عميقة ، إنها أصداء أصوات رنت فى سوق قينقاع فى الماضى البعيد ، ولكنها ظلت حية فى نفسه تبعث الألم كلما طافت بذاكرته أو ترددت فى وجدانه .

واستجاب الرسول لقول الثعلبى فدفعهما إلى مالك ، فقال كعب

الثعلبى :

ـــ ألم أقل لكم إن حليفى أعزكم وأفضلكم .

وغضب سُمير وكان رجلا من بنى عمرو بن عوف فرصد الثعلبى حتى قتله ، وبلغ مالك بن العجلان ذلك فأرسل إلى بنى عوف بن عمرو بن مالك بن الأوس :

ـــ إنكم قتلتم منا قتيلا فأرسلوا إلينا بقاتله .

فلما جاءهم رسول مالك قالوا :

ـــ إنه كان فى السوق التى قتل فيها صاحبكم ناس كثير ، ولا يُدرى أيهم قتله .

ـــ إنما قتله سُمير ، فأرسلوا به إلىّ أقتله .

ـــ إنه ليس لك أن تقتل سُميرا بغير بينة .

وكره بنو عمرو بن عوف أن ينشبوا بينهم وبين مالك حربا فأرسلوا إليه يعرضون عليه الدية فقبلها ؛ فأرسلوا إليه :

ـــ إن صاحبكم حليف وليس لكم فيه إلا نصف الدية .

فغضب مالك وأبى أن يأخذ فيه إلا الدية كاملة أو يقتل سُميرا ، فأبت بنو عمرو بن عوف أن يعطوه إلا دية الحليف ثم دعوه أن يحكم بينهم وبينه عمرو بن امرئ القيس أحد بنى الحارس بن الخزرج ، فقضى على مالك بن العجلان أنه ليس له فى حليفه إلا دية الحلف ، وأبى مالك أن يرضى بذلك وآذن بنى عمرو بن عوف بالحرب واستنصر قبائل الخزرج . فأبت بنو الحارث بن الخزرج أن تنصره غضبا حين رد قضاء عمرو بن امرئ القيس ، فقامت مناوشات بين الأوس ومالك بن العجلان ، وقد فتح سُمير باب الحروب بين الأوس والخزرج التى كانت تثور لأتفه الأسباب .

وجرى خيال أحيحة إلى صديقه الشاعر امرئ القيس الملك الضليل لما تذكر عمرو بن امرئ القيس . إنه نسب إلى الإلـٰه قيس زوج مناة إلـٰهة الأوس والخزرج العظيمة ، وشب فى كنف أبيه حجر ملك كندة وكان أصغر أولاده ، وقد طرده أبوه لما تغزل بامرأة من نساء أبيه فصار يتجول فى الآفاق يسير فى أحياء العرب ومعه أخلاط من شذاذ العرب من طىء وكلب وبكر بن وائل ، فإذا صادف غديرا أو روضة أو موضع صيد أقام فذبح لمن معه فى كل يوم ، وخرج إلى الصيد فتصيد ثم عاد فأكل وأكلوا معه وشرب الخمر وسقاهم وغنته قيانه .

وفى أرض اليمن أتاه عامر الأعور يحمل خبر أبيه ومقتله ، فقال :

ـــ ضيعنى صغيرا وحملنى دمه كبيرا ، لا صحو اليوم ، ولا سكر غدا ، اليوم خمر وغدا أمر .

خليلى ، لا فى اليوم مصحى لشارب

ولا فى غد إذ ذاك ما كان يشرب

ثم شرب سبعا ، فلما صحا آلى ألا يأكل لحما ولا يشرب خمرا ولا يدهن بدهن ولا يصيب امرأة ولا يغسل رأسه من جنابة حتى يدرك بثأره .

وقدم عليه رجال من بنى أسد واعتذروا إليه ، وأرادوا أن يسووا القضية فقالوا له :

ـــ نعطيك ألف بعير دية ، أو نقيدك من أى رجل تشاء من بنى أسد ، أو تمهلنا حولا .

ـــ أما الدية فما ظننت أن تعرضوها على مثلى ، وأما القود فلو قيد إلى ألف من بنى أسد ما رضيتهم ولا رأيتهم كفئا لحجر . أما النظرة فلكم ، ثم ستعرفوننى فى فرسان قحطان أحكم فيكم ظبا السيوف وشبا الأسنة حتى

أشفي نفسي وأنال ثأري .

وارتحل حتى نزل بكرا وتغلب ، فسألهم النصر على بني أسد قتلة والده ، فبعث العيون على بني أسد فأحس بنو أسد ريبة وكأنما كان العيون إنذارا لهم فلجأوا إلى بني كنانة . وخرج امرؤ القيس وبكر وتغلب فى أثرهم ، فأدرك بنو أسد أن امرأ القيس يتعقبهم فارتحلوا ليلا، فلما دخل امرؤ القيس إلى بنى كنانة ظانا بنى أسد بينهم نادى :

ـــ يا لثارات الملك ! يا لثارات الملك .

فخرج له بعض نفر من كنانة وقالوا :

ـــ ما نحن إلا كنانة .

ـــ وأين بنو أسد ؟

ـــ لما نزلت بجمع ذعر القطا فطار عن مجاثمه ، فقالت بنت « علياء بن الحارث » القائم بأمر بنى أسد : « ما رأيت كالليلة قطا أكثر » . فقال علياء : « لو ترك القطا لغفا ونام » ، وعرف أنك قد اقترنت منه فارتحل .

ورأى أحيحة وهو جالس فى مكانه ينتظر ما تضع زوجه ، رأى امرأ القيس وهو خارج إلى اليمن بعد امتناع « بكر بن وائل » و « تغلب » من أتباع بنى أسد ، إنه استنصر « أزد شنوءة » فأبوا أن ينصروه وقالوا :

ـــ إخواننا وجيراننا .

ورآه بعين خياله وهو ينزل بمرثد الخير بن ذى جدث الحميرى ، ورأى الرجل وهو يمده بخمسمائة رجل من حمير ، ورأى امرأ القيس وقد تبعه من استأجر من قبائل العرب وقد وقفوا عند صنم « ذى الخلصة » ، وقد راح امرؤ القيس يستشير الإلـٰه فى أمر حربه ويدير القداح ، فإذا بالناهى يخرج ثلاث مرات ، ورأى امرأ القيس وهو حانق غاضب يكسر السهام ويضرب

بها وجه الصنم ويقول :

ــ مصصت بظر أمك ، لو أبوك قتل ما عققتنى .

وتململ أحيحة فى مجلسه وذهب ليرى ما فعلت زوجه ، فقيل له إنها لا تزال تضع . فعاد إلى مجلسه وإذا بخياله يعدو وراء صديقه امرئ القيس فراح يرى رجال بنى أسد وقد لجئوا إلى المنذر ملك الحيرة يستنجدونه ، فألح المنذر فى طلبه ووجه الجيوش من أياد وبهراء وتنوخ لحربه فلم يقدروا عليه ، فأمد أنو شروان حليفه المنذر بجيش من الأساورة فسرحهم فى طلبه .

ورأى أحيحة فى وضوح ــ وإن كل بصره ــ تفرق حمير من حول صديقه ، ورأى الصديق البائس يفر من قبيلة إلى قبيلة ومعه أدراع خمسة : الفضفاضة والضافية والمحصنة والخريق وأم الذيول ، كن لبنى آكل المرار يتوارثونها ملكا عن ملك .

ورأى امرأ القيس وقد نزل عند « الحارث بن شهاب » ، ورأى المنذر وقد بعث إليه بمائة من أصحابه يوعده بالحرب إن لم يسلم إليه بنى آكل المرار ، ورأى الحارث وهو يسلمهم لأصحاب المنذر ، ورأى امرأ القيس وهو يفر ومعه بنته هند والأدرع والسلاح ومال كان بقى معه .

ورأى صديقه وهو يذهب إلى تيماء ويترك ابنته وبعض الأدرع عند السموأل ، ثم يأتى إليه فى يثرب ويترك عنده ما بقى معه من أدرع ومال .

وأطرق أحيحة برأسه ، إنه ليذكر ذلك اللقاء الذى كان بينه وبين امرئ القيس قبل أن ينطلق صديقه إلى القسطنطينية يستنصر يوسطنيانوس قيصر الروم ، كان ذلك من ثلاثين سنة خلت ولكنه يذكر أحداث ذلك اليوم لكأنما كانت وقعت بالأمس القريب ، فقد كان وداعا لا لقاء بعده ، وإن كانت أنباء الصديق تفد إلى يثرب بما يثلج القلب وينعش الأمل .

إنه سلك طريق الشام ومر بحوران وبعلبك وحمص وحماه وقيصرية وأخيرا القسطنطينية . وقبله قيصر وأكرمه وسارت له منزلة عنده ، وأن ابنة قيصر نظرت إليه فعشقته فكان يأتيها وتأتيه .

وأنجد يوسطنيانوس امرأ القيس وأمده بجند كثيف فيه جماعة من أبناء الملوك ، ولكن الطماح من بنى أسد كان يمقت امرأ القيس أشد المقت فهو من بنى أسد وقد قتل امرؤ القيس أخا له . فلحق به وأقام مستخفيا ، حتى إذا ما ارتحل امرؤ القيس ذهب إلى قيصر وقال له :

— إن امرأ القيس غوى عاهر ، وإنه لما انصرف عنك بالجيش ذكر أنه كان يراسل ابنتك ويواصلها ، وهو قائل فى ذلك أشعارا يشهر بها فى العرب فيفضحها ويفضحك .

وغضب قيصر فبعث إلى امرئ القيس بحلة وشى مسمومة منسوجة بالذهب ، فلما بلغ الرسول امرأ القيس قال له :

— إن مولاى القيصر يوسطنيانوس العظيم أرسل إليك بحلته التى كان يلبسها تكرمة لك ، فالبسها باليمن والبركة ، واكتب إليه بخبرك من منزل منزل .

ولبسها امرؤ القيس واشتد سروره ، فأسرع فيه السم وسقط جلده وسار يتحامل على نفسه حتى بلغ جبل عسيب ، فرأى « ذو القروح » فى الجبل قبرا ، فسأل من عنده :

— قبر من هذا ؟

— امرأة من أبناء الملوك ماتت هناك فدفنت فى سفح الجبل .

وأحس أنه يجود بأنفاسه فسار يجر رجليه حتى ارتمى بجوار القبر ، وراح يقلب بصره فى جبل عسيب ففطن إلى أن نور عينيه يكاد ينطفئ وأن روحه

توشك أن تنسل من بين جنبيه ، فقال ابن الملوك وهو ينظر إلى قبر بنت الملوك :

أجارتنا إن المزار قريب وإنى مقيم ما أقام عسيب
أجارتنا إنا غريبان ها هنا وكل غريب للغريب نسيب

ومات الملك الضليل أمير الشعراء ذو القروح ، امرؤ القيس بن حجر الكندى غريبا فى أنقرة ، ورن فى أذنى أحيحة بن الجلاج قوله لما ظفر ببنى أسد :

قولا لدودان عبيد العصا ما غركم بالأسد الباسل ؟
قد قرت العينان من مالك ومن بنى عمرو ومن كاهل
ومن بَنى غنم بن دودان إذ نقذف أعلاهم على السافل
حلت لى الخمر وكنت امرأً عن شربها فى شغل شاغل
فاليوم أشرب غير مستحقب إثما من الله ولا واغل

وندت من امرأة أحيحة صرخة إلم أخرجته من شروده ، فهب واقفا وهو يغمغم :

ــ الشعر باطل ، الملك باطل ، النعيم زائل ، كل شيء باطل . فيم الحياة ؟ ولم الممات ؟ وفيم هذه الحروب الطاحنة التى لا يخبو لها أوار بين قبائل العرب ؟ أنعيش حياتنا كالأنعام ثم نموت كما يموت البعير كأن لم يكن شيء ؟!

واحتلت صفحة ذهن أحيحة تلك المقابلة التى لم يمض عليها شهور والتى تمت بينه وبين شيخ من أحبار اليهود ، دار الحديث بينهما حول الله والدين وأصنام العرب وإلٰه بنى إسرائيل وإذا بالحبر الشيخ يشرد قليلا ثم يقول :

ــ قد تقارب زمان نبى يبعث هذا أوان مولده .

ــ وممن يبعث ؟

ــ من العرب .

ـــ وما اسمه ؟

ـــ محمد .

كان أحيحة قد ضاق بتلك الحروب الناشبة بين الأوس والخزرج وبالعداوة المشتعلة بين قبائل العرب ، وبالضياع الذى يعيش فيه شباب العرب وشيوخهم ، لا أمل يرتجى ولا هدف يسعى إليه ، بل فراغ فى العقيدة وضيق فى أفق الحياة ، وضرب فى بيداء الوجود على غير هدى ، فلما سمع من الحبر أن نبيا يبعث فى العرب هذا أوان مولده يحملهم إلى ما فيه عز الدنيا والآخرة ، طمع فى أن يكون ذلك النبى من صلبه ، فعزم على أن يسمى ابنه محمدا إذا ما وضعت زوجه ذكرا .

ودخلت القابلة على أحيحة بن الجلاح وهو غارق فى أفكاره وقالت له :

ـــ وضعت ذكرا كأنه القمر .

وهز الفرح الشيخ فانطلق إلى زوجه منبسط الأسارير وقال فى انفعال :

ـــ سأسميه محمدا .

وتهلل الشيخ بالسرور وحسب أنه أول من عرف ذلك النبأ العظيم ، وراح ينظر فى وجه الوليد وهو يرجو أن يكون محمد بن أحيحة بن الجلاح الأوسى هو نبى هذه الأمة المنتظر وما دار بخلده أن سفين بن مجاشع فى اليمن قد عرف من رهبان النصارى أن أوان مولد النبى المرتقب قد أظل الكون زمانه ، فسمى ابنه من قبل محمدا ، فكان محمد بن سفين بن مجاشع أول من سماه أبوه محمدا أملا فى أن يكون النبى الذى يبشر به أحبار اليهود ورهبان النصارى .

وعرف مسلمة الأنصارى أن نبيا يوشك أن يولد فسمى ابنه محمدا ، وكذلك براء البكرى ، وحمران الجعفى ، وخزاعى السُلَمِى ، من أحبار اليهود ورهبان النصارى وكهان العرب بقرب مولد النبى العربى الأمى الذى

يبعثه الله فى الأميين لا فى بنى إسرائيل ، فسموا أبناءهم محمدا ، وكل منهم يرجو أن يكون ابنه هو الرسول الكريم ، فكان محمد بن سفين ين مجاشع ، ومحمد بن أحيحة بن الجلاح الأوسى ، ومحمد بن مسلمة الأنصارى ، ومحمد بن براء البكرى ، ومحمد بن حمران الجعفى ، ومحمد بن خزاعى السلمى ، أول من تسمى بمحمد فى العرب لا سابع لهم ، رجاء أن يكون أحدهم هو النبى ، والله أعلم حيث يجعل رسالته .

« والذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ، وإن فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون . الحق من ربك فلا تكونن من المتمرين » .

١٠

كان حرب بن أمية قميئا هزيلا ولكنه كان يسير مرفوع الرأس شامخ الأنف يختال كبرا ، يستشعر فى أعماقه أنه الكون وأنه أشرف من ولدته امرأة . وكانت طمأنينة نفسه أسمى غاياته فراح على مر الأيام يحرر قلبه من الاضطراب ببتر الخوف والرغبة وسد المسالك التى يتدفق من خلالها الألم والقلق إلى وجدانه .

كان على علم بأن الحب والشفقة هما الثقب الذى يسمح بدخول موجة القلق والألم الطاغية إلى قلبه ، فراح يجاهد ليطرح الشفقة جانبا . فالشفقة ضعف . وكان يترفع عن تقبيل أطفاله حتى لا يفتح أبواب الوهن فى نفسه ، ويطلق لعواطفه العنان ، فنبذ الحب ليتحرر من الشعور ، وراح يشاور رأسه ويتجاهل فؤاده ، فكان بذلك يفتت ما جمعه الله ، فاستوى فظا غليظ القلب انفض الناس من حوله ، يهابون سطوته ويتأخرون عنه إذا ما تقدم لاحبا له واحتراما لمقامه فيهم ، بل خوفا من شروره وأذاه .

وكان يعتزل الناس ترفعا فما كان يجد فيهم من هو كفء لمجالسته ، ولو أن إنسانا كان يستطيع أن يعيش فى عزلة عن العالم وحده لاعتزل حرب الناس جميعا ، ولكن الإنسان لا يقدر أن يعيش فردا بل هو فى حاجة إلى أنيس كحاجته إلى الطعام والشراب والهواء . فنادم عبد المطلب . وكان يضيق بالمتحدثين فى مجلس سيد قريش وكثيرا ما كان ينهرهم ويصدهم من الحديث فى غلظة وجفاء ، وكان يحس الغيرة تنهش قلبه إذا ما مدح مادح عبد المطلب

أو خاطبه بخطاب ينم عن أن عبد المطلب زعيم مكة ، فقد كان حرب يعتقد فى قرارة نفسه أنه أكرم من عبد المطلب وأعلى منه شرفا . ولا غرو فقد نافر أبوه أمية من قبل عمه هاشم أبا عبد المطلب ، فإن كان قد نزل على حكم الحكم وغادر مكة إلى الشام عشر سنين ، إلا أنه لم يقبل ذلك الحكم عن رضا بل لعن الحكم واليوم الذى صار فيه حكما يحكم فيه بأن هناك على وجه الأرض من هو كفء لأمية بن عبد شمس بن عبد مناف .

وسار حرب فى سوق من الأسواق يتيه خيلاء ومن حوله رؤساء قريش حتى بلغوا مكانا ضيقا لا يسمح إلا بمرور إنسان ، فتأخر أشراف قريش ليتقدم حرب ، وإذا برجل من تميم يزاحمه فى التقدم فالتفت حرب إلى التميمى فى شزر وقال فى صوت غاضب ناهر :

ـــ أنا حرب بن أمية .

فلم يلتفت إليه التميمى ومر قبله ، فرماه حرب بنظرة قاسية وقال متوعدا :

ـــ وعدك مكة .

وزفر حرب حمم غضبه وراح يرسل نظرات حانقة خلف التميمى وهو يرغى ويزبد ، ثم مر من المضيق وهو يعلل النفس بالانتقام من ذلك الذى جرح كبرياءه يوم أن يفد إلى مكة .

وبقى التميمى دهرا ، ثم أراد دخول مكة فقال :

ـــ من يجيرنى من حرب بن أمية ؟

فقيل له :

ـــ عبد المطلب بن هاشم.

فانطلق التميمى متسترا بالليل حتى أتى دار الزبير بن عبد المطلب ، فدق الباب وهو يترقب خشية أن يراه حرب قبل أن يجيره آل عبد المطلب .

وبلغ الدق مسامع الزبير وأخيه الغيداق ، فقال الزبير لأخيه :

ــ قد جاءنا رجل إما مستجير أو طالب حاجة أو طالب قرى ، وقد أعطيناه ما أراد . فخرج الزبير وما إن رآه التميمى حتى أنشد :

لاقيت حربا فى الثنية مقبلا
والصبح أبلج ضوءه للبارى
فدعا بصوت واكتنى ليروعنى
ودعا بدعوته يريد فخارى
فتركته كالكلب ينبح وحده
وأتيت أهل معالم وفخار
ليثا هزبرا يستجار بقربه
رحب المنازل مكرما للجار
ولقد حلفت بمكة وبزمزم
والبيت ذى الأحجار والأستار
إن الزبير لمانِعِى من خوفه
ما كبر الحجاج فى الأمصار

فقال الزبير للتميمى :

ــ تقدم فإنا لانتقدم على من نجيره .

وأصبح الصباح وخرج التميمى والزبير إلى الحرم ، والتميمى يتقدم ابن عبد المطلب ، حتى إذا ما دخل المسجد رآه حرب فقام إليه فلطمه ، فاستل الزبير سيفه وهجم على حرب فراح حرب يعدو والزبير فى أثره والسيف فى يده ، ورأى أبناء عبد المطلب أخاهم فى أثر شيخ بنى أمية فخفوا إليه لينصروه إذا ما حاول بنو أمية نصرة سيدهم .

وانطلق حرب إلى دار عبد المطلب وهو مبهور النفس يتلفت من الفزع ، ثم دخل الدار وهو يدير فى المكان عينين زائغتين وقلبه فى صدره يخفق كجناح حمام ، حتى إذا ما رأى عبد المطلب قال فى صوت مرعوب :

ــ أجرنى .

ــ ممن ؟

ــ من الزبير .

فأكفأ عليه جفنة كان أبوه هاشم يطعم الناس فيها ، وبقى حرب تحتها يرتجف فرقا تنثال على رأسه أفكار مفزعة مرغت كبرياءه فى الرغام ، فقد ثارت كرامته مرة وحرضته على الخروج لأبناء عبد المطلب وليقتل كريما فتثأر بنو أمية لمقتله ، وسرعان ما غاضت تلك الكرامة لما هجس فى صدره هاجس يوسوس له : وماذا يفيدك سفح دم كل بنى هاشم يا حرب لو مت مقتولا ؟

وبقى تحت الجفنة وهو فى هلع قد أرهفت حواسه ، تذهب نفسه شعاعا لزفيف النسيم أو رفيف ثوب أو حفيف قدم تمشى هونا على الأرض . وكاد يموت من الخوف لما سمع وقع أقدام قادمة فقد خيل له وهمه أن الجفنة سترفع ثم ينزل سيف ليقطع رأسه ، ومس صوت عبد المطلب أذنيه مسا رقيقا أعاد الطمأنينة إلى نفسه قال :

ــ اخرج يا حرب .

فقال وهو ينكمش فى نفسه تحت الجفنة :

ــ كيف أخرج وسبعة من ولدك قد اجتمعوا بسيوفهم على الباب ؟

ــ اخرج وأنا أجيرك .

ورفع عبد المطلب الجفنة وألقى على حرب رداءه ، فوقف حربَ برهة يجمع شتات نفسه ، ثم خرج على الزبير وإخوته فلما رأوا رداء أبيهم علموا أنه

أجاره فوضعوا سيوفهم . وسار حرب بينهم مطمئنا وما لبث أن شمخ بأنفه ورفع رأسه ومشى فى كبر وخيلاء .

وذات يوم ذهب حرب إلى سوق من أسواق تهامة إذا تقدم تأخر الناس ، وإذا تكلم صمت الناس. وبينا هو فى قمة غروره جاء اليهودى الذى كان فى جوار عبد المطلب والذى يمقته حرب من كل قلبه ، ولم يلق سمعه إلى ما يقول حرب وهو صامت بل راح يجادله على أعين الناس ، فضاق حرب بذلك اليهودى الوقح ونهره ، فأغلظ اليهودى القول على حرب فأذهب غيظ قلوب الناس وشفى صدورهم وإن كتموا عواطفهم خشية بطش أمية وأهله .

وضاقت الأرض أمام حرب على رحابتها وغشيتها ظلمات ، وإن كانت الشمس ترسل نورها مشرقا وهاجا فقد غامت نفسه بسحب الحنق والغضب وأعمته عن كل ما حوله ، ولم يعد يحس إلا المهانة التى لحقته من ولد عبد المطلب وحليف عبد المطلب اليهودى وإن كان فى جوار عبد المطلب !

ودعا حرب رجلا من رجاله وراح يوسوس له ويغريه وينفث فى صدره سموم غضبه ، فانطلق الرجل ينقب عن ذلك اليهودى الذى أهان سيد بنى أمية حتى عثر عليه فى ناحية من السوق قتيلا .

وبلغ عبد المطلب أن حربا أغرى على قتل اليهودى الذى كان فى جواره فغضب وعزم على أن يفارق حربا وعلى أن يترك منادمته إلى أن يدفع دية القتيل .

وجاء حرب يكاد ينفجر من الكبر وهم أن يجلس بالقرب من فراش عبد المطلب ، فقال له عبد المطلب :

ـــ لا تنادمنا حتى تدفع دية القتيل .

ـــ أى قتيل ؟

ـــ الذى أغريت على قتله فى السوق ؟

ـــ اليهودى ؟!

ـــ نعم . إنه كان فى جوارى .

وتغير حرب واربد وجهه واستشعر مهانة لما طالبه ابن هاشم بدية يهودى أغلظ له القول على أعين الناس فأغرى به من قتله جزاء وفاقا على وقاحته . ودار حرب على عقبيه وانطلق مغاضبا هؤلاء القوم الذين يحاولون على الدوام أن ينالوا من كرامته دون أن يحفلوا بمكانته بين أشراف مكة وساداتها .

كان الغيظ يملأ جوانحه ، وراحت الأفكار المريضة تزحف على عقله حتى استولى عليه سؤال حائر : لماذا يحاول بنو هاشم أن يحقروا بنى أمية كلما سنحت لهم سانحة ؟ أجار الزبير ذلك التيمى وهو يعلم ما فعله من وقاحة لما تقدم عليه يمر من المضيق قلبه ، وهو من يتأخر عنه الناس احتراما وإجلالا ؛ واحتضن عبد المطلب ذلك اليهودى سليط اللسان وأجاره فراح ذلك اليهودى فى كل مجلس يعامله معاملة الأكفاء . وقد شجعته حماية عبد المطلب له على أن يغلظ له القول فى السوق فحق عليه القتل ، فلما نال جزاءه هب عبد المطلب ينادى بدفع ديته . لماذا يطالب عبد المطلب بدية اليهودى ؟ إنهما ما فعلا ذلك إلا تحقيرا لشأنه ، وخوفا من أن ينتزع من بنى هاشم الشرف والسلطان.

ورن فى جوفه سؤال فيه إنكار لذلك الخاطر : « وهل بنو هاشم أشرف من بنى أمية ؟ إن كانت لهم السقاية والرفادة فلنا دار الندوة وعقد لواء الحرب » وكاد يستريح لذلك القرار لولا أن همس فى جوفه هامس : « إنهم يحيون الناس بإطعامهم وسقايتهم بينا تسوقونهم إلى الحرب لتسفك دماؤهم كالأغنام ».

وغضب من ذلك الخاطر الذى عكر عليه صفوه الذى كاد أن يلفهَ وراح

يقول بصوت مسموع ليطغى على وسوسات نفسه التى بدأت تقلقه : « إننا لا نعقد لواء الحرب إلا دفاعا عن شرف قريش ، إننا لا تعلن الحرب إلا على أعداء قريش ، ولولانا لذهب قريش أدراج الرياح . ولو أنصف العرب لعرفوا لنا ذلك الفضل ولرفعوه فوق كل فضل ، ولكن العرب لا يرون جلائل الأعمال إلا ببطونهم » .

وساءه أن يعترف بفضل بنى هاشم فعاد يقول فى نفسه : « إن كان عبد المطلب قد أطعم الحجيج وسقاهم ، وإن كان بنو هاشم قد أوسعوا على الناس فى المواسم فإن نيران الضيفان مشتعلة على الدوام على دور أمية ، فإن كانوا قد أطعموا فقد أطعمنا ، إننا وبنى هاشم فى الكرم كفرسى رهان ، ولكننا سبقناهم بقيادة الجيش وحمل اللواء » .

وتذكر فى لحظة غضبه ابنه أبا سفيان فتهللت أساريره ، وراح يقيم الموازنات بينه وبين أبناء عبد المطلب : « أبو سفيان يرجح الزبير ، وهو أكفأ من أبى طالب ، وأين عبد الله منه ، إنه لو وزن بأبناء عبد المطلب لرجحهم جميعا . وليس فى بنى هاشم من هو كفء لأبى سفيان ، فعلى بنى أمية أن تتكاتف لتمهد الأمور ليصبح أبو سفيان سيد مكة بلا منازع » .

وأشرق صدره بالأمل . ولكن سرعان ما غاض ذلك البصيص وعاد الغل يستولى عليه ، وراحت أصوات بغيضة تفح فى وجدانه فحيح الأفعى . أيجير على الزبير ؟! أيطالبنى عبد المطلب بدية اليهودى ؟! لا كان الزبير ولا كان عبد المطلب ولا كانت قريش ولا كانت مكة لو أننى رضخت لإرادة من يريدون تحقيرى » .

ورأى أباه أمية بن عبد شمس يقوده عبده ذكوان فوسع من خطوه ليلحق بهما ويفر من وحدته التى تفجر مراجل الحقد والغضب والغل فى نفسه ، وما

إن سار معهما حتى أحس راحة ، ولكن ما أسرع أن ضاق بتلك الصحبة فانطلق لا يلوى على شىء .

وعزم حرب على أن يعتزل عبد المطلب ومجلسه وقد حسب أن ذلك يريحه من الهوان الذى يستشعره إذا ما طالبه عبد المطلب بدية اليهودى ، ولكن عبد المطلب لم يدعه بل أرسل إليه يطالبه بالدية فثارت ثورته وأعلن فى غضب أنه لن يدفع تلك الدية أبدا .

ومرت أيام وحرب بن أمية برم بوحدته حانق على ذلك الصوت المنبعث من نفسه يهدده : « الدية أو الثأر » ، ثائر على ضعفه الذى يزين له سلوك طريق السلامة ودفع الدية والعودة إلى منادمة الصحاب .

واستكبر حرب ولج فى العناد وإن كانت معاول الهزيمة تدك مقاومته على مر الأيام ، حتى ساق ذات صباح مائة من الإبل إلى بيت عم اليهودى دية القتل ، فقد عجز حرب عن الاستمرار فى عداوة عبد المطلب وأنف من مخالطة عامة الناس ، فما كان بقادر على أن يعيش فى عزلة عن قومه وقد تاقت نفسه المتكبرة إلى مجالسة السادة ، فهرع بعد أن أدى الدية وهو صاغر إلى منادمة عبد المطلب لا حبا فى عبد المطلب بل حبا فى نفسه .

١١

كانت جبال مكة تمتص حرارة الشمس الحامية ثم تنفثها كشواظ من نار فى أرجاء الوادى المقدس ، وكان الحصى الذى يفرش الأرض حول الكعبة يتصاعد منه دخان لكأنما يوشك أن يتوهج ، وقد غاب حمام الحمى عن الحرم فقد طار إلى دور مكة يختفى فى ظل شرفاتها من الحر اللافح . وعلى الرغم من القيظ الشديد الذى انبهرت له الأنفاس فى الصدور فقد كان رجال يطوفون بالبيت العتيق ، وكان عبد الله يطوف معهم وقد تفصد منه العرق فغمر جسمه وسال على لحيته التى بدأت تنبت فى وجهه ، فقد كان عبد الله شابا يافعا فى الثامنة عشرة لم يضع بعد قدمه على أعتاب العشرين .

وانتهى من طوافه فوسع من خطوه ، وخرج من باب إبراهيم يغذ السير ويحتمى من لفح الشمس بالدور ، حتى إذا ما بلغ الطريق الضيق الذى يقوده إلى داره وقف فى الظل يلتقط أنفاسه فى راحة ويفكر فى هدوء . إنه خارج فى المساء فى رحلة الصيف إلى الشام ، إنه سعيد بهذه الرحلة ، فسيزور المدينة فى عودته وسينزل ببنى النجار أخوال أبيه عبد المطلب ، وسيشترى لآمنه حلية من الذهب من سوق قينقاع ، فما من شاب من شباب مكة خرج إلى المدينة إلا وعاد بأساور أو أقراط أو خلاخيل لأهله .

وسار هونا والأفكار تتوافد على رأسه ، إنه فقير لا يملك إلا جارية حبشية وخمسة أجمال وقطعة من غنم ولكنه لا يزال فى مقتبل العمر . سيضرب فى الآفاق ويخرج فى عير قريش إلى الشام وإلى اليمن وإلى الحيرة إلى مصر، وسيكسب

من التجارة فيجمع بين الغنى والشرف ويصبح سيدا من سادات قريش يطعم المحتاج ويغيث الملهوف ويعين على نوائب الدهر .

وتهلل بالفرح لما تذكر أن أباه الشيخ قد عهد إليه أن يمتار من المدينة تمرا ، وفى القافلة رجال عركوا التجارة وعركتهم لهم باع طويل فى البيع والشراء ، إن أباه ما فعل ذلك إلا ليشعره أنه صار رجلا يمكن أن تعتمد عليه قبيلته فى بعض أمورها . وسيأتى اليوم الذى يصبح فيه عماد مكة وصاحب الكلمة العليا فيها .

وفاضت نفسه بالسرور واستشعر أنه قد دخل الحياة من أوسع أبوابها ، وهل للحياة باب أوسع من باب التجارة ؟ سيطوف بالدنيا وسيدلف إلى قصور كسرى وقصور قيصر وفرعون مصر وملك الحبشة وملك الحيرة ، وسيبرم معاهدات الصداقة بينه وبينهم جميعا كما آلف أجداده هاشم والمطلب ونوفل من قبل ملوك الأرض وأباطرتها .

كان فرحه لا يحد لما فداه إلٰهه بمائة من الإبل ، ولكن غبطته فى تلك اللحظة كانت تفوق كل غبطة فقد ملأه يقين أن أيام سعادته قد أقبلت ، وأنه سيصبح شيئا مذكورا لا فى مكة وحدها بل فى طول الأرض وعرضها .

وبلغ الدار وراح يدق بابها فى رفق وهو ينتظر أن ينفرج عن جاريته الحبشية ، وإذا بالباب يفتح وإذا بآمنة تستقبله بابتسامة مشرقة فأحس كأن الوجود كله قد تهلل بالفرح . وسار إلى جوارها وأقبل عليها يحدثها عن آماله العريضة وهى تصغى إليه منشرحة الصدر ناعمة البال تطوف

بها سكينة وأمن ، وإن كانت تعلم أن زوجها مفارقها بعد سويعات فى رحلة قد تكون أطول من الأيام السعيدة التى قضياها معا فى العش الجميل .

إنها شهور قليلة تلك التى مرت مذ تزوج سليل البيت الهاشمى أفضل فتاة فى قريش نسبا وموضعا ، ولكنها كانت شهورا مترعة بالنشوة . وقد كانت تلك الليلة التى كانت فيها بين اليقظة والمنام والتى سمعت فيها هاتفا يهتف بها فى رؤياها : « انك قد حملت بسيد هذه الأمة » أروع أيام حياتها ، فقد انتشت منه مس الهاتف أذنيها نشوة روحية ملأت جوانحها حتى انها باتت تحيا فيها ولها وبها .

كانت آمنة لم تتجاوز الخامسة عشرة من عمرها ولكنها كانت تعرف مكانتها . إنها سيدة من سادات قريش وزوجة ابن زعيم قريش وأحب ولده إلى قلبه ، وقد تحقق لها أعز حلم تحلم به فتاة عربية أن تصبح أما ، وقد سمعت هاتفا يهتف بها أنها حملت بسيد هذه الأمة . وقد طار بها الخيال فرأت ابنها يجلس على فراشه فى ظل الكعبة كما يجلس جده عبد المطلب وقد التف الناس حوله وألقوا إليه أسماعهم وهو يفصل فى قضاياهم ، فقد كان أقصى ما يمكن أن تتخيله امرأة من قريش أن يكون ابنها زعيما كعبد المطلب ، أو شريفا كعبد الله بن جدعان ، أو شيخا من شيوخ دار الندوة .

وراح الزوجان اللذان لم يمض على زواجهما إلا بضعة أشهر يتناجيان ، وما أسرع أن أقبل المساء وحانت ساعة الوداع . فراح عبد المطلب يرنو إلى وجه آمنة الذى كان يتألق بالنور فى حب واعجاب ودهش ، ففى عينيها هيام

وعلى شفتيها بسمة هادئة ، لم يعرف وجهها الفزع و لم ترتجف خوفا من وحدتها فلن يكون معها فى الدار إلا جاريته الحبشية الصغيرة التى كانت فى مثل سنها ، بل كانت ثابتة مرفوعة الجبين تعرف حقيقة دورها فى مجتمع يعيش بالتجارة وعلى التجارة ، يطوف رجاله بالآفاق ثم يعودون إلى الزوجة الصابرة التى تنتظر أوبة حبيبها لتنسيه متاعب الرحلة ووعثاء الطريق ، ولا غرو فقد كانت كانت فتاة من أشرف حى فى قريش .

وفطن عبد الله إلى الجهد الذى تبذله زوجته الشابة حتى لا تبدو أمام عينيه منهارة متهالكة تنشج بالبكاء ويعلو صوتها بالنحيب ، ففاض تأثره حتى وادت فى طرفى عينيه القريتين من أنفه دمعتان ، وخشى أن يبدو أمامها ضعيفا يسح العبرات فدار على عقبيه وانصرف لا يلتفت خلفه .

كانت آمنة تحس رغبة فى البكاء لما كان عبد الله معها ولكنها كانت تتجلد لتبدو هادئة ، وكانت ثورة عارمة فى أعماقها تكاد تعصف بها فما سبق لها أن عاشت فى فى دار كدارها وحدها . ومشى الخوف إليها إلا أنها كبحت جماح ضعفها وراحت توحى لنفسها أن تتماسك حتى يخرج عبد الله ثم تطلق لعواطفها العنان ، وكانت تحسب أنها ستنهار بعد أن يغيب زوجها الحبيب عن عينيها وستنفجر باكية ، ولكن ما إن ذهب عبد الله حتى أحست أنسا يملأ أرجاءها لكأنما الكون كله معها فى دارها يؤنس وحدتها . وعجبت لحالها ! كانت تسمع من نسوة بنى زهرة عن مشقة الحمل وثقله ولكنها حملت فما وجدت له مشقة ، وكانت تهاب الوحدة وترتجف منها فرقا وإن أبدت

شجاعة وعزما ، وكانت واثقة من أن قلبها سينخلع رعبا بعد أن يخلو الدار من فتاها ، ولكن سكينة وأمنا نزلا بها وهدهدا مشاعرها .

وخرج عبد الله وقد ارتفع القمر فى السماء ينير السبيل فسار بضع خطوات ثم وقف والتفت خلفه وألقى نظرة طويلة على داره ، فانقبض صدره وطافت به موجة من الأسى واستشعر وحشه لم يحسها من قبل . إنه يحب آمنة وإنه لما يؤ لم النفس أن يفارقها فى أشهر زواجهما الأولى ، ولكنه ما كان يحسب أن فراق آمنة ينزل به مثل الحزن الذى انتشر بين جوانحه . ومرت لحظات وعيناه ثابتتان على داره لكأنما يتزود لدهر طويل من البعاد ، ثم دار على عقبيه وراح يسعى إلى الكعبة .

كانت النيران مشتعلة على جبل قبيس لكأنما كانت منارة يهتدى بها الضاربون فى البيداء ، وكانت ألسنة نيران الضيفان تتراقص فى سواد الليل على بيوت الكرام ، وكانت المشاعل فى أيدى الخارجين إلى حيث بركت عير قريش ، فبهرت أضواء النيران نور القمر وأحالت ليل مكة إلى نهار .

وراح عبد الله يطوف بالبيت العتيق مع الطائفين ، ثم ذهب إلى حيث العير فإذا بالمكان يموج بسادات مكة وعبيدها ورجالها ونسائها ، وقد تبرجت النساء وأبدين زينتهن ورحن يضربن بأرجلهن حتى توسوس الخلاخيل وسوساتها التى تجعل الرجال يلوون أعناقهم ولا يغضون من أبصارهم . وانتشرت حلقات السمار : حلقة تعب كئوس الخمر وتصغى إلى قينة من القيان تغنى شعرا لامرئ القيس ، وحلقة ضربت حول عراف يضرب الرمل ويروى على الذين أعاروه سمعهم ما يخبئه الغيب ، وحلقة من الفقراء والمساكين أقبلوا على طعام جاء به أجواد من قريش ، وهنا وهناك البغايا صاحبات الرايات الحمر وقد انتشرن فى المكان يودعن شباب القافلة ورجالها

المترفين الذين راحت أفكارهم تسبقهم إلى صاحبات الرايات الحمر فى يثرب والشام .

وراح عبد الله يقلب وجهه فى المكان فإذا بمشاعر رقيقة تغمره ويحس أن عطفا سابغا متبادل بينه وبين الحرم وجبل قبيس والأخشبين جبلى مكـة والحجون والصفا والمروة ، ومد بصره إلى بعيد فرأى غار حراء كقبة غمرتها أشعة الشمس الفضية بدت كلؤلؤة تتألق بنور لطيف لكأنما تجلت على الغار أنوار السماء .

واستشعر رحابة فى قلبه وأحس أنه يحتوى الوجود كله ويضمـه بين جنبيه ، وأن شيئا جليلا غامضا ساحرا الذيذا قد أمسى يربط بينه وبينى الوادى المقدس بل بينه وبين الكون جميعه ، ورفع بصره إلى السماء فخيل إليه أن اسمه قد كتب بأحرف من نور وقد سبقه اسم آخر غشى نوره عينيه فلم يتبينه ، فهمس فى نفسه هامس : إن لى لشأنا مع هذا البيت وهذه السماء وهذا الكون . وأفاق من أحلامه على صوت يناديه :

ـــ عبد الله .. عبد الله ..

فالتفت فإذا بأخيه الزبير قد جاء يسعى ، فهرع إليه وقال له :

ـــ أين أبى ؟

ـــ إنه قادم فى إثرى ليودعك قبل الرحيل .

وسار عبد الله والزبير يتناجيان ، وكان عبد الله يشرد بخياله بين لحظة وأخرى فقد كانت عواطفه جياشة نابضة بمشاعر رقيقة ما كان يدرى أن كنوزا نفيسة عامرة بها ، فقد سافر من قبل مع أبيه إلى اليمن قبل أن يتزوج آمنة ولم يحس يومها ما يحسه فى هذه الليلة من تناسق مع كل ما حوله ، ومن فناء فى كل ما حوله ، ومن حب لكل الدنيا ، وإنه هو وآمنة قد ارتفعا ليملآ ما بين

أرض مكة وسمائها ، وأنه يسير فى عالم مسحور حتى إنه بات لا يدرى أيعيش فى يقظة أو فى حلم من الأحلام .

وجاء عبد المطلب يحف به أبناؤه كالقمر ومن حوله نجوم السماء ، فخف اليه عبد الله وارتمى فى أحضانه وبقى على صدره فترة طالت كأنما قد استراح إلى القلب الحنون الذى يخفق بحبه . ثم ابتعد عبد الله عن أبيه الشيخ فانقبض صدر عبد المطلب فقد أحس كأنما قد انتزع ابنه منه ، وزاد فى قلقه أنه شعر بدموع تبلل روحه وإن لم تطفر إلى عينيه .

ووقفت رقيقة بنت نوفل تنظر اليه ؛ كان إخوة عبد الله يعانقونه مودعين فردا فردا وكان بين ذراعى أبى طالب ولكنها لم تكن ترى إلا وجه عبد الله وعجبت فى نفسها لماذا تديم النظر إليه فى تلك الليلة ، إنها طالما رأته بعد أن عرضت عليه نفسها وقالت له : هيت لك . يوم أن فداه إلـهه بمائة من الإبل قبل أن يدخل على آمنة ولكنها لم تنجذب إليه بعدها ، كان ساحرا قبل أن يدخل على بنت وهب إلا أنه فقد ذلك السحر بعد أن دخل عليها فلم يعد لها فيه حاجة ، فما بالها تطيل إليه النظر ؟ إنها لا تدرى وكل ما تدريه أن نفسها تحدثها أن شيئا ما سيقع لابن عبد المطلب يتجاوب صداه جبال مكة ووديانها كما تجاوبت به يوم أن هم أبوه بذبحه .

وساد المكان سكون رهيب ، أطبقت المغنيات شفاههن وماتت ضحكات الماجنين ووضعت كئوس الخمر ، حتى البغايا صاحبات الرايات الحمر أطرقن برءوسهن فقد جاء موكب الإلـه وارتفعت الأصوات بالحمد والتسبيح .

كان الإلـه فى محفة على أعناق الكهنة وقد انطلقوا به حتى بلغوا الخيمة المقدسة وأريج الطيب ينتشر فى المكان ، وبين الابتهالات والدعوات وضع الإلـه فى الخيمة التى كانت على ظهر بعير برك على رأس القافلة .

وقام الجمل بحمله المقدس فأذن بالرحيل ،فالتقت عيون بعيون وخفقت قلوب وقلوب وسحت دموع وانهمرت دموع ، وسارت القافلة إلى الأفق البعيد ، فالتفت عبد الله خلفه يلقى نظرة وداع على أحب بقعة فى الأرض إلى قلبه .

كانت وديان مكة قد لبست حلتها السندسية ، اخضرت الأرض وحملت الأشجار أطيب الثمار بعد الجدب الشديد ، فعرفت تلك الأيام بسنة الابتهاج ، وأتى قريش الرغد وحلت عليهم بركات السماء .

وسرت القافلة فى الليل تسير على بساط أخضر يموج بأنوار القمر الفضية السحرية قد وشى بالنوار الأصفر ، فكان روعة تبده البصر والعقل والوجدان .

وانطلقت القافلة فى أروع معبد حتى أطبق عليها الأفق وبعدت عن الوادى المقدس ، وإن ظل البيت العتيق مشرقا فى سويداء القلوب مضيئا جنبات أرواح تعلقت به وشغفت به حبا .

وقامت مكة من رقادها على صوت عيص الراهب الذى جاء من الشام ونزل بمر الظهران يقول :

ـــ يوشك أن يولد فيكم مولود يا أهل مكة تدين له العرب ويملك العجم ، هذا زمانه ، فمن أدركه واتبعه أصاب حاجته ومن أدركه وخالفه أخطأ حاجته .

كان عيص يلزم صومعة له ويدخل بين الحين والحين فيلقى الناس ويقول مقالته ثم يقفل راجعا إلى صومعته . وقد هزهم قوله أول مرة ولكنهم ألفوا نبوءته فأعرضوا عنها ، فأين ذلك العربى الذى تدين له العرب ويملك العجم ، والأمم من حولها تكاد أن تتخطفهم ؟

١٢

أطرق أبرهة برأسه يفكر فيما جاء به رسول يوسطينوس الثانى قيصر الروم ، فإمبراطور الروم يسأله أن يتحرك بجيوشه ليغزو الجزيرة العربية حتى تتصل جيوش الحبشة واليمن التى تدين بالنصرانية بجيوش الشام والقسطنطينية ، ثم تنطلق الجيوش الصليبية لغزو فارس . وإن إمبراطور الروم يستحثه على الإسراع بالخروج فالحرب الدائرة بين الشرق والغرب توشك أن تكون نكبة على القسطنطينية ، وفى انكسار الروم توهين للمسيحية وإضعاف لشأن الملوك المسيحيين .

وعادت به ذاكرته إلى ثلاثين سنة مضت، إلى تلك الأيام التى كانت الدعاية البيزنطية والحبشية لا هم لها إلا بث الكراهية فى العالم المسيحى على اختلاف مذاهبه للحميريين الذى تهودوا واضطهدوا النصارى المسالمين . فكانت حملة الحبشة على اليمن فى ظاهرها باسم الدين ، وإن كان هدفها الحقيقى الذى تخفيه هو الاستيلاء على اليمن وإدخال ذلك القطر الغنى ذى الموقع الخطير تحت نفوذ البيزنطيين، لتتم لهم السيادة على مياه البحر الأحمر ، والسيطرة على مضيق المندب والمحيط الهندى وعلى ثروة إفريقية والهند وما وراء الهند.

إن ما يدعو إليه قيصر مشروع خطير راود عقل الإسكندر من قبل وظل حلما فى خياله ، وحاول أوليوس غاليوس أن يخرج الحلم إلى عالم الوجود فمنى بإخفاق شديد ، ترى أينجح أبرهة فى تحقيق حلم الإسكندر وفيما أخفق فيه أوليوس غاليوس القائد الرومانى العظيم؟

وراح أبرهة يفكر فى الجزيرة التى ما فتئ قياصرة الروم يلحون عليه أن يسير بجيوشه فيها حتى تلتقى جيوش الحبشة بجيوش الروم فألفاها قبائل متنافرة حالت المنافسات بين زعمائها دون تكوين دولة عربية قوية لها وزن فى ميزان الدول ، وما أيسر تأليب رئيس على رئيس أو تأييد زعيم موال أو القضاء على زعيم انتقض ليثور على سلطانه ، إنه قوة لا قبل لقبائل العرب بها ، وهو على يقين من أنه لو سار بجيوشه فلن تلبث القبائل العربية أن تركع مستسلمة عند قدميه .

وانتفخت أوداج أبرهة غرورا ، وراح يجرى وراء خياله فتذكر حليفه زهير بن خباب سيد كلب وشريفها وخطيبها وشاعرها وطبيبها وكاهنها وفارسها وأوجهها عند الملوك ، وتذكر حين طلع على نجد وأتاه زهير فأكرمه وفضله على من أتاه من العرب ثم أقره على بكر وتغلب ابنى وائل ، وقد فرح آل زهير وقالوا : إن أبرهة اصطفى آل زهير وسوسهم على الناس . إن زهيرا قد جبى له الخراج من قبيلته ، وقد أصابتهم سنة شديدة لم يتمكنوا فيها من دفع ما عليهم فطالبهم زهير بها فاعتذروا عن الدفع ، فاشتد عليهم ومنعهم من النجعة حتى يؤدوا ما عليهم فكادت مواشيهم تهلك ، فلما رأى ذلك « ابن ريابه » أحد بنى تيم الله بن ثعلبة أتى زهيرا وهو نائم فأغمد السيف فى بطنه ، ثم فر هاربا ظانا أنه قد أهلكه .

وأفاق زهير فأخذه من كان معه من قومه حتى وصلوا به إلى قبيلته ، فجمع عندئذ جموعه ومن قدر عليه من أهل اليمن وغزا بهم بكرا وتغلب وقاتلهم قتالا شديدا انهزمت به بكر وقاتلت تغلب بعدها فحاقت بها الهزيمة ، وأسر كليب ومهلهل ابنا ربيعة ، وأخذت الأموال وكثرت القتلى فى بنى تغلب ، وأسرت جماعة من فرسانهم ووجوههم وانتصر زهير نصرا عظيما .

ودانت لأبرهة نجد ، وحمل زهير إليه خراج معد وبكر وتغلب فوقر فى وجدانه أن ما من زعيم من زعماء القبائل العربية إلا ويتهلل بالفرح إذا ما أقره على قبيلته ، وما من أحد منهم إلا ويسارع بحمل الخراج إليه تقربا إليه وكسبا لرضاه فقد كان سيد اليمن المطاع وأقوى ملك فى المنطقة .

وكان أبرهة يعيش حياة الملوك المترفين ، فكان لا يقل فخامة ولا روعة عن قصر كسرى أنو شروان فى المدائن أو قصر يوسطينوس بالقسطنطينية أو قصر الخورنق مقر ملوك الحيرة ، وقد بنى الكنائس العظيمة فى مأرب وفى ظفار وفى صنعاء وفى نجران ، وراح ينشر النصرانية فى اليمن ويدعو العرب إلى الحج إلى كنيسته العظيمة فى صنعاء ويعمل على أن يصرفهم عن الحج إلى مكة لتعود عليه المغانم التى تجنيها قريش من الحجيج فى موسم الحج . فما دار بخلده أبدا أن أشراف قريش يخرجون عن جزء من أموالهم لإطعام حجاج بيت الله ، وأن السقاية والرفادة شرف عظيم يتنافس عليه سادات قريش ليكون لهم ذلك المجد الذى تشرئب إليه أعناق الرجال .

وكان أبرهة قد فوض ابنه أكسوم أمر « معاهر » أرض أقبال معاهر انتزعها من أصحابها وسلمها إليه فعرف بذى معاهر ، وفوض ابنه الثانى الذى أنجبه من زوجته العربية التى انتزعها من زوجها عَلى شناتر وعرف بذى شناتر ، وعرفه الغرب بمسروق لأنه جاء من امرأة سرقها أبرهة من زوجها بسلطانه .

كانت الأمور مستقرة لأبرهة ، إنه يحيا حياة الملوك المترفين ، فكان إلحاح قياصرة الروم عليه بغزو الحجاز لا يصادف هوى فى نفسه فكان يتلكأ فى تنفيذه ، فما الذى يحمله على المغامرة وقطع فيافى وقفار فى صحراء جرداء تحت نار الشمس الحامية عرضة للعطش والضياع ، وأن ينزل به ما نزل بأوليوس غالوس يوم أن أغراه قيصر بفتح بلاد العرب والاستيلاء على ما بها

من كنوز ؟

ورأى أبرهة أن يمد سلطانه على القبائل بأن يبعث إليهم رجالا موالين له يسوسّهم على الناس يرغمونهم على طاعته ويجبون له الجزية ، فمن حوله أشراف كل قبيلة رهن إشارته وطوع أمره . واستراح للفكرة فبعث رجلا ممن عنده اصطفاه ليكون حاكم تهامة من قبله .

وخرج الرجل من قصر أبرهة يكاد يطير من الفرح فقد ولاه سيد اليمن على تهامة ، ولم يفكر الرجال فى أن أبرهة قد ولاه على قوم لم يخضعوا لسلطانه ، فقد كان الرجل مبهورا بسيده لم يخطر له على قلب أن هناك على وجه الأرض من يعصى له أمرا أو تراوده فكرة عصيانه وشق عصا طاعته .

وبينما كان أبرهة فى قصره بين ندمائه ورجال من أشراف اليمن والحبشة وأشراف القبائل التى تحالفت معه ، جاءه رسول يحمل إليه نبأ مقتل الرجل الذى اصطفاه ليكون حاكم تهامة ، فقد أبى القوم أن يسمعوا له ويخضعوا للذل الذى جاءهم به ، وقد نفسوا عن ثورتهم بسفك دمه .

وغضب أبرهة ومارت فى جنباته ثورة عارمة لكرلمته التى أهدرت ، وكان لا بد من أن يشن حربا على العرب جميعا انتقاما لكبريائه التى جرحت ، ولتكن الحرب التى ما فتىء قياصرة الروم يلحون عليه أن يسنها نصرا لدينه وتخفيفا عن الدولة الرومانية الشرقية التى كانت تقاسى وحدها وطأة الحرب الدائرة بينها وبين فارس .

وراح أبرهة يدبر أمره ويرسم خططه فرأى أن العرب قبائل متناحرة متنافرة ما أيسر أن يخضعها بحد السيف لسلطانه ، لا يربط بينها إلا ذلك البيت العتيق الذى بمكة والذى يحجون إليه ويعظمونه والذى عجز عن أن يحول عنه حجاج العرب إلى كنيسته الفاخرة ، فإن هدم ذلك البيت فإنه سيمزق

الآصرة الوحيدة التى تربط بين أفئدة العرب جميعا ولن تصبح بين القبائل رابطة ، فعزم على أن يخرج ليدك ذلك البيت ليسهل له بسط سلطانه على العرب .

وعجب أبرهة فى نفسه من هؤلاء العرب عبدة الأوثان الذين أبوا أن يدخلوا دينه ولجوا فى العناد ، وعلى الرغم من أن أبرهة قد لبث فيهم سنين طويلة فإنه لم يفهم عقليتهم ، فالعرب تفخر بالأسرة الكبيرة التى يكثر عددها ، وترى فى ذلك عزة ومنعة ، فإن كانت النصارى يدعونهم إلى إلٰه ليس له إلا ولد واحد فإنهم يعبدون إلٰها عظيما له بنات وبنون يقربونهم إليه زلفى ، وعندهم أن الإلٰه الذى له أولاد كثيرون خير من إلٰه ليس له إلا ولد واحد . « وقالوا اتخذ الله ولدا ، سبحانه ! بل له ما فى السموات والأرض كل له قانتون : بديع السموات والأرض وإذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون » .

توج أبرهة محمد بن خزاعى وأمَّره على مضر وأمره أن يسير فى الناس يدعوهم إلى حج كنيسته ألتى بناها بصنعاء ، وأن يجبى له منهم الخراج وأن يلزمهم طاعته ، فسار محمد بن خزاعى حتى إذا نزل ببعض أرض بنى كنانة وقد بلغ أهل تهامة أمره وما جاء له ، بعثوا إليه رجلا من هذيل رماه بسهم فقتله ، فلما بلغه النبأ حلف ليغزون بنى كنانة ، ولكنه قد وطن العزم على هدم الكعبة وكان لا بد من سبب لتبرير ذلك الاعتداء .

كان أبرهة فى مجلسه ينظر إلى الباب كأنما كان ينتظر قدوم أحد ، وكان من عنده من العرب والأحباش يظهرون له الود والإكبار والإجلال يلتمسون فضله وإن هى إلا لحظات قصيرة حتى فتح الباب وأقبل راهب من الرهبان وفى وجهه فزع وقال :

ـــ دنست كنيستك يا مولاى .

فقال أبرهة فى دهش :

ـــ كيف ؟

ـــ قعد فيها رجل من العرب .

ـــ من أى العرب ؟

ـــ من أهل هذا البيت الذى تحج العرب إليه بمكة لما سمع من قول مولاه : لست بمنته حتى أصرف إلى كنيستى حاج العرب .

وهب أبرهة غاضبا وأقسم بالله ومسيحه ليسيرن إلى البيت فيهدمه .

كان سببا واهيا ذلك السبب الذى قيل لتبرير شن الحرب على مكة وهدم بيتها العتيق ، ولكنه كان سببا على أية حال ، فقد كان لا بد من سبب يثير حماسة الجماهير لامتشاق الحسام لتحقيق أغراض السادة السياسية .

وبعث أبرهة إلى النجاشى ينبئه أنه قد عزم على غزو مكة وعلى تقويض كعبتها ، وسأله أن يمده بالجنود والفيلة ، فتدفقت الجنود على اليمن . وجاءت الفيلة من الحبشة ، وراح أبرهة يعد العدة لحملة لم تر جزيرة العرب مثلها ، ليتصل نصارى الحبشة واليمن بنصارى غسان والقسطنطينية ، ثم ينطلق حملة الصليب نحو الشرق لقتال الفرس ونشر لواء المسيحية الخفاق على وجه الأرض .

وراح أبرهة يحلم بأيام مجيدة كأيام الإسكندر الأكبر ، وسمع العرب بما عزم عليه أبرهة فأعظموه وفظعوا به ، ورأوا جهاده حقا عليهم فراحت كل قبيلة فى طريق البيت العتيق تتأهب للدفاع عن بيت الله الحرام أو الهلاك دونه ، ولم يفكر أحد منهم فى أن يجمع كلمة العرب ليقفوا فى وجه الطاغية صفا واحدا ، « ولله جنود السموات والأرض وكان الله عليما حكيما » .

١٣

وراح الحادى يغنى بصوت يموج بالشجن يصور حنينه إلى الوطن وإلى البيت العتيق وإلى الحجون وإلى الصفا وإلى ما فى مكة من أحبة وصحاب ، فإذا بإحساسات ناعمة تتدسس إلى أفئدة الفتيان ، وإذا بالركبان يشاركون الحادى فى الغناء ، وإذا بالدموع تطفر إلى عينى عبد الله فقد لاحت له آمنة تملأ الفضاء بين الأرض والسماء يشع من جبينها ذلك النور الذى يملأ جوانحه حبا ورحمة وأمنا .

إنه مذ ودع آمنة يحس كأنما خلف قلبه هناك ، فلم ينثن طيفها عنه آناء الليل وأطراف النهار . إنها فى خياله وفى وجدانه وفى سويداء الفؤاد ، إنها أمامه وعن يمينه وعن شماله وحيثما يقلب وجهه يمس حديثها العذب أذنيه مسا رقيقا يحيى فيه أجمل الذكريات . وإن صوتها وهى تحدثه عن الرؤيا التى رأتها والتى سمعت فيها هاتفا يهتف بها : إنك قد حملت بسيد هذه الأمة ، يسرى فى ضميره كموسيقى حالمة ناعمة تدغدغ حواسه ، أو كصوت ملائكى آت من السماء بالبشرى يحمله على أجنحة السعادة إلى عوالم من الفرح والبهجة ، تبدو له من فرط نشوته أنها ليست من هذه الأرض .

وراح يحاول أن يميط اللثام عن الغيب وأن يرسم صورة بخياله لابنه الحبيب الذى بشرت به آمنة ، إلا أن كل أحلامه قد قصرت على أن تسمو إلى ما ينتظر ابنه من مجد ، فقد كانت أمانيه أرضية عجزت عن أن ترتفع بابنه إلى السماء وإلى ما فوق السماء ، لتربط بينه وبين رب الكوب الأسباب .

ومد رجل من رجال القافلة أنفه وزفر زفرة طويلة ثم قال :

ـــ أشم ريح غزة .

ومس الصوت أذنى عبد الله فإذا بصوت حنون ينبعث من أغواره يقول فى وجد :

ـــ أشم ريح مكة .

وعاد يعيش بوجدانه فى مكة ويطوف بالكعبة ويلقى نظرات حب على مجلس عبد المطلب فى ظل البيت ، ويهرع إلى داره الحبيبة يناجى آمنة ، ويبتسم لجاريته الحبشية ويوصيها بسيدتها خيرا ، فإنها قد حملت بسيد هذه الأمة . وتدور محاورات طويلة مفعمة بالنشوة بينه وبين الصحاب وإن كان يطوى مع عير قريش أرض الله .

وهبت ريح النسيم وبدت السحب فى رقعة السماء كأنها قطيع من بقر الوحش ، فراح الرجال يحثون الإبل على الإسراع لتجد القافلة لها عاصما من المطر فى غزة ، فإن هى إلا سويعات وينهمر الغيث . ومرت ساعة وراحت السحب تمر كأنها بغال دهم تجر جلالها ، وصار لا هم لرجال القافلة إلا مراقبة السماء بينا كان عبد الله غائبا عن الوجود بالرؤى العذاب التى تترادف على رأسه فتولد فى نفسه آمالا مشرقة عريضة تعزف على قيثارة فؤاده أرق الألحان .

وطافت به نبوءة سودة عمة وهب ، كاهنة قريش ، فقد تنبأت لآمنة بأنها النذيرة أو تلد نذيرا . وقد جاءت رؤيا آمنة وذلك الهاتف الذى هتف بها بأنها ستلد سيد هذه الأمة مؤكدة نبوءة كاهنة قريش . ستلد آمنة ذلك النذير الذى كانت نساء مكة كلها يتمنين أن يخرج من بطونهم . وتهلل عبد الله بالفرح فسيكون لابنه شأن عظيم وإن كان لا يدرى ما النذير ، فقد كان من قوم لم

يبعث الله فيهم من قبل نذيرا ولا رسولا

ودنت السحب من الأرض وتدلت فبدت كأنما بين أعلاها وأسفلها أثواب هينة رقيقة منشرة ، أو ضوء مصباح خافت يكاد أن يلفظ أنفاسه ، ثم أسدل على وجه السماء نقاب من سحب داكنة فارتفع صوت الحادى بالحداء يحث الإبل على الإسراع فقد لاحت أرباض غزة .

وبرق البرق ثم هزم الرعد وسرعان ما هطلت الأمطار ، فاضطرب قطار القافلة لحظات ، فقد خف الرجال لتغطية ما يخشى عليه من البلل ، وهرع الكاهن ليطمئن إلى أن إلـٰهه فى مأمن من الماء النازل من السماء ، ثم استقامت العير وانطلقت تغذ السير فى دروب غزة .

وجفت دموع السحب وأطلت زرقة صافية من بين الغمام وما لبثت أن انداحت حتى استولت على رقعة السماء ، وبدت الأرض على جانبى القافلة كأنما كسيت ببساط من سندس أخضر وشى باليواقيت والزبرجد والمرجان ، وبلغت القافلة السوق فحطت رحالها وراح الرجال يلتقطون أنفاسهم .

وتمدد عبد الله فى خيمته وقد أطلق لخياله العنان ، فراح الفتى يجتر ذكرياته وهو سعيد ، فقد كانت السنوات القليلة التى مرت على عمره مفعمة بأحداث جسام وبتجارب قد لا يمر بها من بلغ من العمر عتيا ، فمَن مِن سادات قومه أخذه أبوه ليذبحه قربانا لإلٰهه ففداه الإلـٰه بمائة من الإبل ، ومَن مِن زوجات أشراف قريش بشرت بأنها قد حملت بسيد أمته ؟ إنه سعيد بحياته راض كل الرضا عن دنياه .

وتذكر جده هاشم بن عبد مناف أول من ثرد الثريد وهشمه فى الجدب . وأول من سن الرحلتين لقريش رحلة الشتاء إلى اليمن ورحلة الصيف إلى الشام .

وقد صارت إليه الرفادة والسقاية وساد قومه ولما يبلغ الخامسة والعشرين . إن هاشما قد امتاز بصفات فاضلة لم يطاوله بها أحد من قومه . ترى أتمتد به الأيام ليبلغ ما بلغه هاشم من مجد ؟ أيكون ابنه الذى بشرت به آمنة صنو هاشم ؟ وطافت به فكرة أن ينطلق لزيارة قبر هاشم فقام قبل أن يأخذ نصيبه من الراحة واتخذ طريقه إلى القبر وهو يتمثل مطرود بن كعب الخزاعى :

وهـــاشم فى ضريح وَسط بلقَعــة
تسفــى الريــاح عليــه بين غــزات

وبلغ قبر هاشم فوقف الحفيد مطرقا خاشعا أمام قبر جده الذى ربط بزواجه من سلمى الخزرجية بين مكة ويثرب . والذى جعل لهم بذلك الرباط المقدس أخوالا من بنى النجار ، فهو الجسر الذى شد وثاق مكة بالمدينة ، والذى خلق لبنى هاشم عصبية من أهم محاط فى طريق قوافلهم .

وشرد خياله فتذكر المطلب الذى هلك بردمان فى أرض اليمن ، ونوفلا الذى فاضت روحه بسلمان من ناحية العراق ، وطاف به سؤال : ما حكمة موت سادات قريش غرباء فى أرض العرب بين قبورهم مفاوز وصحراوات ، أتكون قبورهم معا لم على طريق قوافل قريش ؟ أتكون رابطة بين مكة والعراق واليمن والشام تجعل الأفئدة تهفو إلى تلك البلاد ما دامت الرابطة السياسية بين تلك الدول قد انفصمت وحلت بينها العداوات ؟ ولم يهتد الفتى اليافع إلى شيء فدار على عقبيه وهو يفكر فى الموت ، ويعجب من القائلين إن هى إلا حياتنا الدنيا ، فإن كان ما يقولون حقا فما أتفهها من حياة ، أيعيش المرء سنين قصرت أم طالت ثم يموت كما يموت البعير ثم لا شيء ؟ لو كان الأمر كذلك لكان الخلق باطلا . إنه يؤمن بما وصل إليه أبوه بأن وراء هذه الحياة حياة

أخرى يحاسب الإنسان فيها على ما قدمت يداه إن خيرا فخير وإن شرا فشر .

ومرت أيام السوق مفعمة بالعمل والبهجة ، فقد باع رجال قريش كل ما معهم من سلع وحققوا أرباحا أثلجت صدورهم ، وأقبلوا على الشراء بعد البيع فكانت الخمور أكثر ما اشتروه فمترفو مكة وساداتها يدفعون فى خمور الشام كل ما يطلب منهم من ثمن .

وتقضت أيام غزة ولياليها النابضة الحية ، فقد كان السمر يمتد حتى مطلع الفجر ؛ رجال قريش يتبارون فى شعر الفحول من شعراء العرب ، والمتأدبون من أهل غزة يهرعون إلى ذلك النادى يلقون سمعهم إلى الرواة منتشية أرواحهم مفعمة بالفرح أفئدتهم ، وكان بعض رجال غزة يقصون أنباء الغساسنة ويروون أنباء الحروب التى لا تنقطع بين الغرب والشرق ، بين الإمبراطورية الرومانية الشرقية وإمبراطورية فارس الساسانية .

وتجهزت عير قريش للعودة فاستوى الرجال على ظهور إبلهم ، وأذن بالرحيل فانطلقت القافلة وقد استقبلت مكة، وراح الرجال يكثرون من التلفت فقد كانوا يعتقدون أن كثرة التلفت توجب العودة وكانوا جميعا يتمنون الأوبة ليسعدوا بالخضرة والماء والوجه الحسن ، فقد كان فى كل سوق من أسواق الأرض منازل للبغايا صاحبات الرايات الحمر .

وراح عبد الله يفكر فى يثرب وفى أخواله من بنى النجار ، فأبوه قد أرسله مع القافلة ليمتار تمرا ويزور أخواله ، فعبد المطلب يحب أن تظل الأسباب متصلة بين بنى هاشم والخزرج فى المدينة. فشيخ قريش لا ينسى ذلك اليوم الذى أراد فيه عمه نوفل أن يسلبه حقه فوجد من ينصره من أخواله على عمه ، وقد عرف ما كان من نصرة رزاح بن ربيعة لأخية قصى يوم أن جاءه فى حج قضاعة وثبت سلطانه على مكة ، فكان عبد المطلب حريصا على أن تظل

الوسائل طيبة بينه وبين بنى النجار ، فقد يفزع إليهم يوما بعض ولده يلتمس منهم النصرة والتأييد .

وسرت القافلة فى الكون العريض ، وانصرمت ليالى وأيام وأحس عبد الله وهنا يدب فى جسمه فلم يحفل به كثيرا ، فقد كان يحسب أن التعب دب فى أوصاله وأن ذلك الإرهاق لن يلبث أن يزول إذا أعطى حقه من الراحة .

ودخل خيمته ، وما إن أسلم جنبيه للرقاد حتى راح فى سبات عميق وغط فى نومه وانبثق منه العرق وذبل لونه ، حتى إن الذى دلف إلى خيمته ليوقظه وقف ينظر فى وجهه الأصفر خافق القلب وقد نزل بصدره شيء من الخوف والقلق .

وتقدم الرجل وهتف فى صوت خافت :

— عبد الله .. عبد الله .

وظل عبد الله فى نومه يلتقط أنفاسا مضطربة فى جهد شديد ، فمد الرجل يده وراح يهزه وهو يناديه :

— عبد الله .. عبد الله .

وفتح الفتى عينين واهنتين عجز عن أن تظلا مفتوحتين ، فسحب عليهما جفنيه ، وأطرق برأسه على صدره وزفر زفرة طويلة فى صوت مسموع ، فقال له الرجل :

— ما بك يا عبد الله ؟

وأراد عبد الله أن ينهض ولكنه عجز عن النهوض فقال فى صوت خافت :

— إنى سقيم .

وامتلأت خيمة عبد الله برجال القافلة ، فابن شيخ قريش وأحب ولده إلى قلبه مريض ، وأعطاه كاهن القافلة وطبيبها بعض العقاقير ، ثم حمل عبد الله

ووضع فى هودج على ظهر بعير ، ورجال قريش يرجون أن تزول عنه الوعكة التى ألمت به قبل أن يبلغوا المدينة .

وانسابت القافلة فى دروب المدينة تمشى وهنا ، وارتفعت أصوات الترحيب من المدنيين .

— عير قريش .. عير قريش ، مرحبا بعير قريش .

ولم تتهلل الوجوه بالفرح بل كان العبوس على كل الوجوه ، فعبد الله لا يزال مريضا وإن أمره يسوء يوما عن يوم ، وقد حار فيه كاهن القافلة وطبيبها .

وحطت القافلة رحالها فى السوق ، وفى نفس الوقت كان سادات قريش ممن كانوا فى العير آخذين بخطام الناقة التى عليها هودج عبد الله المريض منطلقين إلى دور أخواله من بنى النجار ، وسار الركب الصغير يغمره الأسى فى طرقات المدينة ، ومر بالدار التى بناها تبع اليمن تبان أسعد للنبى المنتظر يوم أن جاء ليهدم يثرب ومنعه أحبار اليهود عن ذلك قائلين ، إنها مهاجر رسول من بنى إسماعيل ، ولم يحس الركب خطر تلك الدار فقد كانت دار تريد أن تنقض ، وكان الغيب وحده يعلم ما بين المريض الذى فى الهودج وبين تلك الدار من وشائج وأواصر وأسباب .

ووقف الهودج أمام دور بنى النجار ، وما إن بلغ مسامعهم أن عبد الله مريض حتى خفوا إليه مهطعين وحملوه فى رفق ، وقبل أن يغيبوا به فى الدار جاهد عبد الله وفتح عينيه وقال لرجال قريش فى صوت ضعيف :

— لا تنسوا أن تشتروا التمر الذى طلب منا عبد المطلب أن نشتريه .

ثم أغمض عينيه ولاح فى وجهه شىء من الراحة ، فقد اطمأن إلى أن قافلة قريش ستعود وهى تحمل ما طلبه أبوه .

وانصرف الرجال يبتهلون إلى آلهتهم أن يشفى ابن عبد المطلب ليعود معهم . فقد أصبحوا يفزعون من مجرد فكرة عودة القافلة إلى مكة دون أن يكون فيها فتى قريش الذبيح .

وراح رجال قريش يمضون وقتهم فى السوق وفى عبادة الله وقد أعرضوا عن مباهج يثرب ولهوها ، باتت نفوسهم قلقة لما أيقنوا أن أوبة عبد الله معهم لم تعد أمرا ميسورا ، فقد اشتدت عليه وطأة المرض وخشوا أن يهلك منهم فى الطريق .

وجاء يوم الرحيل فذهب الرجال إلى حيث رقد عبد الله وراح الرجال وبنو النجار يتناجون ، كان بعض الرجال يرى أن يحمل معه عبد الله ، فدخول القافلة مكة وعبد الله معها مريض أهون على أهل مكة من عودة القافلة دون أن يكون فتاها بين العائدين . ولكن أخوال عبد الله من بنى النجار أبوا أن يغادر عبد الله فراشه قبل أن يبل من مرضه ، وانتصر الرأى القائل ببقاء عبد الله عند أخواله ، فألقى الرجال على عبد الله نظرة طويلة ثم داروا على أعقابهم منكسى الرءوس ، تخفق أفئدتهم خوفا ورهبة كلما تذكروا دخولهم مكة دون أن يكون فيهم فتى مكة وابن سيدها الحبيب .

١٤

نشر الليل رداءه الأسود على مكة ، وغابت نجوم السماء وهجع الكون وراح فى سبات ولكن النسوة فى أغلب دور المدينة المقدسة لم تعرف عيونهم النوم ، فقد حان أوان عودة قافلة قريش من الشام ، ودنت ساعة تلاقى الأحبة بعد طول الفراق .

واختلجت عين امرأة منهن فأشرق وجهها بالابتسام ، ورأت أخرى تهلل أسارير صاحبتها فقالت لها :

ــ فى وجهك حلم شهى .

ــ اختلجت عينى . سأرى من أحب عن قريب .

فقالت لها صاحبتها :

إذا اختلجت عينى تيقنت أننى   أراك وإن كان المزار بعيد

وفى دار أخرى أخذت زوجة ترابا من موضع قدم زوجها وموضع رحله ، فقد لقنت منذ نعومة أظفارها أن ذلك أسرع لرجوعه ، وراحت تقول وهى تغدو وتروح فى غرفتها متلهفة على عودة رجلها :

أخذت ترابا من مواطئ رحله   غداة غد كيما يئوب مسلما

وراحت الفتيات المتلهفات على الزواج ينشرن جانبا من شعورهن ويكحلن عيونهن ويحجلن على إحدى أرجلهن فى جنح الليل وهن يقلن :

ــ يا لكاح ! أبغى النكاح ، قبل الصباح .

وبالقرب من النافذة راحت آمنة ترقب الطريق خافقة القلب وعلى مقربة منها جلست جارية عبد الله الحبشية تتحدث وآمنة غائبة عنها ، فقد سبقها خيالها إلى لقاء الحبيب . رأت بعين الشوق قافلة قريش تحط رحالها خارج أول بيت وضع للناس ورأت عبد الله ينزل عن راحلته يتألق وجه بالنور ويشرق بالابتسام ثم ينطلق كالقمر يحف به رجال قريش كالنجوم إلى الحرم ، يطوف به سبعا . وسرعان ما رأته يعدو فى دروب مكة ، وخيل لها وهمها ولهفتها على أن تلقى عبد الله أنها تسمع طرقاته على الباب ، وراحت تجرى وراء أحلامها المجنحة التى تملؤها نشوة وانشراحا ، فرأت نفسها تستقبل زوجها العائد الذى تركها وهى لا تزال فى ثياب العرس فى وجد وهيام ، وراحت تحدث طيفه وقد تهلل بالفرح وتروى له أعذب الأحاديث عن ذلك الذى حملت به ولم تحس ما سمعت عنه من نساء بنى زهرة من ثقل الحمل وآلامه .

واستراحت للأحداث البهيجة التى كان خيالها يمدها بها فأطلقت العنان لأفكارها ، وراحت تقول لطيف عبد الله وقد رفت بسمة حالمة على شفتيها : إن هالة قد حملت من أبيك وقد عزم عبد المطلب أن يسمى ابنه حمزة إن جاء ولدا ، بينا لم نفكر بعد فى اسم لوليدنا ، أنسميه قصيا أم هاشما أم عبد المطلب ؟ إنى أعلم يا عبد الله أنك تحب أبا طالب وأن أبا طالب يحبك ، أنسميه أبا طالب ؟

وملأت النشوة فؤاد آمنة فشرد خيالها ، وطالت وقفتها عند الشباك حتى خدرت رجلها فالتفتت إلى جارية عبد الله وقالت :

ــ خدرت رجلى .

فقالت الجارية التى كانت تتحدث غير ملتفتة إلى شرود سيدتها .

ـــ ذكر الحبيب يزيل خدر الرجل . ادعى أحب الناس إليك .

فقالت آمنة فى صوت متهدج فيه رنة آسرة منبعثة من كنز الحب :

ـــ يا عبد الله .. يا عبد الله .

وعادت آمنة لتغيب عما حولها فى الدنيا المشرقة الخافقة بالأمل التى أقامتها فى وجدانها ، رأت عبد الله يئوب إليها وعلى شفتيه بسمة أروع من كل مباهج الدنيا ، ويلف حول عنقها قلادة من الذهب أتى بها من سوق بنى قينقاع . إنها تكاد تحس أنامله وهو يصلح القلادة على جيدها ، وأنفاسه تتردد فى جنبات الغرفة ، وصورته تملأ الأفق كله وتحيل ليل حياتها نورا لطيفا مفعما بالبهجة والحب والسلام .

ومزق سكون الليل صوت جهورى تردد فى جنبات مكة كأنه البشرى أو العيد :

ـــ أقلبت عير قريش .. أقبلت عير قريش .

ودق قلب آمنة بين ضلوعها دقات عالية عنيفة وتبخرت فى لحظة كل أحلامها ، وسرت فى بدنها رعدة وقشعريرة . إنها باتت أمام المجهول وجها لوجه وعما قليل ينبلج الصبح عن الحقيقة ، ترى كيف أنت يا عبد الله ؟ أين أنت يا حبيبى ؟ وغلبتها عاطفتها الجياشة فى جوفها فانهمرت الدموع من مآقيها .

وفتحت دور مكة وخرج الرجال مهرولين لاستقبال الأحبة العائدين . وانطلق عبد المطلب وأبناؤه ليضموا عبد الله إلى صدورهم الملهوفة ، وراح أبو لهب يهرول ويتحلب ريقه لخمر الشام .

وحطت القافلة وأقبل أهل مكة يستبقون إليها وعانق الرجال الرجال ، وانبثقت دموع الفرح وعبرات الرحمة من العيون وارتفعت الأصوات تنادى

الأحبة ، وقد ماج القادمون بالمستقبلين وارتفع ضوت عبد المطلب ينادى فى انفعال :

— عبد الله .. عبد الله .

وراح الحارث والزبير وأبو طالب وإخوتهم يشقون الجموع ويتلفتون بعيون زائغة وينادون على أخيهم فى فزع ولهفة دون جدوى ، فلم يكن عبد الله فتى قريش اليافع بين العائدين .

وأقبل زعيم القافلة على شيخ بنى هاشم وهو يتصنع التجلد ويرسم بسمة هادئة على شفتيه ، وما إن رآه عبد المطلب حتى قال له فى صوت فيه رهبة ووجد :

— أين عبد الله ؟

فذهبت نفس الرجل شعاعا و لم يقو على أن يستمر فى بشاشته ، بل قال وقد عبس :

— خلفناه عند أخواله بنى عدى بن النجار وهو مريض .

فأحس كأن يدا قوية تهصر قلبه وأن دموعا تبلل روحه تريد أن تطفر من مقلتيه ، وراح يجاهد ليقاوم مخارفه ، ولكنه لما تذكر آمنة انهارت مقاومته وكادت تخور عزيمته . فإنها لمهمة ثقيلة على قلبه أن يقول لآمنة التى تنتظر أوبة حبيبها وهى مفعمة بالسرور إن فتاها مريض هناك فى يثرب عند أخواله بنى النجار .

لك الله يا آمنة ، خلا كل حبيب بحبيبه وحبيبك غريب مريض فى أرض الغرباء . ترى أيئوب عبد الله يوما ؟ وقفزت إلى رأس عبد المطلب ذكريات أليمة مرت بقريش ، إن أباه هاشما مات غريبا فى غزة ، ومات عمه المطلب فى

أرض اليمن ، وهلك عمه نوفل فى أرض العراق ، أيموت عبد الله فى يثرب ؟

وفزع عبد المطلب لذلك الخاطر وأن أنة كان فيها ذوب نفسه ، لكأنما كانت سكينا مزقت نياط قلبه . وجاء إليه أبناؤه وقد بلغهم خبر مرض عبد الله ولاح فى وجوههم الأسى العميق إلا أنهم راحوا يحاولون إدخال الطمأنينة على قلبه وإن كانت الطمأنينه قد فرت من أفئدتهم ، فقد كانوا يعلمون أن عبد الله أحب إلى أبيهم منهم أجمعين .

وذهب عبد المطلب وبنوه إلى دار آمنة مطرقى الرءوس قد سكنت ألسنتهم عن الدوران فى أفواههم وإن كانت أفكارهم جميعا قد اتجهت إلى الفتى المريض فى يثرب ، وإن كانت قلوبهم مفعمة بالرحمة والإشفاق .

ونسى أبو لهب لما سمع بمرض عبد الله خمر الشام وسمر الليل وما راوده من أحلام المترفين الغارقين حتى الذقون فى الشهوات ، فأبو لهب يحب عبد الله ويحس راحة تغمره كلما جلس إليه وناجاه ، فقد كان فى عبد الله شىء غامض مثير يجذب إليه النفوس والأرواح .

ورأت جارية عبد الله الحبشية شيخ قريش وولده قادمين فتفرست فيهم لعلها ترى عبد الله ولكنها لم تجده بينهم ، فقالت فى صوت خافت :

ـــ سيدى عبد المطلب قادم .

ونظرت آمنة وقد أشتد وجيب قلبها وراح صدرها يعلو ويهبط فى اضطراب . وتدفقت مشاعر متباينة إلى جوفها حتى اختلط عليها أمرها وأحست أنها تعيش لحظة حاسمة فى حياتها ولفها خوف شديد لما تبينت أن زوجها الحبيب لم يقبل مع القادمين .

ودخل عبد المطلب باسر الوجه وخلفه بنوه على وجوههم غبرة ، فما إن رأتهم آمنة حتى بدا الهلع فى وجهها وملأ الفزع عينيها واستشعرت كأن

روحها تكاد أن تفر من فيها ، وقرأ عبد المطلب الرعب فى محياها فقال فى حنان :

ـــ لا تراعى يا آمنة إنه بخير .

ـــ أين عبد الله ؟

ـــ عند أخواله فى يثرب .

ـــ ولماذا لم يعد مع العائدين ؟

فأطرق عبد المطلب وقال وهو يغالب دموعه :

ـــ إنه مريض هناك .

وكأنما أراد أن يطمئن نفسه قبل أن يدخل الطمأنينة على قلبها :

ـــ سيسافر الحارث إلى يثرب ليعود بأخيه .

فقال الزبير فى انفعال :

ـــ بل سأسافر أنا وأعود بعبد الله .

وشردت آمنة وساد المكان سكون ثقيل ، وانبعثت الضحكات من دور مكة وخيم القلق والأسى والخوف من المجهول على دار عبد الله .

وفى الصباح كان عبد المطلب وبنوه يودعون الزبير وألسنتهم تلهج بذكر عبد الله ، وقد فاضت عواطفهم حتى إن أحدهم كان يتحاشى أن تلتقى عيناه بعينى صاحبه . وعلى البعد وقفت جارية فتى قريش ترصد ذلك الوداع ، حتى إذا ما انطلق الزبير ورفقاؤه نحو الأفق عادت الجارية إلى سيدتها القلقة الأرقة المنزعجة لتنبئها سفر الزبير وقرب عودته بأخيه بارئا ليملأ الدار حياة وأملا .

ومرت الأيام والزبير يغذ السير ليفر من وساوسه التى كانت تعذبه وتضنيه وتلهب وجدانه بسوط عذاب ، فقد كانت مخاوفه تفح فى سريرته بأن أخاه

وأنه سيجد عند بلوغه يثرب أنه قبر ، فكان الزبير يهز رأسه هزا عنيفا يريد أن يطرد ما احتله من رؤى مشئومة ، ولكن محاولاته كانت تذهب أدراج الرياح فقد كانت فكرة موت أخيه تلح عليه إلحاح الذباب كلما ذب آب .

وما أكثر ما أغمض عينيه حتى لا يرى صورة أخيه مسجى على فراش الموت ، ولكن الصورة ظلت واضحة فى ضميره تزداد وضوحا كلما حاول أن يطمسها من وجدانه ، فقد أبت عين خياله أن تغمض عن المخاوف التى كانت تساوره فى نهاره وتعذبه فى منامه .

ودلف إلى يثرب من ثنيات الوداع ، وما إن اجتازها حتى رن فى أغواره صوت بشع يردد : « ثنيات الوداع .. الوداع .. الوداع » وجاهد ليصم أذنيه عن نذير البين ولكن هيهات فقد صارت نفسه كقاعة يرن فى جنباتها صوت خطيب مفوه لا حديث له إلا الوداع الذى لا لقاء بعده .

وانتهت عند دار بنى عدى بن النجار رحلة العذاب ، فما إن بلغ دار أخواله وسأل عن عبد الله وقيل له إنه بخير حتى تبخرت كل متاعبه وآلامه ؛ وراح يرقى الدرجات وقد نامت مخاوفه إلى حين وبدأ الأمل يزحف إلى صدره . ولكن ما إن دخل على أخيه ورآه ذابلا ذبول الموت حتى غاض تفاؤله وأحس وقدة نار فى حلقه وأن الأرض تميد به وأنه يريد أن ينقض ، إلا أنه تمالك وانتزع بسمة رفت على شفتيه وإن كان قلبه يدمى فى وجد :

ـــ عبد الله .. عبد الله .

وخيل لعبد الله أن صوت أخيه آت من واد سحيق وإن مس أذنيه مسا رقيقا عذبا ، وجاهد حتى فتح عينيه فرأى صورة الزبير تتراقص أمامه فأحس راحة فى أعماقه وعجزت أساريره عن أن تعبر عن الفرحة التى انتشرت بين

ضلوعه . ومد يدا ضعيفة واهنة إلى الزبير فاحتواها الزبير بين يديه وهو يتبسم ، وإن كانت الخناجر تطعن فؤاده ، وتمزق أحشاءه .

وراح الزبير يروى لأخيه أنباء آمنة وأخبار عبد المطلب ولهفة إخوته على عودته وعبد الله يصغى وقد لاح فى وجهه الأسى والوجد حتى نال منه التعب فأسبل عينيه وراح فى سبات ، فانسل الزبير من الغرفة وذهب بعيدا ليجهش بالبكاء .

ومرت أيام والزبير إلى جوار أخيه يحاول أن ينفث فيه الأمل بأحادثه الطلية عن آمنة وعن ابنها الذى حملت به ، وعن رغبة آمنة فى عودته ليشهد ابنه الحبيب ، ولكن عبد الله كان يعانى من سكرات الموت . وبينما كان يجود بآخر أنفاسه سمع صوت آمنة كالطنين تقول : « بينما كنت بين اليقظة والمنام سمعت هاتفا بى : إنك حملت بسيد هذه الأمة » ، فرفت بسمة على شفتى عبد الله ثم سكنت حركته إلى الأبد .

وجهز عبد الله وحمل على الأعناق ، وسار الزبير خلف نعش أخيه وهو واله حزين ، لا يرقأ له دمع ، فقد مات فتى قريش غريبا فى يثرب كما مات سادة قريش غرباء فى الأرض و لم يجد عبد الله من يندبه ، ولو مات فى مكة لوقفت النائحات على رءوس الجبال يندبن ابن عبد المطلب .

وقبر عبد الله فى دار التابعة أحد بنى عدى بن النجار وصار الفتى فى الغابرين ، ثم عاد الزبير مهيض الجناح كسير القلب إلى راحلته ، وانطلق إلى مكة يحمل إليها أسوأ خبر مذ عاد الناعون بنبأ هلاك هاشم بن عبد مناف .

وفى الطريق راح الزبير يسأل نفسه : فيم كان الفداء إذا كان الموت قد كتب على عبد الله ؟ لو أن عبد المطلب ذبح حبيبه بيده قربانا إلى إلـٰهه لوجد فى الوفاء بنذره بعض العزاء . أما وقد رضى إلـٰهه بنحر مائة من الإبل عوضا

عن عبد الله فلم اغتال الفتى بعد الفداء ؟

ورأى نفسه ينعى عبد الله إلى عبد المطلب فأحس غثيانا وبالأرض تدور به وأنه يوشك أن ينهار . وراحت القافلة الصغيرة تسير هونا لم يرتفع فيها صوت الحادى وقد أطرقت الإبل برءوسها كأنما كانت تحس فداحة الخسارة التى منيت بها قريش .

ورأى الزبير جبال مكة العالية فلم يتهلل بالفرح كما اعتاد أن يفرح كلما وقعت عليها عيناه ، بل انقبض صدره وأسف على انتهاء الرحلة التى ود أن تطول إلى الأبد حتى لا ينعى إلى عبد المطلب أحب ولده إلى قلبه .

وحطت الإبل بفناء الكعبة ونزل الزبير عن راحلته وذهب مطأطئ الرأس إلى حيث يجلس عبد المطلب وأبناؤه وندماؤه . ورأى عبد المطلب الزبير وهو قادم وحده فى وجهه أعمق الأسى فاشتد وجيب قلبه وعرف فى لحظة كل المأساة . ورأى الإخوة أخاهم الزبير فهرعوا إليه مفزوعين قائلين :

— أين عبد الله ؟

وملأت الدموع عينى الزبير وقال فى صوت حزين وقد نكس رأسه :

— مات .

وسار الشيخ وقد انحنى ظهره بين أبنائه يكاد ينوء من الحزن وقد نزل بقلوبهم هم ثقيل ، وانطلق الجميع إلى بيت آمنة ليواسوها فى أفدح نكبة تنزل بامرأة ، وما إن دخلوا عليها حتى فهمت كل شىء فانهارت الدموع من عينيها وراحت تندب الزوج والحبيب ، وانتبذت مكانا قصيا وراحت تقول :

عفا جانب البطحاء من زين هاشم
وجاور لحدا خارجا فى الغماغم

دعتـــه المنايـــا دعـــوة فأجـــابها
وما تـركت فى النـاس مثـل ابـن هـــاشم

عشيـــة راحـــوا يحملـــون سريـــره
تعـــاوره أصحابـــه فى التزاحـــم

فـــإن تك غالتـــه المنـــون وريبُهـــا
فقـــد كان معطـــاء كـــثير التراحـــم

وذاع فى مكة خبر موت عبد الله فسكتت القيان عن الغناء وساد الوجوم ولبست المدينة المقدسة على فتاها الذبيح ثوب الحداد ، وراح الناس يتساءلون فى عجب كما تساءل من قبل الزبير بن عبد المطلب : وفيم كان الفداء ؟ و لم يفطن فى مكة كلها إلى حكمة الفداء غير رقيقة بنت نوفل فقد قالت فى نفسها أو فى عبد الله غايته من الحياة بعد أن فداه الله بمائة من الإبل ودخل على آمنة بنت وهب وأودعها ما كان يتألق فى وجهه من سحر ونور .

١٥

تجهز جيش أبرهة لغزو الحجاز ليتصل نصارى الحبشة واليمن بنصارى الشام والقسطنطينية ولينطلق الجميع إلى أرض فارس لوضع حد للحروب الناشبة بين الشرق والغرب ، بين المجوسية والمسيحية ، ليرفرف الصليب على وجه الأرض ، ولتدين البشرية بدين اختلف أهله وانقسموا إلى طوائف وفرق .

وجاء أبرهة بفيل من الحبشة امتطاه وسار به على رأس جيشه ، وذاع بين العرب أن جيش أبرهة ما خرج من اليمن إلا ليهدم الكعبة ليجذب العرب إلى كنيسته وليفرض عليهم النصرانية وليؤدبهم جزاء وفاقا على انتهاك بعضهم حرمة كنيسته وتلطيخها بالدنس ، ولم يفطن العرب إلى الغرض السياسي الذى كان يريد تحقيقه فرأوا جهاده حقا عليهم .

ودعا ذو نفر رجالا من اليمن وكان من ملوكهم وأشرافهم ، فخف إليه قومه ومن أجابه من العرب وسار بهم لحرب أبرهة وصده عن البيت المقدس الذى جعله الله مثابة وأمنا .

والتقى جيش أبرهة برجال ذى نفر ودار بين الجانبين قتال استبسل فيه اليمنيون ومن استجاب لندائهم من سائر العرب ، ثم دارت الدائرة على اليمنيين وحاقت بهم الهزيمة وسقط ذو نفر أسيرا فى يد جنود أبرهة .

وأتى به أسيرا إلى أبرهة فجعل يرميه بنظرات غاضبة ثم أمر بقتله ، فقال له ذو نفر :

ـــ أيها الملك لا تقتلنى فإنه عسى أن يكون بقائى معك خيرا لك من قتلى .

فأمر أبرهة أن يحبسوه عنده فى وثاق ، ثم انطلق فى أرض العرب حتى إذا كان بأرض خَثْعَم عرض له نفيل بن حبيب الخثعمى فى قبيلتى خثعم شهران وناهس ومن تبعه من قبائل العرب .

كان نفيل والذين معه أذل من أن يصدوا زحف جيش الفيل ولكنهم وقفوا فى وجهه وقد شهروا سيوفهم وحاربوا عن بيتهم المقدس فى شجاعة ، وسقط الرجال قتلى يغطون أرض المعركة و لم يولوا الأدبار و لم يزولوا عن مواقعهم ، حتى سقط نفيل أسيرا فى أيدى جنود أبرهة .

وسيق نفيل إلى حيث كان الملك فراح أبرهة يرميه بنظرات حامية ، ثم أمر بقتله فقال له نفيل :

ـــ أيها الملك لا تقتلنى ، فإنى دليلك بأرض العرب .

فخلى سبيله وخرج معه يدله . وبلغت الأنباء الطائف أن جيش أبرهة يدنو وأنه ما خرج إلا ليهدم الكعبة ، فدخل الناس إلى معبد اللات وأطلقوا البخور ونحروا القرابين وسألوا آلهتهم أن ترفع عنهم غضب أبرهة ومقته .

ومر أبرهة بالطائف فخرج إليه مسعود بن مالك بن كعب بن عمرو بن سعد بن عوف بن ثقيف فقالوا له :

ـــ أيها الملك إنما نحن عبيدك سامعون لك مطيعون ، ليس عندنا لك خلاف وليس بيتنا هذا الذى تريد ، إنما تريد البيت الذى بمكة ونحن نبعث معك مندللك عليه .

وفرت سقيف إلى لاتها   بمنقلب الخائب الخاسر

وتجاوز أبرهة عنهم فبعثوا معه أبا رغال يدله على الطريق إلى مكة .

وخرج أبرهة ومعه أبو رغال وقد امتلأ أبرهة غرورا فما استطاع أحد أن يصمد فى وجهه وإن القبائل ترتجف منه فرقا وتملأ منه رعبا إذا ما عاينت جيشه ورأته على رأس فيله شامخا بأنفه . ووقر فى وجدانه أن ليس فى الأرض ولا فى السماء من قوة تحول بينه وبين هدم بين العرب والزحف إلى الشام ليلتقى نصارى الجنوب بنصارى الشمال .

وخطر على رأسه أنها وثبة واحدة ثم ينقطع آخر خيط يشد العرب بعضهم إلى بعض ، وثبة واحدة ثم تتفرق كلمة العرب إلى الأبد ، فذلك البيت هو الخطر الذى قد تتجمع حوله قبائل العرب المتنافرة المتباغضة المتقاتلة يوما ما إذا وجدت الزعيم الحانى الذى يؤلف بين قلوبهم ويجمعهم بين ذراعيه كما تجمع الدجاجة أفراخها تحت جناحيها .

وخرج أبرهة ومعه أبو رغال يدله على الطريق ، ولم يحاول أبو رغال أن يضلل جيش أبرهة كما فعل صالح يوم أن كان دليلا لجيش أوليوس غالوس ، بل سار بأبرهة على الطريق حتى أنزله المُغَمَّس على طريق الطائف ومكة .

وعسكر أبرهة وراح يتأهب للوثبة الفاصلة . إنه يرى جبل أبى قبيس والأخشبين جبلى مكة وإن هى إلا زحفة واحدة ويسوى بالأرض بيت العرب المقدس . وفيما هو عاكف على رسم خططه جاءه من قال له : إن أبا رغال قد مات .

وقبر أبو رغال فى المغمِّس ، وبعث أبرهة إلى الأسود بن مقصود وكان رجلا من الحبشة وأمره أن يغير على تهامة ليجس نبض المكيين ويعرف مقدار استعدادهم .

وأغار الأسود بن مقصود ومن معه من الفرسان على تهامة فأصاب مائتى بعير لعبد المطلب ، وساق أمامه أموال أهل تهامة من قريش وغيرهم . وبلغ

ذلك قريش فاجتمعت كنانة وهذيل ومن كان بالحزم وعقدوا العزم على قتال من ارتكب إثم الإغارة على الأموال والإبل التى ترعى فى حماية البيت المحرم .

وصعد الرجال على الجبال ونظروا فإذا بجيش أبرهة يغطى وجه الأرض : خيل وإبل وبعير وفيل عظيم لم يسبق لهم أن رأوا مثله على رأس جيش وجنود لا قبل لهم بها ، فعرفوا أنهم لا طاقة لهم بقتال هؤلاء القوم فأعرضوا عن فكرة القتال وانتظروا ما يسفر عنه الغد .

وجاء حناطة الحميرى إلى مكة وقال :

— أين سيد أهل هذا البلد وشريفها ؟

— ماذا تريد منه ؟

— أنا رسول الملك أبرهة إليه .

كان عبد المطلب جالسا على فراشه فى ظل الكعبة ومن حوله سادات قريش وأبناؤها وندماؤه فأشير إليه ، وقيل لرسول أبرهة :

— إنه هناك .

وذهب حناطة الحميرى إلى حيث يجلس عبد المطلب . كان وحده على فراشه أبيض حسن الوجه فى جبينه عز الملك ، فنظر إليه حناطة برهة ثم قال :

— إن الملك يقول لك إنى لم آت لحربكم إنما جئت لهدم هذا البيت ، فإن لم تعرضوا لنا دونه بحرب فلا حاجة لى فى دمائكم .

فالتفت عبد المطلب إلى من عنده ثم قال :

— والله ما نريد حربه وما لنا بذلك من طاقة . هذا بيت الله الحرام وبيت خليلة إبراهيم عليه السلام فإن يمنعه منه فهو بيته وحرمه ، وإن يخل بينه وبينه فوالله ما عندنا دفع عنه .

فقال حناطة وهو لا يكاد يصدق أذنيه :

ــ فانطلق معى إليه فإنه قد أمرنى أن آتيه بك .

فانطلق معه عبد المطلب ومعه بعض بنيه ، وفى الطريق علم به عبد المطلب أن صديقه ذا نفر وقع أسيرا فى يد أبرهة وأنه قد حبس عنده ، فلما أتى العسكر سأل عن ذى نفر ودخل عليه وهو فى محبسه فقال له :

ــ يا ذا نفر هل عندك من غناء فيما نزل بنا ؟

فقال ذو نفر وهو يطرق برأسه :

ــ وما غناء رجل أسير بيدى ملك ينتظر أن يقتله غدوًّا أو عشيًّا . وما عندى غناء فى شىء مما نزل بك إلا أن أنيسا سائس الفيل صديق لى وسأرسل إليه فأوصيه بك وأعظم عليه حقك أن يستأذن لك على الملك فتكلمه بما بدا لك ويشفع لك بخير إن قدر على ذلك .

ــ حسبى .

فبعث ذو نفر إلى أنيس فقال له :

ــ إن عبد المطلب سيد قريش وصاحب عين مكة يطعم الناس بالسهل والوحوش فى رءوس الجبال ، وقد أصاب له الملك مائتى بعير فاستأذن له عليه وانفعه بما استطعت .

ــ أفعل .

فكلم أنيس أبرهة فقال له :

ــ أيها الملك هذا سيد قريش ببابك يستأذن عليك ، وهو صاحب عين مكة ، وهو يطعم الناس فى السهل والوحوش فى رءوس الجبال ، فأذن له عليك فليكلمك فى حاجته .

فاعتدل أبرهة على سرير ملكه وقال :

— فليدخل .

ودخل عبد المطلب مديد القامة فخما ، فقد كان أوسم الناس وأجملهم وأعظمهم . فلما رآه أبرهة أجلّه وأعظمه وأكرمه عن أن يجلس على سرير ملكه ، فنزل أبرهة عن سريره فجلس على بساطه وأجلسه معه عليه إلى جنبه ثم قال لترجمانه .

— قل له ما حاجتك ؟

فقال له ذلك الترجمان فقال :

— حاجتى أن يردَّ على الملك مائتى بعير أصابها لى .

فلما قال له ذلك قال أبرهة لترجمانه :

— قل له قد كنت أعجبتنى حين رأيتك ، ثم زهدت فيك حين كلمتنى . أتكلمنى فى مائتى بعير أصبتها لك وتترك بيتا هو دينك ودين آبائك قد جئت لا تكلمنى فيه .

— أنا رب الأبل وإن للبيت ربًّا سيمنعه .

— ما كان ليمتنع منى .

— أنت وذاك .

ودخل يعمر بن نفاثة بن عدى سيد بنى بكر وينتهى نسبه إلى كنانة ، وخويلد بن وائلة الهذلىّ سيد هذيل ، وانضموا إلى عبد المطلب وقالوا :

— لك ثلث أموال تهامة على أن ترجع عنا ولا تهدم البيت .

وأبى أبرهة عليهم وأمر أن يرد على عبد المطلب الإبل التى أصاب له ، فعاد عبد المطلب بالإبل ونحرها جميعا قربانا لله ، وأخبر قريش الخبر وأمرهم بالخروج من مكة والتحرز فى رءوس الجبال والشعاب تخوفا عليهم من معرة الجيش .

وراح المكيون رجالا ونساء وولدانا وشيبا يرقون فى الجبال ، وخرجت آمنة بنت وهب وهالة بنت وهيب فيمن خرج من النساء . ووقفت آمنة على جبل قبيس تنظر و لم ترتجف فرقا بل طاف بها أمن وسلام .

ومس أذنيها ذلك الصوت الرقيق الذى هتف بها يوما مذ سبعة أشهر مضت : إنك قد حملت بسيد هذه الأمة ، فراحت الأفكار تدور فى رأسها : أتكون للعرب أمة إذا هدم بيتها ؟ قلبها يقول لها إن الله سيحمى بيته وإلا كان ذلك الهاتف بها وهمًا من الأوهام .

وذهب عبد المطلب إلى الكعبة وأخذ بحلقة بابها وقام معه نفر من قريش يدعون الله ويستنصرونه على أبرهة وجنده ، فقال عبد المطلب :

لا هـــــم إن المرء يمـ	نـع رحلـه فامنـع رحـالك
لا يغلبـــن صلـــيبهم	ومحالهم أبـــدا محالك
إن كــنت تاركهـم وكعـ	بتنـا فأمـرا مـا بـدالك
فلئــن فعــلت فإنــه	أمـر يتـمُّ بـه فعـالك
اسمع بـأرجس مـا أرا	دوه وانتهكـوا حـلالك
جـروا جميـع بلادهـم	والفيـل كـى يسبـوا عيـالك
عمـدوا حماك بكيدهـم	جهـلا ومـا رقبـوا جـلالك

ثم أرسل عبد المطلب حلقة الباب وانطلق هو ومن معه من قريش إلى رءوس الجبال . وذهب عبد المطلب إلى حيث كانت آمنة وهالة ووقفوا ينتظرون ما فعل أبرهة بمكة إذا دخلها .

وشخصت الأبصار إلى السماء ، نسى الناس فى شدتهم هبل واللات والعزى ومناة والأصنام المكدسة فى جوف الكعبة واتجهوا دون وساطة إلى

رب السماء والأرض رب العالمين ، وراحوا يبتهلون إلى الله أن يصونهم وأن يبعد عنهم معرة جيش أبرهة ، وراحت آمنة تدعو الله ليحمي بيته ويخفر المعتدين .

وأصبح الصباح وتهيأ أبرهة لدخول مكة وهيأ فيله وعبأ جيشه و لم يبق إلا وثبة واحدة ثم ينهار البيت وينفتح الطريق إلى الشام ويتحقق حلم قيصر .

وجاء نفيل بن حبيب الخثعمي حتى جاء إلى جنب الفيل ثم أخذ بأذنه فقال :

ـــ ارجع راشدا من حيث جئت فإنك فى بلد الله الحرام . ارجع راشدا من حيث جئت فإنك فى بلد الله الحرام .

ثم أرسل أذنه وخرج يشتد حتى أصعد فى الجبل .

وأمر أبرهة بالتقدم وسحب أنيس الفيل ولكن الفيل أبى أن يتقدم . فضربوا رأسه بالفأس ليتقدم فأبى . فأدخلوا خشبة بها اعوجاج فى بطنه فأدموه بها فأبى أن يتقدم . فوجهوه راجعا إلى اليمن فراح يهرول ، ووجَّهوه إلى الشام ففعل مثل ذلك ، ووجَّهوه إلى مكة فوقف فى مكانه لا يريم .

وأرسل الله عليهم طيرا أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل ، فإذا بها تجدرهم جدرا . وتفشى الجدرى فى عسكر أبرهة فراح أبرهة يسأل :

ـــ أين نفيل بن حبيب ليدلنا على الطريق ؟

وارتفعت أصوات تنادى نفيل بن حبيب فقال نفيل :

أيـن المفـر والإلـٰـه الطـالب والأشرم المغلوب ليس الغالب

وخرج الأحباش يتساقطون بكل طريق ويهلكون بكل مهلك على كل منهل.

وأصيب أبرهة فى جسده وعاد يجرجر أذيال الإخفاق وقد أصبح كل أمله أن يصل إلى صنعاء قبل أن يلفظ أنفاسه فى الطريق ، بعد أن كان يقول وهو

منتفخ الأوداج ليس فى الأرض ولا فى السماء قوة تمنعنى من هدم البيت .

ورأى الناس وهم فى رءوس الجبال أن الله قد حبس أبرهة وجيشه عن بيته وأنه قد هزم أعداءه وحده ، فارتفعت الابتهالات بالشكر حتى بلغت عنان السماء ، وعادت النسوة آمنات فرحات إلى دورهن فلم تلحقهن معرة جيش أبرهة ، وعادت آمنة إلى دارها وقد أيقنت أن الهاتف الذى هتف بها أنها حملت بسيد هذه الأمة حق ، فقد حمى الله بيته لأمر ذى بال ، وقد أصبحت تحس فى وجدانها أن الله قد منع بيته ببركة ذلك الذى فى بطنها .

وخرج رجال قريش فى إثر فلول جيش أبرهة ينظرون ، فرأوا الأحباش يترنحون ويسقطون كأنهم أعجاز نخل خاوية وقد غطت جثثهم وجه الأرض ، وظلوا منطلقين فرحين حتى بلغوا المغمَّس ، ورأوا قبر أبى رغال الذى كان دليل أبرهة إلى البيت فراحوا يرجمون القبر بالحجارة ويلعنون الخائن الأثيم .

وتهلل عبد المطلب بالفرح وفاضت عواطفه فقال :

أيها الداعى لقد أسمعتنى ... ثم ما بى عن نداكم من صمم
إن للبيت لربا مانعا ... من يرده بأثام يصطلم
رامه تبع فيمن جندت ... حمير والحى من آل قدم
فانثنى عنه وفى أوداجه ... جارح أمسك منه بالكظم
قلت والأشرم تردى خيله ... إن ذا الأشرم غر بالحرم

وذاع فى قبائل العرب أن الله رد الحبشة عن مكة وأصابهم بما أصاب به من

النقمة فأعظمت العرب قريشا وقالوا :

— أهل الله قاتل الله عنهم وكفاهم مؤنة عدوهم .

« ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل . ألم يجعل كيدهم فى تضليل . وأرسل عليهم طيرا أبابيل . ترميهم بحجارة من سجيل . فجعلهم كعصف مأكول » .

١٦

كان كسرى أنو شروان فى إيوانه يفكر فى مكة فخطرت الحيرة على ذهنه فلم يعد عليها أحد من آل المنذر ، فقد ملك كسرى بن قبيصة الطائى عليها إلى أن يرى رأيه فمكث مملكا عليها أشهرا ، ولم يجد كسرى أحدا يرضاه فقال :

ــ لأبعثن إلى الحيرة اثنى عشر ألفا من الأساورة ، ولأملكن عليهم رجلا من الفرس ، و لآمرنّهم أن ينزلوا على العرب فى دروهم ويملكوا عليهم أموالهم ونساءهم .

وكان عدى بن زيد واقفا بين يديه فأقبل عليه وقال :

ــ ويحك يا عدى ! من بقى من آل المنذر ؟ وهل فيهم أحد فيه خير ؟

ــ نعم أيها الملك السعيد إن فى ولد المنذر لبقية ، وفيهم كلهم خير .

ــ ابعث إليهم فأحضرهم .

فبعث عدى إليهم فأحضرهم وأنزلهم جميعا عنده ، ثم بعث إلى النعمان وكان قد تزوج هندا ابنته وقال له :

ــ لست أملّك غيرك فلا يوحشنك ما أفضل به إخوتك عليك من الكرامة ، فإنى إنما أغترهم بذلك .

وراح يفضل إخوته جميعا عليه فى النزل والإكرام والملازمة ويريهم تنقصا للنعمان ، وأنه غير طامع فى تمام أمر على يده ، وجعل يخلو بهم رجلا رجلا فيقول :

ــ إذا أدخلتكم على الملك فالبسوا أفخر ثيابكم وأجملها ، وإذا دعا لكم

بالطعام لتأكلوا فتباطئوا فى الأكل وصغروا اللُّقم ونزروا ما تأكلون ، فإذا قال لكم : أتكفوننى العرب ؟ فقولوا : نعم . فإذا قال لكم : فإن شذ أحدكم عن الطاعة وأفسد أتكفونيه ؟ فقولوا : لا . إن بعضنا لا يقدر على بعض ، ليهابكم ولا يطمع فى تفرقكم ، ويعلم أن للعرب منعة وبأسا .

فقبلوا منه ، وخلا بالنعمان فقال له :

ـــ البس ثياب السفر وادخل متقلدا سيفك ، وإذا جلست للأكل فعظِّم اللقم وأسرع المضغ والبلع وزد فى الأكل وتجوع قبل ذلك ، فإن كسرى يعجبه كثرة الأكل من العرب خاصة ، ويرى أن لا خير فى العربى إذا لم يكن أكولا شرها ولا سيما إذا رأى غير طعامه وما لا عهد له بمثله ، وإذا سألك هل تكفينى العرب ؟ فقل : نعم . فإذا قال لك : فمن لى بإخوتك ؟ فقل له : إن عجزت فإنى عن غيرهم لأعجز .

وجاء بنو مرينا إلى الأسود بن المنذر وكانوا قد أرضعوه فيهم وربوه ، وخلا به عدى بن مرينا فسأله عما أوصاه به عدى فأخبره ، فقال :

ـــ غشك والصليب والمعمودية وما نصحك . ولئن أطعتنى لتخالفن كل ما أمرك به ولتملَّكن ، ولئن عصيتنى ليملكن النعمان ، ولا يغرنك ما أراكه من الإكرام والتفضيل على النعمان فإن ذلك دهاء فيه ومكر ، وإن هذه المعُدِّية لا تخلو من مكر وحيلة .

ـــ إن عديا لم يألُنى نصحا وهو أعلم بكسرى منك ، وإن خالفته أوحشته وأفسد على ، وهو جاء بنا ووصفنا وإلى قوله يرجع كسرى . وراح الرجل يبذل للأسود النصيحة والأسود معرض عنه ، فلما أيس من قبوله منه قال :

ـــ ستعلم .

ودعا بهم كسرى فلما دخلوا عليه أعجبه جمالهم وكمالهم ، ورأى رجالا قلما رأى مثلهم ، فدعا لهم بالطعام ففعلوا ما أمرهم به عدى ، فجعل ينظر إلى النعمان من بينهم ويتأمل أكله ، فقال لعدى بالفارسية :

ـــ إن يكن فى أحدهم خير ففى هذا .

فلما غسلوا أيديهم راح يوعد بهم رجلا رجلا فيقول له :

ـــ أتكفينى العرب ؟

ـــ نعم أكفيكها كلها إلا إخوتى .

ودخل النعمان آخر من دخل عليه وهو فى ثياب السفر متقلدا سيفه ، فراح كسرى يرنو إليه فى إعجاب وإن كان أحمر أبرش قصيرا و لم يكن فى مثل جمال إخوته « الأشاهب » ، وإن كانت أمه يهودية من أهل فدك ، فما كان الفرس يضطهدون اليهود كما يفعل الروم ، ثم قال له :

ـــ أتكفينى العرب ؟

ـــ نعم .

ـــ فكيف لى بإخوتك .

ـــ إن عجزت عنهم فأنا عن غيرهم أعجز .

فملكه كسرى على الحيرة وخلع عليه وألبسه تاجا قيمته ستون ألف درهم فيه اللؤلؤ والذهب .

فلما خرج وقد ملِّك قال عدى بن مرينا للأسود :

ـــ دونك عقبى خلافك لى .

وخشى عدى بن زيد مكر عدى بن مرينا ، فصنع عدى بن زيد طعاما وأرسل إلى ابن مرينا أن ائتنى بمن أحببت فإن لى حاجة .

فأتى ابن مرينا فى ناس فتغدَّوا ، فقال عدى بن زيد لابن مرينا :

ـــ يا عدى إن أحق من عرف الحق ثم لم يلم عليه من كان مثلك ، وإنى قد عرفت أن صاحبك الأسود بن المنذر كان أحب إليك أن يُملَّك من صاحبى النعمان ، فلا تلمنى على شىء كنت على مثله ، وأنا أحب ألا تحقد على شيئا لو قدرت عليه ركبته . وأنا أحب أن تعطينى من نفسك ما أعطيك من نفسى فإن نصيبى فى هذا الأمر ليس بأوفر من نصيبك .

وقام فحلف ألا يهجوه أبدا ولا يبغيه غائلة ولا يزوى عنه خيرا أبدا ، فلما فرغ عدى بن زيد قام عدى بن مرينا فحلف بمثل يمينه وإن كان قلبه لم يصفح أبدا .

وخرج النعمان حتى نزل الحيرة ودخل قصير الخورنق ، فقال عدى بن مرينا لعدى بن زيد :

ألا بلــــغ عديــــا عــــن عــــدى
فــلا تجزع وإن رثت (ضعـفـت) قــواكا
هياكلُنــــــا تبــــــرِّك غير فقــــــر
لتحمــــــــد أو يتم بها غنــــــــاكا
فــــإن تظفــــر فلــــم تظفــــر حميــــدا
وإن تعــــطب فــــلا يبعــــد سواكا
نــــدمت ندامــــة الكُسَعــــى (١) لما
رأت عينــــاك مــــا صنــــعت يــــداكا

وعاد عدى بن مرينا والأسود إلى الحيرة فقال ابن مرينا للأسود :

---

(١) الكسعى نسبة إلى كسع حى من قيس عيلان وهو رجل رام رمى بعد ما أظلم الليل عيرا فأصابه وظن أنه أخطأه فكسر قوسه ، ثم ندم من الغد حين نظر إلى العير مقتولا وسهمه فيه .

ـــ أما إذا لم تظفر فلا تعجزن أن تطلب بثأرك من هذا المعذى الذى فعل بك ما فعل ، فقد كنت أخبرتك أن مَعدًّا لا ينام كيدها ومكرها وأمرتك أن تعصيه فخالفتنى .

ـــ فما تريد ؟

ـــ أريد ألا تأتيك فائدة من مالك وأرضك إلا عرضتها علىَّ .

كان ابن مرينا كثير المال والضيعة وقد عزم أن يستخدم ماله ومال الأسود وبنى المنذر فى القضاء على عدى بن زيد الذى أطار الملك من يدُ من أرضعوه وربوه ، فلم يكن فى الدهر يوم يأتى إلا على باب النعمان هدية من ابن مرينا ، فصار من أكرم الناس عليه حتى كان لا يقضى فى ملكه شيئا إلا بأمر ابن مرينا .

وكان عدى بن زيد يترك قصر كسرى ويخرج من المدائن إلى الحيرة للصيد مع النعمان . وفى ذات يوم خرج عدى مع النعمان وخدمه وحشمه فمروا بشجرة فقال له عدى :

ـــ أيها الملك أتدرى ما تقول هذه الشجرة ؟

ـــ لا .

ـــ تقول :

رب ركب قد أناخوا عندنا   يشربون الخمر بالماء الزلال
عصف الدهر بهم فانقرضوا   وكذاك الدهر حالا بعد حال

ثم جاوزوا الشجرة فمر بمقبرة ، فقال له عدى :

ـــ أيها الملك أتدرى ما تقول هذه المقبرة ؟

ـــ لا .

ـــ تقول :

أيها الـركب المخبـو   ن على الأرض المجدون
فكمـــا أنتم كنـــا   وكما نحن تكونـــون

— إن الشجرة والمقبرة لا يتكلمان ، وقد علمت أنك إنما أردت عظتى . فما السبيل التى تدرك بها النجاة ؟

— تدع عبادة الأوثان وتعبد الله ، وتدين بدين المسيح عيسى بن مريم .

— أو فى هذا النجاة ؟

— نعم .

وذهب النعمان إلى المدائن يحمل الخراج لكسرى ، فلما دخل عليه وجد عنده وفود الروم والهند والصين وقد أخذ كل وفد يذكر فى فخر ملوكهم وبلادهم ، فالتفت كسرى إلى النعمان وقد أخذته عزة الملك :

— يا نعمان لقد تذكرت فى أمر العرب وغيرهم من الأمم ، ونظرت فى حال من يقدم علىّ من وفود الأمم فوجدت الروم لها حظ فى اجتماع ألفتها وعظم سلطانها وكثرة مدائنها ووثيق بنيانها ، وأن لها دينا يبين حلالها وحرامها ويرد سفيهها ويقيم جاهلها ؛ ورأيت الهند نحوا من ذلك فى حكمتها وطبعها ، مع كثرة أنهار بلادهم وثمارها وعجيب صناعاتها وطيب أشجارها ودقيق حسابها وكثرة عددها .

وكذلك الصين فى اجتماعها وكثرة صناعات أيديها وفروسيتها وهمتها فى آلة الحرب وصناعة الحديد ، وأن لها ملكا يجمعها ؛ والترك والخزر على ما بهم من سوء الحال وقلة الريف والثمار والحصون وما هو رأس عمارة الدنيا من المساكن والملابس ، لهم ملوك تضم قواصيهم وتدبر أمرهم . ولم أر للعرب شيئا من خصال الخير من أمر دين ولا دنيا ولا حزم ولا قوة .

ومع أن ما يدل على مهانتها وذلها وصغر همتها محلتهم التى هم بها مع

الوحوش النافرة والطير الجائرة ، يقتلون أولادهم من الفاقة ، ويأكل بعضهم بعضا من الحاجة ، قد خرجوا من مطاعم الدنيا وملابسها ومشاربها ولهوها ولذاتها ، فأفضل طعام ظفر به ناعمهم لحوم الإبل التى يعافها كثير من السباع لثقلها وسوء طعمها وخوف دائها . وإن قَرَى أحدهم ضيفا عدها مكرمة ، وإن أطعم أكلة عدها غنيمة ، تنطق بذلك أشعارهم وتفتخر بذلك رجالهم ، ما خلا هذه التنوخية التى أسس جدى اجتماعها وشد مملكتها ومنعها من عدوها . ثم لا أراكم تستكينون على ما بكم من الذلة والقلة والفاقة والبؤس ، حتى تفتخروا وتريدوا أن تنزلوا فوق مراتب الناس .

وأحس النعمان مهانة ، ورأى أن يرد على كسرى وأن يلقمه حجرا وليكن ما يكون ، فقال :

ــ أصلح الله الملك ، حق لأمة الملك منها أن يسمو فضلها ويعظم حظها وتعلو درجتها ، إلا أن عندى جوابا فى كل ما نطق به الملك فى غير رد عليه ولا تكذيب له ، فإن أمننى من غضبه نطقت به .

ــ قل فأنت آمن .

ــ أما أمتك أيها الملك فليست تنازع فى الفضل لموضعها الذى هى به من عقولها وأحلامها وبسطة محلها وبحبوحة عزها وما أكرمها الله به من ولاية آبائك وولايتك . وأما الأمم التى ذكرت فأى أمة نقرنها بالعرب إلا فضلتها .

بماذا ؟

ــ بعزها ومنعتها وحسن وجوهها وبأسها وسخائها وحكمة ألسنتها وشدة عقولها وأنفتها ووفائها .

وأما عزها ومنعتها فإنها لم تزل مجاورة لآبائك الذين دوخوا البلاد ووطدوا الملك وقادوا الجند لم يطمع فيهم طامع و [لم] ينلهم نائل ، حصونهم ظهور خيلهم

ومهادهم الأرض وسقوفهم السماء وجنتهم السيوف وعدتهم الصبر ، إذ غيرها من الأمم إنما عزها الحجارة والطين وجزائر البحور .

وأما حسن وجوهها وألوانها فقد يعرف فضلهم فى ذلك على غيرهم ، من الهند المنحرفة والصين المنحفة والترك المشوهة والروم المقشرة .

وأما أنسابها وأحسابها فليست أمة من الأمم إلا وقد جهلت آباءها وأصولها وكثيرا من أولها ، حتى أن أحدهم ليسأل عمن وراء أبيه دنيا فلا ينسبه ولا يعرفه ، وليس أحد من العرب إلا يسمى آباءه أبا فأبا أحاطوا بذلك أحسابهم وحفوا به أنسابهم ، فلا يدخل رجل فى غير قومه ولا ينتسب إلى غير نسبه ولا يدعى إلى غير أبيه .

وأما سخاؤها فإن أدناهم رجلا الذى تكون عنده البكرة والناب عليها بلاغه فى حموله وشبعه وربه ، فيطرقه الطارق الذى يكتفى بالفلذة ويجتزى بالشربة ، فيعقرها له ويرضى له أن يخرج عن دنياه كلها فيما يكسبه حسن الأحدوثة وطيب الذكر .

وأما حكمة ألسنتهم فإن الله أعطاهم فى أشعارهم ورونق كلامهم وحسنه ووزنه وقوافيه مع معرفتهم بالأشياء وضربهم للأمثال وإبلاغهم فى الصفات ما ليس لشىء من ألسنة الأجناس . ثم خيلهم أفضل الخيل ، ونساؤهم أعف النساء ، ولباسهم أفضل اللباس ، ومعادنهم الذهب والفضة ، وحجارة جبالهم الجزع ، ومطاياهم التى لا يبلغ على مثلها سفن ولا يقطع بمثلها بلد قفر .

وأما دينها وشريعتها فإنهم متمسكون به حتى يبلغ أحدهم من تمسكه بدينه أن لهم أشهرا حرما وبلدا محرما وبيتا محجوجا ينسكون فيه مناسكهم ويذبحون فيه ذبائحهم ، فيلقى الرجل قاتل أبيه أو أخيه وهو قادر على أخذ ثأره وإدراك

رغمه منه فيحجزه كرمه ويمنعه دينه عن تناوله بأذى .

وأما وفاؤها فإن أحدهم يلحظ اللحظة ويومئ الإيماءة فهي وَلْث (عهد) وعقدة لا يحلها إلا خروج نفسه ، وإن أحدهم يرفع عودا من الأرض فيكون رهنا بدينه فلا يغلق ولا تُخفر ذمته ، وإن أحدهم ليبلغه أن رجلا استجار به وعسى أن يكون نائيا عن داره فيصاب فلا يرضى حتى يفنى تلك القبيلة التى أصابته أو تفنى قبيلته لما أخفر (غدر) من جوار ، وإنه ليلجأ إليهم المجرم المحدث من غير معرفة ولا قرابة فتكون أنفسهم دون نفسه وأموالهم دون ماله .

وأما قولك : إن أفضل طعامهم لحوم الإبل على ما وصفت منها ، فما تركوا ما دونها إلا احتقارا له ، فعمدوا إلى أجلها وأفضلها فكانت مراكبهم وطعامهم ، مع أنها أكثر البهائم شحوما وأطيبها لحوما وأرقها ألبانا وأقلها غائلة وأحلاها مضغة ، وإنه لا شيء من اللحمان يعالج ما يعالج به لحمها إلا استبان فضلها عليه .

وأما تحاربهم وأكل بعضهم بعضا وتركهم الأنقياد لرجل يسوسهم ويجمعهم فإنما يفعل ذلك من يفعله من الأمم إذا أنست من نفسها ضعفا وتخوفت نهوض عدوها إليها بالزحف وإنه إنما يكون فى المملكة العظيمة أهل بيت واحد يعرف فضلهم على سائر غيرهم فيلقون إليهم أمورهم وينقادون لهم بأزمتهم ، وأما العرب فإن ذلك كثير فيهم حتى حاولوا أن يكونوا ملوكا أجمعين ، مع أنفتهم من أداء الخراج والوطف (الأخذ منهم) بالعسف .

وعجب كسرى لما أجابه النعمان به وقال :

ــ إنك لأهل لموضعك من الرياسة فى أهل إقليمك ولما هو أفضل .

ثم كساه كسوته وسرحه إلى موضعه بالحيرة ، فلما قدم النعمان الحيرة

وفى النفس ما فيها مما سمع من كسرى من تنقص العرب وتهجين أمرهم ، بعث أكثم بن صيفى وحاجب ابن زرارة التميميين ، وإلى الحارث بن ظالم وقيس بن مسعود البكريين ، وإلى خالد بن جعفر وعلقمة بن علاثه وعامر بن الطفيل ، وإلى عمرو بن الشريد السلمى وعمرو بن معديكرب الزبيدى ، والحارث بن ظالم المرى ، فلما قدموا عليه فى الخورنق قال لهم :

ــ قد عرفتم هذه الأعاجم وقرب جوار العرب منها ، وقد سمعت من كسرى مقالات تخوفت أن يكون لها غور ويكون إنما أظهرها لأمر أراد أن يتخذ به العرب خولا كبعض طماطمته (من فى لسانه عجمة) فى تأديتهم الخراج إليه كما يفعل بملوك الأمم الذين حوله .

فاقتص عليهم مقالات كسرى وما رد عليهم فقالوا :

ــ أيها الملك وفقك الله ! ما أحسن ما رددت وأبلغ ما حججته به ، فمرنا بأمرك وادعنا إلى ماشئت .

ــ إنماأنا رجل منكم وإنما ملكت وعززت بمكانكم وما يتخوف من ناحيتكم ، وليس شيء أحب إلىّ مما سدد الله به أمركم وأصلح به شأنكم وأدام به عزكم ، والرأى أن تسيروا بجماعتكم أيها الرهط وتنطلقوا إلى كسرى فإذا دخلتم نطق كل رجل منكم بما حضره ليعلم أن العرب على غير ما ظن أو حدثته نفسه ، ولا ينطق رجل منكم بما يغضبه فإنه ملك عظيم السلطان كثير الأعوان مترف معجب بنفسه ، ولا تنخذلوا له انخذال الخاضع الذليل ، وليكن أمر بين ذلك تظهر به وثاقة حلومكم وفضل منزلتكم وعظيم أخطاركم . وليكن أول من يبدأ منكم بالكلام أكثم بن صيفى لسنىّ حاله ، ثم تتابعوا على الأمر من منازلكم التى وضعتم بها ، فإنما دعانى إلى التقدمة إليكم علمى بجميل كل رجل منكم على التقدم قبل صاحبه ، فلا يكونن ذلك منكم

فيجد فى آدابكم مطعنا فإنه ملك قادر مسلط .

ثم دعا لهم بما فى خزائنه من طرائف حلل الملك كل رجل منهم حلة وعمامة وختمه بياقوتة ، وأمر لكل رجل منهم بنجيبة مهرية وفرس نجيبة ، وكتب معهم كتابا : « أما بعد ، فإن الملك ألقى إلى من أمر العرب ما قد علم ، وأجبته بما قد فهم ، بما أحببت أن يكون منه على علم ولا يتلجلج فى نفسه أن أمة من الأمم التى احتجزت دونه بمملكتها وحملت ما يليها يفضل قوتها تبلغها فى شيء من الأمور التى يتعزز بها ذوو الحزم والقوة والتدبير والمكيدة ، وقد أوفدت أيها الملك رهطا من العرب لهم فضل فى أحسابهم وأنسابهم وعقولهم وآدابهم ، فليسمع الملك وليغامض عن جفاء إن ظهر من منطقهم ، وليكرمنى بإكرامهم وتعجيل سراحهم ، وقد نسبتهم فى أسفل كتابى إلى عشائرهم .

فخرج القوم فى أهبتهم حتى وقفوا بباب كسرى بالمدائن ، فدفعوا إليه كتاب النعمان فقرأه وأمر بإنزالهم ، إلى أن يجلس لهم مجلسا يسمع منهم . فلما أن كان بعد ذلك بأيام أمر مرازبته ووجوه أهل مملكته فحضروا وجلسوا على كراسى عن يمينه وشماله ، ثم دعا بهم على الولاء والمراتب التى وصفهم النعمان بها فى كتابه ، وأقام الترجمان ليؤدى إليه كلامهم . ثم أذن لهم فى الكلام فقام أكثم بن صيفى فقال :

— إن أفضل الأشياء أعاليها ، وأعلى الرجال ملوكها ، وأفضل الملوك أعمها نفعا ، وخير الأزمنة أخصبها وأفضل الخطباء أصدقها . الصدق منجاة ، والكذب مهواة ، والشر لجاجة ، والحزم مركب صعب ، والعجز مركب وطيء . آفة الرأى الهوى ، والعجز مفتاح الفقر ، وخير الأمور الصبر . حسن الظن ورطة ، وسوء الظن عصمة . إصلاح فساد الرعية خير من إصلاح فساد الراعى . من فسدت بطانته كان كالغاص بالماء ، شر البلاد

بلاد لا أمير فيها . شر الملوك من خافه البرىء . المرء يعجز لا محالة . أفضل الأولاد البررة .

خير الأعوان من لم يراء بالنصيحة ، أحق الجنود بالنصر من حسُنت سريرته . يكفيك من الزاد ما بلغك المحل . حسبك من شر سماعه. الصمت حكم وقليل فاعله . البلاغة الإيجاز . من شدد نفَّر ، ومن تراحم تآلف .

فتعجب كسرى من أكثم ، ثم قال :

— ويحك يا أكثم ما أحكمك وأوثق كلامك ، لولا وضعك كلامك فى غير موضعه .

قال أكثم :

— الصدق ينبئ عنك لا الوعيد .

قال كسرى :

— لو لم يكن للعرب غيرك لكفى .

قال أكثم :

— رب قول أنفذ من صَول (الوثبة عند الخصومة) .

ثم قام حاجب بن زرارة التميمى فقال :

— ورَى زندك وعلت يدك ، وهيب سلطانك . إن العرب أمة قد غلظت أكبادها ، واستحصدت مِرتها (القوة) ، ومنعت درتها ، وهى لك وامقة ما تألفتها ، مسترسلة ما لاينتها ، سامعة ما سامحتها . وهى العلقم مرارة ، وهى الصاب غضاضة ، والعسل حلاوة ، والماء الزلال سلاسة .

نحن وفودها إليك ، وألسنتها لديك . ذمتنا محفوظة ، وأحسابنا ممنوعة ، وعشائرنا فينا سامعة مطيعة . إن نؤب لك حامدين خيرا فلك بذلك عموم مَحْمدَتنا ، وإن تذم لم نخص بالذم دونها .

قال كسرى :

ـــ يا حاجب ما أشبه حجر التلال بألوان صخرها .

قال حاجب :

ـــ بل زئير الأسد بصولتها .

قال كسرى :

ـــ وذلك .

ثم قام الحارث بن عبار البكرى فقال :

ـــ دامت المملكة باستكمال جزيل حظها ، وعلو سنائها . من طال رشاؤه (حبله) كثر مَنحُه (استقصاؤه) ، ومن ذهب ماله قل منحه . تناقل الأقاويل يعرف اللب، وهذا مقام سيوجف (يضطرب) بما تنطق به الركب ، وتعرف به كنه حالنا العجم والعرب . ونحن جيرانك الأدنون ، وأعوانك المعينون ، خيولنا جمة ، وجيوشنا فخمة . إن استنجدتنا فغير ريض (غير مقصرين) ، وإن استطرقتنا فغير جُهض . (غير مانعين) ، وإن طلبتنا فغير غمض . لا ننثنى لذعر ، ولا نتنكر لدهر . رماحنا طوال ، وأعمارنا قصار .

قال كسرى :

ـــ لو قصر عمرك لم تستول على لسانك نفسك .

قال الحارث :

ـــ أيها الملك إن الفارس إذا حمل نفسه على الكتيبة مغررا بنفسه على الموت ، فهى منية استقبلها ، وجنان استدبرها . والعرب تعلم أنى أبعث العرب قدما وأحبسها وهى تصرف بها ، حتى إذا جاشت نارها ، وسعرت لظاها ، وكشفت عن ساقها ، جعلت مقادها رمحى ، وبرقها سيفــى ،

ورعدها زئيرى ، و لم أقصر عن خوفى ضحضاحها ، حتى أنغمس فى غمرات لججها ، وأكون فلكا لفرسانى إلى بحبوحة كبشها ، فأستمطرها دما ، وأترك حماتها جزر السباع وكل نسر قشعم (مسن) .

فالتفت كسرى لمن حضره من العرب وقال :

ـــ أكذلك هو ؟

قالوا :

ـــ فعاله أنطق من لسانه .

قال كسرى :

ـــ ما رأيت كاليوم ، وفدا أحشد ، ولا شهودا أوفد .

ثم قام عمرو بن الشريد السلمي فقال :

ـــ أيها الملك نعم بالك ، ودام فى السرور حالك ، إن عاقبة الكلام متدبرة ، وأشكال الأمور معتبرة ، وفى كثير ثقلة ، وفى قليل بُلْغة (ما يتبلغ به) . وفى الملوك سَورة العز . وهذا منطق له ما بعده ، شرف فيه من شرف وخمل فيه من خمل ، لم نأت لضيمك ، ولم نفد لسخطك ، ولم نتعرض لرِفدك (لعطائك) . إن فى أموالنا منتقدا ، وعلى عزنا معتمدا ، إن أورينا نارا أثقتنا ، وان أرْوَد (أرفق) دهر بنا اعتدلنا ، إلا أنّا مع هذا لجوارك حافظون ، ولمن رامك كافحون ، حتى يحمد الصدر ، ويستطاب الخبر .

قال كسرى :

ـــ ما يقوم قصد منطقك بإفراطك ، ولا مدحك بذمك .

قال عمرو :

ـــ كفى بقليل قصدى هاديا ، وبأيسر افراطى مخبرا ، و لم يلم من عزبت نفسه عما يعلم ، ورضى من القصد بما بلغ .

قال كسرى :

ـــ ما كل ما يعرف المرء ينطق به ، اجلس .

ثم قام خالد بن جعفر الكلابى فقال :

ـــ أحضر الله الملك إسعادا ، وأرشده إرشادا . إن لكل منطق فرصة ، ولكل حاجة غصة ، وعيُّ المنطق أشد من عى السكوت ، وعثار القول أنكأ من عثار الوعث ، وما فرصة المنطق عندنا إلا بما نهوى ، وغصة المنطق بما لا نهوى غير مساغة ، وتركى ما أعلم من نفسى ويعلم من سمعى أننى له مطيق ، أحب إلى من تكانى ما أتخوف ويتخوف منى .

وقد أوفدنا إليك ملكنا النعمان ، وهو لك من خير الأعوان ، ونعم حامل المعروف والإحسان ، أنفسنا بالطاعة لك باخعة ، ورقابنا بالنصيحة خاضعة ، وأيدينا لك بالوفاء رهينة .

قال له كسرى :

ـــ نطقت بعقل ، وسموت بفضل ، وعلوت بنبل .

ثم قام علقمة بن علاثة العامرى فقال :

ـــ نهجت لك سبل الرشاد ، وخضعت لك رقاب العباد . إن للأقاويل مناهج ، وللآراء مدالج ، وللعويص مخارج . وخير القول أصدقه ، وأفضل الطلب أنجحه . إنا وإن كانت المحبة أحضرتنا ، والوفادة قربتنا ، فليس من حضرك منا بأفضل ممن عزب عنك، بل لو قست كل رجل منهم، وعلمت منهم ما علمنا ، لوجدت له فى آبائه دنيا أندادا وأكفاء كلهم إلى الفضل منسوب ، وبالشرف والسؤدد موصوف ، وبالرأى الفاضل والأدب النافذ معروف ، يحمى حماه ، ويروى ندماه ، ويذود أعداه ، لا تخمد ناره ، ولا يحترز منه جاره .

أيها الملك ، من يلى العرب يعرف فضلهم ، فاصطنع العرب فإنهم الجبال الرواسى عزا ، والبحور الزواجر طميا ، والنجوم الزواهر شرفا ، والحصى عددا ، فإن تعرف لهم فضلهم يعزوك ، وإن تستصرخهم لا يخذلوك .

قال كسرى وخشى أن يأتى منه كلام يحمله على السخط عليه :

ــ حسبك ، أبلغت وأحسنت .

ثم قام قيس بن مسعود الشيبانى فقال :

ــ أطاب الله بك المراشد ، وجنبك المصائب ، ووقاك مكروه النصائب (الشدائد) . ما أحقنا إذا أتيناك بإسماعك ما لا يحنق صدرك ، ولا يزرع حقدا فى قلبك . لم نقدم أيها الملك لمساماة ، و لم ننتسب لمعاداة ، ولكن لتعلم أنت ورعيتك ومن حضرك من وفود الأمم أنا فى المنطق غير محجمين ، وفى الناس غير مقصرين . إن جورينا فغير مسبوقين ، وإن سومينا فغير مغلوبين .

وتذكر كسرى أن قيس ترك الوفاء بضمانه السواد ، فقال :

ــ غير أنكم إذا عاهدتم فغير وافين .

قال قيس :

ــ أيها الملك ما كنت فى ذاك إلا كواف غدر به ، أو كخافر أخفر بذمته .

ــ ما يكون لضعيف ضمان ، ولا لذليل خفارة .

ــ أيها الملك ما أنا فيما أخفر من ذمتى ، أحق بإلزامى العار منك فيما قتل من رعيتك ، وانتهك من حرمتك .

ــ ذلك من ائتمن الخانة واستنجد الأثمة ، ناله من الخطأ ما نالنى . وليس كل الناس سواء . كيف رأيت حاجب بن زرارة لم يحكم قواه فيبرم ، ويعهد فيوفى ، ويعد فينجز .

ــ وما أحقه بذلك وما رأيته إلا لى .

ـــ القول بذل فأفضلها أشدها .

ثم قام عامر بن الطفيل العامرى فقال :

ـــ كثر فنون المنطق ، وليس القول أعمى من حِندس الظلماء وإنما الفخر فى الفعال . والعجز فى النجدة ، والسؤدد مطاوعة القدرة ، وما أعلمك بقدرنا ، وأبصرك بفضلنا ، وبالحرى إن أدالت الأيام ، وثابت الأحلام ، أن تحدث لنا أمورا لها أعلام .

قال كسرى :

ـــ وما تلك الأعلام ؟

ـــ مجتمع الأحياء من ربيعة ومضر ، على أمر يذكر .

ـــ وما الأمر الذى يذكر ؟

ـــ ما لى علم بأكثر مما خبرنى به مخبر .

كان عامر بن الطفيل قد سمع من أحبار يهود وكهان النصارى والمنجمين أن نبيا يوشك أن يولد فى العرب ، يجمع ما تنافر من قبائل العرب ، يخرجهم من الظلمات إلى النور ويرفعهم فوق العالمين وقد لمح إلى ما سمع فقال له كسرى :

ـــ متى تكاهنت يابن الطفيل ؟

ـــ لست بكاهن ، ولكنى بالرمح طاعن .

ـــ فإن أتاك آت من جهة عينك العوراء ما أنت صانع ؟

ـــ ما هيبتى فى قفاى بدون هيبتى فى وجهى ، وما أذهب عينى فى عبث ولكن مطاوعة العبث .

ثم قام عمرو بن معد يكرب الزبيدى فقال :

ـــ إنما المرء بأصغريه قلبه ولسانه ، فبلاغ المنطق الصواب ، ومِلاك النجدة

الارتياد ، وعفو الرأى خير من استكراه الفكرة ، وتوقيف الخبرة خير من اعتساف الحيرة ، فاجتبذ (اجتذب) طاعتنا بلفظك ، واكتظم بادرتنا بحلمك ، وألن لنا كنفك (جانبك) ، يسلس لك قيادنا ، يوقس صَفاتنا قراع منافير من أراد لنا قضما ، ولكن معنا حمانا من كل رام لنا هضما .

ثم قام الحارث بن ظالم المرى فقال :

ــ إن من آفة المنطق الكذب ، ومن لؤم الأخلاق الملق ، ومن خطل الرأى خفة الملك المسلط ، فإن أعلمناك أن مواجهتنا لك عن ائتلاف ، وإيفادنا لك عن تصاف ، ما أنت بقبول ذلك منا بخليق ، ولا اعتماد عليه بحقيق . ولكن الوفاء بالعهود ، وإحكام ولث العقود ، والأمر بيننا وبينك معتدل ، ما لم يأت من قبلك ميل أو زلل .

قال كسرى :

ــ من أنت ؟

ــ الحارث بن ظالم .

ــ إن فى أسماء آبائك لدليلا على قلة وفائك ، وأن تكون أولى بالغدر وأقرب من الوزر .

ــ إن فى الحق مغضبة ، والسر والتغافل ، ولن يستوجب أحد الحلم إلا مع القدرة ، فلتشبه أفعالك مجلسك .

قال كسرى :

ــ هذا فتى القوم .

ثم قال :

ــ قد فهمت ما نطقت به خطباؤكم وتفنن فيه متكلموكم . ولولا أنى أعلم أن الأدب لم يثقف أودكم (اعوجاجكم) ، ولم يحكم أمركم ، وإنه ليس ملك

يجمعكم فتنطقون عنده منطق الرعية الخاضعة الباخعة ، فنطقتم بما استولى على ألسنتكم ، وغلب على طباعكم ، لم أجز لكم كثيرا مما تكلمتم به ، وإنى أكره أن أجبه وفودى أو أضيق صدورهم ، والذى أحب من إصلاح مدبركم ، وتألف شواذكم ، والإعذار إلى الله فيما بينى وبينكم . وقد قبلت فيما كان من منطقكم من صواب ، وصفحت عما كان فيه من خلل ، فانصرفوا إلى ملككم فأحسنوا مؤازرته ، والتزموا طاعته ، وادعوا سفهاءكم وأقيموا أودكم ، وأحسنوا أدبكم ، فإن فى ذلك صلاح العامة .

كان كسرى يتكلم فى ثقة وغرور ، ولو اخترقت أبصاره حجب الغيب لرأى مولد النبى الذى لمح إليه ابن الطفيل فى دار من دور مكة ، ولرأى هؤلاء العرب الذين كان يعيرهم بأن ليس لهم ملك يجمعهم ولا أدب يثقف اعوجاجهم ، وقد جمعهم ذلك النبى ودفعهم الدين الذى جاءهم به إلى غزو فارس وانتزاع سرير الملك من أحفاده ، حتى تتحقق نبوءة ساسان ووصية زرادشت، ولو تفرس فى الغيب طويلا لرأى عمرو بن معد يكرب ذلك الشاب الذى قال فأوجز يجد فى أثر فلول جيوش الفرس حتى المدائن : « وأورثناها قوما آخرين » .

١٧

راح جيش أبرهة يتقهقر وقد حملت فلول الجيش ملكهم الذى هده المرض، وكانت أنامله تسقط أنملة أنملة حتى قدموا به صنعاء وهو مثل فرخ الطائر، انصدع صدره عن قلبه وزهقت روحه ليملك على اليمن من بعده ابنه يكسوم.

أبى الله أن ينصر أبرهة حتى لا يجرى السبى على رسوله حملا ووليدا ، فلو ظفر أبرهة بمكة لهدم البيت وقتل الرجال وسبى النساء ، ولساق آمنة بنت وهب إلى صنعاء فيمن سيسوق من النساء ، أو بعث بها إلى سوق من أسواق الرقيق لتباع بضاعة هى وذلك الذى حملته وبشرت به يوم أن حملته بأنها قد حملت بسيد هذه الأمة ، ولكن لمحمد بن عبد الله ربا منعه من الرق ليؤدى ما أعد له من رسالة .

وسار يكسوم فى اليمن سيرا سيئا . كان فظا غليظ القلب يهوى سفك الدماء ويرتاح للظلم الذى يوقعه برعيته ، فقد ضاق اليمنيون بحكمه حتى إن موته لم يخفف عنهم ، فقد كرهوا أن يظلوا تحت حكم الأحباش تسلب منهم خيراتهم ويرسل بها إلى الحبشة .

وتولى مسروق بن أبرهة من زوجته العربية الحكم بعد موت أخيه ، وكان يحسب أن اليمنيين سيفرحون بتوليه الملك فأمه منهم وهو يتكلم العربية بلسانهم ، ونسى مسروق أن اليمنيين لم ينسوا أن أباه قد اغتصب أمه من زوجها العربى ، فهو ابن الغصب والمقت وثمرة القهر والخسة والدناءة .

وضاق سيف بن ذى يزن بالذل الذى يعيش فيه الحميريون فعزم على أن

يخلص بلاده من حكم الأحباش ، ولكن أين القوة التى يقودها لحرب مسروق وجنوده وإرغامهم على الجلاء عن البلاد ، وفكر ابن ذى يزن ودبر فلم يجد إلا أن يلجأ إلى قيصر الروم يلتمس منه أن يمده بالجنود لطرد الأحباش من أرض حمير .

وراح سيف بن ذى يزن يطوى الأرض قاصدا القسطنطينية وهو يفكر فى إمبراطور الروم . إنه ليس أول عربى يفزع إلى البلاط الإمبراطورى ، فملوك الغساسنة عرفوا ذلك الطريق ، وإن امرأ القيس قد ذهب إلى يوسطنيانوس ونادمه ، وتوطدت الصداقة بينه وبين قيصر حتى إنه كان يدخل معه الحمام ، ولولا الوشاية التى مشى بها الوشاة بين امرئ القيس ويوسطنيانوس لكان امرؤ القيس قد عاد إلى عرش آبائه .

ولم يخطر على قلب سيف بن ذى يزن أن حملة أبرهة كانت بتدبير القسطنطينية ، وأنها هى التى وضعت خططها وباركتها ليتصل نصارى الجنوب بنصارى الشمال لتحقيق أغراض القسطنطينية السياسية .

وبلغ ابن ذى يزن البلاط البيزنطى وطلب المثول بين يدى قيصر ليبت فى أمور الدولة وحده .

وراح سيف بن ذى يزن يشكو إلى قيصر ملك الروم ما هم فيه من ذل واضطهاد ، وسأله أن يبعث معه الجيوش ليطرد الأحباش ، ويلى اليمن الإمبراطور العظيم ويبعث إليهم من يشاء من الروم فيكون له ملك اليمن .

ولم يلق قيصر إليه سمعه فقد كان فى ضيق لإخفاق حملة أبرهة ، وكان فى دهشة من أن القدر كان فى خدمة وثنيين يعبدون الحجارة وقد نصرهم على جيش يؤمن بالله ومسيحه ويحمل الصليب !

وكانت صوفيا تصغى إلى الترجمان وهى ضيقة الصدر بالعرب ، فانكسار

أبرهة قد قلب كل خططهم رأسا على عقب وغير تاريخ المنطقة ، فقد كانت صوفيا واثقة من النصر وكانت على يقين من أن علم النصرانية سيخفق على جبال مكة وعلى واحات العرب فى طول الجزيرة العربية وعرضها .

ولم يستطع قيصر ولا صوفيا أن يكتما ما يعتمل فى صدريهما من ضيق ، فقالا لسيف بن ذى يزن إن بلاده بعيدة ولا رغبة لهما فى المنطقة !

وخرج سيف بن ذى يزن من البلاط البيزنطى وهو آسف حزين، وراح يفكر ويدبر فهداه تفكيره إلى أن يهرع إلى كسرى أنو شروان فى المدائن يسأله أن يبعث معه الجيوش ليطرد الأحباش أولياء الروم من أرض حمير، وكان يأمل أن يستجيب كسرى لندائه فالأحباش حلفاء الروم أعداؤه وأعداء دينه، وإن حاول كسرى أن يبدو على الدوام متسامحا .

وخرج سيف بن ذى يزن حتى أتى النعمان بن المنذر فى قصر الخورنق . فشكا إليه أمر الحبشة فقال له النعمان :

— إن لى على كسرى وفادة فى كل عام ، فأقم حتى يكون ذلك .

وحان أوان انطلاق النعمان إلى المدائن فذهب سيف بن ذى يزن معه فأدخله على كسرى . وكان كسرى يجلس فى إيوان مجلسه الذى فيه تاجه ، وكان تاجه مثل المكيال العظيم يُضرب فيه الياقوت واللؤلؤ والزبرجد والذهب والفضة ، معلقا بسلسلة من ذهب فى رأس طاقة فى مجلسه ذلك ، وكانت عنقه لا تحمل تاجا وإنما يستر بالثياب حتى يجلس فى مجلسه ذلك ، ثم يدخل رأسه فى تاجه فإذا استوى فى مجلسه كشفت عنه الثياب ، فأحس سيف هيبة له .

دخل سيف من باب عام مطأطئ الرأس ، فقال كسرى . :

— إن هذا الأحمق يدخل علىّ من هذا الباب الطويل ثم يطأطئ رأسه .

فقيل ذلك لسيف فقال :

ـــ إنما فعلت ذلك لهمّي لأنه يضيق عنه كل شيء .

وسمح كسرى لابن ذى يزن بالكلام ، فقال :

ـــ أيها الملك غلبتنا على بلادنا الأحباش ، فجئتك لتنصرنى و يكون ملك بلادى لك .

سمع كسرى أنو شروان ولا ريب بتحرك جيوش أبرهة لتستولى على جزيرة العرب وليتصل نصارى الحبشة بنصارى غسان والروم ، وفطن إلى أن تلك الحركة لم يكن مقصودا بها غيره ، وبلغته أنباء إخفاق حملة الفيل فلم يعد يخشى وقوع الحجاز فى قبضة الأحباش ، و لم تعد هناك ضرورة للمغامرة فقال :

ـــ بعدت بلادك مع قلة خيرها فلم أكن لأورط جيشا من فارس بأرض العرب ، لا حاجة لى بذلك .

ثم أجازه بعشرة آلاف درهم واف وكساه كسوة حسنة ، فلما قبض ذلك منه سيف خرج وجعل ينثر ذلك الورق للناس ، فبلغ ذلك الملك فقال :

ـــ إن لهذا لشأنا .

ثم بعث إليه فقال :

ـــ عمدت إلى حِباء الملك تنثره للناس .

فقال سيف :

ـــ ما جبال أرضى التى جئت منها إلا ذهبا وفضة .

كان كسرى على علم باليمن كما كان الروم على علم بها ، فجواسيس الفرس والروم يذرعونها طولا وعرضا ، وهى ميدان من الميادين الهامة التى يتصارع فيها النساطرة واليعاقبة أصحاب مذهب وحدة المسيح وأصحاب مذهب ناسوت المسيح ولاهوته ، نصارى الشرق

ونصارى الغرب ، النصارى الذين تؤيدهم فارس نكاية فى عدوها والنصارى الذين يعتنقون مذهب الإمبراطورية الرومانية ، فلم يتحرك طمع كسرى لما سمع أن جبال اليمن من ذهب وفضة ، بل رأى أن يناوئ الروم فى اليمن وأن يقلق مضاجعهم وأن ينزل بهم الهزيمة بطرد حلفائهم من الأرض العربية كما أنزل بهم الهزيمة فى كل مكان .

جمع كسرى مرازبته فقال لهم :

— ماذا ترون فى أمر هذا الرجل وما جاء له ؟

فقال قائل :

— أيها الملك إن فى سجونك رجالا قد حبستهم للقتل ، فلو أنك بعثتهم معه فإن يهلكوا كان ذلك الذى أردت بهم ، وإن ظفروا ملكا ازددته .

فبعث معه كسرى من كان فى سجونه وكانوا ثمانمائه رجل ، واستعمل عليهم رجلا منهم يقال له وهرز وكان ذا سن فيهم وأفضلهم حسبا وبيتا ، فخرجوا فى ثمان سفائن قاصدين عدن ، فغرقت سفينتان ووصل إلى عدن ست سفائن، فراح سيف يجمع من استطاع من قومه، ثم عاد إلى وهرز بليوث أبوا أن يعيشوا فى اليمن فى ذل وعزموا على أن يحرروا بلادهم من الأحباش الذين جاءوا باسم نصرة إخوانهم فى الدين ، ثم أناخوا على البلاد يمتصون دماءها .

وقال سيف لوهرز :

— رجلى مع رجلك حتى نموت جميعا أو نظفر جميعا .

— أنصفت .

وسمع مسروق بن أبرهة بنزول جنود الفرس بعدن ، فجهز جيشا ثم انطلق ليدافع عن عرشه الذى تألب عليه سيف بن ذى يزن واستعان بجيوش فارسية جاءت لنصرته ، لا تأييدا لقضيته بل بسطا لنفوذ فارس على المنطقة .

ودعا وهرز ابنه نوزاد وأمره أن يخرج لقتال مسروق والذين معه ، ولم يخرج وهرز ولا سيف مع الخارجين فقد أراد الشيخ أن يختبر قتالهم قبل أن يضع خططه للقضاء على مسروق وجنوده .

وانطلق نوزاد ومن انتدبهم أبوه معه لقتال الأحباش على أرض اليمن ، فالتقى مسروق وهو على رأس فيله بطلائع الجيش الغريب الذى جاء يتلمس طريقه ، وبدأت المعركة بالتراشق بالسهام ، ثم مشى الرجال إلى الرجال يهزون الرماح ثم يطلقونها إلى الأهداف البشرية التى كانت تتهاوى كأوراق الشجر فى فصل الخريف ، وغطت الجثث الأرض ، ثم راح فيل مسروق يوقع الاضطراب فى صفوف العرب والفرس ، ثم صاح صائح :

ــ إن نوزاد بن وهرز قد قتل .

وبلغ وهرز مقتل ابنه فزاده ذلك حنقا على الأحباش ، فلم تعد المعركة معركة الأحباش مع اليمن توطيدا لسلطان كسرى ومدا لنفوذه بل أمست انتقاما لابنه الذى قتل بسيوف الأحباش على أرض العرب .

وخرج وهرز وسيف بن ذى يزن فى جموع الفرس والعرب وانطلقوا حتى تواقف الناس على مصافهم ، وعزم وهرز على أن يقتل ملك اليمن فلن يشفى غليله قتل جيش مسروق كله إذا ما فر مسروق من يده .

وقال وهرز لمن حوله :

ــ أرونى ملكهم .

ــ أترى رجلا على الفيل عاقدا تاجه على رأسه بين عينيه ياقوتة حمراء ؟

ــ نعم .

ــ ذاك ملكهم .

ــ اتركوه .

فوقفوا طويلا يتراشقون بالسهام ، ثم التفت وهرز إلى من حوله وقال يسأل عن مسروق :

— علام هو ؟

— قد تحول على الفرس .

— اتركوه .

واستمر تراشق السهام طويلا والسهام تطيش أو تستقر فى الأفئدة والصدور والنحور ، والجثث تتهاوى وأنات الجرحى تتردد فى جنبات المعركة وقد صم عنها المقاتلون آذانهم ، فقد كان كل منهم مشغولا بنفسه عن كل ما حوله ، ذاهلا عن الوجود بالمشاعر الثائرة التى تستولى على وجدانه .

والتفت وهرز إلى من حوله وقال :

— علام هو ؟

— قد تحول على البغلة .

— بنت الحمار ! ذل وذل ملكه ، إنى سأرميه ، فإن رأيتم أصحابه لم يتحركوا . فاثبتوا حتى آذنكم فإنى قد أخطأت الرجل . وإن رأيتم القوم قد استداروا واجتمعوا حوله فقد أصبتُ الرجل ، فاحملوا عليهم .

ثم وتر قوسه ثم رماه فصك الياقوتة التى بين عينيه ، فتغلغلت النشابة فى رأسه حتى خرجت من قفاه ونُكِس عن دابته ، واستدارت الحبشة والتفت حوله ، وارتفعت أصوات التهليل من الجيش العربى الفارسى فقد أصاب وهرز مسروق إصابة قاتلة .

ودب الذعر فى صفوف الحبشة فقد قتل قائدهم وملكهم فدب اليأس فى قلوبهم ، وقبل أن يفيقوا من هول الصدمة حمل العرب والفرس عليهم حملة رجل واحد ، وأعملوا السيوف فى رقابهم ، فسقط من سقط قتيلا وفر من فر

لا يلوى على شيء ، وكتبت الهزيمة على الأحباش وراحت جيوش الفرس وسيف بن ذى يزن تتقدم إلى صنعاء مزهوة بنصرها .

وشرد ذهن سيف وهو فى طريقه إلى العاصمة ، لم يفكر فى قصر مسروق الذى سيصبح مقر ملكه بل عاد به القهقرى إلى ذلك اليوم الذى خرج فيه أبوه ذو يزن إلى كسرى ووقف ببابه يسأله النصرة. وقد أبى كسرى أن يستجيب له حتى مات ذو يزن ببابه. ليت روح أبيه ترفرف عليه الساعة لترى أن أمله قد تحقق.

ورن فى أذنيه الحديث الذى دار بينه وبين كسرى :

ــ أيها الملك إن لى عندك ميراثا .

أنا ابن الشيخ اليمانى ذى يزن الذى وعدته أن تنصره فمات ببابك ، وحضرتُك فتلك العدة حق لى وميراث يجب عليك الخروج لى منه .

ورأى كسرى يأمر له بمال ، ثم أفاق من شروده ووقعت عيناه على باب صنعاء فلم ترف على شفتيه بسمة بل سالت الدموع على خديه .

وأقبل وهرز ليدخل صنعاء وقد رفعت راية الجيش تخفق بالنصر ، فلم تمر الراية من باب صنعاء وهم حامل الراية بأن ينكسها ، ورأى وهرز ذلك فغضب وتغير لونه وقال :

ــ لا تدخل رايتى منكسة أبدا . اهدموا الباب .

وعملت المعاول فى باب صنعاء ليدخل وهرز وجنوده وجنود ابن ذى يزن والراية عالية خافقة مرفوعة .

وانطلق وهرز وسيف وأشراف القوم إلى القصر ، وجاءت الوفود لتهنئ وهرز وسيف بن ذى يزن على النصر المؤزر على الحبشة ، ثم انصرف وهرز إلى كسر وملَّك سيفا على اليمن . وتهلل سيف بالفرح و لم يفكر فى أنه استبدل الحبشة بالفرس وأنه لم يحرر بلاده من سيطرة الدول الأجنبية ، فقد أصبح غاية

أى ملك عربى فى الشرق الأوسط أن يرضى عنه كسرى أو قيصر ، وأن يؤيد ملكه قوة من القوتين العظيمتين المسيطرتين على العالم المتنازعتين ليخلو لإحداهما وجه الأرض ، وقد انضم بعض ملوك العرب للشرق وانضم بعضها الآخر للغرب ، ووضع كل من الفريقين موارد بلاده فى خدمة سيده الذى يؤيده ، ولم يدر بخلد حاكم واحد منهم أن فى مقدور رجل من العرب أن يجمع كلمة العرب المتنافرة وأن يؤلف بين قلوبهم ، وأن يحملهم للقضاء على الإمبراطوريتين العاتيتين إمبراطورية الفرس وإمبراطورية الروم ، إمبراطورية الشرق وإمبراطورية الغرب ، فقد كان ذلك يستعصى حتى على الأحلام .

وفى دار من دور بنى هاشم فى مكة ، بل فى دار عبد الله بن عبد المطلب بالذات ، فى دار الذبيح الذى فداه ربه بمائة من الإبل ليتزوج فتاة بنى زهرة لتحمل منه بسيد البشر . كانت آمنة بنت وهب تضع الغلام الذى دعا إبراهيم وإسماعيل ربهما وهما يقيمان القواعد من البيت أن يبعث فى ذريتهما رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم ، والذى بشر به موسى وعيسى والنبيون ، الغلام الذى سيرفع العرب ويخرجهم من الظلمات إلى النور ، ليصبحوا معلمين للبشرية بعد أن كانوا فى الجهالة يعمهون ، الغلام الذى سيرسله الله رحمة للعالمين .

١٨

كانت يثرب يموج بعضها فى بعض فما كان يوم يمر دون أن تقوم مشادة بين الأوس والخزرج أو تنشب مناظرة حامية بين رجل من العرب ورجل من اليهود ، ويا طالما نشبت الحروب بين الحيين من العرب لسبب من الأسباب التافهة ، وما أكثر ما ثارت المنازعات بين العرب واليهود !

وارتفعت الأصوات حتى طافت بالدور ، فخرج حسان بن ثابت وكان ابن سبع سنين وفى أثره أخته فارعة بنت ثابت وكانت طفلة صغيرة ليريا ذلك النضال الناشب بين الناس .

كان العرب واليهود يتشابكون بالأيدى ويتبادلون السباب . فقد بلغ العرب أن اليهود أهانوا امرأة عربية فى السوق ، فاتفقت كلمة الأوس والخزرج واجتمعت القلوب المتنافرة ونسيت ما كان بينهما من عداوة ، وهبوا لقتال اليهود غيرة على كرامة امرأة عربية أهينت فى الطريق .

وكادت المشادة أن تنقلب إلى حرب مدمرة لولا أن مشى بعض أشراف القوم فى إصلاح ما بين المتشابكين بالإيدى ، والذين كان السباب ينطلق من أفواههم بغير حساب ولا تفكير .

وأحس اليهود أنهم باتوا فى المدينة أذلة فقالوا للعرب :

ـــ إن نبيا مبعوثا قد أظل زمانه نتبعه ، نقتلكم معه قتل عاد وإرم .

كان اليهود ينتظرون مولد النبى الذى بشرهم به موسى ، فكانوا يرصدون النجوم ويعكفون على أسفارهم يقرءون ما بين السطور ، وكانوا فى لهفة على

مولد ذلك النبى ليصدقوه فقد كانوا أذلة فى الأرض وكانوا يطمعون فى أن يعيد ذلك النبى مجدهم ومجد الدين .

وكان الرهبان فى صوامعهم يعلمون أن الله سيبعث « الفارقليط » الذى بشر به المسيح ، وكانوا يفصحون عن ذلك العلم كلما التقوا بسادات العرب وأشرافهم ، فقد نزل أربعة من تميم يريدون الشام عند غدير عند دير ، فأشرف الديرانى وألقى سمعه إلى حديثهم ثم قال :

— إن هذه لغة قوم ما هى أهل هذا البلد .

— نحن قوم من مضر .

— من أى المضاير ؟

— خندف .

— إن الله سيبعث فيكم نبيا وشيكا فسارعوا إليه وخذوا حظكم ترشدوا ، فإنه خاتم النبيين .

— ما اسمه ؟

— محمد .

ثم دخل ديره فما أحد منهم إلا زرع قوله فى قلبه ، فأضمر كل واحد منهم إن رزقه الله غلاما سماه محمدا .

نامت الفتنة التى كادت تنشب بين الأوس والخزرج واليهود وعاد الناس إلى دورهم ، لم يحفلوا بذلك التهديد الذى لا يفتأ اليهود يرددونه كلما شجر خلاف بينهم وبين العرب ، وعاد ثابت بن المنذر إلى داره فألفى ولديه حسان وفارعة قد خرجا ينظران وقد وقفا أمام باب الدار ، فحمل فارعة وأخذ حسان من يده ثم دلف إلى البيت .

كان ثابت بن المنذر الحكم الذى لجأت إليه الأوس والخزرج يوم أن قامت

حرب سُمَيْر ، وكان ثابت لا ينفك يروى أحداث تلك الحروب ويروى الأشعار التى قيلت فيها فقد كان يحفظها عن ظهر قلب ، وكان يجد لذة فى إعادة تلك القصة على أهل بيته ، فقبول الأوس والخزرج أن يكون حكما بينهما شرف عظيم ينبغى أن تتيه به الأسرة وتفخر .

وجلس حسان بن ثابت الفتى الذى لم يتجاوز السابعة يصغى إلى أبيه وهو يقول :

ــ قتل رجل فى السوق كان جارا لمالك بن العجلان ، فقيل لمالك قد قتله سُمَيْر ، فأرسل إلى بنى عوف بن عمرو بن مالك بن الأوسى ، إنكم قتلتم منا قتيلا فأرسلوا إلينا بقاتله ، فلما جاءهم رسول مالك تراموا به فقالت بنو زيد : إنما قتلته بنو جحجبى ، وقالت بنو جحجبى . إنما قتلته بنو زيد . ثم أرسلوا إلى مالك :

ــ إنه كان فى السوق التى قتل فيها صاحبكم أناس كثير ولا يُدرى أيهم قتَلَه . وأمر مالك أهل تلك السوق أن يتفرقوا فلم يبق فيها غير سُمَيْر والقتيل ، فأرسل مالك إلى بنى عمرو بن عوف بالذى بلغه من ذلك وقال : إنما قتله سُمير فأرسلوا به إلىَّ أقتله . فأرسلوا إليه ، إنه ليس لك أن تقتل سُمَيْر بغير بينة . وكثرت الرسل بينهم فى ذلك يسألهم مالك أن يعطوه سميرا ويأبون أن يعطوه إياه . ثم إن بنى عمرو بن عوف كرهوا أن يُنشبوا بينهم وبين مالك حربا ، فأرسلوا إليه يعرضون عليه الدية فقبلها ، فأرسلوا إليه أن صاحبكم حليف وليس لكم فيه إلا نصف الدية .

فغضب مالك وأبى أن يأخذ فيه إلا الدية كاملة أو يقتل سميرا ، فأبت بنو عمرو بن عوف أن يعطوه إلا دية الحليف وهى نصف الدية، ثم دعوه أن يحكم بينهم وبينه عمرو بن امرئ القيس أحد بنى الحارث بن الخزرج ففعل ،

فانطلقوا حتى جاءوه فى بنى الحارث بن الخزرج ، فقضى مالك بن العجلان أنه ليس له فى حليفه إلا دية الحليف ، وأبى مالك أن يرضى بذلك وآذن بنى عمرو بن عوف بالحرب واستنصر قبائل الخزرج ، فأبت بنو الحارث بن الخزرج أن تنصره غضبا حين رد قضاء عمرو بن امرئ القيس ، فقال مالك بن العجلان يذكر خذلان بنى الحارث بن الخزرج له وحدب بنى عمرو بن عوف على سُمَيْر ويحرض بنى النجار على نصرته :

إن سُمَيْــــــرا أرى عشيرتــــــــه
قــد حدبــوا دونــه وقــد ألفــوا
إن يكــن الظــن صادقــا ببنــى النجــ
ــار لا يَطعمــوا الــذى عُلِفــوا[١]
لا يسلمونـــا لمعسكـــر أبـــدا
مـــا دام منـــا ببـــطنها شرف
لكـــن موالـــىَّ قـــد بـــدا لهم
رأى سوَى مـــا لـــدىّ أو ضعفـــوا

وأرهف الفتى حسان أذنيه فهو على الرغم من حداثة سنه يحب الشعر ويسر به ، وراح أبوه ثابت بن المنذر يقول :

بين بنـــى جحجبـــى وبين بنـــى
زيـــد فأنَّـــى لجارى التلـــف
يمشون فى البـــيض والـــدروع كما
تمشى جمال مصاعب قطـــف

---

(١) أقروا بالضيم .

كما تمشى الأسود فى وهـــج الـــــ
ـمــوت إليـــه وكلهـــم كهِـــفُ

وقال درهم بن يزيد بن ضبيعة أخو سمير :

يـــا قـــوم لا تقتلـــوا سُميراً فـــإ
ن القتـــل فيـــه البـــوار والأسف

إن تقتلـــوه تـــرِنَّ نسوتكـــم(١)
على كـــريم ويفـــزع السَّلـــف

إنى لعَمــرُ الـــذى يحج لـــه الـــنسا
ئك ومـــــن دون بيتـــــه سرَف

يمين بـــــر بـــــالله مجتهد
يحلـــف إن كان ينفـــع الحَلِـــفِ

لا ترفـــع العبـــد فـــوق سُنته
مـــا دام منـــا ببـــطنها شرف

إنك لاق غـــدا غُـــواة بنـــى
عمـــى فانظـــر مـــا أنت مزدهـــف

فأبـــد سيمـــاك يعرفـــوك كما
يبـــدون سماهـــم فتعتـــرِف

وراح ثابت بن المنذر يروى الأشعار التى قالتها الأوس والخزرج فى النزاع الذى نشب بينهما بسبب قتل سمير حليف مالك ، وحسان يصغى وقدأعجب بالشعر وتمنى لو يصبح شاعرا كهؤلاء الفحول الذى يسعد بشعرهم .

---

(١) يرفعن أصواتهن بالبكاء .

وقال ثابت لابنه :

— ثم أرسل مالك بن العجلان إلى بنى عمرو بن عوف يؤذنهم بالحرب ويعدُهم يوما يلتقون فيه ، وأمر قومه فتهيئوا للحرب ، وتحاشد الحيان وجمع بعضهم لبعض ، وكانت يهود قد حالفت قبائل الأوس والخزرج إلا بنى قريظة وبنى النضير فإنهم لم يحالفوا أحدا منهم حتى كان هذا الجمع فأرسلت إليهم الأوس والخزرج كل يدعوهم لنفسه ، فأجابوا الأوس وحالفوهم والتى حالفت قريظة والنضير من الأوس أوس الله وهى خطمة وواقف وأمية ووائل ، فهذه قبائل أوس الله .

ثم زحف مالك بمن معه من الخزرج ، وزحفت الأوس بمن معها من حلفائها من قريظة والنضير ، فالتقوا بفضاء كان بين بئر سالم وقُباء وكان أول يوم التقوا فيه فاقتتلوا قتالا شديدا ، ثم انصرفوا وهم منتصفون جميعا ، ثم التقوا مرة أخرى عند أطم بنى قينقاع فاقتتلوا حتى حجز الليل بينهم ، وكان الظفر يومئذ للأوس على الخزرج ، فقال أبو قيس بن الأسلت فى ذلك :

لقد رأيت بنى عمرو فما وهنوا
عند اللقاء وما هموا بتكذيب
ألا فدى لهم أمى وما ولدت
غداة يمشون إرقال المصاعيب
بكل سَلهبة[1] كالأيم ماضية
وكل أبيض ماضى الحد محسوبِ

فلبث الأوس والخزرج متحاربين عشرين سنة فى أمر سُمير يتعاودون

(١) السلهبة من الخيل : الطويلة على وجه الأرض .

القتال فى تلك السنين ، فلما رأت الأوس طول الشر وأن مالكا لا ينزع قال لهم سويد بن صامت الأوسى وكان يقال له الكامل ، فقد كان شاعرا شجاعا كاتبا سابحا راميا : « يا قوم ارضوا هذا الرجل من حليفه ، ولا تقيموا على حرب إخوتكم فيقتل بعضكم بعضا ويطمع فيكم غيركم ، وإن حملتم على أنفسكم بعض الحَمل .

فأرسلت الأوس إلى مالك بن العجلان يدعونه إلى أن يحكم بينه وبينهم ثابت بن المنذر بن حَزام .

وصمت ثابت برهة وتهللت أسارير حسان بالفرح ، ثم قال ثابت :

ـــ فخرجوا حتى أتونى فقالوا : إنا قد حكمناك بيننا ، فقلت : لا حاجة لى فى ذلك .

فقال الفتى حسان :

ـــ ولم ؟

فابتسم ثابت وقال :

ـــ قلت لهم : أخاف أن تردوا حكمى كما رددتم حكم عمرو بن امرئ القيس . قالوا : فإنا لا نرد حكمك فاحكم بيننا . قلت لا أحكم بينكم حتى تعطونى موثقا وعهدا لترضون بحكمى وما قضيت به ولتسلمن له . فأعطونى على ذلك عهودهم ومواثيقهم .

ـــ وبماذا حكمت يا أبتاه ؟

ـــ حكمت بأن يُؤدى حليف مالك دية الصريح ، ثم تكون السنة فيهم بعده على ما كانت عليه : الصريح على ديته والحليف على ديته ، وأن تعد القتلى الذين أصاب بعضهم من بعض فى حربهم ثم يكون بعض ببعض ثم يعطوا الدية

لمن كان له فضل فى القتلى من الفريقين . فرضى بذلك مالك وسلَّمت الأوس وتفرقوا على أن على بنى النجار نصف دية جار مالك معونة لإخوتهم ، وعلى بنى عمرو بن عوف نصفها ، فرأت بنو عمرو بن عوف أنهم لم يُخرجوا إلا الذى كان عليهم ، ورأى مالك أنه قد أدرك ما كان يطلب ووِدِى جاره دية الصريح .

وانقضى النهار وحسان بن ثابت يردد الأشعار التى سمعها من أبيه ، وجاء الليل وتلألأت نجوم السماء وإذا بصوت جهورى ينادى فيتردد نداؤه فى جنبات يثرب :

ــ يا معشر يهود .. يا معشر يهود .

وفتحت الدور وخرج اليهود والعرب إلى حيث الصوت ، وخرج ثابت ابن المنذر وفى يده ابنه حسان وراحوا يهرولون مع المهرولين ، فإذا بيهودى يصرخ بأعلى صوته على أطمة :

ــ يا معشر يهود !

واجتمعوا إليه وقالوا له :

ــ ويك ! مالك ؟

ــ طلع الليلة نجم أحمد الذى ولد به .

ونظر حسان بن ثابت و لم يفقه شيئا ، وما دار بخلده فى تلك اللحظة أنه سيصبح شاعر ذلك الذى طلع الليلة نجمه . وعاد إلى الدار وصوت اليهودى يرن فى وجدانه :

ــ طلع الليلة نجم أحمد .

١٩

دار عبد الله بن عبد المطلب عند الصفا ، الدنيا ليل والقمر يوشك أن يكون بدرا ، واليوم الاثنين من ربيع الأول وقد مضى على يوم الفيل خمسون يوما ، فقد صار أهل مكة يؤرخون بعام الفيل بعد أن كانوا يؤرخون بموت كعب بن لؤى حكيم قريش وسيدها .

لم يكن فى الدار غير آمنة بنت وهب وجارية عبد الله الحبشية ، فقد شغلت هالة بنت وهيب بولدها حمزة بن عبد المطلب ، وإن ثويبة جارية أبى لهب كانت تمضى بعض الليالى فى دار عبد الله لتؤنس آمنة ولكنها فى هذه الليلة المباركة كانت تنام وفى حضنها حمزة ترضعه وتسهر عليه وتغنى به .

كانت الليلة هادئة خاشعة ، وكان نور القمر ينسكب فى غرفة آمنة رائعا لكأنما كان يدا حانية تمس الكون مسا رقيقا فتحرك مشاعر الرقة والحنان ، وملأت روح آمنة روائح أطيب من المسك لم تدر أكانت منبعثة من بخور حرقته جاريتها أم أنها آتية من فوق السموات ، وسرت فى الغرفة نسمات من الرحمة كان لها رفيف كأنه تسبيح الملائكة ، وبدا أن السماء توشك أن تتجلى على الأرض .

ورأت الجارية أن آمنة هادئة ساكنة وإن كانت تهم أن تضع ما فى بطنها فاستشعرت رهبة . إنها تخاف أن تتلقى وحدها ذلك الذى عما قريب يستقبل الدنيا بصراخه ، فانسلت من الدار وسرعان ما عادت ومعها الشفاء أم عبد الرحمن بن عوف ليستقبلا معا ذلك اليتيم الذى ستضعه آمنة .

ودنت الشفاء من الشباك ونظرت إلى السماء فخيل إليها أن القمر فى تلك الليلة كان أكثر إشراقا ورقة ولكأنما كان يتدلى ليكون معها فى الغرفة ، وأن النجوم كانت أكثر تألقا ولمعانا ، وألقت بصرها على دور بنى هاشم فألفتها خاشعة لا يدرى من فيها أن ابن عبد الله الحبيب قد حان أوان إقباله على الدنيا . وحانت منها التفاتة إلى الكعبة فخيل إليها أن القمر قد ألبسها حلة من مخمل أسود وأسلاك من فضة .

وطاف بآمنة نعاس فسمعت هاتفا يهتف بها أن تسميه محمدا ، وأفاقت من نعاسها فأحست كأنما ذلك الاسم قد حفر فى فؤادها ، وعجبت من نفسها فما كان اسم محمد من أسماء آباء عبد الله ، إنه اسم لم يعرف من قبل فى بنى زهرة ولا فى بنى هاشم بن عبد مناف بل ولا فى مكة كلها .

وفصل الوليد من آمنة واستقبلته الشفاء على يديها ، وراحت جارية عبد الله الحبشية تعاونها على غسله وإلباسه ثيابه وقد أشرق قلباهما بالنور والرحمة وراحا يرنوان إلى الوليد فى حب شديد ، فقد كان هادئا ساكنا لم يملأ الدنيا عويلا ، وقد تألق فى وجهه الصغير نور تهفو إليه الأفئدة وتتفتح له النفس .

وحمل الوليد ووضع إلى جوار آمنة فنظرت إليه بقلب خافق يتدفق منه الحنان فخيل إليها أن الوجود كله قد أشرق بالنور ، وفاضت مشاعر الحب فضمته إليها فى رقة ومالت عليه وقبلته قبلة فأحست كأنما قد قبلت الدنيا وأنها قد احتوتها بين ذراعيها ، وترقرقت فى مآقيها الدموع وطاف بذهنها طائف حرك الأسى فى وجدانها : إن ابنها الحبيب قد ولد يتيما . ليت عبد الله كان هنا الساعة ليسعد بابنه الحبيب ، وقبل أن تسترسل فى حزنها حانت منها التفاتة إلى محمد فإذا بإشراقة وجهه تبدد كل ما هم بأن يتلبد فى جوفها من حزن ، وإذا بها تتذكر ذلك الهاتف الذى هتف بها قائلا يوم أن حملت به : حملت بسيد

هذه الأمة ، وإذا بالنور يعود ليغمر قلب آمنة ووجه الأرض .

وتنفس الصبح و لم تستطع جارية عبد الله صبرا فانسلت من الدار لتطوف على دور بنى هاشم تحمل نبأ ولادة آمنة لوليد كأنه القمر ، لم تر مثله فى مواليد بنى عبد مناف وإن اشتهروا بالحسن والجمال .

واتجهت إلى دار عبد المطلب وطرقت الباب ، وبعد لحظة انفرج عن ثويبة جارية أبى لهب كانت هناك لترضع حمزة ، وما إن وقعت عينا جارية عبد الله الحبشية عليها حتى قالت :

— ولد لعبد الله ولد كأنه النور .

وذهبت الجارية إلى حيث كان عبد المطلب ، وراحت ثويبة تهرول إلى دار أبى لهب ، فقد أرادت أن تكون أول من يحمل البشرى السعيدة إلى سيدها فهى تعلم كم كان أبو لهب يحب عبد الله فتى قريش وذبيحها .

ودخلت جارية عبد الله على عبد المطلب وقالت فى نبرات تنبض بالفرح :

— قد ولد لك غلام فانظر إليه .

وخرج عبد المطلب يسعى إلى دار آمنة ، ودخلت ثويبة على أبى لهب وقالت :

— ولد لعبد الله غلام لم ير فى قريش مثله .

وفرح أبو لهب فإن كان أخوه قد ذهب ولن يئوب فقد جاء له ابن سيحفظ اسمه ويبقى عقبه ، وربا فرح أبى لهب حتى قال لثويبة :

— اذهبى فأنت حرة .

وتجلت أول بركة للوليد ولما يمض على مولده غير ساعات . دخلت ثويبة دار أبى لهب وهى جارية وخرجت منه وقد أصبحت حرة لكأنما كان ذلك إيذانا ببدء تحرير الإنسان من استعباد أخيه الإنسان .

ودخل عبد المطلب على آمنة والفرح يبدو فى وجهه ، وما أن ألقى عليها تحية الصباح وهنأها بالمولود حتى حملته وقدمته إلى جده ، فلما نظر إليه خفق قلبه فى رقة وحنان ، وسرعان ما احتلت صفحة ذهنه صورة عبد الله فراحت كنوز عواطفه تتدفق إلى صدره ، وفى لمح البصر طافت برأسه ذكريات حبيبة لا تنسى ، رأى عبد الله وهو يضرب عليه بالقداح عند هبل ورآه وهو يسير معه إلى دار بنى زهرة ليزوجه من آمنة ، ورآه يوم أن خرج إلى الشام يمتار تمرا ، ورأى الزبير يعود من يثرب لينعى إليه ابنه الحبيب ، وفطن إلى أن الله قد أبقى عبد الله يوم أن هم بأن يذبحه ليأتى بذلك المولود ثم يذهب دون أن يئوب .

إن الميلاد يذكر بالموت فهما طرفا حياة : بداية ونهاية ، فلما عاد عبد المطلب ينظر إلى حفيده تذكر ابنه قثم ، إنه مات فى التاسعة من عمره فلماذا لا يطلق اسمه على ابن عبد الله تخليدا لذكراه ؟ واستراح للفكرة فالتفت إلى آمنة وقال :

— نسميه قثما !

فقالت آمنة وقد تألقت عيناها بالفرح :

— إنى عندما حملت به سمعت هاتفا يهتف بى : إنك حملت بسيد هذه الأمة . وبينما كنت أضعه سمعت هاتفا يهتف بى : فإذا وقع إلى الأرض فسميه محمدا .

لم تكن آمنة أول من سمعت هاتفا يهتف بها يبشرها بسؤدد ابنها وسلطانه فقد أتى « عتبة بن عفيف » هاتف حين حملت بابنها « حاتم الطائى » فقال لها : « أغلام سمح يقال له حاتم أحب إليك أم عشرة غلمة كالناس ؟ » فأجابت : « بل حاتم » . وإن عبد المطلب قد سمع عن الهواتف التى تأتى

للنسوة وهن فى أشهر حملهن يبشرنهن بالمجد المنتظر للأجنة فى أرحامهن ، فقبل ما قالته آمنة عن رضى و لم يجد شيئا غريبا فى أن يسود محمد بن عبد الله قومه ، فلو لم يخطف الموت عبد الله لساد قومه كما سادهم أبوه عبد المطلب وجده هاشم من قبل . ترى أيبلغ محمد فى قومه ما بلغ كعب بن لؤى فى قريش ؟

وتذكر عبد المطلب ما بشره به كاهن اليمن . وما قالته سودة بنت زهرة كاهنة قريش لآمنة ، فأحس إحساسا غامضا أن سيكون لحفيده الذى بين يديه شأن لم يبلغه حتى كعب بن لؤى .

وأخذه أبوه عبد المطلب وانطلق إلى الكعبة فأدخله على هبل ، فقام عبد المطلب يدعو ويشكر الله ويقول :

الحمد لله الذى أعطانى	هذا الغلام الطيب الأردان
قد ساد فى المهد على الغلمان	أعيذه بالبيت ذى الأركان
حتى يكون بلغة الفتيان	حتى أراه بالغ البنيان
أعيذه من كل ذى شنآن	من حاسد مضطرب العنان

وسمع عبد المطلب مناديا ينادى :

ـــ يا معشر قريش .. يا معشر قريش .

فخرج من جوف الكعبة ينظر فإذا بيوسف اليهودى ينادى :

ـــ يا معشر قريش .. قد ولد نبى هذه الأمة هذه الليلة بحرتكم (ناحيتكم) .

وعاد عبد المطلب إلى دار آمنة وهو يضم الوليد إلى صدره كأنما يمنع عنه أذى الناس ووضعه فى حضن أمه ، وسرعان ما ملئت الدار بنساء بنى زهرة

وبنى هاشم للاحتفال بالمولود . وجاء الزبير وأبو طالب وإخوة عبد الله تتهلل أفئدتهم بالفرح لمولد ابن أخيهم الراحل الحبيب .

وجلس عبد المطلب على فراشه فى ظل الكعبة ، وجاء يوسف اليهودى يسعى وجعل يطوف فى أندية قريش يسأل عن مولود ولد الليلة فلا يجد خبرا ، حتى انتهى إلى مجلس عبد المطلب فسأل :

ــ هل ولد فيكم مولود الليلة ؟

ــ ولد لعبد الله بن عبد المطلب غلام .

ــ هو نبى والتوراة .

وفى مجلس من مجالس قريش قال يهودى ممن كانوا يتجرون فى مكة .

ــ يا معشر قريش هل ولد فيكم الليلة مولود ؟

ــ والله ما نعلمه .

ــ أما إذا أخطأكم فلا بأس فانظروا واحفظوا ما أقول لكم : ولد فى هذه الليلة نبى هذه الأمة الأخيرة ، بين كتفيه علامة فيها شعيرات متواترات كأنهن عرف فرس ، لا يرضع ليلتين .

فتصدع القوم من مجلسهم وهم يتعجبون من قوله ، فلما صاروا إلى منازلهم أخبر كل إنسان منهم أهله فقالوا :

ــ قد والله ولد لعبد الله بن عبد المطلب غلام .

فالتقى القوم فقالوا :

ــ هل سمعتم حديث اليهودى وهل بلغكم مولد هذا الغلام ؟

فانطلقوا حتى جاءوا اليهودى وقالوا : ولد لعبد الله بن المطلب غلام .

فقال اليهودى :

ــ فاذهبوا معى حتى أنظر إليه .

فخرجوا به حتى أدخلوه على آمنة فقالوا :

ــ أخرجى إلينا ابنك .

فأخرجته وكشفوا له ظهره فرأى تلك الشامة فوقع اليهودى مغشيا عليه ، فلما أفاق قالوا له :

ــ مالك ويلك ؟

ــ قد ذهبت والله النبوة من بنى إسرائيل فرحتم بها يا معشر قريش ، والله ليسطون بكم سطوة يخرج خبرها من المشرق والمغرب .

٢٠

دعا زرادشت إلى عبادة إلـٰه واحد لا شريك له ، إلـٰه النور أهورا مزدا ، وقد تمكن الفرس بفضل ذلك الدين أن يسطوا سلطانهم على الممالك من حولهم ، حتى كان عهد كسرى أنو شروان أعظم ملوك الساسانيين ، فقد بدا فى ذلك العصر أن الفرس بلغت مجدها بينا كانت الحقيقة أن عوامل الهدم راحت تعمل عملها فى البنيان الشامخ وأن دولة الفرس قد شهرت الخنجر لتطعن به قلبها ، فالدول تنتحر عادة بيدها قبل أن يغتالها قاتل يغزوها : « وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا » .

وظل الفرس يعبدون الله ، فلما طال عليهم الأمد قست قلوبهم وراحوا ينقبون عن دياناتهم الوثنية القديمة ويمزجونها بما جاءهم به زرادشت ، فوجدوا أنهم كانوا يعبدون مثرا ذلك الإلـٰه الذى عرفه البابليون بشَمَس ، فقالوا كيف نرفض عبادة الشمس التى تضيء بنورها الكون كله ، والتى تنضج بحرارتها غذاء الناس والحيوان ؟ فجعلوا مثرا ابن الإلـٰه أهورا مزدا وراحوا يؤكدون تلك الصورة فى نقوشهم فجعلوا ملوكهم يتسلمون ولاية الملك من يد أهورا مزدا ، ويقف مثرا بإكليله الذى يشع منه النور خلف الملك .

وأصبح مثرا ابن أهورا مزدا وصار ينقش على أعمدة المعابد ومن حوله التاج النورانى وعربة الشمس يجرها جوادان مجنحان ، وفُتِح باب الأساطير على مصراعيه فراح رجال الدين والكهان وأصحاب المصالح يدونون فى

« الأوستا » كتاب زرادشت المقدس ما يشاءون . فطرأ على الأوستا ما طرأ على التوراة يوم أن أعاد أحبار اليهود كتابة التوراة فى أرض السبى بعد أن حملهم بختنصر إلى بابل وحرق التوراة وقوض الهيكل .

كان زرادشت يخاطب إلٰهه ويدعوه باسم أهورا مزدا إلٰه النور ، فلما أراد عبَّاد أهورا مزدا أن يجسموا إلٰههم ويجعلوا الله رمزا لم يجدوا غير النار يرمزون بها إليه ، فجعلوا للبيت نارا وللقبيلة نارا وللقرية نارا (آذران) ولكل كور أو إقليم نارا (وهران) ، ورتب لتلك النيران خدَّام فكان رب البيت هو خادم نار البيت ، وكان يخدم نار القرية اثنان من الهرابذة على الأقل ، وكانت نار (وهران) تتطلب هيئة من الهرابذة أكثر عددا يرأسها موبذ .

وبعد أن كانت النار رمزا لأهورا مزدا أصبحت مقدسة لذاتها ، وكان لا بد من فلسفة فكرة عبادتها وتقسيمها إلى نيران تسرى فى كل شيء ، فقيل إن « هوفريانة » هى النار التى توجد فى جسم الإنسان والحيوان ، و « أوروازيسته » هى النار التى توجد فى النباتات ، و « زيستا » هى النار الكائنة فى السحاب أى الصاعقة ، و « اسنبيشته » هى النار التى تشعل أهورا مزدا فى الجنة ، وجعل المجد (خورانة) الذى يصاحب الملوك الشرعيين الآريين تجليا لهذه النار الأخيرة النار السماوية .

وروت الأساطير أن أصل هذه النيران كان نيرانا ثلاثا : نار رجال الدين ونار رجال الحرب ونار الزراع . وقد كانت هذه النيران على ظهر ثور ركبه جماعة من الرجال ليصلوا إلى ستة أقاليم لم يكن فى طاقة البشر بلوغها ، وفى ذات ليلة هبت الرياح فأسقطت النيران الثلاث عن ظهر الثور فى وسط المحيط ، ولكن النيران نبتت من جديد على ظهر الثور فأضاءت الدنيا .

وقد بنى لهذه النيران ثلاثة معابد : نار فربغ ومعبدها فوق جبل خور همند

فى خوارزم ؛ وآزر كشنسب ومعبدها فى آزربيجان وهى النار الملكية ، وكان الملوك الساسانيون يحجون إلى هذا البيت العظيم حين الأزمات ، وكانوا يهبونه هبات سخية من الذهب والأموال والأراضى والعبيد ، وكان الملك إذا ملك زاره ماشيا تعظيما له ؛ وكان معبد آذر برزين مهر معبد نار الزراع قائما فى شرقى الدولة فى جبال رِيوَند شمال شرقى نيسابور .

وما دام دين زرادشت قد بذل وفاض بالأساطير فكان لا بد من خلق أسطورة توضح بدء الخليقة ، وكان الأمر ميسورا بعد أن عرفت الفلسفة الهندية طريقها إلى فارس فقيل : إن دورة الدنيا تستمر اثنى عشر ألف سنة ، ففى أثناء ثلاثة الآلاف سنة الأولى يبقى العالمان : عالم أهورا مزدا عالم النور ، وعالم أرهيمن عالم الظلمات متجاورين فى هدوء ، والعالمان لا متناهيان من جوانب ثلاثة ، ولكن كلا منهما يحد الآخر فى الجانب الرابع ، فعالم النور فى الجانب الأعلى ، وعالم الظلمات فى الجانب الأسفل ، وبينهما فراغ مملوء بالهواء .

وفى مدة ثلاثة آلاف سنة يعيش خلق أهورا مزدا بالقوة ، وبعد ذلك يرى أهرمن النور ويضمر إبادته ، فيبادر أهورا مزدا الذى يعلم الغيب بأن يعرض عليه حقبة من الحرب طولها تسعة آلاف سنة فيقبل أهرمن وهو لا يعرف غير الماضى ، وبعد ذلك ينبئه أهورا مزدا بأن المعركة تنتهى بهزيمة عالم الظلمات ، ويفزع أهرمن هذا فيسقط فى الظلمات ويبقى فيها مشلولا مدة ثلاثة آلاف سنة ، فيبدأ أهورا مزدا بخلق الدنيا ، فلما أتمها خلق الثور المعروف بالثور الأول ، ثم خلق الإنسان الأول كيومرد (أى الحياة الفانية) الذى هو أول البشر . وحينئذ ألقى أهرمن بقوته ضد خلق أهورا مزدا فنجس العناصر وخلق طوائف من الزواحف والحشرات ، فأقام أهورا مزدا خندقا أمام

السماء ولكن أهرمن يكرر هجماته وينجح أخيرا فى قتل الثور وكيومرد .
وكانت بذور كيومرد مخبأة فى الأرض فنتج منها عند انقضاء أربعين سنة شجرة خرج منها أول زوجين من البشر هما « مشيج » و « مشيانج » ، وهكذا بدأت فترة اختلاط الخير بالشر ، وأخذ البشر يلعبون دورا فى الحرب بين مملكتى النور والظلمة وذلك بانضمامهم حسب أعمالهم إلى جانب الخير أو إلى جانب الشر ، فمن اتبع الصراط المستقيم منهم كان يمر سالما بعد الموت على الصراط المسمى « جينوت » ثم يدخل الجنة ، ولكن حينما يمر على ذلك الصراط أحد الأشرار ثم يدق حتى يصير كالسيف القاطع فيهوى المجرم إلى جهنم حيث يلقى من العذاب ما يعادل سيئاته ، أما من تعادلت موازينه فكانت حسناته مساوية لذنوبه فإنه يقيم فى « الهمشتكان » أى المكان المتوسط حيث لا عقاب ولا ثواب .

وبعد ثلاثة آلاف سنة من خلق العالم يظهر زرادشت فيهدى الناس إلى الدين الحق . وحينئذ لا يبقى للعالم فى الوجود غير ثلاثة آلاف سنة . ففى نهاية كل ألف يظهر مخلص يولد بطبيعة الحال من بذور زرادشت المخبأة فى إحدى البحيرات ، وفى اللحظة التى يولد فيها آخر المخلصين الثلاثة المخلص الحقيقى تبدأ المعركة الأخيرة ، فيبعث الأبطال والتنانين الشيطانية التى ذكرها التاريخ الخرافى لكى يتقاتلوا ، وأخيرا يبعث الموتى جميعا ، ويقع النجم المذنب على الأرض فتشتعل وتذيب جميع المعادن فتنتشر على الأرض كأنها سيل ملتهب .

وعلى الناس جميعا الأحياء والأموات المبعوثين أن يعبروا ذلك السيل الذى يكون للأتقياء كاللبن الساخن فيطهرهم المرور به ويمضون منه إلى الجنة ، وبعد المعركة الأخيرة بين الآلهة والشياطين تلك المعركة التى تنتهى بهزيمة

الشياطين وهلاكهم يسقط الشر إلى الأبد فى الظلمات ، وتمتد الأرض وتبسط ، وتبقى الدنيا المطهرة إلى الأبد فى سكون لا يعكر صفوه .

وكان ذلك يعرف فى « الأوستا » بالتصفية والتجديد ، وقد سر أنو شروان فى أعماقه بذلك الدين فراح يبحث عن الراحة النفسية فى الفلسفة وإن أظهر تدينه لسواد شعبه ، فقد قام طبيبه برزويه بترجمة كتاب « كليلة ودمنة » وهو نص بهلوى لمجموعة من القصص وكان قد أتى بالأصل الهندى أثناء رحلته له إلى بلاد الهند .

وكتب برزويه مقدمة للكتاب بيّن فيها الحياة الإنسانية والأوضاع الاجتماعية فى عصره ، وكشف عن روح قلق يبحث عن الحقيقة فلا يجدها لكأنما كان برزويه يعكس قلق أهل عصره ، قال :

وقد وجدت آراء الناس مختلفة وآراءهم متباينة ، وكل على كل عاد وله عدو مغتاب وفيه واقع ، فلما رأيت ذلك لم أجد فى متابعة أحد منهم سبيلا ، وعرفت أنى إن صدقت أحدا منهم لا علم لى بحاله كنت فى ذلك كالمصدق المخدوع ... فلما تحرزت من تصديق ما لا يكون ولم آمن إن صدقته أن يوقعنى فى تهلكة عدت إلى البحث عن الأديان والتماس العدل منها ، فلم أجد عند أحد ممن كلمته جوابا فيما سألته عنه فيها ، ولم أر فيما كلمونى به شيئا يحق لى فى عقلى أن أصدق به ولا أن أتبعه ، فقلت لما لم أجد ثقة آخذ منه فالرأى أن ألزم دين آبائى وأجدادى الذى وجدتهم عليه وهممت بذلك .

ثم التمست لنفسى مخرجا فقلت : إن كان ما يفعل هذا معذورا ... فلما ذهبت ألتمس لنفسى فى لزوم دين الآباء والأجداد ، ولم أجد لها على الثبوت على دين الآباء طاقة ، بل وجدتها تريد أن تتفرغ للبحث عن الأديان والمسألة عنها والنظر فيها ، هجس فى قلبى وخطر على بالى قرب الأجل وسرعة انقطاع

الدنيا واغتباط أهلها وتخرم الدهر حياتهم . فلما خفت من التردد رأيت أن لا أتعرض له ولا لما أتخوف منه المكروه واقتصرت على كل شيء تشهد به العقول ويتفق عليه أهل الأديان ويُرى أنه صواب وحق ..

كان النسك ينافى دين زرادشت ولكن العدوى انتقلت إلى برزويه من النصارى والمانوية والمزدكية ، فالتزم النسك وظل كسرى أنو شروان فى قلقه وشكه وبحثه عن الحقيقة عن طريق الفلسفة . بينا كان رجال الدين فى معبد النار يرتلون الأدعية المقررة للأوقات الخمسة المحددة فى النهار ، ويقومون بكل أعمال المذهب .

ووقف الهرابذة فى المعبد وقد أخفوا أفواههم بأربطة لكيلا تلوث أنفاسهم النار ، يغذون النار بقطع من الخشب طهرت تطهيرا دينيا ، وهم يرتلون الأدعية الدينية ، ثم أخذ الهرابذة فى نثر الهوما التى سبق أن دقوها فى أهوان وهم يتلون عليها بعض آى الأوستا ، وارتفعت أصوات المؤمنين بدعاء مجد النار ، وسار الموبذان خادم النار الأكبر فى قاعات المعبد المظلمة والنار مشتعلة فوق المذابح والأهوان تتألق والهرابذة يتلون الأوراد التى لا تنقطع بصوت مرتفع ولحن جميل حينا وبصوت منخفض إلى حد التمتمة حينا آخر ، فأحس الموبذان راحة وتهللت نفسه بالفرح .

وجاء المساء وذهب الموبذان لينام وهو هادئ النفس مستريح الضمير وما مس الكرى عينيه حتى رأى فيما يرى النائم فرسا عربية هجمت على جمل شرس ، وثار النقع ودارت بين الفرس والجمل معركة رهيبة انتهت بأن صرعت الفرس الجمل .

وقام الموبذان من نومه مفزوعا وطلب من يفسر له حلمه، فجاء رجل ممن يقرءون الطالع ويفسر الأحلام فقص عليه الموبذان حلمه ، فراح الرجل ينظر إلى النار

المقدسة ثم قال :

— إن صدقت رؤياك فإن العرب يغزون فارس .

وساد القاعة وجوم ، ترى أأوشكت نبوءة ساسان أن تتحقق ؟ أن ينتزع العرب الملك من الساسانيين ؟ هل أظلّ العالم ذلك النبى العربى الـذى أوصاهم زرادشت بأن يستمسكوا بما جاءهم به حتى يبعث صاحب الجمل الأحمر ؟ فى تلك الليلة كان يهودى فى يثرب يقف على أطمة ويصيح : « طلع نجم أحمد » ، وكان يوسف اليهودى ينادى فى مكة : يا معشر قريش . قد ولد نبى هذه الأمة هذه الليلة فى بحرتكم .

٢١

نشبت الغيرة بين روما عاصمة الدولة الرومانية القديمة ، والقسطنطينية عاصمة الدولة الرومانية الشرقية ، فروما فى أيام الرسل كانت أفضل الأماكن لتكون العاصمة الدينية للدولة ، فبطرس أمير الرسل ختم حياته أسقفا لروما ، فلما فقدت روما مركزها السياسى و لم تعد عاصمة العالم بعد أن بنى قسطنطين القسطنطينية واتخذها قصبة إمبراطوريته الجديدة ، تشبثت روما بمركزها الدينى وعضت كنيستها بالنواجذ على انتسابها إلى بطرس الرسول وتمسكت بمقامها السامى .

وكانت كنيسة روما تبغض كنيسة القسطنطينية كل البغض ، وكان التنافس بينها وبين غريمتها أشبه بالتنافس بين الرومان والفرس ، لكأنما أصبحت الخدمة الدينية تنافسا على مغانم دنيوية حتى إن كنيسة روما كرهت كل الكراهية أن تصبح كنيسة القسطنطينية فى المقام الثانى بعدها !.

كانت القسطنطينية تقول إنها روما الجديدة ومن حق كنيستها أن تكون الكنيسة التالية لكنيسة روما ، ولكن كنيسة روما قالت إن كنيسة الإسكندرية هى الكنيسة الثانية بعدها لأن مؤسسها مرقص الرسول ، وروما لا تعترف إلا بالكنائس التى أسسها الرسل .

وزاد مرارة الموقف وانقسام العالم المسيحى الخلاف الذى شجر بين الإسكندرية والقسطنطينية حول طبيعة المسيح والتجاء كل منهما إلى روما لالتماس التأييد، وأحست روما خطرها فظلت مستمسكة بأن رأيها ووجهة نظرها ينبغى أن يسود دون مناقشة، على حين أن القسطنطينية كانت تقبل ما تذيعه روما إن أقره مجلس

مسكونى ، بينما كانت الإسكندرية تؤثر أن تنفصل عن كنيسة روما وأن تعارض بعض ما يتقرر فى المجالس المسكونية عن أن تتخلى عن لاهوتها .

لم يعش الإسلام الذى جاء به السيد المسيح على الأرض طويلا فقد كان من سوء حظ الدين الجديد أن احتل بولس مقعد السيد المسيح فغمر الدين بالفلسفة الرواقية وأساطير الوثنيين ، وكان من سوء حظه أن اعتنق قسطنطين الوثنى دين بولس فابتدع بدعة المجالس المسكونية التى كان لها حق التشريع الدينى ، وقد كانت تلك المجالس تخضع لهوى الأباطرة فكانت تحرم فى بعضها بعض ما كانت قد أحلته من قبل وتحلل ما كانت قد حرمته . وكانت المجالس المسكونية السبعة تعد هى والكتب المقدسة التى سلمت من يد قسطنطين أساسا للعقيدة الأرثوذكسية .

اجتمع كل مجلس من تلك المجالس للبت فى نقطة خاصة من نقط اللاهوت ولإصدار حكمه ضد زندقة معينة ، وقد انتصرت النصرانية على الوثنية وهى تخوض إحدى حروبها الأهلية يوم كان أتباع آريوس يحاولون بإنكارهم الألوهية التامة للمسيح أن يؤسسوا فكرة عن الربوبية تنطوى على قدر أكبر من التوحيد .

وأصدر أول مجمع مسكونى وهو مجمع نيقيه قرارا باستنزال اللعنة عليهم ، ولكن الذى حدث هو أن مذهب آريوس ظل طول القرن الرابع بأكمله يستمتع بمحبة الدوائر الراقية بالقسطنطينية ، و لم يقض على ذلك المذهب ببلاد الشرق إلا بعد انعقاد المجمع المسكونى الثانى فى سنة ٣٨١ ، أما فى الغرب فإن هذا المذهب عاش قرونا عقيدة يؤمن به القوط .

وظلت الإسكندرية طوال القرن الخامس وهى تحاول أن تتابع نصرها بإرغام المسيحية على الأخذ باللون الخاص الذى اتخذته للاهوتها ، وقد سنحت

فرصتها المواتية عندما ذهب نسطوريوس بطريرك القسطنطينية إلى تقسيم طبيعة المسيح إلى شقين : لاهوتى وناسوتى .

وكره الناس هذه الحركة لأنها تهاجم مكانة مريم البتول نصيرة القسطنطينية وراعيتها المحبوبة التى كانت مهددة بسبب ذلك إلى حرمانها من لقبها : أم الرب ، فاتحدت روما والإسكندرية لمناهضة هذا المذهب الجديد .

واجتمع المجلس المسكونى الثالث فى أفيسوس وأصدر قراره ضد ذلك المذهب بفضل قوة شخصية بطريرك الإسكندرية كيرلس ، وعقب ذلك المجمع انسحبت بعض كنائس شمال سورية وأسست هيئات مستقلة تحت حماية الفرس .

وقضت الإسكندرية على نفسها بفرط مبالغتها ، فقد راح بطريقها ديوسقوروس يغوص وراء نظرية (بوتيخوس) عن المسيح ، وهى النظرية الداعية إلى وحدة طبيعة المسيح ، ولم توافق روما على الفكرة وآثر البلاط الإمبراطورى أن يتمشى مع مزاج روما . ونعى المجلس المسكونى بخلقيدونية على ديوسقوروس آراءه ، وعندئذ أصبح أصحاب مذهب وحدة طبيعة المسيح هراطقة وصاروا موضع اضطهاد الأباطرة ورجال الدين فى روما والقسطنطينية .

وكانت المسائل اللاهوتية المختلف عليها فى الخصومات المتعلقة بوحدة طبيعة المسيح صغيرة نسبيا ، فقد كانت تدور حول الفرق بين طبيعة واحدة وطبيعتين لا يمكن الفصل بينهما . ولكن النتائج السياسية كانت هائلة ذلك أن مذهب وحدة طبيعة المسيح ظل مشكلة متسلطة على تاريخ الإمبراطورية زهاء قرنين من الزمان . وفى المجمع المسكونى الخامس المنعقد فى القسطنطينية فى سنة ٥٥٣ اعترف يوسطنيانوس بإخفاقه فى نشر ميثاق يوفق بين الطرفين

المتنازعين .

وكان نبذ أى قانون يصدر عن المجالس العامة للكنيسة يعتبر زندقة ومروقا من الدين ، ذلك أن القوم كانوا يرون أن أى مجلس مسكونى هو الهيئة الملهمة التى تعد قراراتها ملزمة لعالم المسيحية . وقد كان كل مذهب يعرض على المجالس المسكونية يجد له مؤيدين وأنصارا ، وقد كان هؤلاء يظلون على مذهبهم حتى بعد رفض المجالس لذلك المذهب ، وكانت النتيجة الطبيعية انشقاق العالم المسيحى إلى فرق متنافرة يكفر بعضها بعضا .

فتح بولس أبواب الخلاف على مصاريعها منذ أن ادعى أنه رسول السيد المسيح إلى أتباعه المؤمنين . ولم تعرف المسيحية الاستقرار لحظة واحدة بعد أن تطورت من دين سمح بسيط ، دين سماوى يدعو إلى الإسلام وعبادة الله وحده ككل الديانات السماوية من قبله إلى دين مزج بالفلسفة وأحيا الوثنيات وأصبح ميدانا لأهواء البشر يقررون فى مجامعهم ما يشاء الأباطرة وأصحاب النفوذ ، ويضاهئون قول الذين من قبلهم فصارت تعاليم السماء تنسخ وتحرف وتبدل ، وأصبح الإلـٰه الواحد القهار هو المسيح ابن مريم مرة « لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم » وأصبح الأب والمسيح الابن مرة أخرى « وقالوا اتخذ الرحمن ولدا . لقد جئتم شيئا إدًّا . تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدًّا . أن دعوا للرحمن ولدا . وما ينبغى للرحمن أن يتخذ ولدا . إن كل من فى السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبدا » .
وأصبح مرة ثالثة ثالث ثلاثة « لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة ، وما من إلـٰه إلا إلـٰه واحد ، وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم . أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه ، والله غفور رحيم . ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام ، انظر

كيف نبين لهم الآيات ثم انظر أنى يؤفكون » .

وكان المسيحيون يرقبون ظهور الفراقليط الذى بشر به المسيح ، وقد زعم بعضهم أنهم ذلك النبى الذى بشر به عيسى ابن مريم ، ولم يجد هؤلاء أذنا واعية فلم يكونوا من أبناء أعمام موسى كما بشرت التوراة ، وزعم مانى فى فارس أنه « الفراقليط » ولكن الزرادشتيين المؤمنين كذبوه وقالوا إن زرادشت قد بشر بنبى يأتى من بلاد العرب .

وراح بعض الرهبان يعتزلون العالم فى صوامعهم انتظارا لمجىء « الفراقليط » ، وكانوا إذا ما خرجوا من صوامعهم يحدثون الناس عن النبى المنتظر الذى بشر به موسى وعيسى والأنبياء جميعا .

إنه لا يتكلم من نفسه بل يتكلم بما يسمع « لا ينطق عن الهوى . إن هو إلا وحى يوحى . علّمه شديد القوى . » وسيمكث مع الناس إلى الأبد . « يأهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيرا مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفو عن كثير. قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين » .

كان الأساقفة والقديسون يقومون بالشعائر الدينية ، وفى نفس الوقت يرعون النجوم ويفسرون الأحلام ويعقدون الجلسات التى يتخذون فيها من الراهبات وسيطات ، وكانت النيازك والكسوف تدلهم على الكوارث والملمات ، وكان رجال منهم يقومون بالتنجيم وقراءة المستقبل .

وكانت قاعة العرش فى القصر القيصرى بالقسطنطينية تستقبل المنجمين وقراء المستقبل والناظرين فى النجوم . وفى ذات يوم جاء العرافون وقد أطرقوا برءوسهم ولاح فى وجوههم الهم الشديد ، فقال لهم الإمبراطور :

— ما وراءكم ؟

فلزموا الصمت فقال القيصر :

ـــ قولوا .

ـــ ولنا الأمان ؟

ـــ ولكم الأمان .

فقال قائل منهم :

ـــ إن الإمبراطورية سيدمرها شعب مختون[١] .

وساد القاعة وجوم ، ولم يدر بخلد أحد أن نهاية الإمبراطورية الرومانية ستكون على يد العرب ، فقد كان العرب فى ذلك اليوم الذى ولد فيه الهدى أهون من أن يفكر الأباطرة فيهم . فذهبت الأفكار إلى اليهود فراح قياصرة الروم يضطهدونهم ويسومونهم من العذاب ألوانا . بينا كان محمد بن عبد الله « الفراقليط » الذى بشر به عيسى بين أحضان آمنة بنت وهب فى دور بنى هاشم التى تطل من فوق الصفا على الكعبة ..

(١) انظر فريد جاريوس فى .M.P.L مج ٧١ ص ٦٤٦ .

٢٢

وحزنت آمنة على عبد الله حزنا كاد يودى بها إلى البوار ، فقد أحبت فتى بنى هاشم وراحت تحلم بمستقبل بسام يجمع بينها وبينه ، وما كادت تستهل حياة الزوجية السعيدة ، حتى اختطفه الموت وهلك فى أرض غريبة دون أن تراه .

إنها استسلمت للأسى والدموع ولولا ذلك الذى كان يتحرك فى بطنها لرفضت الحياة ، فقد كانت ترى رحلة الحياة طويلة مملة ممضة دون رجلها الذى شغفت به حبا .

كانت لياليها فراغا ونهارها آلاما ، ولولا الرؤى العذاب التى كانت تطوف بها تخفف من لوعتها ولولا الهواتف التى كانت تهتف بها تبشرها بمستقبل عظيم لابن عبد الله لانفطرت كبدها وتصدع فؤادها وفتك بها حزنها وطويت أيامها القصيرة فى الأرض .

لم تحس آمنة مشقة طوال شهور الحمل ، ولم تحس مشقة حين وضعته . ترى أكانت ذاهلة بآلام النفس التى كانت تفوق آلام الجسد ؟ إنها لم تغب عن وعيها لحظة واحدة . كان أنفها يشم روائح أطيب من الطيب ، وكانت عيناها تريان نورا لكأنه كان آتيا من فوق السموات ، ولما وضعته رأت نورا يخرج منها قد فاض حتى خيل إليها أنه غمر كل الأرض .

لم تكن تحلم بل كانت مرهفة الحس صاحية الحواس وإن كان واقعها أقرب إلى الرؤى والتخيلات ، حتى إنها كادت تعتقد أن ما هى فيه إن هو إلا سبحة

من سبحات الخيال ، وكانت الشفاء أم عبد الرحمن بن عوف وبركة جارية عبد الله الحبشية تحدثانها فى دهشة عما تريان وعما تحسان ، إنهما تريان نفس ما ترى ، وتحسان نفس ما تحس .

ونظرت آمنة إلى وليدها فى حب شديد وهى تحاول أن تلقمه ثديها ، ولكن الوليد أقفل فمه فانتابها خوف على حبيبها ، ودار بخلدها أنه لم يرضع لجفاف لبنها فقد أثر حزنها على عبد الله على كل كيانها . وبعثت بركة تستدعى ثويبة موضعة حمزة بن عبد المطلب ، فلما جاءت ثويبة التمست منها أن ترضع محمدا فأخذته لترضعه ، ولكنه لم يلتقم ثديها فاشتد جزع آمنة وربا خوفها .

ومضى أول يوم من مولده دون أن يرضع ، وانقضت ليلته الأولى وهو شاخص ببصره إلى القمر كأنه يناجيه دون أن يدخل جوفه شيء ، وباتت آمنة إلى جواره وهى تبذل كل ما وسعها الجهد لترضعه دون جدوى . وغفت آمنة عفوة وبركة إلى جواره وترنو إلى وجهه الجميل فتستشعر كأن كنوزا من الحب تفجرت فى وجدانها .

وذاع فى دور بنى هاشم أن ابن عبد الله مرض وأنه لم يرضع مذ وقع على الأرض ، فجاء بعض نسوة بنى هاشم إلى آمنة وراحت كل منهم تصف دواء ، وانقضى اليوم الثانى كما انقضى اليوم الأول : إعراض من محمد عن الرضاعة وشخوص ببصره إلى السماء ، وقلق وخوف وهلع يستولى على الأم التى كانت تشفق على ابنها اليتيم فباتت تخاف عليه أن يلحقه البوار .

وتصرمت الليلة الثانية وآمنة ساهرة إلى جوار ابنها لم تغمض لها عين . إنه ينظر إلى القمر كأنه يناجيه . كان مفتوح العينين لم يبد فى وجهه الذبول بل تترقرق الحياة فى محياه وإن لم يعرف الغذاء طريقه إلى جوفه ، لكأنما كان منذ مولده يفضل غذاء الروح على غذاء الجسد ويقدم ضرورة النفس على ضرورة

البدن .

وترقرقت الدموع شفقة فى عينى آمنة . أيعيش ابنها يومين دون أن يطعم ؟ دون أن يدخل جوفه شىء ؟ وحاولت أن تلقمه ثديها إلا أنه زم شفتيه . وفى الصباح جاءت ثويبة وما إن أعطته ثديها حتى أخذه وراح يرضع ، فتهللت أسارير آمنة بالسرور وانشرح صدرها وطفرت إلى مآقيها العبرات .

وذاع فى دور بنى هاشم أن ابن عبد الله قد برأ مما ألم به . فجاءت هالة بنت وهيب وهى تحمل ابنها حمزة ، وجاء بعض نسوة بنى هاشم لزيارة آمنة ، وما كاد يستقر بهن المقام حتى أقبل عبد المطلب وفى يده ابنه العباس وكان ابن ثلاثة أعوام ليرى حفيده .

وحملت بركة محمدا وجاءت به إلى العباس لينظر إليه فجعل النسوة يقلن للعباس :

ـــ قبل أخاك .. قبل أخاك .

فمال العباس على ابن أخيه وقبله ، وعبد المطلب ينظر وقد انبعثت فيه عواطف رقيقة حانية . وأعادت بركة محمدا إلى فراشه ، وبعد قليل أنامت هالة ابنها حمزة بن عبد المطلب إلى جواره ، وانسل العباس لينظر إلى أخيه وابن أخيه وما خطر على قلب أحد من الذين أخذوا بأطراف الحديث أن فى فراش الوليد وعلى جواشيه اجتمع مجد الأرض ومجد السماء .

وجاء اليوم السابع من مولده فذبح عبد المطلب عنه وأقام وليمة دعا إليها قريشا ودبت الحياة فى شعب بنى هاشم ، كان الحارث والزبير وأبو طالب وأبناء المطلب فرحين مستبشرين . وكان العباس يغدو ويروح بين إخوته ثم استقر فى حجر أبيه ، وانتهى الناس من الطعام والشراب والتفت أحدهم إلى عبد المطلب وقال :

— يا عبد المطلب أرأيت ابنك هذا الذى أكرمتنا على وجهه ما سميته ؟

— سميته محمدا .

— فما رغبت به عن أسماء أهل بيته ؟

— أردت أن يحمده الله فى السماء وخلقه فى الأرض .

ولم تمطر السماء فى هوازن فكانت سنة جدب وشدة ، ففكرت بعض أسرات من بنى سعد أن تخرج إلى مكة التماسا للرضعاء فقد كان أشراف مكة يدفعون بأبنائهم إلى البادية ليبعدوهم عن قيظ بلادهم وليلتقطوا الفصاحة من أهل الصحراء . وكانت الأسرات البدوية تتنافس على أبناء الأثرياء دفعا لغائلة الجوع التى تتهددهم فى السنين الشهباء .

قدمت مكة فى اليوم الثامن لمولد محمد عشر نسوة من بنى سعد بن بكر يلتمس بها الرضعاء ، وكانت فيهن حليمة بنت أبى ذؤيب ، وهو عبد الله بن الحارث بن شجنة بن جابر بن رزام بن ناصرة بن سعد بن بكر بن هوازن بن منصور بن عكرمة بن حفصة بن قيس عيلان بن مضر .

كانت حليمة على أتان عجفاء كانت من شدة ضعفها تعطل سير الركب ، وكان معها صبى وناقة ما تبض بقطرة لبن ، وكان يسير إلى جوارها زوجها الحارث بن عبد العزى . وقد تقضت ليلة وهم فى الطريق لم يذوقوا فيها طعم النوم من صبيهما من بكائه من الجوع لا تجد فى ثديها ما يغذيه ولا فى ناقتها ما يغذيه ، ولكنها كانت ترجو الغيث والفرج .

وبلغ ركب بنى سعد البيت المقدس فكان أول ما فعلوه أن طافوا بالحرم ثم جلسوا ينتظرون مواليد أشراف مكة وسادتها ، وذاع فى الدور أن نسوة من بنى سعد قدمن يلتمسن الرضعاء فخرج الجوارى والعبيد يحملون الأعزة على سواعدهم ، وجاء عبد المطلب ومن خلفه بركة وعلى يديها محمد بن عبد الله

ولم يمض على مولده غير ثمانية أيام .

وعرض عبد المطلب حفيده على إحداهن فالتفتت إليه وقالت :

ـــ أنت أبوه ؟

ـــ لا . أبوه قد مات .

ـــ يتيم ؟

فأومأ عبد المطلب برأسه فى أسى .

فقالت المرأة :

ـــ ماذا عسى أن تصنع إلينا أمه ؟

كان عبد المطلب سيد قومه وكان يطعم حتى الطيور والجوارح والوحوش فى رءوس الجبال ، وعلى الرغم من صيته وغناه أعرضت المرأة عن حفيده ، فعبد المطلب يوم فى مكة ويوم فى اليمن ويوم فى الشام ، ومن يدرى فقد ينصرم أجله ويصبح عبئا على من يأخذه .

وذهب عبد المطلب بمحمد إلى امرأة أخرى ، وأبت المرأة أن تأخذه لما علمت أنه يتيم وقالت :

ـــ إنما نرجو المعروف من أبى الولد ، فأما أمه فماذا عسى أن تصنع إلينا ؟

ووقفت آمنة على البعد تنظر وعبد المطلب يدور بابنها الحبيب على المراضع والنسوة يجفلن منه لأنه يتيم ، كأن اليتم عندهن بلاء يستوجب الإعراض والفرار .

وذهب عبد المطلب إلى حليمة وقد كانت ذابلة عجفاء وقد وصل إليها نبأ حفيد عبد المطلب اليتيم ، وتقدمت آمنة خطوات وأرهفت سمعها لتلتقط ما تقول السعدية ، وإذا بصوت المرأة يقرع أذنها ويحرك أشجانها فتمتلئ بالعبرات مآقيها ، قالت حليمة :

— يتيم ؟ ماذا عسى أن تصنع لنا أمه ؟ إنما نرجو المعروف من أبيه .

عرض عبد المطلب حفيده على النسوة العشر فأبين جميعا أن يأخذنه ، فأطرقت آمنة وسارت فى خطى وئيدة حزينة والأسى يهصرها هصرا . ولو أصغت إلى الوجود لالتقطت أذناها صوت السيد المسيح وهو يقـول : « الحجر الذى رفضه البناءون صار حجر الزاوية » ، ولتهللت نفسها بالفرح ولانقشعت تلك الدموع التى بللت روحها .

ودارت بركة جارية عبد الله الحبشية على عقبيها وهى تنظر إلى ابن عبد الله فى إشفاق وقد حرك عواطفها أن النسوة جميعا تركنه لموت أبيه ، وزاد فى أساها أن أصوات النساء راحت ترن فى أعماقها : يتيم ؟ يتيم ؟ يتيم ؟ فتمزق نياط قلبها .

وراحت حليمة السعدية تتلفت فرأت أنه لم يبق من صواحبها امرأة إلا أخذت رضيعا غيرها ، فمن ذا الذى يدفع بابنه إلى امرأة لا تجد فى ثديها ما يسكت بكاء ابنها ؟

وأجمع النسوة على الانطلاق ، فذهبت حليمة إلى زوجها وقالت :

— والله إنى لأكره أن أرجع من بين صواحبى ليس معى رضيع . لأنطلقن إلى ذلك اليتيم فلآخذنه .

— لا عليك أن تفعلى ، فعسى أن يجعل الله لنا فيه بركة .

لم تتحرك شفقة حليمة السعدية لذلك اليتيم بل كرهت أن تعود دون رضيع ، فذهبت وأخذته وما أخذته إلا أنها لم تجد غيره .

وعادت حليمة بمحمد إلى رحلها وألقمته ثديها فإذا به يجود باللبن ، والتفتت حليمة إلى زوجها الحارث وفى عينيها دهشة وفرح . وشرب محمد

حتى روى وأعطت ثديها ابنها فشرب حتى روى .

وجاء الليل ونام الصبى وعرف الوسن إلى عينى حليمة وعينى الحارث فباتوا بخير ليلة ، فلما أصبح الصباح قام الحارث منشرح الصدر وألقى نظرة على محمد فألفاه هادئا ساكنا ، وأحس أن قلبه قد تفتح لذلك الصبى فالتفت إلى حليمة وقال :

ــ والله إنى لأراك قد أخذت نسمة مباركة .

٢٣

جاء زيد بن عمرو بن نفيل إلى الكعبة وهو راكب جمله ، وألقى نظرة على الأصنام التى وضعت فى داخل أول بيت وضع للناس وحوله فأحس أعمق الأسى ، وسرح به الخيال فرأى نفسه فى نفر من قريش : ورقة بن نوفل وعثمان ابن الحويرث وعبد الله بن جحش بن أميمة بنت عبد المطلب ، وقد حضروا عند وثن لهم كانوا يذبحون عنده لعيد من أعيادهم وقد خلا بعضهم إلى بعض وقالوا :

ــ تصادقوا وليكتم بعضكم على بعض .

فقال قائل منهم :

ــ تعلمن والله ما قومكم على شىء ، لقد أخطئوا دين إبراهيم وخالفوه . وثن يعبد لا يضر ولا ينفع ؟ فابتغوا لأنفسكم .

ورأى زيد نفسه وقد عزم على الخروج من مكة ليطلب الدين القيم ، ورأى زوجه صفية بنت الحضرمى وهى تنسل إلى أخيه الخطاب بن نفيل وتوسوس له برغبة زيد ، فيقبل الخطاب يرغى ويزبد ويتوعد ويبذل كل ما فى جهده ليحول بين أخيه والخروج لالتماس دين غير دين آبائه .

وفى غفلة من الخطاب وضيفه انفلت إلى الشام وراح يطلب فى أهل الكتاب الأول دين إبراهيم ، ثم انطلق إلى الموصل وجاب الجزيرة كلها ، ثم أقبل حتى أتى الشام فجال فيها حتى أتى راهبا ببيعة من أرض البلقاء فسأله عن

الحنيفية دين إبراهيم ، فقال له الراهب :

ـــ إنك لتسأل عن دين ما أنت بواجد من يحملك عليه اليوم ، لقد درس من علمه وذهب من كل يعرفه .

ـــ على أى دين كان ؟

ـــ كان حنيفا لم يكن يهوديا ولا نصرانيا . كان يصلى ويسجد إلى هذا البيت الذى ببلادك ، فالحق ببلدك فإن الله يبعث من قومك فى بلدك من يأتى بدين إبراهيم الحنيفية .

ورأى ورقة بن نوفل وقد تنصر ، وعثمان بن الحويرث وقد اعتنق المسيحية ومال إلى الروم وقد راحت تراوده فكرة الانطلاق إلى القسطنطينية ، ثم رأى نفسه وقد كره الدخول فى المسيحية أو اعتناق اليهودية وآثر أن يحاول أن يعبد الله على ملة إبراهيم .

وظل زيد على ظهر جمله ينظر إلى الكعبة وهو شارد ، فرأى نفسه وقد عاد إلى مكة ليدعو قومه إلى دين أبيهم إبراهيم ، فإذا بأخيه الخطاب يغلظ له فى القول ويحرض الناس عليه وآذاه أذى كثيرا حتى خرج منه إلى أعلى مكة . و لم يقنع الخطاب بذلك بل وكل به شبابا من قريش وسفهاء من سفائهم وقال لهم : « لا تتركوه يدخل » . ورأى زيد نفسه وهو يدخل مكة سرا يتلفت خشية بطش أخيه به .

وسرح خياله فإذا به يتذكر ذلك اليوم الذى جاء فيه إلى مكة والناس يذبحون الذبائح لآلهتهم ويذكرون عليها أسماء تلك الآلهة ، فقال لهم :

ـــ الشاة خلقها الله وأنزل لها من السماء ماء وأنبت لها من الأرض ، و لم تذبحوها على غير اسم الله ؟

كان يوما قاسيا شديدا فقد قام إليه الرجال وأوسعوه ضربا حتى كادت تزهق روحه ، إنه لا ينسى ذلك اليوم وإنه ليعجب لقومه يضطهدونه لأنه يدعوهم إلى دين أبيهم إبراهيم ، بينا يسير ورقة بن نوفل وعثمان بن الحويرث وعبد الله بن جحش آمنين وقد خرجوا عن دين القوم واعتنقوا النصرانية .

ورفع زيد يديه إلى السماء وقال :

ـــ اللهم إنى أشهدك أنى على دين إبراهيم . اللهم إنى لو أعلم أحب الوجوه إليك عبدتك ولكنى لا أعلم .

ثم سجد على راحلته وانصرف راضيا وكل خلجة من خلجات نفسه تقول :

ـــ إلٰهى إلٰه إبراهيم ، ودينى دين إبراهيم .

وجاء أوان الحج فأقبل العرب من كل فج عميق يطوفون بالبيت العتيق ويذبحون عند إساف ويتمسحون بالأصنام ، وأقبل زيد بن نفيل ودخل الكعبة ثم قال :

ـــ لبيك حقا حقا ! تعبدا ورقا ! عذت بما عاذ به إبراهيم وهو قائم ، إذ قال إلٰهى أنفى لك عان راغم ، مهما تجشمنى فإنى جاسم ، البر أبغى لا أنحال ، ليس مهجر (فى شدة الحر) كمن قال .

ووقع بصره على هبل وقد خف الناس إلى كاهنه ليستقسموا بالأزلام عنده ، فقال :

ـــ هذه قبلة إبراهيم وإسماعيل . لا أعبد حجرا ولا أصلى له ولا آكل ما ذبح له ولا أستقسم الأزلام ، وإنما أصلى لهذا البيت حتى أموت .

ووقف الحمس يقدمون ثياب الطواف للناس إعارة أو كراء فقد أذاعوا بين

الحجيج أنه لا يجوز الطواف فى ثياب اقترفت فيها الخطايا ، وراح الفقراء يطوفون عرايا ، أما الذين طافوا فى ثيابهم فقد خلعوا ثيابهم بعد الطواف وطرحوها لقىً لتبلى من وطأة الأقدام ولفح الشمس وهبوب الرياح .

وراح الحجيج يسعى بين الصفا والمروة إحياء لذكرى هرولة هاجر لما كانت تبحث عن ماء لابنها إسماعيل الذى كان يموت عطشا . وأقبل الناس على ماء زمزم الذى وضعه عبد المطلب فى أحواض من أدم وبث فيه التمر والزبيب .

وراح الناس يمارسون شعائر الحج التى بقيت من أيام أبيهم إبراهيم الخليل وقد اعتورها ما اعتور الدين القيم من تبديل ، فقد وضعت الأصنام فى الأماكن المقدسة على الصفا والمروة وعلى جبل ثبير ، بل تكدست الأصنام فى جوف منارة التوحيد تكديسا .

كان إبراهيم يلبى فى الحج : « لبيك اللهم لبيك ! لبيك لا شريك لك ! » . فلما عرف العرب عبادة الأوثان تبدلت التلبية لتتفق مع معتقدهم الجديد ، فأضافوا إلى تلبية التوحيد تلبية الشرك فتجاوبت فى عرفات نداءات المشركين كانوا يحسبون أنهم يحيون شعائر إبراهيم الخليل :

— لبيك اللهم لبيك ! لبيك لا شريك لك لبيك ! إلا شريك هو لك ، تملكه وما ملك .

وضاق زيد بذلك الشرك وهو واقف معهم على عرفات وقد التصق كتفه بأكتاف سادات قريش وأشراف العرب ، ولكنه ما كان قادرا على أن يفعل شيئا . أيستطيع أن يكمم هذه الأفواه التى تضج بتلبية إبراهيم الخليل وقد دنس توحيدها الرائع شرك مبين ؟ إنه أعجز من أن يقف فى وجه ذلك الطوفان من

البشر الذى اختلط فى وجدانه الكفر بالإيمان . وتذكر قريشا وهى تطوف بالكعبة وتقول : « واللات والعزى ، ومناة الثالثة الأخرى ، فإنهن الغرانيق العلى ، وإن شفاعتهن لترتجى » . فامتلأ فؤاده أسى وحسرة على قومه الذين يتشفعون إلى الله بأصنام لا تنفع ولا تضر .

وراحت تلبية الشرك ترن فى أذنيه وتؤلم روحه ، وأراد أن يصم أذنيه عن تلك التلبيات التى ظاهرها وباطنها عذاب فارتفع صوته يردد :

ـــ لبيك لا شريك لك ولا ند لك ! .. لبيك لا شريك لك ولا ند لك !

ولكن صوته ضاع بين الأصوات المشركة التى كانت تتصاعد مدوية تريد أن تبلغ السماء .

كان على عرفات عرب من الحيرة والشام ويثرب وثمود وتيماء ومن كل قبائل الحجاز واليمن قد جاءوا كلهم ليؤدوا فريضة أبيهم إبراهيم الخليل . وكان منهم حنفاء يؤمنون بالله وحده وإن كانوا لا يعرفون على أى وجه يعبدونه . وصابئة يعبدون الله وصابئة يعبدون الملائكة وصابئة يعبدون الكواكب والنجوم . وكان فيهم من يعبد الأصنام وهو يعتقد أنها رمز لقوى فوق قوى البشر ، ويؤمن بأنها تدير وتدبر سير الطبيعة وسير حياة الإنسان ، ومن يعبدها وهو يعرف أنها رمز للشمس والقمر فقد كانت عبادة الشمس والقمر فى العرب قبل أن يهديهم إبراهيم الخليل إلى الله ، وقد ارتدوا إليها لما طال عليهم العهد وطمرت أساطير الأولين جوهر دين الإسلام . ملة أبيهم إبراهيم .

كان العرب الذين جاءوا من كل فج عميق ليقفوا جنبا إلى جنب فى عرفات يؤمنون جميعا برب البيت . وما تحملوا متاعب السفر إلى الحرم إلا لاستمالته واسترضائه لعله يرضى عنهم ولكنهم ضلو الطريق إليه ، تقربوا إليه بالملائكة

والكواكب والنجوم ، وبالأصنام وبالأوثان ، وجعلوا له أندادا وشركاء وبنات يشفعون لهم ويقربون إليه زلفى .

وعلى عرفات نسى عرب الحيرة أنهم عرب الفرس ، ونسى عرب الغساسنة أنهم عرب الروم ، ونسى عرب القبائل ما بينهم من عداوات وإحن ، وتوجهوا جميعا بقلوبهم إلى السماء وإن كانت ألسنتهم تلبى تلبيات تضلهم عن سبيل الله .

وراح عبد المطلب وبنوه يسهرون على راحة حجيج بيت الله يقدمون الطعام لمن يحتاج إلى طعام ، ويسقون الناس وهم يلبون تلبية قريش وإن اختلفت فكرة كل منهم عن إلـٰهة ، كان عبد المطلب يؤمن ببعض ما سمعه من يهود يثرب أيام كان صبيا ، وكان يعتقد مثلهم أن ليس بعد هذه الحياة حياة ، وأن المرء يجزى بأعماله فى هذه الدنيا ؛ ولكن تجارب الأيام علمته أن بعد هذه الحياة حياة أخرى يحاسب فيها المرء على أعماله إن خيرا فخير وإن شرا فشر . وكان بعض قومه يؤمنون بالآخرة فكانوا يربطون ناقة الميت عندما يموت إلى قبره حتى تموت معه لكى يمتطيها يوم الحساب ويسير بها إلى الصراط .

وكان أبو طالب وأبو لهب والحارث والزبير يعتقدون أن ليس بعد هذه الحياة حياة ، كانوا من شباب قريش الذين أنكروا البعث . وقد كان كثير من شباب مكة مثلهم يعكفون على شرب الخمر وعلى اللهو ولا يتصورون أن تلك الأصنام التى يعبدونها قادرة على أن تحييهم مرة أخرى بعد أن يكونوا عظاما ورفاتا ، وكانوا يتقربون إلى آلهتهم بالقرابين والدعوات لتجزيهم على أعمالهم فى الحياة الدنيا .

وكان العباس فى كنف أمه ينتظر أوبة أبيه عبد المطلب من الحج ، وكان

حمزة بن عبد المطلب بين ذراعى هالة بنت وهيب لا يدرى ما الحج وما البيت وما الآلهة ، وكان محمد بن عبد الله فى بنى سعد ترضعه حليمة ويتطلع إلى وجوه إخوته من الرضاعة عبد الله بن الحارث وأنيسة بنت الحارث والشيماء ، وكانت تحضنه مع أمها وقد تعلق قلبها بحب الوليد الذى جاءهم من حرم الله .

وراحت قبائل العرب تضج بالتلبية والشمس تميل للغروب وقد أطالوا النظر إلى أصنام آلهتهم التى جلبوها معهم . ولو أصاخوا سمعهم إلى دعاء أبيهم إبراهيم الخليل يوم أن جاء إلى الوادى المقدس : « وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا البلد آمنا واجنبنى وبنى أن نعبد الأصنام . رب إنهن أضللن كثيرا من الناس فمن تبعنى فإنه منى ومن عصانى فإنك غفور رحيم . » لحطموا آلهتهم ، ولكن طال عليهم الأمد وقست قلوبهم فجعلوا لله أندادا .

وراحت الشمس تغيب فى الأفق البعيد فانطلقت من الحناجر ابتهالات وخفقت القلوب بين الصدور وانهمرت الدموع من العيون وترقب الناس أن تتجلى عليهم السماء . وما إن غاصت الشمس فى رمال الصحراء وغابت عن العيون حتى نفر الحجاج إلى منى وهم يلبون تلبية الشرك ، وانطلق زيد بن نفيل من عرفة ماشيا وهو يقول :

ـــ لبيك متعبدا مرقوقا . لبيك متعبدا مرقوقا .

وضاعت تلبيته بين تلبيات الشرك والضلالة .

٢٤

كانا يطوفان حول الكعبة وفى قلبيهما أسى على الأصنام التى تكدست فى جوفها ومن حولها ، وعلى قومهما الذين تركوا دين أبيهم إبراهيم وجلبوا الأصنام من كل بقاع الأرض لتقربهم إلى الله زلفى ، كانا ورقة بن نوفل وعثمان ابن حويرث .

رأى ورقة وعثمان وزيد بن نفيل أن آلهتهم إن هى إلا أحجار لا تضر ولا تنفع . فخرجوا إلى يثرب وإلى الشام وإلى الحيرة وألقوا السمع إلى أحبار اليهود ورهبان النصارى ، فتنصر ورقة وعثمان ، وأبى زيد أن يدخل فى النصرانية بعد أن فسدت وجعلت الله ثالث ثلاثة ، فراح يبحث عن دين إبراهيم ، الحنيفية الحقة ، فقيل له إن ما تبحث عنه يوشك أن يظهر فى قومك ، فعاد إلى مكة وقد أعلن أنه على دين إبراهيم ، وإن كان لا يدرى على أى وجه يعبد ربه ، وراح يرقب الأيام ينتظر ذلك الذى سيبعثه الله ليعيد ملة أبيهم إبراهيم بيضاء ناصعة .

دخل ورقة وعثمان وغيرهما من سادات قريش فى دين النصرانية ولكنهم لم يؤمنوا بوحدة طبيعة المسيح و لم يؤمنوا بلاهوت المسيح وناسوته ، لم يكونوا نساطرة ولا يعاقبة ، بل آمنوا بأن المسيح رسول من عند الله كان يأتيه الخبر من السماء ، وأنه عبد من عباده وأمه صديقة .

وقد حاول ورقة وعثمان ومن اتبع النصرانية من قريش ، وزيد بن نفيل الذى أراد أن يعود إلى دين إبراهيم إلى الوحدانية الخالصة ، أن يهدوا قومهم إلى

الدين القيم ، ولكن قومهم آذوهم أذى شديدا ، ووضعوا أصابعهم فى آذانهم وأعرضوا عنهم ، فسكت الذين تنصروا والذين كفروا بعبادة الأوثان عن هداية قومهم ، فقد عجزوا عن احتمال الاضطهاد والعذاب فلم يكونوا من أولى العزم و لم يكونوا من أصحاب الرسالات .

وكان ورقة وعثمان ومن اتبع دين السيد المسيح من العرب يطوفون بالبيت ويقفون المواقف فى الحج ، فقد كانوا يؤمنون بأن البيت العتيق هو أول بيت وضع للناس وأن إبراهيم خليل الرحمن وإسماعيل قد أقاما قواعده ، وأن الحج شريعة الخليل وأنه ركن من أركان الإسلام الذى جاء به أبو الأنبياء ، وإن كان العرب قد دسوا عليه ألوانا من الشرك بعد أن زاغت عقائدهم لما طال عليهم الأمد .

وعكف ورقة بن نوفل على دراسة التوراة والإنجيل ، وراح يتردد على بيع الرهبان وأحبار اليهود يناقشهم فى أمر الدين ويتلقى منهم ما عندهم من علم . وقد لفت انتباهه أن موسى بشر بنبى يوح إليه ليس من بنى إسرائيل بل من أبناء أعمامهم من نسل إسماعيل أبى العرب ، وراح ورقة يدرس فى إمعان نبوءات السيد المسيح « بالفراقليط » خاتم المرسلين الذى سيمكث مع الناس إلى الأبد ، وقد سمع ورقة ولا شك لما ذهب إلى الحيرة بذلك الذى بشر به زرادشت « صاحب الجمل الأحمر » الذى سيبعث فى العرب .

واستولت فكرة أن يبعث الله نبيا أميا — من الأمم لا من بنى إسرائيل — على كل تفكيره ، فراح ينقب فى كتب الأولين عن ذلك النبى وراح يطوف على الأحبار وصوامع الرهبان وعلى رعاة النجوم ، فأكد له أحبار اليهود ورهبان النصارى والناظرون فى النجوم أن نجم ذلك النبى قد طلع وقد أظل العالم

زمانه ، فبات ورقة ينتظر مبعث ذلك النبى ليكون أول من يؤمن به وينصره نصرا مؤزرا .

وانتهى طواف ورقة وعثمان فانطلقا إلى حيث كان عبد المطلب جالسا على فراشه فى ظل الكعبة ومن حوله بنوه ، وخويلد بن أسد وأمية بن حرب وعتيق ابن عابد زوج خديجة بنت خويلد ، فألقيا على الجميع التحية . ثم ذهب ورقة ليجلس إلى جوار خويلد ابن عمه وذهب عثمان ليجلس إلى جوار أمية .

كان كل الحاضرين ينتهى نسبهم إلى قصى مجمع قريش ، وكانوا سادات قومهم وأشرافهم ، وكان الحديث يدور بينهم عن الوفد الذى سينطلق إلى اليمن لتهنئة سيف بن ذى يزن على انتصاره على الأحباش وعودة ملك حمير إلى العرب . وتشعب الحديث فراح قائل يقول : إن الأحباش قد هزموا قبل أن يأتى سيف بجنود فارس ومراكب كسرى أنو شروان ، هزموا هنا يوم أرادوا أن يهدموا بيت الله فباءوا بالخزى والعار . وقال قائل إن أبرهة قد هزم مذ ذلك اليوم الذى اغتصب فيه زوجة ذى جدن وقبل أن يرزق منها مسروقا ، فلا يبنى ملك على الغصب والظلم والقهر والاستبداد . وقال قائل إن هزيمة أبرهة كانت ببركة دعاء عبد المطلب ، ولم يقل أحد منهم إنها كانت ببركة ذلك الذى كان لا يزال فى بطن آمنة بنت وهب . حتى ورقة بن نوفل الذى كان يتعجل ظهور نبىَ بنى إسماعيل لم يدر بخلده أن محمد بن عبد الله الطفل الرضيع الذى ذهب إلى مضارب خيام بنى سعد على يدى حليمة السعدية ، هو نبى هذه الأمة ، وأن الله قد قيض له فرصة خروجه منذ مولده إلى البيداء لتتكون الأسباب بينه وبين السماء ولتشتد أواصرها على مر الأيام .

واستمر الحديث بينهم وعثمان بن الحويرث فى شروده لا يسمع شيئا مما

يدور حوله ، فقد كان يفكر فى الذهاب إلى القسطنطينية إلى مقر قيصر ، ليقابل يوسطينوس الثانى ويعرض عليه أن يكون ملكا من قبله على مكة يؤيده بقوته على أن يحمل إليه خراج بلاده . و لم يجد فيما يدور فى خاطره معرة ولا خيانة فسيف بن ذى يزن يحكم اليوم اليمن بسلطان كسرى ، والنعمان بن المنذر يحكم الحيرة بسلطان أنو شروان ، وملوك الغساسنة يحكمون الشام بسلطان القياصرة ، حتى مشايخ القبائل كانوا مؤيدين بكسرى أو قيصر .

وراح عثمان يستعيد كل ما سمعه عن استقبال القصر القيصرى للحارث بن جبلة ملك الغساسنة لما انطلق إلى القسطنطينية ، ويجرى خياله خلف كل ما وعته ذاكرته عن ذهاب امرئ القيس إلى القيصر يوسطنيانوس يستعين به على استعادة عرشه ، وما كان من صداقة بينهما ومنادمة حتى إنهما كانا يدخلان الحمام معا . ترى كيف يكون استقبال الإمبراطور يوسطينوس له إذا ما شد الرحال إلى القسطنطينية وماذا سيقول لقيصر وماذا سيقول قيصر له ، واستمر عثمان يحلق وراء أحلامه المجنحة و لم يفق من شروده إلا على صوت عبد المطلب وهو يسأله :

— وأنت يا عثمان هل ستذهب فى وفدنا المسافر إلى اليمن لتهنئة ابن ذى يزن ؟

وقال عثمان فى اقتضاب :

— لا .

وكان منطقيا مع نفسه فكيف يذهب إلى تهنئة حليف فارس إذا كان يفكر فى الانطلاق إلى قيصر يعرض عليه أن يوليه أمر الحجاز ، وأن يكون له مثل سيف بن ذى يزن لكسرى ؟. وعاد عثمان يسرح وراء خياله فراح يؤكد

لنفسه أن قيصر سيرحب بما سيعرضه عليه ، فأباطرة الروم يتمنون أن تكون كعبة العرب حليفة لهم ، فلو أنهم اطمأنوا إلى أنها قد صارت فى معسكرهم فذلك يزيد من مكانة الروم فى أعين العرب .

ونهض خويلد بن أسد وزوج ابنته عتيق بن عابد ، وقبل أن ينصرفا قال خويلد لورقة :

ـــ ألا تأتى معنا ؟

ـــ أين ؟

ـــ إلى دار عتيق .

ـــ إنى لم أر الطاهرة بعد أن وضعت طفلتها .

كانت خديجة تعرف بالطاهرة ولما تتجاوز الخامسة عشرة من عمرها ، و لم تكن تشارك فتيات مكة فى مجونهن ، وكانت على الرغم من حداثة سنها تنأى عن مجالس اللهو وتهتم بقوافل قريش وبتجارة أبيها . وكانت تستريح إلى مجلس ورقة فقد كان يحدثها حديثا طليا عن الأديان وعن الرسل الذين يبعثهم الله لهداية البشر .

وانطلق خويلد وعتيق وورقة إلى دار خديجة ، ولمحت جاريتها من الشباك إقبال سيدها وصحبه فخفت إلى سيدتها تقول :

ـــ سيدى الصغير وسيدى الكبير وسيدى ورقة.

وأسرعت الجارية تفتح الباب ، وقامت خديجة لتستقبل القادمين . وإن هى إلا لحظات حتى كان الجميع جالسين فى غرفة أثثت برياش فاخر جلب من الشام ومن الحيرة ومن اليمن ، ولا غرو فقد كانت خديجة بنت سيد من سادات قريش وتاجر من أكبر تجارها .

وجاءت هالة بنت خويلد أخت خديجة ، وما كادت تستقر حتى قالت خديجة لأختها :

— هاتى هند فابن العم ورقة لم يرها بعد .

وقامت هالة وما لبثت أن عادت وهى تحمل ابنة أختها هند بين يديها وقد أشرق وجهها بابتسامة عذبة . ولاح فى وجه عتيق السرور وهو يرنو إلى ابنته ، وأخذ خويلد الطفلة وقبلها ثم قدمها إلى ورقة ، وما كادت الطفلة تستقر بين يديه حتى قالت هالة :

— إنى غاضبة .

فقال ورقة مداعبا :

— لأنها أجمل منك !

— بل لأن خديجة لم تسمها باسمى .

فقالت خديجة وقد رفت على شفتيها بسمة رقيقة :

— لا تغضبى فسأسمى وليدى الثانى هالة ، سواء أكان ذكرا أم أنثى .

وقال خويلد مداعبا :

— وأنا ؟

فقالت هالة فى مرح :

— ألا يكفيك يا أبتاه أننا نحمل اسمك ؟

وأراد خويلد إغاظتها فقال :

— ومتى خلدت البنت اسم أبيها ؟

فقال ورقة فى هدوء :

— إذا ما تزوجت عظيما أو أنجبت سيدا من سادات قومه .

وقالت هالة :

— أو سادت قومها .

ضحك الجميع حتى هالة ضحكت من قولها ، وما لبث ورقة أن كف عن الضحك وقال :

— وفيم ضحكنا ؟ إن ملكة سبأ سادت قومها .

وقال خويلد :

— والزباء ملكة تدمر .

وراحت الروايات تروى عن ملكة سبأ وعن الزباء التى وقفت فى وجه الرومان حتى وقعت أسيرة فى أيديهم وحملت إلى روما ، فقد كان سادات قريش وعقائلهم وبناتهم على علم بالأحداث الجارية فى العالم من حولهم .

وذهبت هالة بهند بنت خديجة وشغلت بمداعبتها عن كل ما حولها ، وقام خويلد وعتيق بن عابد إلى الشراب ، واعتذر ورقة بن نوفل لا لأن الخمر حرام فقد كانت تشرب فى الكنائس وفى كل مكان من العالم المسيحى على زعم أن المسيح كان شريب خمر ، بل لأنه كان يحدث خديجة حديث الأنبياء وهو حديث حبيب إلى قلبه وروحه .

كان ورقة يحدث أخته رقيقة عن النبى العربى الذى يجده مكتوبا فى التوراة والإنجيل حتى جعلها تتمنى أن تكون أم ذلك النذير ، فراحت تتفرس فى وجوه شباب قريش فرأت فى وجه عبد الله شيئا مثيرا جذبها إليه وجعلها تعرض نفسها عليه لتتحقق لها الآمال ، ولكن عبد الله دخل على آمنة بنت وهب وذهب عنه ذلك السحر الذى هفت إليه ، فعافته نفسها وأعرضت عنه لما جاء إليها بعد أن بنى بآمنة يسألها ، لم لا تعرض عليه اليوم ما كانت تعرضه

بالأمس .

كان حديث ورقة عن النبي الأمي ، الذى سيبعث فى الأمم لا فى بنى إسرائيل مثيرا ، وكان يستولى على أفئدة سامعيه ، وكان يزيد ذلك الحديث روعة الغموض الذى يكتنفه ، فقد كان ورقة يضع نصب عينيه مآثر موسى والسيد المسيح وهو يبشر باقتراب ظهور « الفراقليط » .

وراحت خديجة تصغي إلى ورقة وهى مأخوذة بعذب حديثه ، إنه يحدثها عن أصنام قومها ويسخر من أنها كلها إناث : اللات والعزى ومناة . « إن يدعون من دونه إلا إناثا » ويخبرها أن قومها قد أخطأوا دين أبيهم إبراهيم ، ويقص عليها قصة رحلته فى الأرض ليأخذ علمه عن أهل العلم ، وما كان بينه وبين زيد بن عمرو بن نفيل لما قال لهم العلماء ، إن أحب الدين إلى الله دين هذا المبشر به ، فقد قال لزيد ، أنا أستمر على نصرانيتى إلى أن يأتى هذا النبى . أما زيد فقد أبى أن يتنصر واجتهد فى أن يتبع ملة إبراهيم ، وعاد إلى مكة ينتظر ظهور ذلك المبشر به .

كانت خديجة لم تتجاوز الخامسة عشرة ، وكانت مقبلة على دنيا مشرقة كلها بهجة ولهو ومرح ، إلا أنها كانت تجد نفسها تتفتح للأحاديث الجادة ، أحاديث التجارة وأحاديث الدين ، وقد ألقت إلى ورقة سمعها فتشوقت إلى ذلك العصر الذى يتحدث عنه ورقة حديث الواثق ، وتمنت أن يمتد بها العمر لترى ذلك الذى بشرت به الأنبياء ، وما دار بخلدها فى تلك اللحظة أن الله يدخرها لتكون نعم السند لذلك النبى الأمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل .

٢٥

انطلق سادات قريش وشعراؤها إلى اليمن لتهنئة سيف بن ذى يزن ومدحه وذكر ما كان من بلائه وطلبه بثأر قومه ، وبلغ وفد العرب صنعاء وسار إلى قصر غيدان واستأذن عبد المطلب رئيس الوفد فى الدخول على الملك ، فأذن له ، فراحوا يسعون فى طرقات القصر مشدوهين فقد كان القصر آية فى الروعة والجمال .

كان عبد المطلب عن يمين رئيس تشريفات الملك ، وكان من خلفهم أمية ابن عبد شمس وعبد الله بن جدعان وأسد بن خويلة بن عبد العزى وأشراف قريش وشعراؤها وقد ارتدوا أبهى حللهم . وقد كان عبد المطلب فخما كأنه القمر تحف به النجوم .

وفتح باب قاعة العرش فإذا الملك مضمخ بالعنبر يرى لمعان الطيب من مفرقه ، عليه بردان مؤتزر بأحدهما مرتد بالآخر ، سيفه بين يديه وعن يمينه ويساره الملوك وأبناء الملوك والرؤساء ، فانطلق عبد المطلب حتى دنا من سيف بن ذى يزن وقال :

ـــ أيأذن لى مولاى فى الكلام ؟

فقال سيف :

ـــ إن كنت ممن يتكلم بين يدى الملوك فتكلم فقد أذنا لك .

فقال عبد المطلب :

— إن الله أحلك أيها الملك محلا رفيعا ، صعبا منيعا . شامخا باذخا . وأنبتك منبتا طابت أرومته ، وعزت جرثومته ، وثبت أصله ، وبسق فرعه ، فى أكرم موطن ، وأطيب معدن . وأنت أبيت اللعن ملك العرب وربيعها الذى يخصب ، وأنت أيها الملك رأس العرب الذى إليه تنقاد ، وعمودها الذى عليه العماد ، ومعقلها الذى تلجأ عليه العباد . سلفك خير سلف ، وأنت لنا منهم خير خلف ، فلن يخمل ذكر من أنت سلفه ، ولن يهلك من أنت خلفه . ونحن أيها الملك أهل حرم الله وسدنة بيته ، أشخصنا إليك الذى أبهجنا لكشف الكرب الذى فدحنا ، فنحن وفد التهنئة لا وفد المرزئة .

فقال ابن ذى يزن :

— فأيهم أنت المتكلم ؟

— أنا عبد المطلب بن هاشم .

وتذكر سيف بن ذى يزن أن هاشما تزوج سلمى الخزرجية وأن الخزرج من اليمن ، فقال :

— ابن أختنا ؟

— نعم . ابن أختكم .

— ادن .

فأدناه على القوم وعليه فقال :

— مرحبا وأهلا ، وناقة ورحلا ، ومستناخا سهلا . قد سمع الملك مقالتكم ، وعرف قرابتكم ، وقبل وسيلتكم ، فأنتم أهل الليل وأهل النهار ، لكم الكرامة ما أقمتم ، والحباء إذا ظعنتم .

وانطلق وفد قريش إلى دار الضيافة والوفود فأقاموا شهرا لا يصلون إلى

الملك ولا يأذن لهم بالانصراف ، ثم انتبه انتباهة فأرسل إلى عبد المطلب فأخلاه وأدنى مجلسه وقال :

ـــ يا عبد المطلب إنى مفض إليك من سر علمى ما لو كان غيرك لم أبح له ، ولكن رأيتك معَدِنه وأطلعتك عليه ، فليكن عندك مطويا حتى يأذن الله فيه ، فإن الله بالغ فيه أمره .

إنى أجد فى الكتاب المكنون ، والعلم المخزون ، الذى اخترناه لأنفسنا واحتجناه دون غيرنا ، خبرا عظيما ، وخطرا جسيما ، فيه شرف الحياة ، وفضيلة الوفاة ، للناس عامة ، ولرهطك كافة .

ـــ أيها الملك فمثلك من سرَّ وبر ، فما هو ؟

ـــ إذا ولد بتهامة ، غلام بين كتفيه شامة ، كانت له الإمامة ، ولكم به الزعامة .

وشرد عبد المطلب يفكر ويجمع خيوط ما سمع من نبوءات بعضها إلى بعض ، إنه هنا فى اليمن قال له الكاهن : إن فى إحدى يديه ملكا وفى الأخرى نبوة . وقالت كاهنة قريش لآمنة : إنها النذيرة وستلد نذيرا . وهتف بآمنة هاتف يوم أن حملت بابن عبد الله إنها حملت بسيد هذه الأمة . وقد أمرت آمنة عندما ولدته أن تسميه محمدا . إنه محمد ولا ريب ذلك الذى بشر به الكهان والرهبان وأحلام اليقظة ورؤى المنام ، إنه محمد ولا ريب سيد هذه الأمة .

وهفت روح عبد المطلب إلى حفيده الذى حملته مرضعة بنى سعد لتتفتح عيناه أول ما تتفتح على الحرية الطليقة والطبيعة الآسرة ، والكون العريض بما ينبض من سحر وأسرار .

وأذن الملك لوفد قريش بالرحيل بعد أن أمر لكل من القوم بعشرة أعبد

وعشر إماء سود ، وحلتين من حلل البرود ، وخمسة أرطال ذهب وعشرة أرطال فضة وكرشا مملوءا عنبرا ، ولعبد المطلب بعشرة أضعاف ذلك .

وعاد الوفد إلى مكة ، وذاع بين الناس عطاء الملك فحسد الناس عبد المطلب ، فقام فى الناس وقال :

— يا معشر قريش لا يغبطنى رجل منكم بجزيل عطاء الملك وإن كان كثيرا فإنه إلى نفاد . ولكن ليغبطنى بما لى ولعقبى ذكره وفخره وشرفه .

وقال قائل :

— وما ذاك ؟

فقال عبد المطلب فى هدوء :

— ستعلمون ما أقول لكم ولو بعد حين .

وسمع عثمان بن الحويرث بما كان بين قريش والملك سيف بن ذى يزن ، فعادت فكرة انطلاقه إلى القسطنطينية تستولى على كل تفكيره . فسيف أصبح ملكا على اليمن من قبل كسرى أنو شروان إمبراطور فارس ، وما كان سيف على دين المجوس ، فما الذى يحول بين عثمان وبين الذهاب إلى يوسطنيوس الثانى إمبراطور الروم ليعرض عليه أن يكون ملكا على الحجاز من قبله ، وكلاهما على دين المسيح ؟

وتجهز عثمان للرحلة وقال إنه عازم على زيارة القسطنطينية و لم يفض إلى أحد بما يدور فى رأسه . و لم يثر رحيله عجب القوم فقد كان سادات قريش فى رحلة دائمة بين الشام والإسكندرية والقسطنطينية والحيرة وفارس واليمن ، وقد قبر رجال منهم فى كل أرجاء دنيا ذلك العصر .

وراح عثمان بن الحويرث يسعى إلى القسطنطينية يعبر القفار وينـزل

الواحات ويرحل إلى مدن الشام حتى انتهى به السعى إلى مشارف القسطنطينية ، فإذا بقباب القصر الكبير وممراته المسقوفة والمجللة بالقراميد الملونة تضرب فى السماء ، ومن ورائه كنيسة أيا صوفيا شامخة فى الفضاء . إنها درة فى فن العمارة فاقت هيكل سليمان .

وراح ذهن عثمان يعمل ؛ إنه ليذكر أن يوسطنيانوس قيصر الروم بنى أيا صوفيا كنيسة الحكمة المقدسة لتنافس كنائس الإسكندرية وروما وكل معابد الأرض ، وقد بذل كل سعى لتكون القسطنطينية المدينة المسيحية الأولى فى العالم المسيحى . وقد تحقق له ما أراد فالإسكندرية كانت مكمن الكراهية للإمبراطورية ، وكانت كنيستها تؤجج نوازع البغضاء للحكومة الرومانية ، فراحت تناصر الفتن والأمانى الوطنية التى كانت تبذل كل جهد لتتخلص من استعباد الرومان .

كانت كنيسة الإسكندرية مسيحية وكانت كنيسة القسطنطينية مسيحية ، ولكن شتان بين مسيحية ومسيحية ، فراح أباطرة الروم يبذلون كل جهد لإضعاف نفوذ كنيسة الإسكندرية ، وقد قلل ذلك من قيمة الإسكندرية العالمية وإن كانت الإسكندرية قد بدأت تزلزل الأرض تحت أقدام أباطرة الرومان .

وتقدم عثمان من إحدى بوابات المدينة وكانت لها اثنتا عشرة بوابة فلمح تلال القسطنطينية السبعة تنهض قائمة كالجدار على البوسفور والقرن الذهبى ، بينما كان انحدارها من ناحية بحر مرمرة ألطف وأسهل والامتداد فيها أرحب وأوسع .

ودخل عثمان من البوابة المواجهة لقصر الإمبراطورية ونظر ففغر فاه من

الدهشة . كانت الحدائق تمتد من القصر حتى البسفور ، وفى الجنوب ميدان فسيح للسباق يطل على مرفأ القصر المزخرف بنقوش وتهاويل تبده العقل ، وكنيسة فخمة للقديس سرجيوس وأخرى للقديس باكوس قامتا فى حى منخفض ملىء بقصور أقل فخامة من قصر الإمبراطور . ولكنها تنطق بالغنى والبذخ .

والتفت عثمان يسارا فرأى السور البحرى بما يعلوه بين حين وآخر من أبراج ، وقد شقت فيه فتحات تسمح بوجود مرافئ صناعية ترسو فيها السفن التى لا ترغب أن تدور حتى تدخل الموانى .

وسار عثمان فى الشارع الأوسط ، وهو شارع يبدأ من مدخل القصر وحلبة السباق ويمتد ميلين تحف به من جانبيه العقود ويمر من خلال سوق قسطنطين وسوق أخرى ، وكانت السوقان مزدانتين بتماثيل الأباطرة والقديسين . وعلى جانبى الشارع أهم حوانيت المدينة مرتبة فى مجاميع حسب ما تبيع من سلع ، فراح عثمان يرقب صياغة الذهب ثم الفضة والبرنز ، ويشاهد ما يعرض تجار الأثاث والملابس والجلود .

كانت أغنى تلك الدكاكين قرب القصر عند حمامات زيوكسيبتوس ، فقد كانت سوقا ضخمة للحرير ، وقد عرفت تلك السوق باسم دار الأنوار ، لأن نوافذ غرفها كانت تضاء ليلا ، وكان ذلك جديدا على عثمان بن الحويرث ، فراح يطوف بالقسطنطينية قبل أن يتوجه إلى القصر الإمبراطورى ليعمل على تحقيق حلمه الذى صار يسرى فى كيانه مسرى الدم .

كانت المناظرات تقوم فى ضميره بينه وبين قيصر الروم وكانت جميعها تنتهى بموافقة يوسطينوس الثانى على أن يكون عثمان ابن الحويرث ملكا على

مكة من قبل الإمبراطور العظيم ، وقد هدأت نفسه حينا من الدهر وهو يطوف بأنحاء عاصمة الدولة الرومانية الشرقية وهو مشبدوه ، فقد كانت الشوارع والأسواق وحلبات السباق متاحف تعرض فيها أبدع ما صورته بد الأقدمين من التماثيل .

وانتهى عثمان من طوافه فيمم صوب القصر وهو يرجو أن ترتبط بينه وبين قيصر الأسباب ، وأن يتخذه يوسطينوس نديما كما اتخذ يوسطينيانوس امرأ القيس الشاعر العربى نديما له من قبل ، وطلب المثول بين يدى الإمبراطور لتقديم ما جاء به من هدايا من بلاد الشرق .

وتحدد موعد المقابلة فجاء عثمان فى زيه العربى الخلاب وسار فى ردهات القصر وهو مذهول لا يصدق عينيه ، فما دار فى خلده أن هناك على وجه الأرض مثل ذلك الترف وتلك الروعة .

وما كان دخول القصور شيئا جديدا على عثمان فقد زار الخورنق من قبل ورأى قصور الشام ، إلا أن ما كانت تقع عليه عيناه يفوق كل وصف .

وفتح باب قاعة العرش وفى لمحة خاطفة رأى عثمان الإمبراطور يوسطينوس الثانى إلى جواره الإمبراطورة صوفيا وقد ارتديا أفخر الثيـاب ، وكانت الإمبراطورة تتألق فى الجواهر التى تتزين بها وقد أكثرت من وضع الأصباغ على وجهها .

وخر عثمان ساجدا و لم يرفع رأسه إلا لما سمع أن الإمبراطور قد سمح له بأن ينهض . وقام عثمان ووقف خاشعا برهة ، ثم قدم إلى الإمبراطور والإمبراطورة طُرفا من فارس واليمن فتهللت أسارير الإمبراطورة . وسمح الإمبراطور لعثمان بالجلوس فراحت النشوة تعربد بين جنبيه ، وراح عثمان يذكر للإمبراطور

والإمبراطورة مكانة مكة بين العرب وكيف أن البيت هو قبلة العرب جميعا فى الحيرة والشام وفى الحجاز وفى اليمن . وكيف أن من يملك مكة تدين له بالولاء كل قبائل العرب ، وظل يوسطينوس يصغى إلى عثمان وهو على علم بمكانة البلدة المقدسة عند كل العرب ، فقد كانت أعز أمنية للروم أن يتصل نصارى الحبشة واليمن بنصارى الشام والقسطنطينية ، وقد قام أبرهة بحملة لتحقيق ذلك الحلم ولكن الحملة تكسرت أمام بيت العرب المقدس ، وإن إمبراطور الروم وساستها يعجبون من أمر تلك النكسة التى أصابت أصحاب الفيل .

وقال عثمان فيما قال :

ــ تكون زيادة فى ملكك كما أن اليمن قد أصبحت زيادة فى ملك كسرى أنو شروان .

كانت أمنية أباطرة الروم وساستها أن تكون الأرض التى بين الحبشة والقسطنطينية أرضا فى حوزة الروم أو حليفة للروم يرفرف عليها النسر الرومانى ، ويا حبذا لو وضع إلى جوار الراية الرومانية صليب المسيح . أما وقد أخفقت حملة أبرهة فلا أقل من أن تكون مكة زيادة فى ملك يوسطينوس ويحمل عثمان بن الحويرث إليه خراج تلك البلاد . و لم يظهر الإمبراطور لهفة على الاستجابة إلى رجاء عثمان بل حدثه حديثا لينا ووعده أن ينظر فى الأمر .

ودعا الإمبراطور والإمبراطورة عثمان بن الحويرث لمشاهدة السباق معهما ، وقد اغتبط عثمان بهذه اللفتة الكريمة وعدها مكرمة وانشرح لها صدره ، فقد كانت دليلا على أن ما عرضه على الإمبراطور قد لقى قبولا فى نفسه .

وانطلق الإمبراطور والإمبراطورة وضيفهما العربى الذى يطمع فى أن

يكون ملكا على مكة من القصر إلى المقصورة الإمبراطورية مباشرة ، فلما رأى الشعب قيصر ضج المكان بالهتافات ، وراح عثمان يقلب نظره فى ميدان السباق وهو فى ذهول ، فقد كان يرى مدرجات ضخمة تتسع لما يقرب من أربعين ألف مشاهد .

وراحت العربات الرومانية تنطلق فى سباق رهيب وعثمان يرقب ما يجرى وهو مشدوه ، وانتهى السباق وقد بلغ حماس النظارة غايته ، والأنفاس مكروبة فى الصدور وقد اتسعت العيون وأرهفت الحواس .

ونزل المصارعون إلى أرض الملعب وضج المكان بالهتافات ، وفتحت أقفاص الوحوش الكاسرة وبدأ الصراع بين البشر والوحوش الضارية ، وتأججت حماسة الناس لما سالت الدماء . وانتهت المعركة الرهيبة والهتافات ترتفع إلى السماء ، ولم يخفق قلب واحد إخفاقة شفقة أو رحمة فقد أماتت الحضارة الزائفة الشعور الطيب فى الناس .

ونزل إلى أرض الملعب حزبا السرك وهما الزرق والخضر فاشتعلت حماسة الناس وبدأ الصراع . وراح الناس يرقبون ما يجرى بين الفريقين وقد انفعلت المشاعر انفعالا كادت تفلت بسببه سيطرة الناس على عواطفهم وتحدث اضطرابات . وكثيرا ما وقعت الفتن السياسية أثناء ذلك الصراع فقد كان كل حزب سياسى يؤيد فريقا من الفريقين ، وكان لكل فريق لونه السياسى والدينى .

وهبط إلى أرض الملعب العبيد للصراع حتى الموت فتجاوبت أرجاء الملعب بالتهليل والهتاف ، وفتحت العيون ولاحت القسوة فى الوجوه . وأذن لمصارعين من العبيد ببدء القتال فاستل كل منهما خنجره وراح يدور حول

غريمه فى حرص شديد يلتمس منه غفلة ليطعنه طعنة قاتلة ، دون ذنب جناه ، إرضاء لشهوة الأسياد فى سفك الدماء ، وهجم أحدهما على الآخر وطعنه طعنة أفلت منها ، وفى مثل لمح البصر رد على الطعنة الطائشة بطعنة لم تصب القلب بل جاءت فى الصدر . وما إن سالت الدماء حتى انبعث من الجماهير هتاف وزئير لكأنه منبعث من وحوش كاسرة فى الغاب .

وتهللت أسارير الإمبراطور وانفرجت شفتا الإمبراطورة عن بسمة تنم عن الفرحة المنتشرة فى وجدانها ، وراح عثمان يظهر السرور والغبطة إرضاء ليوسطينوس العظيم وصوفيا المبجلة ، واستمر صراع الوحوش البشرية حتى جللت الأرض بالدماء وغطتها جثث الضحايا .

وعاد الإمبراطور ممثل أعظم حضارة فى الأرض إلى القصر شامخا بأنفه مزهوا بما بلغته إمبراطوريته من رقى ، وعن يمينه وشماله صوفيا الجميلة وضيفه العربى الكريم الذى جاء ليمد ظل الحضارة الرومانية على مكة .

واجتمع قيصر وزوجه بعثمان بن الحويرث وأخبره أنهما قبلا ما جاء يعرضه عليهما ، وقد تفضل الإمبراطور يوسطنيوس بأن كتب له كتابا يوليه من قبله على مكة وختم فى أسفله بالذهب ، وخلع على عثمان خلعة وحمله الهدايا ، حتى بغلة عثمان أهدى إليها سرج موشاة بالذهب .

وتأهب عثمان ليعود إلى مكة وهو يكاد يطير من الفرح ، فقد صار حاكم مكة من قبل قيصر ، إنه ممثل أعظم حضارة عرفتها الدنيا ، وما يحسب أن الأرض ستشهد مثل تلك الحضارة التى شاهدها بعينيه فى القسطنطينية .

وطافت بذهنه فارس وراح يقارن بينها وبين حضارة الرومان ، فإذا بهواه يؤكد له أن الرومان أكثر حضارة من الفرس ، فإن كانت الفرس قد ظهرت

فى الحروب على الروم فإن ذلك إلى حين وستغلب الروم الفرس وتصبح أعظم قوة فى الأرض وترفرف حضارتها إلى الأبد على العالمين .

وسخرت السماء بأحلام عثمان بن الحويرث فقد كانت العناية الإلٰهية ترعى صبيا من نسل قصى مثل عثمان ، ستؤتيه حكمة وتوحى إليه بكتاب منير ، تقوم على شرائعه حضارة تبهر كل الحضارات .

٢٦

كانت الشمس ترتفع من خلف الجبال كأنها قرص من الفضة يتوهج ، وقد شعت منه أشعة واهنة ضربت حولها دائرة من شفق أحمر مزجت به أضواء من لجين . وراح قرص الفضة يرتفع ويتألق وتنداح أشعته حتى احتلت ما بين الجبلين وغمرت وادى هوازن بنور خافت ما لبث أن اشتد وازداد تألقا .

وجلست حليمة السعدية أمام دارها ترضع محمدا وهى ترنو إليه فى حب شديد ، وشرد خيالها وإذا بها تسترجع ذلك اليوم المبارك الذى جاءت فيه إلى مكة مع نسوة من قبيلتها يلتمسن أطفال سادات قريش . إنها ترى عبد المطلب سيد قريش يقبل نحوها ويرن فى جوفها ذلك الحوار الذى دار بينهما فى ذلك اليوم :

ــ من أنت ؟

ــ أنا امرأة من بنى سعد .

ــ ما اسمك ؟

ــ حليمة .

ــ بخ بخ سعد وحلم خصلتان فيهما خير الدهر وعز الأبد . يا حليمة إن عندى غلاما يتيما وقد عرضته على نساء بنى سعد فأبين أن يقبلنه وقلن : ما عند اليتيم من الخير ، إنما نلتمس الكرامة من الآباء . فهل لك أن ترضعيه فعسى أن تسعدى به ؟

ـــ ألا تذرنى حتى أشاور صاحبى ؟

وعادت حليمة تنظر إلى محمد ، مشرقة الوجه متفتحة النفس فتستشعر غنى فى عواطفها التى تفيض بالرضا والحب كلما رنت إلى وجه الطفل الجميل الآسر الذى سعدت به .

ورأت نفسها وهى تذهب إلى آمنة لتأخذ منها الطفل فإذا هو مدرج فى ثوب صوف أبيض وقد راح فى سبات ، فراحت تتناوله فى رفق شفقة منها أن توقظه من نومه ، ولكنه فتح عينيه فراعها حسنه فمالت عليه وقبلته بين عينيه فاستشعرت مشاعر غامضة مثيرة لم تحس مثلها من قبل ، فيا طالما قبلت ابنها الرضيع ولكنها لم تتفتح له ذاتها مثل ذلك التفتح الذى طرأ على وجدانها . وظلت حليمة فى دهشة من أمرها فما خطر لها على بال أن الله ألقى فى قلبها محبته .

ووضعت حليمة محمدا وجاءت بابنها عبد الله لترضعه فإذا بمحمد يحبو هنا وهناك ويجىء إلى كل جانب .. وشغلت حليمة عن ابنها بمراقبته فهو يشب شبابا لا يشبه الغلمان ، فإذا كان ابنها عبد الله أسن منه فهو لم يحب بعد .

وجاء الحارث بن عبد العزى زوج حليمة ، فلما رأى محمد انطلق إليه وحمله وراح يقبله ويضمه إلى صدره وحليمة تنظر إليهما وقد رفت على شفتيها بسمة سعيدة ، فقد راح الحب يخفق بجناحيه على الوادى كله يوم عادت من مكة بذلك الطفل المبارك .

وأقبلت أنيسة والشيماء وهرعت كل منهما إلى أبيها تريد أن تأخذ منه محمدا ، ومدت الشيماء يديها لتتناول الطفل فقد كانت أكبر من أنيسة ، فلم تجد أنيسة مفرا من أن تصيح لعلها تصل بصوتها إلى ما عجزت يداها أن تبلغه .

فابتسم الحارث لهما وراح يحاول أن يقنع أنيسة أنها أصغر من أن تحمله ، فرأت أن تبطل حجته فجلست على الأرض وطلبت من أبيها أن يضعه فى حجرها ، فأشرق الحارس بالرضا ومال بمحمد حتى وضعه فى حجر الصغيرة .

وظهر فى وجه الشيماء الاستياء ، وفطنت حليمة إلى ذلك فدعتها لتحمل أخاها عبد الله ، ولكن الشيماء أعرضت عنها وذهبت إلى حيث ترعى غنم أبيها .

ودخلت واحدة من غنيمات حليمة إلى حيث كان محمد ، فلما رآها راح يحبو إليها ويمد إليها يده ، فإذا بها تمد رأسها إليه وتلمسه فى حنان ، فبدا تعاطف مثير بينهما ، وسرت فى المكان براءة ناصعة وطهارة خافقة ورحمة دافقة ، وأفعم بحب ما بعده حب ؛ حب خالص مبرأ عن الهوى ، أنقى من الصفاء وأرق من كل ما فى الوجود من رقة ، وأسمى من كل ما فى الدنيا من سمو رفعة .

وجاء الليل ونام عبد الله وبكى محمد ، فحملته حليمة وخرجت به من دارها إلى الخلاء . كانت السماء صافية والنجوم تتلألأ فى قبتها الزرقاء . وما أن رأى محمد جلال ما حوله حتى كف عن البكاء ، وراح يرنو إلى مصابيح للسماء وقد ران على وجهه هدوء عجيب ، وسرعان ما غمرته سعادة لكأنما كانت روحه تمتص رحيق كنه الوجود ، ولكأنما قد ارتبطت الأسباب بينه وبين السماء .

عرفت حليمة فيه حبه لتقليب وجهه فى الكون فكانت تتركه الساعات فى النهار يمعن النظر فى شروق الشمس من خلف جبال هوازن ، وفى واديها الجديب ، وفى أرضها إذا ما أحيتها الأمطار بعد موات ومستها بعصاها

السحرية فكستها حلة سندسية زينت باليواقيت والمرجان والزبرجد وكل ألوان الثمار . وكانت تخرج به فى الليل إلى الفضاء ليرقب القمر ويرنو إلى الكواكب والنجوم ، ويصيخ السمع إلى زفرات نسيم الصبا وزئير هبوب الرياح ، فقد كان على الرغم من صغر سنه يتعاطف مع الكون ويتناسق مع ما حوله ويتهلل بالفرح كلما مد عينيه إلى الأرض الجرداء والأرض الخضراء ، وإلى السماء الصافية والسماء الملبدة بالغيوم ، وإلى ظلام الليل ، وإلى النجوم الزاهرة والكواكب الثابتة والكواكب السيارة ، وكان احتفاله بالليل عجيبا لكأنما قد خلق يرعى السماء ؛ غذاء لروحه لتقوى وتشتد وتسمو حتى تقدر على أن تتصل بما وراء الطبيعة ، بروح الوجود ، بذات الذوات .

وبلغ محمد من العمر سنتين فإذا به يغدو ويروح فى قبيلة هوازن وقد تفتحت له القلوب وبشت له الوجوه وألقى إليه الناس أسماعهم وهم فى عجب من أمره ، فقد كان يتحدث حديثا فصيحا يأخذ بمجامع الألباب ، ويشب شبابا لا يشبه الغلمان .

وذات ليلة ران على دار حليمة حزن ثقيل فقد فصلت حليمة محمد وفى الغد ستنطلق به مع زوجها إلى مكة لتعيده إلى أمه آمنة بنت وهب ، وساد الجميع وجوم فقد نزل محمد فى سويداء قلوبهم ، صار بضعة منهم وقد أحبوه حبا جما ملك عليهم كل حواسهم . وقطع السكون قول الشيماء لأمها :

ـــ لماذا لا يمكث محمد فينا يا أمه ؟

ولزمت حليمة الصمت وقال الحارث :

ـــ فصل محمد ولم يعد فى حاجة إلى من ترضعه .

كانت أنيسة قد سعدت بسؤال أختها وكانت ترجو أن يمكث محمد فيهم ،

فلما سمعت قول أبيها أحست أن هذه آخر ليلة تجمع بينهم وبين الطفل الحبيب ، فقامت إلى حيث كان محمد وقبلته وفى الحلق غصة وفى العينين دموع .

وآن أوان الرحيل فركبت حليمة أتانها وحملته عليها معا ، فإذا بالشيماء تأتى وتعاود تقبيله وعبراتها تجرى على خديها ، وإذا بأنيسة تقف حزينة تستشعر إحساس من فقد عزيزا وأن الوجود صار قفرا فقد سلبت منه روحه التى كانت تخفق بين جنبيه .

وسارت حليمة على أتانها ومحمد معها وانطلق الحارث إلى جوارهما وهو مطرق يتمنى لو يعود بالطفل الذى أحبه وتعلق به كل أهل بيته . وراح يسأل نفسه ، ترى أتقبل أمه أن تدعه فينا سنتين أخريين ؟

وبلغ الركب مكة ، فذهبت حليمة ومحمد فى يدها والحارث إلى جوارهما لتطوف بالبيت العتيق وتتمسح بجدران الكعبة ، وراح محمد يطوف بالحرم وهو مشدوه يتفرس فى الأصنام الكثيرة التى أقيمت حول الكعبة ، فقد كانت أول مرة يرى فيها آلهة قومه وما يجرى عندها من مراسيم وعبادات .

ودخل الحارث وحليمة ومحمد إلى جوف الكعبة ، حيث كان تمثال هبل ، ورأى الناس وهم يستقسمون بالأزلام ويضربون بالقداح ولم يفقه مما يدور حوله شيئا ، ولكنه ضاق بالزحام فجذب يد حليمة وخرج والحارث فى أثرهما .

وسار الركب الصغير إلى الصفا حيث دور بنى هاشم ، ووقف الجميع أمام دار عبد الله بن عبد المطلب ، ونزلت حليمة عن أتانها ثم حملت محمدا وتقدم الحارث يطرق باب الدار ، وما لبث أن انفرج عن بركة الحبشية جارية

عبد الله ، فلما رأت محمدا أشرق وجهها بالفرح وخطفته من حليمة فى لهفة وراحت تمطره بقبلاتها وهى تستشعر كأنما ضمت الوجود كله إلى صدرها .

وراحت بركة تهرول إلى حيث كانت سيدتها وهى تحمل ابن عبد الله الغالى وتهتف فى فرح وانفعال :

ـــ محمد جاء .. محمد جاء .

ومس صوت بركة أذنى آمنة فانتفضت من الرأس إلى القدم ، وسرت البشرى فيها تملؤها بالنشوة والفرح . ولم تستطع أن تكبح عواطفها فراحت تستبق إلى حيث كانت بركة ومحمد الحبيب قادمين .

ورأته بقلبها قبل أن تراه بعينيها ، وراح فؤادها يقفز بين جنبيها يهوى إليه . وما إن مدت بصرها إليه حتى أحست أنها قد ملكت زينة الدنيا وبهجتها وأن أهازيج النشوة قد ملأت كل الكون .

وأخذته من بركة فى رفق وضمته إلى صدرها فى حنان وراحت تقبله فى كل مكان وقد تهللت بالفرح ، واستشعرت كأن عبد الله الحبيب قد بعث من جديد وآب إليها بعد طول غياب .

ولف محمد ذراعه حول عنق أمه وهو سعيد ، واستراح للعواطف الفياضة التى غمرته بها آمنة . لقد كانت حليمة تحبه ويا طالما ضمته إلى صدرها وقبلته وفاضت عليه بحنانها، ولكن ما يحسه فى تلك اللحظة أحر من كل حب فاض عليه فى أرض هوازن ، فقد كانت مشاعر آمنة تتدفق من قلب عامر بالحب على ابنها الوحيد الذى اختطف المنون أباه قبل أن تكتحل برؤيته عيناه .

كانت آمنة سعيدة غاية السعادة راضية كل الرضا بأن محمدا قد عاد من البيداء ليؤنس وحدتها ويملأ الدار الموحشة بهجة وأملا . وقد ربت سعادتها لما

خطر على بالها أن عمه حمزة بن عبد المطلب قد آب من الصحراء ، واستقر فى حجر أمه هالة ، وأن محمدا سيجد رفيقا فى مثل سنه يشاركه لعبه ولن يصبح ابنها الحبيب وحيدا .

وجاء العباس بن عبد المطلب وكان ابن خمس سنين يزور دار آمنة ، فقد كان العباس يدور على دور بنى هاشم يلعب مع صبيان الحى ويملأ فراغ يومه ، فلما وقعت عيناه على محمد بش له وإن كان يرنو إليه فى إنكار ، فابتسمت آمنة فرحا وقالت له :

ــ قبل أخاك .

لقد قالت له نسوة بنى هاشم يوم أن وضعت آمنة محمدا مثل ذلك القول ولكنه نسى مقالتهن ، وراح يدنو من الطفل الجميل وهو فى حيرة من أمره ، حتى قالت له آمنة أن محمدا هو ابن أخيه عبد الله وكان يسترضع فى بنى سعد وقد عاد ليمكث فيهم ولن يغيب عنهم بعد اليوم .

وذهبت آمنة إلى حيث كانت حليمة وزوجها الحارث وراحت تحدثهما حديثا لينا يفيض رقة ، وشكرت لهما عنايتهما بابنها الحبيب ، وقدمت إلى حليمة ثمن الرعاية فاغرورقت عيناها بالدموع لأنها كانت أحرص شيء على أن يعود محمد معها إلى دارها ، فقد ملأ فؤادها واستولى على مشاعرها . ورأت حليمة أن تحتال لتعود بمحمد فقالت :

ــ لو تركت بُنَيَّ عندى حتى يغلُظ .

واتسعت عينا آمنة دهشا وسرى فيها خوف فقد فاجأتها حليمة بذلك القول الذى لم يخطر لها على بال ، أتريد أن تعود به حليمة و لم يمكث معها إلا يوما أو بعض يوم ؟ وفيم كانت أوبته إذا كانت حليمة تريد أن تعود به إلى

هوازن ؟ إنها سترفض ذلك العرض فى رفق وكفى ما فات ، فهو سيشب هنا فى مكة ، بين أهله وعشيرته ليأخذ مكان أبيه الذى ذهب فى عمر الورود ، وقبل أن تفتح آمنة فاها لتعتذر قالت حليمة :

— فإنى أخشى عليه وباء مكة .

وباء مكة ؟ أجل وباء مكة . وخافت آمنة على ابنها الحبيب من ذلك الوباء . الخير لها أن تحتمل فراقه سنتين أخريين من أن يصاب محمد بالمرض وأن يهلك كما هلك أبوه من قبل ، واندكت كل مقاومة فى نفس آمنة وسربلها خوف على ابنها الوحيد فقالت فى صوت خافت مستسلم :

— خذيه .

ولم يكن أمرا سهلا أن ينتزع محمد من أحضان أمه . إنه التصق بها لا يريد أن يفصل بينه وبينها أحد ولو كانت أمه حليمة أو كان أبوه الحارث . فلم تزل حليمة تحدثه عن أخيه عبد الله وعن أخته أنيسة وأخته الشيماء وعن الغنمات التى يحبها وجبال هوازن وسمائها حتى قبل أن يعود معها ، ليتعلم الصبر على فراق الأحبة .

وسار الحارث ومحمد وحليمة حتى خرجوا من دار آمنة وآمنة ترنو إليهم خافقة القلب دامعة العين ، فقد جاء محمد ليهيج الذكريات ويحرك العواطف ثم يذهب مخلفا فى الدار التى بدأت تنبض بالحب والحياة فراغا وجفافا ووحشة .

وكان ذلك الفراق أول حزن أحسه الطفل الصغير ، وما أكثر الأحزان التى سيتحملها صابرا صاحب القلب الكبير .

٢٧

تأهب عثمان بن الحويرث ليعود إلى مكة ليضع التاج على رأسه ويصبح ملكا على تهامة بعد أن ولاه يوسطينوس الثانى إمبراطور الروم حاكما من قبله ، ورأى أن يصلى فى كنيسة أيا صوفيا قبل مغادرة القسطنطينية تملقا لقيصر وليبارك الله له فى خطواته المقبلة .

ودخل عثمان وهو يرتدى ثيابه العربية الكنيسة الفخمة وقد أطرق برأسه تواضعا لله وإن كان الزهو يملأ قلبه ، فقد بدأ يحس خطر نفسه بعد أن صار أول ملك فى قومه ، فما عرفت تهامة الملكية يوما ، وقد كان من يلى البيت منذ مضاض بن عمرو الجرهمى يحكم الأرض المقدسة بحكم منصبه الدينى .

كانت كنيسة أيا صوفيا آية من آيات الفن البيزنطى الذى امتزج فيه الفن الأغريقى الرومانى والفن الآرامى والإيرانى امتزاجا كاملا فخلق شيئا فريدا فى بابه ، أصيلا فى نوعه ، يمجد الدولة ويمجد فى ثنايا ذلك إله المسيحية .

كانت تماثيل المسيح كما تصور الفنان البيزنطى منتشرة فى أرجاء الكنيسة ، تماثيل تستثير حدة الانفعال ، تختلف عن تماثيل اليونان التى تجلب راحة النفس وانشراح الصدر للجمال ، تعكس قسوة العذاب الذى تحمله الإله تارة ، وتنم عن الخير الإلهى تارة أخرى . وقد انتشرت فى ساحة الكنيسة القباب التى أقيمت فوق مربعات وزينت الجدران بالفسيفساء ، واستعمل الذهب فى المخطوطات المحلاة بالصور ، ونحتت التماثيل من الرخام والبرونز الملون أو المموه بالذهب ، ولا غرو فقد كانت الكنيسة تجارى الأباطرة فى الفخامة

والعظمة . فإن كان للأباطرة أنصاف الآلهة قصور وعروش وقاعات للثياب وجناح للحريم ، فلا أقل من أن يكون بيت الإله فى مثل روعة قصور أنصاف الآلهة وفخامتها .

وشغل عثمان عن إلهه بتأمل التماثيل والزخارف والتهاويل وثياب رجال الدين ، ولم يحس ربه فى ضميره بل كان بعيدا عنه بعد الصحراء التى جاء منها وبساطتها عن ذلك التعقيد فى العقود والقباب والتماثيل ، وراح يصلى ويتلو دعاءه وهو شارد لا يفقه ما تتمتم به شفتاه ، فقد كان قلبه مشغولا بالحياة الدنيا التى أقبلت عليه ، والمجد العظيم الذى ينتظره .

وغادر عثمان كنيسة أيا صوفيا وركب بغلته وسار فى الشارع الأوسط وعن يمينه وشماله الحوانيت وقد غصت بالناس ، فلم يجذب انتباهه ما يجرى فى أعظم شوارع بيزنطة ، ولم يحفل بالتماثيل الرائعة القائمة فى كل مكان . فقد كان يغذ السير ليصل إلى بوابة المدينة التى تقوده إلى طريق الشرق ، إلى مكة عاصمة ملكه المرتقب .

وراح عثمان يقطع الفياف والقفار ، وكان فى كل خطوة يخطوها عربيا تغذى بمعتقدات العرب وإن اعتنق الدين المسيحى ، كان إذا مر بمكان موحش يعتقد أنه مأهول بالجن والأرواح فكان يحيى سكانه بقوله : « عموا ظلاما » خوفا ورهبة من الجن واستجلابا لعطفها عليه حتى لا تمس جلالته بسوء .

وإذا هبت عاصفة أو زمجرت زوبعة كان يفسر ذلك بقتال طوائف الجن ، وكان إذا رأى حية يعتقد أنه رأى بنت الجان، فقد كان عربيا جاهليا حتى النخاع وما كان الدين الذى اعتنقه قد سرى فى وجدانه مسرى معتقدات الآباء والأجداد .

ومرت الليالى والأيام وعثمان يطوى الأرض فى طرق قوافل التجارة ويمر

بمدن الشام والحجاز ، وهو حريص على كتاب يوسطينوس إلى أهل مكة ، حتى إذا ما لاحت لعينيه جبال الوادى خفق قلبه رهبة ، وقفز إلى رأسه سؤال : ترى كيف يقابل أهل الحرم أمر توليته ملكا عليهم ؟ وانتابه قلق وسرعان ما راح يقتل ذلك الاضطراب الذى لفه بأن يؤكد لنفسه أن ليس هناك بين المكيين من يجرؤ على رفض قرار أصدره إمبراطور الروم المبجل العظيم .

كانت مكة تمارس نشاطها التجارى ، يغدو ويروح فيها تجار من الشام والروم والفرس واليمن ومن كل مكان ، شاركوا المكيين فى سكناهم وتحالفوا مع أثريائهم ، وكان تجار الشام خاصة يجلبون القمح والزيت والخمور الجيدة إلى تجار مكة . وكان عبد الله بن جدعان والوليد بن المغيرة المخزومى وأثرياء مكة يقرضون الناس بالربا الفاحش ويمولون قوافل التجارة ويجنون الأرباح الطائلة .

وكانت مكة تمارس نشاطها الدينى يطوف أهلها بالبيت العتيق ويتمسحون بالأصنام ، وكان بعضها منحوتا من الحجارة وبعضها معمولا من النحاس وبعضها قوارير ، وكان صنم خزاعة من قوارير صفر ، ولم يتقرب المكيون إلى تلك الاصنام على أنها حجارة لا تضر ولا تنفع بل كانوا يعتقدون بحلول أرواح بتلك الأصنام ذات قوة فعالة خفية ، تطرد الخبائث عن عبادها وتجلب لهم الخير والبركات .

وكانت مكة تمارس حرياتها حتى أفلت الزمام وانقلبت الحرية إلى فوضى مدمرة تهدد الكيان المكى وتشتت الجماعات وتضعف الروابط بين الناس ، تلك الروابط التى تمكن من قيام مجتمع مدنى قادر على أن ينهض بأهله ليكون لهم حضارة بين الحضارات .

وتقدم عثمان بن الحويرث وقد لبس الحلة التى خلعها عليه إمبراطور الروم وركب بغلته وقد وضع عليها السرج المموه بالذهب وفى يده رسالة قيصر إلى أهل مكة وقد ختمها بالذهب . وما إن وقعت عيناه على الكعبة حتى تقاصرت نفسه وطافت به موجة من الرهبة وزاغت نظراته واستشعر جفافا فى حلقه واضطرابا يسرى فيه من الرأس إلى القدم .

ونزل عثمان عن بغلته وراح وهو المسيحى يطوف بالبيت العتيق مع المشركين والصابئين والحنفاء ، فقد كان الجميع يؤمنون أن البيت أول بيت وضع للناس ، وأن إبراهيم وإسماعيل قد أقاما القواعد من البيت كما أمرهما بذلك رب الناس أجمعين .

وانتهى عثمان من طوافه و لم يستطع أن يصبر على ما جاء به ، فقام فى الحرم وقال :

ـــ يا قوم . يا قوم .

فذهب الناس إليه وأعاروه سمعهم فقال :

ـــ يا قوم ، إن قيصر من قد علمتم أموالكم ببلاده وما تصيبون من التجارة فى كنفه ، وقد ملكنى عليكم . وإنما أنا ابن عمكم وأحدكم ، وإنما آخذ منكم الجراب من القرط والعكة من السمن والأوهاب ، فأجمع ذلك ثم أبعث به إليه ، وأنا أخاف إن أبيتم ذلك أن يمنع منكم الشام فلا تتجروا به ويقطع مرفقكم منه .

وساد القوم وجوم ، وقدم عثمان كتاب قيصر وقد ختم بالذهب ، وما إن قرئ الكتاب على الناس حتى نزل بقلوبهم هم ثقيل ، فقد كتب عليهم أن يؤدوا الجزية إلى قيصر عن يد وهم صاغرون .

واجتمع سادات قريش فى دار الندوة ، عقد أشراف القوم اجتماعات فى

الكعبة وفى الدور ، ودارت المناقشات حول ما جاءهم به عثمان بن الحويرث فخاف أهل مكة قيصر وأخذ بقلوبهم ما ذكر عثمان من متجرهم ، فاجتمعوا على أن يعقدوا على رأس عثمان بن الحويرث التاج .

وبينا كانت قريش على أحفل ما تكون من الطواف ، جاء أبو زمعة الأسود ابن المطلب بن أسد ابن عم عثمان وقام فى الكعبة وقال :

— يا قوم .. يا قوم .

وهرع الناس إلى أبى زمعة فإذا الغضب فى وجهه قد زوى ما بين حاجبيه وقد لاح عليه قوة وعزم ، وألقوا إليه أسماعهم فقال فى إنكار :

— عباد الله ، ملك بتهامة ؟!

وفهمها الناس فما كان فى تهامة ملك من قبل ، وما جاء به عثمان إن هو إلا بدعة ابتدعها يريد أن يذلهم بها ليصبح ملكا عليهم ، فانحاش الناس انحياش حمر الوحش ، وماج بعضهم فى بعض وثاروا لكرامتهم وحريتهم وقالوا فى غضب :

— صدقت . واللات والعزى ما كان بتهامة ملك قط .

فصاح أبو زمعة صيحة تجاوبت فى أرجاء مكة :

— إن قريشا لقاح لا تملك .

ونقض الناس ما كانوا عاهدوا الحويرث عليه ، فسار ابن الحويرث إلى داره مطاطئ الرأس وقد ملأ الحنق جوانبه ، يرن فى أعماقه صوت ابن عمه أبى زمعة الأسود :

— إن قريشا لقاح لا تملك .

٢٨

رجعت حليمة بمحمد إلى أرض هوازن وقلبها يرقص طربا بين جنبيها فقد كانت حريصة على أن تعود به بعد أن أحبته بكل جوارحها ، وكان الحارث سعيدا بأوبته لما كان يرى من بركته فقد صار التوفيق حليفهم مذ ذهبوا إلى مكة يلتمسون الرضعاء وعادوا بمحمد .

ورأت الشيماء رجوع أبويها فى رفقتهما أخوها الحبيب فصاحت صيحة فرح تجاوبت لها جبال هوازن ، وهرعت إليهم فخطفت محمدا من أمها وراحت تضمه إلى صدرها الذى كان يخفق بالنشوة والحب والحنان .

عاد محمد إلى البيداء إلى معبد الله الواسع العريض ، يرقب نجوم السماء ويرصد اختلاف الليل والنهار ويشاهد كل صباح ومساء شروق الشمس وغروبها وسريان النسيم وهبوب الرياح ليتعاطف مع الكون ويتناسق مع الوجود ، وليومض فى قلبه فيض روحى يمكنه من الاتحاد مع الطاقة الروحية التى تسرى فى الوجود .

وراح محمد يغدو ويروح فى بنى سعد يرحب به الناس ، فقد ألقيت محبته فى قلوبهم . وكان الصبيان يفرحون به إذا ما شاركهم رمى السهام فهو يتجنبهم فى لعبهم ويؤثر أن يقلب وجهه فى السماء ، وما كان يسارع إليهم إلا إذا ما شدوا الأقواس ليرموا السهام فقد كانت الرماية لعبته المفضلة .

وذات يوم خرج ينقب عن إخوته فلم يجد منهم أحدا . فعاد إلى حليمة وقال :

— يا أماه مالى لا أرى إخوتى بالنهار ؟

فابتسمت حليمة وقالت له فى حب :

— فدتك نفسى ، إنهم يرعون غنما لنا فيروحون من ليل إلى ليل .

فقال فى رجاء :

— ابعثينى معهم .

كان منذ نعومة أظفاره بضيق بالفراغ ، فما ولى الليل ووافى خروج أبناء الحارث لرعى الغنم حتى خرج معهم مسرورا يحنو على الخراف ويمرر يده فى حنان على الماعز فتتحرك مشاعر الحب فى قلبه ، ويمد بصره إلى المراعى الخضر ، ويصيخ سمعه إلى همسات الليل ويقلب وجهه فى السماء ، ويهرع فى فرح إلى عيون الماء والآبار ، فيثرى فؤاده بكنوزه من المحبة ، وتتفتق براعم نفسه عن بعض أسرار الكون ، وتقوى روحه وتشتد أجنحتها لتسمو إلى ما وراء الطبيعة وإلى ما فوق السموات .

وظل محمد يرعى الغنم ، يخرج مسرورا ويعود مسرورا ، ينسكب فى ضميره الحب والرحمة والحنان ويتعلم الوفاق بينه وبين الوجود على مر الأيام ، فقد هيأ له ربه فرصة رعاية الغنم ليتدرب على رعاية الناس ؛ فراعى الغنم سيصبح عما قريب راعى الشعوب ورحمة البشر .

وخرج محمد وعبد الله يوما وانطلقا إلى الجبل ، ووقف الصبيان ينظران إلى ارتفاعه فى دهش ، و لم يخطر على بال عبد الله أن يرقى فيه بينما عقد محمد العزم على أن يصعد فيه حتى يقعد على ذروته ، وما لبث أن تقدم وراح يمشى على سفحه بخطى ثابتة وعبد الله يصيح به فى هلع يلتمس منه أن يعود .

واستمر محمد فى صعوده وقد تهلل بالفرح ، حتى إذا ما بلغ منتهاه قعد على ذروة الجبل وراح يتلفت ، فإذا بالوهاد والوديان منبسطة تحت أقدامه ، وإذا

بكل شيء خاشع كأنما قد سجد فى محراب الله ، وإذا بأصوات رياح تتجاوب فى المكان كأنما يد ماهرة تعزف على قيثارة الإيمان ، وملأ جلال الكون نفس الصبى فشخص ببصره إلى السماء ، فاستشعر كأن فيضا من النور يغمر فؤاده .

ورأى عبد الله محمدا وقد استقر على ذروة الجبل فسرى الخوف فيه ، ثم راح يعدو إلى حيث كان أبواه وهو يقول فى فزع :

— أخى القرشى .. أخى القرشى .

وذهب الحارث وحليمة إلى ابنهما وقالا له :

— ماذا به ؟

— هناك على ذروة الجبل .

وراح الحارث وحليمة يعدوان حتى إذا ما بلغا الجبل راحا يصعدان فيه وقد اشتد وجيب قلبيهما ، كانا يخشيان أن يهوى محمد من فوقه قبل أن يبلغاه ، واستمرا يرقيان فى حذر شديد حتى إذا ما وصلا إلى حيث كان وجداه هادئا ساكنا شاخصا ببصره إلى السماء وقد لفه هدوء عجيب ولاح فى وجهه أمن وسلام .

والتفت الحارث إلى حليمة فى دهش فقد توجت شفتى الصبى بسمة رقيقة عذبة وما عرف الخوف طريقه إلى قلبه ، ومالت حليمة وأخذت محمدا من يده وراحت تهبط فى الجبل والحارث من خلفهما يمد يده ليسند حليمة كلما تأرجحت على سفح الجبل .

وخلا الحارث بحليمة وقال لها :

— رديه على جده واخرجى من أمانته .

كان الحارث يخشى أن يصيب محمدا مكروه بعد أن عرف كيف يشتد فى

الجبل ولما يبلغ الخامسة من عمره ، وكان يرى أن خير ما تفعله حليمة أن تعيده إلى أمه قبل أن تدك عنقه ، وكانت حليمة تميل إلى أن يبقى ابنها معها ولكنها خشيت هلاكه فوافقت الحارث على رأيه .

وخرج الحارث وحليمة ومحمد يريدون مكة وقد أشرف موسم الحج وامتلأت السبل بالحجاج ، واستمروا فى سيرهم حتى بلغوا سوق ذى المجاز فنزلوا يجوسون خلال السوق ، وإذا بعراف يؤتى إليه بالصبيان ينظر إليه فقدمت حليمة إليه محمدا ، فلما نظر إليه صاح :

ـــ يا معشر العرب ، اقتلوا هذا الصبى ، فليقتلن أهل دينكم وليكسرن أصنامكم وليظهرن أمره عليكم .

فزاغت به حليمة عن الطريق فى الوقت الذى اجتمع فيه الناس إلى العراف يسألونه :

ـــ ماذا بك ؟

ـــ اقتلوا هذا الصبى ؟

ـــ أى صبى ؟ .

ـــ هذا الصبى .

فراح الناس يتلفتون فلا يرون شيئا وصوت العراف يرن فى آذانهم :

ـــ رأيت غلاما والآلهة ليقتلن أهل دينكم وليكسرى آلهتكم وليظهرن أمره عليكم .

وتفرق الناس فى السوق يطلبونه ولكنهم لم يجدوه ، فقد كان ينطلق إلى مكة فى رفقة حليمة والحارث فى رعاية الله ، حتى إذا ما بلغوا أعلى مكة تلفتت حليمة فلم تجده فتملكها فزع شديد وراحت تجرى هنا وهناك وتناديه ، والحارث يبحث عنه بين الناس الذين جاءوا من كل فج عميق ليؤدوا مناسك

الحج . وانبهرت أنفاس حليمة وتفصد العرق من الحارث والتقى الزوجان بعد أن يئسا من العثور عليه ، فاتفقا على أن ينطلقا إلى جده عبد المطلب ليبعث من يبحث عنه .

كان عبد المطلب جالسا على فراشه فى ظل الكعبة وقد جلس عنده ورقة بن نوفل وأبو جهل وزيد بن عمرو بن نفيل وبعض سادات قريش . وقد وقعت عيناه على حليمة والحارث وهما يتقدمان إليه فى خطى مضطربة دون أن يكون معهما حفيده الحبيب ، وقرأ فى وجهيها القلق والحيرة فمشى الخوف إلى صدره وقال لحليمة :

ــ ما وراءك ؟

فقالت حليمة وقد نكست رأسها وغلفت صوتها رنة أسى :

ــ إنى قدمت بمحمد هذه الليلة ، فلما كنت بأعالى مكة أضلنى فوالله ما أدرى أين هو .

أضلته فى أعالى مكة ؟ أضلته فى ذلك الوقت الذى يأتى فيه الحجاج على كل ضامر من كل فج عميق ؟ وارتسم الهلع على وجه عبد المطلب فإن ضاع محمد ماتت آمنة كمدا وتجددت أحزان بنى هاشم على عبد الله فتى قريش الذبيح ، تلك الأحزان التى دثرها بغلالة من الفرح مولد ابن عبد الله الضال .

وهب الرجال على رواحلهم لينطلقوا إلى أعالى مكة وقد ضجوا لضياع محمد ، وقد سرى فى صدورهم خوف وقلق على الصبى وشفقة على عبد المطلب الذى تعلق بأستار الكعبة وراح يبتهل إلى ربه أن يرد ولده وقد بللت الدموع عينيه .

خاف القوم على الصبى الذى جعل الله كيد أصحاب الفيل فى تضليل ،

وأرسل عليهم طيرا أبابيل ، ترميهم بحجارة من سجيل ، فجعلهم كعصف مأكول ، ليحفظه من معرة جيش أبرهة . وخافوا على قريش ونزل بهم هم ثقيل خشية أن تتجدد أحزان بنى هاشم ، وما دار بخلد أحدهم عظم النكسة التى كانت تصيب البشرية لو أن محمد بن عبد الله قد ضاع فى تلك الليلة .

التذييل

كانت العرب فى الجاهلية على صلة بالفرس والروم واليمن ومصر وكل دول الأرض فى ذلك الزمن ، ولم يكن العرب مستقرين فى جزيرتهم لا صلة بينهم وبين العالم الخارجى كما كان يظن الإخباريون والمؤرخون الإسلاميون الذين دونوا تاريخ العرب فى الجاهلية ، وقبل مبعث الرسول عليه الصلاة والسلام . وقد كانوا أهل حضارة وقد عرفوا اليهودية والنصرانية والصابئة والمجوسية والحنيفية وكل ديانات الشعوب . وقد هجر بعضهم دين الآباء واعتنقوا اليهودية أو النصرانية ، وراح بعضهم يبحث عن الحنيفية الحقة دين إبراهيم ، وظل أغلبهم على عبادة ما كان آباؤه يعبدون .

ويطلق لفظ الجاهلية على حال العرب التى كانوا عليها قبل الإسلام لما كانوا عليه من مزيد الجهل فى كثير من الأعمال والأحكام ، يقتلون أولادهم سفها بغير علم ، ويحرمون ما رزقهم الله افتراء على الله ، قد ضلوا وما كانوا مهتدين .

وقيل إن الجاهلية هى أيام الفترة وهى الزمن بين الرسولين ، وقد تطلق على زمن الكفر مطلقا ، وعلى ما قبل الفتح ، وعلى ما كان بين مولد النبى والمبعث . وعن ابن خالوية : إن هذا اللفظ اسم حدث فى الإسلام للزمن الذى كان قبل البعثة .

ولفظ الجاهلية قد يكون اسما للحال وهو الغالب فى الكتاب والسنة . كقول النبى ﷺ لأبى ذر : إنك أمرؤ فيك جاهلية . وقول عمر رضى الله

تعالى عنه : إنى نذرت فى الجاهلية أن أعتكف ليلة . وقول عائشة رضى الله عنها : كان النكاح فى الجاهلية على أربعة أنحاء . وقولهم : يا رسول الله كنا فى جاهلية وشر . فإن الجاهلية وإن كانت فى الأصل صفة ولكن غلب على لفظها الاستعمال حتى صار اسما ومعناه قريب من معنى المصدر .

وقد يكون لفظ الجاهلية اسما لذى الحال ، فتقول : طائفة جاهلية وشاعر جاهلى ، وذلك نسبة إلى الجهل الذى هو عدم العلم أو عدم اتباع العلم ، كقوله تعالى « وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما » . وكقول ﷺ (إذا كان أحدكم صائما فلا يرفُثْ ولا يجهل) .

كل من عمل سوءا فهو جاهل وإن علم أنه مخالف للحق ، فالعلم الحقيقى الراسخ فى القلب يمتنع أن يصدر معه ما يخالفه من قول أو فعل ، فمتى صدر خلافه فلا بد من غفلة القلب عنه . وكل ما يخالف ما جاء به المرسلون فهو جاهلية ، وتلك كانت الجاهلية العامة ، فأما بعد مبعث الرسول ﷺ فالجاهلية المطلقة قد تكون فى مصر دون مصر ، وقد تكون فى شخص دون شخص . كالرجل قبل أن يسلم فإنه فى جاهلية ، فأما فى زمان مطلقا فلا جاهلية بعد مبعث محمد ﷺ ، فإنه لا تزال من أمته طائفة ظاهرين على الحق إلى قيام الساعة .

وقد تقوم الجاهلية المقيدة فى بعض ديار المسلمين وفى كثير من الأشخاص المسلمين ، كما قال ﷺ : أربع فى أمتى من أمر الجاهلية لا يتركونهن : الفخر بالأحساب ، والطعن فى الأنساب ، والاستسقاء بالنجوم ، والنياحة .

وقد اختلف المفسرون فى المراد من أهل الجاهلية الأولى فى قوله تعالى « وقرن فى بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى » . فقيل : كانت فى الزمن الذى ولد فيه إبراهيم عليه السلام ، فقد كانت المرأة تلبس الدرع من

اللؤلؤ فتمشى فى وسط الطريق تعرض نفسها على الرجال . وقيل : كانت بين آدم ونوح وحكيت لهم سيرة ذميمة . وقيل ما بين نوح وإدريس وقيل ما بين نوح وإبراهيم ، قيل إن المرأة كانت تلبس الدرع من اللؤلؤ غير مخيط الجانبين وتلبس الثياب الرقاق ولا توارى بدنها . وقالت فرقة : ما بين موسى وعيسى ومحمد ﷺ . وقال أبو العالية هى زمان داود وسليمان عليهما السلام ، كان للمرأة قميص من الدر غير مخيط الجانبين ، وكان النساء يظهرن ما يقبح إظهاره حتى كانت المرأة تجلس مع زوجها وخلّها فينفرد خلّها بما فوق الإزار وينفرد زوجها بما دون الإزار إلى أسفل ، وربما سأل أحدهما صاحبه البدل . وقال مجاهد : كان النساء يمشين بين الرجال فذلك التبرج . قال ابن عطية : والذى يظهر عندى أنه تعالى أشار للجاهلية التى أدركتها فأمرن بالنقلة عن سيرتهن فيها ، وهى ما كان قبل الشرع من سيرة الكفار لأنهم كانوا لا غيرة عندهم فكان أمر النساء دون حجبه ، وجعلها أولى بالنسبة إلى ما كن عليه ، وليس المعنى أن ثم جاهلية أخرى ، وقد أوقع لفظ الجاهلية على تلك المدة التى قبل الإسلام .

وكان التضارب فى الروايات هو سمة الإخباريين المسلمين الذين دونوا تاريخ مولد الرسول ، كما كانت الصفة الغالبة لرواياتهم على الدوام . فعن ابن إسحاق لم يلبث عبد الله بن عبد المطلب أن توفى وأم رسول ﷺ حامل به ، وقيل إن موت والده كان بعد أن تم لها من حملها شهران ، وقيل قبل ولادته بشهرين ، وقيل كان فى المهد حين توفى أبوه ابن شهرين ، وقيل كان ابن تسعة أشهر ، وقيل ابن ثمانية عشر شهرا ، وقيل ابن ثمانية وعشرين شهرا . ولما كانت عادة العرب أن يدفعوا مواليدهم إلى المراضع فى اليوم الثامن من مولدهم ، ولما كانت المراضع قد أبته ليتمه ، فقد اعتمدت الرأى القائل بأن

أباه مات قبل ولادته بشهرين .

وقد تضاربت أقوالهم فى السنة التى هاجم فيها أصحاب الفيل مكة ، فقيل فى السنة التى ولد فيها الرسول ﷺ ، وقيل قبل مولده بخمس وعشرين سنة ، وقيل بخمس عشرة سنة ، وقبل بعد مولده بخمس عشرة سنة ، ولما كان الرسول ﷺ قد ولد فى سنة ٥٧٠ من مولد المسيح ، ولما كان أبرهة قد عاد إلى اليمن بعد أن أصيب جيشه بالجدرى أثناء حصار مكة فى نفس السنة ، فقد أخذت بالرأى القائل أن رسول ﷺ قد ولد فى عام الفيل .

وقد كتب الإخباريون الإسلاميون تاريخ مولد الرسول بعد أن انتشر الإسلام وآمنوا بالدين الذى جاءهم به محمد ﷺ ، فكتبوا تاريخ هذه الحقبة بأقلام مفتونة بعظمة ذلك الوليد الذى أخرجهم من الظلمات إلى النور ، فأكثروا من ذكر البشارات والإرهاصات بمولده ، وبالغوا فى بعضها حتى بدا كأن الغيب قد أصبح فى تلك الفترة من الزمن كتابا مفتوحا ، فقد قيل فى رواية عن أمه أنها قالت : لما خرج من بطنى نظرت إليه فإذا هو ساجد قد رفع أصبعيه كالمتضرع المبتهل ، وروى أنه قبض قبضة من تراب وأهوى ساجدا ، فبلغ ذلك رجلا من بنى لهب فقال لصاحبه : لئن صدق هذا الفأل ليغلبن هذا المولود أهل الأرض . وروى ابن سعد فى طبقاته الكبرى أن رسول الله ﷺ قال : رأت أمى حين وضعتنى سطع منها نور أضاءت له قصور بصرى . وروى السهيلى عن الواقدى . أنه ﷺ لما ولد تكلم فقال : جلال ربى الرفيع . وعن كعب الأخبار وكان على دين اليهودية قبل الإسلام : إنى أجد فى التوارة « عبدى أحمد المختار مولده بمكة » .

وقيل : كان بمر الظهران راهب من أهل الشام يدعى عيص وقد كان آتاه الله علما كثيرا ، وكان يلزم صومعة له ويدخل مكة فيلقى الناس ويقول :

يوشك أن يولد فيكم مولود يا أهل مكة تدين له العرب وتخضع ويملك العجم هذا زمانه ، فمن أدركه واتبعه أصاب حاجته ، ومن أدركه وخالفه أخطأ حاجته . فكان لا يولد بمكة مولود إلا ويسأل عنه ويقول : ما جاء بعد . فلما كان صبيحة اليوم الذى ولد فيه رسول ﷺ خرج عبد المطلب حتى أتى عيصا فوقف على أصل صومعته ، فنادى فقال : من هذا ؟ فقال : أنا عبد المطلب . ما ترى عليه ؟ فقال : كن أباه ، فقد ولد ذلك المولود الذى كنت أحدثكم عنه وأن نجمه طلع البارحة ، وعلامة ذلك أنه الآن وجع فيشتكى ثلاثا ثم يعافى . فاحتفظ لسانك فإنه لم يحسد حسده أحد . ولم يبغ على أحد كما يبغى عليه . قال : فما عمره ؟ قال : إن طال عمره لم يبلغ السبعين ، يموت فى وتر دونها فى إحدى وستين أو ثلاث وستين .

وقال الجلال السيوطى فى خصائصه الصغرى : إن من خصائصه ﷺ تنكيس الأصنام لمولده . وعن عبد المطلب قال : كنت فى الكعبة فرأيت الأصنام سقطت من أماكنها وخرت سجدا ، وسمعت صوتا من جدار الكعبة يقول : ولد المصطفى المختار ، الذى تهلك بيده الكفار ، ويطهر من عبادة الأصنام ، ويأمر بعبادة الملك العلام .

وقال الإمام الماوردى فى « أعلام النبوة » بعد أن ذكر وفود عبد المطلب على سيف بن ذى يزن . قال سيف : يا عبد المطلب إنى مفض إليك عن سر علمى ما لو كان غيرك لم أبح له . ولكن رأيتك معَدِنه وأطلعتك عليه فليكن عندك مطويا حتى يأذن الله فيه . فإن الله بالغ فيه أمره . إنى أجد فى الكتاب المكنون ، والعلم المخزون ، الذى اخترناه لأنفسنا واحتجناه دون غيرنا خبرا عظيما وخطرا جسيما ، فيه شرف الحياة وفضيلة الوفاء للناس عامة ، ولرهطك كافة ، ولك خاصة . قال عبد المطلب : أيها الملك فمثلك من سرَّ

وبر ، فما هو فداك أهل الوبر ، زمرا بعد زمر ؟ . قال : إذا ولد بتهامة ، غلام بين كتفيه شامة ، كانت له الإمامة ، ولكم به زعامة ، إلى يوم القيامة . فقال له عبد المطلب : أبيت اللعن لقد أتيت بخبر ما أتى بمثله وافد ، فلولا هيبة الملك وإجلاله وإعظامه لسألته من بشارته إياى ما أزداد به سرورا . قال ابن ذى يزن : هذا حينه الذى يولد فيه أو قد يولد ، اسمه أحمد ، يموت أبوه وأمه ، ويكفله جده وعمه ، وقد ولدناه مرارا ، والله باعثه جهارا ، وجاعل منا له أنصارا . يعز بهم أولياؤه ويذل بهم أعداؤه . يضرب بهم الناس عن عرض ، ويستفتح بهم كرائم الأرض . تكسر الأوثان ، وتخمد النيران ، ويعبد الرحمن . ويدحر الشيطان . قوله فصل ، وحكمه عدل . يأمر بالمعروف ويفعله ، وينهى عن المنكر . قال عبد المطلب : أيها الملك عز جدك ، وعلا عقبك ، وطاب ملكك . وطال عمرك . فهل الملك سارِّى بإفصاح ، فقد أوضح بعض الإيضاح ؟ فقال ابن ذى يزن : والبيت ذى الحجب ، والعاملات على النصب ، إنك يا عبد المطلب ، لجده غير الكذب . فخر عبد المطلب ساجدا ، فقال ابن ذى يزن : ارفع رأسك ، ثلج صدرك ، وعلا أمرك ، فهل أحسست شيئا مما ذكرت لك ؟ فقال : نعم أيها الملك كان لى ابن وكنت به معجبا رفيقا ، فزوجته كريمة من كرائم قومى آمنة بنت وهب بن عبد مناف ، فأتت بغلام سميته محمدا ، مات أبوه وأمه ، وكفلته أنا وعمه ، بين كتفيه شامة ، وفيه كما ذكرت من علامة . قال ابن ذى يزن : إن الذى قلت لك لكما قلت لك فاحتفظ بابنك ، واحذر عليه اليهود فإنهم له أعداء ، ولن يجعل الله لهم عليه سبيلا فاطو ما ذكرته دون هؤلاء الرهط الذين معك ، فإنى لست آمن أن يداخلهم النفاسة ، من أن تكون لك الرياسة ، فيبغون له الغوائل ، وينصبون له الحبائل . وهم فاعلون وأبناؤهم ، ولولا أنى أعلم أن

الموت يجتاحنى قبل مبعثه لسرت بخيلى ورجلى حتى أصير بيثرب دار ملكه ، فإنى أجد فى الكتاب الناطق ، والعلم السابق . أن يثرب استحكام أمره ، وأهل نصرته ، وموضع قبره ولولا أنى أقيه الآيات ، وأحذر عليه العاهات ، لأعلنت على حداثة سنه ذكره ، وأوطيت أسنان العرب عقبه ، ولكنى صارف ذلك إليك ، بغير تقصير ممن معك .

وقيل إن ليلة ولادته ﷺ تزلزلت الكعبة و لم تسكن ثلاثة أيام بلياليهن ، وكان ذلك أول علامة رأت قريش من مولد النبى ﷺ ، وارتجس أيوان كسرى وسمع لشقة صوت هائل ، وسقط من ذلك الإيوان أربع عشرة شرفة . وأنه صار تلك الليلة كل واحد من بيوت نار فارس التى كانوا يعبدونها خامدة نيراته ، وغور ماء عيون الفرس فى الأرض حتى لم يبق منها قطرة . ورأى كسرى ما هاله وأفزعه . فلما أصبح تصبر ، ثم رأى أنه لا يدخر ذلك عن مرازبته فجمعهم ولبس تاجه وجلس على سريره ، ثم بعث إليهم فلما اجتمعوا عنده قال . أتدرون فيما بعثت إليكم ؟ قالوا لا إلا أن يخبرنا الملك . فبينما هم كذلك إذ ورد عليهم كتاب بخمود النيران ، وكتاب من صاحب إيليا يخبره أن بحيرة ساوة غاضت تلك الليلة ، وورد عليه كتاب صاحب الشام يخبره أن وادى السماوة انقطع تلك الليلة ، وورد عليه كتاب صاحب طبرية يخبره بأن الماء لم يجر فى بحيرة طبرية . فازداد غما إلى غم ، ثم أخبرهم بما رأى وما هاله ، فقال الموبذان : فأنا أصلح الله الملك قد رأيت فى هذه الليلة رؤيا ، رأيت إبلا صعابا ، تقود خيلا عرابا ، قد قطعت دجلة وانتشرت فى بلادها . فقال كسرى : أى شيء يكون هذا يا موبذان ؟ قال : حدث يكون فى ناحية العرب ، فابعث إلى عاملك بالحيرة يوجه إليك رجلا من علمائهم فإنهم أصحاب علم بالحدثان .

فكتب كسرى عند ذلك : من كسرى ملك الملوك إلى النعمان بن المنذر . أما بعد فوجه إلىّ برجل عالم بما أريد أن أسأله عنه . فوجه إليه بعبد المسيح الغسانى وهو معدود من المعمرين عاش مائة وخمسين سنة.فلما ورد عليه قال : لك علم بما أريد أن أسألك عنه ؟ قال : ليسألنى الملك عما أحب ، فإن كان عندى علم منه وإلا أخبرته بمن يعلمه .

فأخبره بالذى وجه إليه فيه ، قال : علم ذلك عند خالى يسكن مشارف الشام يقال له سطيح . قال : فأته فاسأله عما سألتك عنه ثم ائتنى بتفسيره .

فخرج عبد المسيح حتى انتهى إلى سطيح ، وقد أشفى على الضريح ، وعمره إذا ذاك ثلاثمائة سنة ، وكان جسدا ملقى لا جوارح فيه ، وكان لا يقدر على الجلوس إلا إذا غضب فإنه ينتفخ فيجلس ، وكان وجهه فى صدره و لم يكن له رأس ولا عنق ، و لم يتحرك منه إلا اللسان ، فقال سطيح : جاء عبد المسيح ، على جمل مشيح (سريع) ،إلى سطيح ،وقد وافى على الضريح (الموت) . بعثك ملك ساسان ، لارتجاس الإيوان . وخمود النيران . ورؤيا الموبذان . رأى إبلا صعابا ، تقود خيلا عرابا ، قد قطعت دجلة وانتشرت فى بلادها . يا عبد المسيح ، إذا كثرت التلاوة ، وظهر صاحب الهراوة ، وغاضت بحيرة ساوة ، وخمدت نار فارس ، فليست بابل للفرس مقاما ، ولا الشام لسطيح شاما ، يملك منهم ملوك وملكات ، على عدد الشرفات ، وكل ما هو آت آت . ثم قضى سطيح مكانه .

رأى الكتاب المحدثون ما فى هذه الأخبار والأحاديث من وضع ظاهر لا يحتاج إلى تمحيص لتبيان زيفه ، فرفضوا كل ما يتعلق بالبشارات والإرهاصات بمولد النبى ﷺ ، وأنكروا كل المعجزات ، حتى أحلام الآباء والأمهات رفضوها ، ولعل ذلك الرفض مرده خشيتهم من فرويد الذى يأبى أن يعترف

بالرؤيا الصادقة ، ويرد كل الأحلام إلى الغريزة الجنسية ، كأنما قد استحالت نظرية فرويد التي تؤكد أن الحياة كلها جنس ومنبثقة من خلال الجنس ، إلى دين يطرد من حظيرة الإيمان كل من يمس قدسيتها .

وعندى أن الفريقين قد جانبهما التوفيق ، الفريق الذى دفعه حبه لنبيه إلى وضع أخبار وأحاديث تروى الخوارق والمعجزات التى وقعت عند مولد محمد ﷺ قد أساء إلى سيرة النبى العظيم ، فليس من المعقول ولا من المقبول أن الأمر كان بمثل ذلك الوضوح ، فالاختراع ظاهر يدمغ أغلب الروايات بالكذب والتلفيق ، وما كانت تلك الخوارق والمعجزات لتزيد الإنسان الكامل شرفا على شرف . والفريق الذى دفعه خوفه من دعاة العلم الحديث إلى إنكار البشارات والأحلام قد أساء إلى نفسه ، فالقرآن الكريم يؤكد أن أهل الكتاب من يهود ونصارى كانوا على علم بمبعث النبى الأمى الذى سيبعثه الله فى الأميين لا فى بنى إسرائيل : « الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ، وإن فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون . الحق من ربك فلا تكونن من الممترين » . « الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوارة والإنجيل ، يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم ، فالذين آمنوا به وعزّروه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه أولئك هم المفلحون » .

كان أهل الكتاب من يهود ونصارى يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ، وقد ادعى بعض الذين جاءوا بعد المسيح من الأنبياء الكذبة أنهم « الفراقليط » الذى بشر به المسيح . وقد بذلت كل جهد فى الأجزاء السابقة أن أوضح البشارات التى جاءت فى التوراة والإنجيل ونبوءات زرادشت وساسان ، وقد

أوردت فى هذا الجزء من السيرة بعض نبوءات الكهان والرهبان والأحبار ، وإنى لا أستطيع أن أجزم بصحتها ولا أملك أن أكذبها ، ولكنى سردتها توكيدا لإيمانى بما أشار به القرآن الكريم من أن أهل الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم

وأنكر بعض الكتاب المحدثين رؤيا عبد المطلب ورؤيا آمنه التى بشرت فيها بأنها قد حملت بسيد هذه الأمة ، وكل الرؤى المتنبئة لأن فرويد قد لقنهم الرؤى الصادقة ، فكيف يرى الإنسان رؤيا صادقة إذا كانت الغريزة الجنسية هى مصدر كل الأحلام ؟

كان هم فرويد تلويث الدين والأخلاق : إن التسامى نوع من الشذوذ (١) ، وإن الأخلاق تتسم بطابع القسوة حتى فى درجتها الطبيعية العادية ، وإن الأساطير المسيحية تصور فى حقيقتها رغبة الابن (المسيح) فى قتل والده (الرب الإله) وإن كان قد كبت هذه الرغبة فقتل نفسه بدلا من أبيه ، ولكن أصبح إلها مكان أبيه ! وإن الحضارة تتعارض مع النمو الحر للطاقة الجنسية ! وإن الدين والأخلاق والحضارة تنشأ من الكبت الجنسى ، والكبت الجنسى خطر على الكيان النفسى والعصبى لأنه يصيب النفس بالعقد والاضطرابات .

كان فرويد فى خدمة صهيون ، وقد جاء فى كتاب برتوكولات حكماء صهيون : « يجب أن نعمل لتنهار الأخلاق فى كل مكان فتسهل سيطرتنا .. إن فرويد منا . وسيظل يعرض العلاقات الجنسية فى ضوء الشمس لكى لا يبقى فى نظر الشباب شىء مقدس ، ويصبح همه الأكبر هو إرواء غرائزه الجنسية وعندئذ تنهار أخلاقه » .

---

(١) The Contributions to Sexual Theory.

هذا هو فرويد الذى يرتجف منه كتّابنا المحدثون ويخشون أن يقروا بإمكان وقوع الرؤيا الصادقة بين البشر ، ما دام فرويد قد لقنهم أن حياة الإنسان حياة حيوانية بحتة ، فغرائزه هى التى تحكمه وهى التى تسيطر على كل نشاطه ، والجانب المسمى « الروح » لا وجود له على الإطلاق .

إن القرآن الكريم يؤكد وقوع الرؤيا الصادقة ، وسورة يوسف كلها تأكيد للرؤيا وتأويل الأحاديث ، وواقع الناس جميعا يؤكد هذه الحقيقة على الرغم من محاولة فرويد فى كل نظريته إنكار ذلك الجانب فى البشر ، وقد أوردت الرؤى التى رآها الملوك والكهان وعبد المطلب وآمنة ، وأوردت تأويل تلك الرؤى ، فمن حق آمنة أن تحلم وأن نرى ابنها سيدا لقومه فذلك حق كل أنثى ، وما أحسب أن أما على وجه الأرض لم تحلم بمستقبل مشرق لابنها الحبيب .

كان من شيم العرب وأخلاقهم إذا ولد لهم ولد يلتمسون له مرضعة من غير قبيلتهم ليكون أنجب للولد وأفصح له ، وقد أخذت حليمة محمدا ﷺ .
ويروى رواة السيرة حديث حليمة قالت : فلما أخذته رجعت به إلى رحلى ، فلما وضعته فى حجرى أقبل ثدياى بما شاء الله من لبن فشرب حتى روى ، وعرضت عليه الأيسر فأباه وكانت تلك حالته بعد ، وشرب معه أخوه حتى روى ثم نام ، وما كنا ننام معه قبل ذلك ، فقام زوجى إلى شارفنا فإذا هى لحافل (أى ممتلئة الضرع من اللبن) فحلب منها ما شرب وشربت حتى انتهينا ريا وشبعا فبتنا بخير ليلة. يقول صاحبى حين أصبحنا: تعلمى والله يا حليمة لقد أخذت نسمة مباركة . قلت : والله إنى لأرجو ذلك . ثم خرجنا وركبت أتانى وحملته ﷺ معى عليها ، فوالله لقطعت بالركب ما يقدر عليها شيء من حمرهن حتى إن صواحبى يقلن لن : يا بنت أبى ذؤيب ويحك أربعى

(ارفقى) ، أليس هذا أتانك التى كنت خرجت عليها تخفضك طورا وترفعك أخرى . فأقول لهن : بلى والله إنها لهى ، فيقلن والله إن لها لشأنا . ثم قدمنا منازل بنى سعد ولا أعلم أرضا من أراضى الله أجدب منها ، فكانت غنمى تروح على حين قدمنا به شباعا لبنا فنحلب ونشرب ، حتى كان الحاضر فى المنازل من قومنا يقول لرعاتهم : ويلكم اسرحوا حيث يسرح راعى بنت أبى ذؤيب ، فتروح أغنامهم جياعا ما تبض بقطرة لبن وتروح غنمى شباعا لبنا ، فلم نزل نعرف من الله تعالى زيادة الخير حتى مضت سنتان وفصلته .

و لم أسرد هذه الأحداث فى السيرة لأنها ليست ذات أثر فى حياة الرسول ، فقبيلة هوازن التى رضع فيها لم تؤمن به إلا بعد فتح مكة وبعد أن نشبت بين المسلمين وبين هوازن حرب يوم حنين كادت الدائرة فيها تدور على المسلمين لولا ثبات الرسول ﷺ ، فلو أن القبيلة كانت قد أسلمت بفضل بركته ﷺ أيام كان يسترضع فى بنى سعد لكان لمثل هذه الأحداث أثر بارز فى السيرة ، أما وأن الله تبارك وتعالى قد كتب على نبيه الكفاح والجهاد والصبر ليبلغ رسالات ربه ، وليمكن لدينه فى الأرض ، فلم يعد لتلك الروايات مكان فى سيرة رجل نشر دين الله بالعرق والجهد والعمل والقدوة الحسنة .

إن الله قادر على أن يحتفل بمولد رسوله الكريم ، وهو قادر على أن يغمر الأرض ببركته وأن يملأها خيرا ، ولكن الله أراد أن يضرب لرسوله ﷺ المثل للناس وأن يعلمهم أن الأهداف الكبيرة لا يمكن الوصول إليها بالخوارق والمعجزات بل بالعمل الجاد الذى يراد به وجه الله الكريم : « ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه ، إنما أنت منذر ولكل قوم هاد » .

وفى أثناء وجوده ﷺ فى منازل بنى سعد روى الرواة حديث شق

الصدر ، قالت حليمة : « فوالله إنه بعد مقدمنا به بأشهر مع أخيه فى بُهم لنا خلف بيوتنا ، إذ أتى أخوه يشتد فقال لى ولأبيه : ذاك أخى القرشى قد أخذه رجلان عليهما ثياب بيض فأضجعاه فشقا بطنه فهما يسوطانه (أى يدخلان يديهما فى بطنه) . فخرجت أنا وأبوه نحوه فوجدناه قائما منتقعا وجهه (لون النقع) ، فالتزمته والتزمه أبوك فقلنا : مالك يا بنى ؟ فقال ﷺ : جاءنى رجلان عليهما ثياب بيض ، فقال أحدهما لصاحبه : أهو هو . قال : نعم ، فأقبلا يبتدرانى فأخذانى فأضجعانى فشقا بطنى فالتمسا فيه شيئا فوجداه ، فأخذاه وطرحاه ولا أدرى ما هو .

هذه رواية ، وفى رواية أخرى أن ابن حليمة أتى يعدو فزعا وجبينه يرشح باكيا ينادى : يا أبت ويا أمه ، الحقا أخى محمدا فما تلحقانه إلا ميتا ، قلت : وما قضيته ؟ قال : بينا نحن قيام إذ أتاه رجل فاختطفه من وسطنا وعلا به ذروة الجبل ونحن ننظر إليه ، حتى شق صدره إلى عانته ، ولا أدرى ما فعل به . فانطلقت أنا وأبوه نسعى سعيا فإذا نحن به قاعدا على ذروة الجبل شاخصا ببصره إلى السماء يبتسم ويضحك ، فأقبلت عليه وقبلته بين عينيه وقلت له : فدتك نفسى ما الذى دهاك ؟ قال : خيرا يا أماه ، بينا أنا الساعة قائم إذ أتانى ثلاثة بيد أحدهم إبريق فضة وفى الآخر طست من زمردة خضراء ، فأخذونى وانطلقوا بى إلى ذروة الجبل فأضجعونى على الجبل إضجاعا لطيفا .. » .

وفى رواية ثالثة عنه ﷺ : « فبينما أنا مع أخ لى خلف بيوتنا نرعى بهما لنا ، أتانى رجلان عليهما ثياب بيض بيد أحدهما طست من ذهب مملوءة ثلجا ، فأخذانى فشقا بطنى ثم استخرجا قلبى فشقاه فاستخرجا منه علقة سوداء فطرحاها ، وقيل : هذا حظ الشيطان منك يا حبيب الله » .

وفى رواية رابعة عن رسول ﷺ ، « كنت مسترضعا فى بنى سعد ، فبينا

أنا ذات يوم منتبذا من أهلى فى بطن واد مع أتراب من الصبيان ، إذا أتى رهط من ثلاثة معهم طست من ذهب ملآن ثلجا ، فأخذونى من بين أصحابى فخرج أصحابى هربا حتى أتوا على شفير الوادى ، ثم أقبلوا على الرهط فقالوا : ما أربكم إلى هذا الغلام ؟ فإنه ليس منا ، هذا ابن سيد قريش ، وهو مرتضع فينا يتيم ليس له أب ، فما يرد عليكم أن يفيدكم قتله ، وماذا تصيبون من ذلك ؟ فإن كنتم لا بد قاتلوه فاختاروا منا من شئتم فليأتكم مكانه فاقتلوه ودعوا هذا الغلام فانه يتيم ، فلما رأى الصبيان أن القوم لا يجيبون جوابا انطلقوا هربا مسرعين إلى الحى يؤذنونهم ويستصرخونهم على القوم ، فعمد أحدهم إلى فأضجعنى على الأرض إضجاعا لطيفا ، ثم شق بطنى ما بين مفرق صدرى إلى منتهى عانتى وأنا أنظر إليه ، فلم أجد لذلك مسا ، واستخرج أحشاء بطنى ثم غسلها بذلك الثلج فأنعم غسلها ، ثم أعادها مكانها ، ثم قال الثانى منهم لصاحبه : تنح عنه فنحاه عنى ، ثم أدخل يده فى جوفى فأخرج قلبى وأنا أنظر إليه ، فصدعه ثم أخرج منه مضغة سوداء ثم رمى بها .. » .

وفى رواية عن الرسول ﷺ أنه عند ابتداء الوحى : « جاءنى جبريل وميكائيل فأخذنى جبريل وألقانى لحلاوة القفا ، ثم شق عن قلبى فاستخرجه ثم استخرج منه ما شاء الله أن يستخرج ، ثم غسله فى طست من ماء زمزم ، ثم أعاده إلى مكانه ثم لأمه ، ثم أكفانى كما يكفى الإناء ثم ختم فى ظهرى » .

ولم أشر فى السيرة إلى حادثة شق الصدر أو البطن . لا لاضطراب الروايات فحسب بل لأنى أعتقد أن الله ليس فى حاجة إلى إجراء عملية جراحية ليطهر نبيه وليملأه حكمة ، وأعتقد أن كل ما جاء عن شق الصدر قد وضع بعد صدر الإسلام ، عندما أراد الشراح شرح الآية الكريمة : « ألم نشرح لك صدرك » فقد بعد الشراح عن روح القرآن وروحانيته ولجئوا إلى الماديات

المحسوسة لتفسير معانى روحية سامية ، فابتدعوا روايات متنافرة لا يقبلها العقل ولا المنطق ولا الذوق السليم ، فمن ذا الذى يستطيع أن يصدق أن ملاكين قد هبطا ليطهرا قلب النبى ﷺ فلا يعرفانه ، فيقول أحدهما : أهو هو ؟ فيقول الآخر : نعم . وكيف يريد منا واضعو هذه الأحاديث أن نصدق أن الرسول ﷺ قال مرة : جاءنى رجلان ، وقال مرة أخرى : جاءنى نسران . وقال مرة ثالثة : جاءنى رجلان رهط من ثلاثة ؟ وكيف يريد واضعو هذه الأحاديث أن نصدق أن أطفالا صغارا يقولون للملائكة : ... فإن كنتم لا بد قاتلوه فاختاروا منا من شئتم فليأتكم مكانه فاقتلوه . يالله ! أهؤلاء صبية يلعبون أم أتباع محمد ﷺ بعد أن آمنوا به وصدقوه ؟!

ومتى وقعت حادثة شق البطن أو الصدر ؟ أوقعت فى أرض هوازن أم وقعت فى مكة قبل البعث ؟ وبماذا كان التطهير أبالثلج أم بماء زمزم ؟ إن هذه الحادثة لم تقع إلا فى مخيلة واضعى هذه الأحاديث .

قررت فى تذييلات الأجزاء السابقة أن آدم كان على علم وأن الأصل فى الدين عبادة الله وحده ، وأن الأساطير والشرك بالله وعبادة الشمس والقمر والأصنام والأوثان عرفتها البشرية لما طال على الناس الأمد وقست قلوبهم ، وأن الله سبحانه وتعالى أرسل الرسل للقضاء على تلك الأساطير وإعادة جوهر التوحيد . ولو تتبعنا أسماء العرب منذ إبراهيم الخليل عليه السلام إلى مبعث محمد ﷺ لوضحت لنا هذه الحقيقة ، فإله إبراهيم كان يعرف بالإيل وقد نسب إليه إسماعيل وإسرائيل . وكانت أسماء العرب الموحدين تنسب إليه وأشهر تلك الأسماء « إلشرح » وأصلها « إيل شرح » وإليفع « إيل يفع » وإلكرب « إيل كرب » وإلسمع « إيل سمع » ، فلما طال على الناس العهد

واتخذوا آلهة غير إله أبيهم إبراهيم سموا أبناءهم بأسماء تلك الآلهة : « تيم اللات » و « زيد اللات » و « امرؤ مناة » و « امرؤ القيس » و « زيد مناة » و « عبد عوف » و « عبد ود » وإن اتجاه هذه الأسماء ليؤكد الحقيقة التى سبق أن قررتها من أن الإنسان كان على علم وأنه كان يعرف الله وحده لا شريك له ، فلما طال على الناس الأمد قست قلوبهم وأشركوا بربهم ، وأن الإنسان لا يترقى فى الديانات كما يترقى فى العلوم ، كما قال كتاب من المسلمين تأثروا بآراء غربية وثنية .

والجاهليون [1] كانوا يعتقدون بوجود إله واحد أعلى ، خلق هذا الكون ، لذلك توجهوا إليه وأقسموا به . ونجد لهذا الرأى سندا فى القرآن الكريم ففيه أن قريشا كانت تعترف بأن الله هو رب السموات والأرض : « قل من رب السموات والأرض ؟ قل : الله ، قل : أفاتخذتم من دونه أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا . قل : هل يستوى الأعمى والبصير ؟ أم هل تستوى الظلمات والنور ؟ أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم : قل : الله خالق كل شيء وهو الواحد القهار » .

ونجد إقرار قريش بوجود إله واحد خالق السموات والأرض فى مواضع أخرى من القرآن الكريم . ففى سورة العنكبوت « ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله . فأنى يؤفكون » . وفى هذه السورة نفسها سؤال آخر موجه إلى المشركين « ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض من بعد موتها ؟ ليقولن : الله . قل : الحمد لله ، بل أكثرهم لا يعقلون » وفى سورة لقمان سؤال آخر موجه إلى

---

(١) تاريخ العرب قبل الإسلام . الجزء الخامس صفحة ٢٤١ وما بعدها .

أولئك المشركين وجواب صادر منهم هو هذا الجواب نفسه . إقرار بوجود خالق واحد خلق السماوات والأرض : « ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ؟ ليقولن الله ، قل : الحمد لله ، بل أكثرهم لا يعلمون » . وهناك آيات أخرى على هذا النحو فيها أسئلة موجهة إلى المشركين عن خالق السموات والأرض ، وأجوبة على ألسنتهم فيها اعتراف بأن خالقها وصانعها هو الله .

وفى القرآن الكريم أن قريشا كانت تعتقد أن الله هو الذى ينزل المطر ويحيى الأرض بعد موتها : « ولئن سألتهم من نزَّل من السماء ماء فأحيا به الأرض من بعد موتها ؟ ليقولن : الله . قل : الحمد لله ، بل أكثرهم لا يعقلون » . وفيه أنهم كانوا يقسمون به وأنهم كانوا قد جعلوا له نصيبا مما ذرأ من الحرث والأنعام ، وأنهم كانوا يقولون إن الله هو الذى شاء فجعلهم وآباءهم مشركين ، وأنه لو لم يشأ لما أشركوا بعبادته أحدا : « سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ، ولا حرَّمنا من شيء كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا . قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ؟ إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون » ، وأنهم كانوا يتضرعون إليه ويستغيثون به فى الكوارث والملمات ، وأنهم جعلوا له بناتا وبنين وشركاء للجن .

فلم يكن أهل مكة إذن كما يتبين القرآن الكريم قوما وثنيين على النحو المفهوم من الوثنية ، وجماعة جاهلية مشركة لا تفهم شيئا عن وجود خلق وخالق ، اعتقدت بآلهة عديدة ، وبأن الأصنام هى أرباب حقا تنفع وتضر . لا ، لم يكن الجاهليون على هذا النحو من الدين بل كانوا يعتقدون بوجود إله واحد خلق السموات والأرض ، فهم إذن فى عقيدتهم بالله موحدون . ولكن إذا كان أهل مكة على هذا النحو من العبادة فلم خاصموا الرسول وحاربوه ؟

و لم آذوه وتآمروا فيما بينهم على قتله وعبادتهم هى عبادته وتوحيدهم توحيد إسلامى أو توحيد قريب من التوحيد الإسلامى ؟

أما الجواب : لم تخاصم قريش الرسول لعقيدته فى الله . و لم يخاصمهم الرسول ويسفه أحلامهم لعقيدتهم تلك فى الله ، إنما سفه أحلامهم وخاصمهم لإضافتهم أمورا إلى هذا التوحيد أبعدته عن التوحيد الخالص ، بأن جعلته شركا أو نوعا من التوحيد المشرك ، فجعلوا مع الله شركاء وتقربوا إلى الأصنام وذبحوا لها الأوثان ، وجعلوا له بنين وبنات ، وآمنوا بالجن إيمانا عطل كل سلطان وأمر لله واعتقدوا بالقربات وبالشفاعات لتقربهم إليه زلفى . فعقيدتهم فى التوحيد نوع من عقائد النصرانية فى الملائكة والقديسين الشفعاء بين الله والناس . وهذا ما حاربه ورفعه الإسلام بأن اجتث الوساطة وجبَّها وجعل الدين خالصا لله وعبادة بينه وبين عبده ، وطهر التوحيد من زوائد الشرك وهدم ما لم يتفق مع هذا التوحيد ، ولهذا غضبت صناديد قريش وأظهروا للرسل ما أظهروه من كفر وعناد .

وقد كان أصعب شيء على صناديد مكة تغيير ما توارثوه عن آبائهم وأجدادهم من سنن وعادات ، فقد كان الخروج عليها عارا ومنقصة لا تليق بالشهم الكريم : « بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون » . ثم إنهم كانوا يتعيشون من هذه العنعنات ومن وصايتهم على الأصنام ومن سدانتهم ، وإسلامهم وإيمانهم برجل لم يرث مالا ولا يملك تجارة ولا عقارا جاء بدين لم يألفوه ، يساوى بين الغنى والفقير والأسود والأبيض ، شيء لا يتفق مع ما ورثه القوم من سنن وعوائد اجتماعية . ومن هنا كان الإسلام فى عرفهم هدما وتقويضا لعقيدة راسخة ونظام اجتماعى وسياسى يجب أن يدوم دوام السنين والأيام .

وقد أوردت فى هذا الجزء من السيرة الحوار الذى دار بين كسرى أنو شروان وبين حكماء العرب عن فضل العرب وشرفهم ، وعلى الرغم من وضوح الوضع والتأليف فقد أثبته لأبين أن العرب لم يكن لهم علم قبل الإسلام ، فقد اتسمت المحاورات بالسطحية وإيراد حكم استعارها كانت ذلك الحوار من حكم الأولين ، ولم يكن من أقوال الحكماء غير السجع والتكلف والفخر الرخيص .

إن القرآن الكريم الذى أنزل على محمدبن عبد الله يتيم قريش هو باعث العرب ، وسيظل المنهل الذى ينهل منه العرب كلما أرادوا الرفعة إلى يوم الدين .

القاهرة فى ٢٠ / ٦ / ١٩٦٧

المراجـــع

القرآن الكريم

تفصيل آيات القرآن الكريم — جول لابوم

السيرة النبوية — لابن هشام

السيرة الحلبية — لعلى بن برهان الدين الحلبى

تاريخ العرب قبل الإسلام — للدكتور جواد على

الأغانى — لأبى فرج الأصفهانى

بلوغ الأرب — للألوسى

نهاية الأرب — للنويرى

الحضارة البيزنطية — لستيفن رنسيمان ـــ ترجمة جاويد

Muslim Lnstitutions, By : M . G . Demombynes

Islam and Theory of Interest, By : Anwar Lkbal Kurashi.

فرويد — Three Contributions to the sexual Theory .

ميرزا على — Islam and Socialism.

أم النبى — للدكتورة بنت الشاطئ .

إيران فى عهد الساسانيين — لكريستينس ـــ ترجمة يحيى الخشاب .

شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام — لفاسى المكى الماكى

البداية والنهاية — لابن كثير

الشفا بتعريف حقوق المصطفى	القاضى عياض
الروض الآنف	للسهيلى
تاريخ ابن خلدون	
مروج الذهب	للمسعودى
العقد الفريد	لابن عبد ربه
عيون الأخبار	لابن قتيبة
مختصر دراسة للتاريخ	لأرنولد توينبى ـــ ترجمة شبل
وفاء الوفا بأخبار المصطفى	للسمهودى

محمد رسول الله ﷺ والذين معه

في عشرين جزءا

رقم الإيداع ٢١٨٠

الترقيم الدولى ٥ ـــ ١١٤ ـــ ٣١٦ ـــ ٩٧٧